

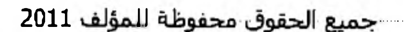
إضاءات حلبية

تاريخ ومعالم وتراث

المهندس عبد اللّه حجار
مستشار جمعية العاديات بحلب

إضاءات حلبية

تاريخ ومعالم وتراث




الناشر: شعاع للنشر والعلوم

حارة الرباط 2 - المنطقة 12 - حي السبيل 2

تلفاكس : 2643545 (21) 00963

هاتف : 2643546 (21) 00963

سورية ـ حلب

ص.ب 7875



لمزيد من المعلومات ولشراء كتب الدار مباشرة على الإنترنت

يرجى زيارة موقعنا http://www.raypub.com

البريد الإلكتروني للقراء: quality@raypub.com

info@raypub.com

البريد الإلكتروني للزبائن: sales@raypub.com

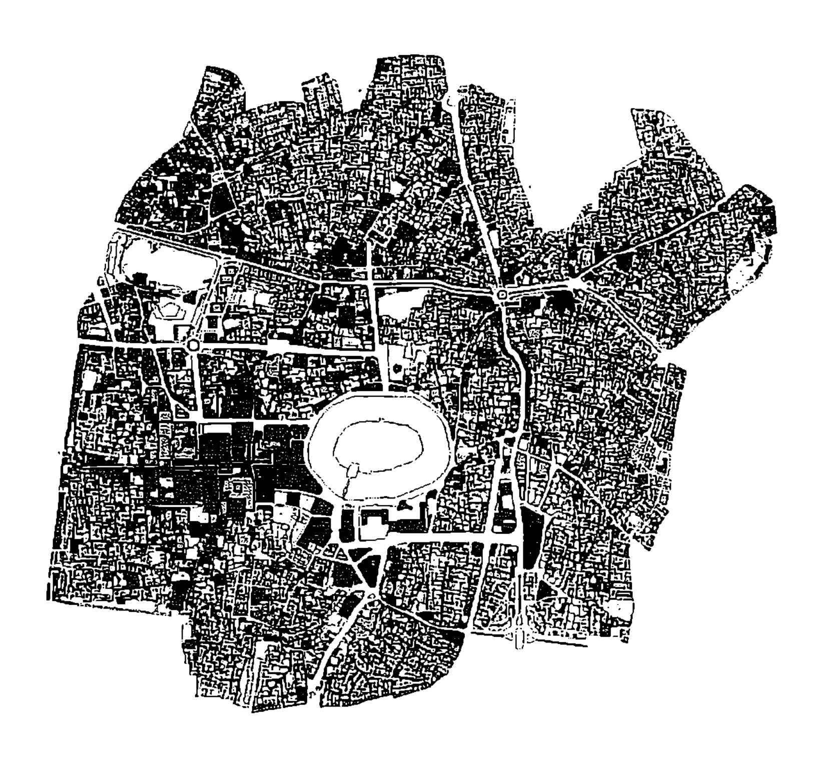
البريد الإلكتروني لدور النشر: orders@raypub.com

صور الغلاف: كاتدرائية اللاتين في العزيزية بنيت عام ١٩٣٧

ساعة باب الفرج بنيت عام ١٨٩٩

إضاءات حلبية

تاريخ ومعالم وتراث



المهندس عبد الله حجار

مستشار جمعية العاديات بحلب

الإهداء

إلى زوجتي منى وولدي الياس ....

رفيقي الدرب بمتاعبه وأفراحه

عبد الله

مقدمة الطبعة الثالثة

هذا الكتاب عبارة عن مواضيع لمقالات تتعلق بتاريخ ومعالم وتراث مادي ولا مادي لمدينة حلب القديمة ضمن الأسوار وفي ضواحيها. وقد أضيف في الطبعة الثالثة اضاءات حول أول مخطط تنظيمي للمدينة العام ١٨٩٩ ونشاطات ضمن فعاليات اختيار حلب عاصمة للثقافة الاسلامية العام ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦ م وكذلك وصف مباني الفترة العثمانية المتأخرة حول محيط قلعة حلب. وذكريات مع خير الدين الأسدي بمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاته.

إنه رديف لكتابي "معالم حلب الأثرية" ومكمّل لمعلوماته يبيّن بوضوح النشاطات والأعمال التي تعرضت لها حلب في الثلاثين سنة الأخيرة بغية حمايتها والنهوض بها وإحيائها، أرجو أن يرى القارئ العربي في مواضيعه المتعة والفائدة. جزيل الشكر للزميل المهندس هيثم قباني مدير دار شعاع للنشر على عنايته بإخراج الكتاب بحلته القشيبة، وعلى احتضانه نشر الكتب التراثية وتوزيعها على الجماهير العربية.

حلب ٣ /٤ /٢٠١١

المهندس عبد الله حجار

مقدمة الطبعة الثانية

نظراً لطباعة ٥٠٠ نسخة فقط من كتاب "إضاءات حلبية" في الطبعة الأولى التي صدرت بمناسبة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٧، لم يتمكن الكثيرون من المهتمين بتاريخ حلب من الحصول على نسخة منه.

وبمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبي لتأسيس جامعة حلب (١٩٥٨ - ٢٠٠٨) وبموافقة كريمة من السيد الدكتور رئيس الجامعة، فقد تمّ إصدار هذه الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة وقد أضيف إليها مقالة "**ذكريات جامعية**" التي رصدتُ فيها السنوات الأولى التي واكبتُ فيها بداية تأسيس الجامعة وكنتُ من أوائل الطّلاب المنتسبين إليها.

كلّ التحية للجامعة منارة حلب ممثلة برئيسها الدكتور محمد نزار عقيل والهيئة التدريسية والإدارية العاملة على تطوير فكر الإنسان وتقدّم وازدهار الوطن الحبيب.

حلب ٣٠ أيار ٢٠٠٨

عبد الله حجار

تقديم

ضمن نشاطات الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة العربية الإسلامية عام ٢٠٠٦ أقدم كتابي هذا "**إضاءات حلبية: تاريخ ومعالم وتراث**"، وهو مجموعة مقالات بعضها جديد ينشر لأول مرّة وبعضها سبق نشره في مجلات هندسية وأثرية وغيرها، مثل مجلة "المهندس العربي" و"الحوليات العربية السورية" و"اقتصاديات حلب"، لم تكن في متناول المواطن الحلبي العادي. وهي تشمل مواضيع من معالم حلب الهامة وتاريخها وتراثها مما فيه المتعة والفائدة.

لقد راعيت في هذه الأبحاث المنتخبة اختيار نماذج من معظم مناطق مدينة حلب القديمة ضمن وخارج الأسوار؛ فكان السور وباب أنطاكية وقلعة حلب ومعبد إله العاصفة (الطقس) فيها، والخانات ودار الدكتور بوخه ومعهد الأرض المقدسة في الشيباني من منطقة الأسواق والمدينة ضمن الأسوار. وكانت كنيسة السريان وبيت باسيل وحديقة المنشية من الضاحية الشمالية في حي الجديدة والعزيزية خارج السور، ودير مار ماروثا ذو البيعتين إلى الغرب من حلب ونهر قويق حيث يوجد اليوم مشهد الحسين. ومن أراد العودة إلى جميع الآثار بإيجاز عليه العودة إلى كتابي "معالم حلب الأثرية" الذي نفدت نسخ طبعته الثانية، وسوف تصدر الطبعة الثالثة قريباً بإذن الله، في حلّة قشيبة مع تفصيل أكبر في اللمحة التاريخية.

أما عن تاريخ حلب فقد توخّيت باللمحة التاريخية المسهبة نسبياً أن أسرد تاريخ حلب، وبعض شذرات عن الفترة الحثية في معبد إله العاصفة في قلعة حلب، وبعض لمحات من هنا وهناك عن تاريخ سكن زقاق الأربعين في حي الجديدة والعزيزية وسواهما مع التلميح إلى الفكر النهضوي لدى الشاعر جبرائيل دلال والأدب الشعبي الحلبي ممثلاً بيوميات المعلم نعوم بخاش.

وقد رأيت أن أسجّل ذكرياتي مع مسيرة حماية المدينة القديمة وتراثها المعماري الذي واكبته وعشتُه في السنوات الثلاثين الماضية (المشاركة في الندوة الدولية لحماية حلب القديمة عام ١٩٨٣ ورئاسة اللجنة الفنية المنبثقة عن لجنة حماية حلب القديمة وعضوية مجلس المدينة خلال دورتين (١٩٨٨-١٩٩٥) ومشاركتي في لجنة التراث في نقابة المهندسين وفي ورشات العمل البنّاءة في مشروع الارتقاء بمدينة حلب القديمة)، إلى أن وصلنا إلى المرحلة الصحّية الحالية المستقرّة نسبياً.

أشكر فرع نقابة المهندسين بحلب لاهتمامه المستمر بحماية ودعم مدينة حلب القديمة ومساهمته في طباعة هذا الكتاب، كما أشكر الصديق الفنان أندريه يعقوبيان على معظم الصور الجميلة التي زينت الكتاب، وأشكر الزميل العزيز توفيق سرابيان لجهده الكبير في توزيع المخططات والصور مع النص والإخراج.

وكل الشكر للجهود المضنية التي يبذلها رئيس جمعية العاديات ومدير الاحتفالية الأستاذ محمد قجة في عقد الندوات العلمية الهادفة وتحريض فعاليات المدينة والعالم العربي على المشاركة فيها.

راجياً أن يرى القارئ فيما كتبتُ ما يفيد، ويحرّض على حماية حلب من خلال التعمق في التعرّف عليها بشكلٍ أفضل، والله من وراء القصد.[١]

حلب ٢٣ /١ /٢٠٠٦

المهندس عبد الله حجار

---

[١] يُذكر مع كل مقالة سبق نشرها مكان النشر وتاريخه وأرقام الصفحات.

١) تاريخ حلب

حلب في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد:

كشفت التنقيبات الأثرية في مستوطنة الأنصاري قرب حي" الحمدانية" عن جدران أبنية وفخاريات تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وذكرت مدينة أرمان وأرمانوم، وربما تكون حلب، من قبل الملك سرغون الأكادي وحفيده نرام سن في القرنين الرابع والعشرين والثالث والعشرين ق.م كما ذكرت في محفوظات مملكة إبلا في العام ٢٢٥٠ ق.م تحت اسم "خلم"، وذكرت باسمها الحالي "حلب" عندما كانت عاصمة مملكة يمحاض في محفوظات مملكة ماري (تل الحريري قرب البوكمال) وفي ألالاخ (تل العطشانة قرب أنطاكية) وفي حتوشا (العاصمة الحثية قرب أنقرة). ولم تتكلم حلب بعد عن نفسها بوثائقها الكتابية المنبثقة من تربتها بالذات، ولعلّ الصدفة تسمح يوماً بكشف محفوظات مملكة يمحاض في القلعة أو في تل العقبة أو في التلّة السوداء أو في الأنصاري أو في سواها، فنحصل بذلك على مزيد من الوثائق المادية التي تبين حضارة مدينتنا في تلك الفترة الموغلة في القدم.

أمّا عن الوثائق المادية المتوفّرة حالياً والتي تبين قدم المدينة فنجد الكتابة الهيروغليفية- الحثية على حجر بازلتي أعيد استعماله في جدار جامع القيقان في حي العقبة (وتذكر الكتابة اسم الإلهة هبة شاروما والملك تلمي شاروما ابن تلبينو الكاهن الأكبر ملك حلب) وتعود إلى القرن الرابع عشر ق.م، كما هناك الحجر البازلتي الضخم الذي وجد عام ١٩٢٩ في قلعة حلب ونقل إلى حديقة المتحف الوطني وفيه صورة رجلين مجنّحين في حالة حركة أمام قرصين يمثلان الشمس والقمر، ويعود هذا النقش البارز إلى القرن العاشر ق.م، وقد كُشف في التنقيبات الأثرية التي تجري منذ سنوات في القلعة من قبل بعثة ألمانية - سورية مشتركة عن ٣٤ لوحاً بارزاً مماثلاً في معبد حثي من الفترة نفسها، كما كُشف عن أحجار تأسيس ضخمة لمعبد آخر من الألف الثاني ق.م، وأملنا كبير في أن تُظهر أعمال التنقيب المستمرّة كل عام رقماً فخارية كتابية تتحدّث عن تأريخ حلب في تلك الفترة.

مملكة يمحاض:

يمحاض هي مملكة عمورية كانت عاصمتها حلب وكانت على علاقات وثيقة مع جاراتها، تصدّر وتستورد البضائع التجارية مع جنوب بلاد الرافدين ومع الشمال حيث كركميش(شمال جرابلس) وسواها عن طريق مرفئها إيمار(مسكنة) على الفرات، وقد ازدهرت طيلة القرنين الثامن عشر والسادس عشر ق.م أيام ملوكها العظام أمثال يريم ليم (١٧٨١-١٧٦٥ ق.م) وسواه. وتعلمنا وثائق مدينة ماري أن الحرب التي كانت بين أكبر حاكمين شمال بلاد الرافدين وهما يريم ليم وشمشي أدد الآشوري أصابت ممالك أخرى، فكانت إشوانا (وملكها إيبال بيئيل الثاني) وبابل(ملكها حمورابي المشرّع الشهير) تدعمان مملكة يمحاض، بينما كانت مملكة قطنا (المشرفة شرقي حمص) تدعم شمشي أدد ويسمح أدّو. إثر موت شمشي أدد اعتلى زمريليم عرش مملكة ماري حوالي ١٧٧٦ ق.م، وقام يريم ليم بالتحالف معه وزوّجه ابنته شبتو التي لعبت دوراً هاماً في ماري. وكانت زوجة يريم ليم غاشيرا وولي عهده حمورابي، ويذكر نص زيارة زمريليم مع أعضاء من بلاطه مدينة أوغاريت وكان يصحبه حموه يريم ليم، كما تذكر رسالة من حمورابي ملك يمحاض إلى زمريليم رغبة ملك أوغاريت بزيارة قصر ماري الشهير. وتخبرنا الوثائق أن عشرين حاكم مدينة كانوا يتبعون يريم ليم ملك يمحاض وهم أكثر ممن كان يتبع ملوك بابل ولارسا وإشنونا وقطنا مجتمعين. وكان يريم ليم على علاقة جيّدة مع ملوك شمال سوريا مثل أبلاخندا ملك كركميش وشنام ملك أورشوم وكذلك مع إبني أدد ملك حازور في شمال فلسطين، وقد أرسل جيوشاً إلى حمورابي ملك بابل لمساعدته. مات يريم ليم في السنة التاسعة لحكم زمريليم وخلفه ابنه حمورابي الأول ويبدو أنه أثناء حكمه دمّر البابليون ماري عام ١٧٦١ ق.م

ويخلف أباإيل والده حمورابي الأول على عرش حلب ويضع أخاه يريم ليم حاكماً لمدينة ألالاخ (تل العطشانة) ثم يتتالى على حكم حلب يريم ليم الثاني ثم " نقمبيا" ثم "أركب توم" ثمّ يريم ليم الثالث وأخيراً حمورابي الثاني الذي هاجم الحثيون في أيامه سورية بقيادة مورسيل الأول حوالي العام ١٥٩٥ ق.م، وقضوا على مملكة يمحاض التي استمرّت قرنين من الزمن، وكانت أقوى مملكة في سورية آنذاك، كما قضوا على بابل وإبلا في الوقت نفسه. وخلال الاحتلال الحثّي لحلب تنشط في الشمال الشرقي مملكة الحوريين والميتانيين وفي الغرب

مملكة أوغاريت وفي الشمال مملكة الحثيين ومن بين ملوكها موَتلّي وتلبينو وإبنه تلميشاروما وشوبليوليوما، ومنهم من ذُكر في حلب وفي معركة قادش (تل النبي مندو ٣٥ كم جنوب غربي حمص) حيث كانت الحدود بين أراضي المملكة الحثية في الشمال والأراضي التي احتلتها مصر في الجنوب. ويقضي هجوم شعوب البحر على الحثيين مما يشجّع الآشوريين في شمال العراق على مدّ نفوذهم إلى سورية للسيطرة على طرق التجارة بين الفرات والبحر المتوسط، حيث انتشرت الممالك الآرامية اعتباراً من القرن الثاني عشر ق.م، وقد عمّ استعمال الحديد في أدوات الزراعة وحفر الآبار ووسّع استعمال الجمل في نقل البضائع آفاق التجارة، مما ساعد في ازدهار مراكز عمرانية في البلاد.

حلب وسورية في الألف الأول قبل الميلاد:

كان للآراميين الذين ظهروا على مسرح الشرق الأدنى حوالي العام ١٢٠٠ ق.م وفرضوا سيطرتهم على مناطق الفرات وحتى الجبال الساحلية دور سياسي كممالك - مدن صغيرة سيطرت مدة أربعة أو خمسة قرون. ويذكر الملك الآشوري تغلات فلاصر الأول (١١١٤-١٠٧٦ ق.م)، وهو أوّل من وصل البحر المتوسط من الآشوريين وذلك لجلب خشب الأرز، إنه طارد فلول الآراميين عام ١٠٩٠ ق.م ثماني وعشرين مرة اجتاز فيها نهر الفرات بمعدّل مرّتين في العام، وتمّت ملاحقتهم حتى تدمر.

إنّ أهمّ الممالك الآرامية مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر) وبيت عاجوزي (تل رفعت) وجوزانا (تل حلف) ومملكة سمأل، وهناك أرام صوبا وآرام بيت ريحوب وآرام ماكاح وجيشور وإمارة دمشق وحزرك (ربما في آفس شمال سراقب).. ويتقهقر نفوذ الآراميين بازدياد قوّة الآشوريين في الشمال الشرقي من البلاد، ويجتاز الملك الآشوري شلمناصر الثالث في العام ٨٥٣ ق.م نهر الفرات ويحتل حلب ويقدّم قرباناً للإله حدد فيها ويتابع إلى حماة، ثمّ ينتصر على جميع أعدائه في معركة قرقر على العاصي في الغاب جنوب جسر الشغور، ومن بينهم جندب العربي، وكانت تلك أول مرّة يكتب فيها اسم العرب في التاريخ. وتصبح سورية بما فيها مملكة أرباد الآرامية ولاية آشورية في العام ٧٤٠ ق.م، وينتصر سرجون الثاني الآشوري ثانية في العام ٧١٧ ق.م في قرقر ورفح وتسقط كركميش مثل حماة

وأرباد ودمشق. ويذكر الملك الآشوري: " لم يعد أمامي وجود لأي ملك معارض بعد الآن. وكما يؤخذ البيض من الأعشاش المهجورة فإني وضعت يدي على هذه الأملاك دون منازع.. ويستحيل على أيّ كان أن ينبس ببنت شفة بعد الآن". وهكذا انتهى دور الممالك الآرامية السياسي. وبالرغم من أن دور الآراميين في حلب لم يتّضح حتى الآن إلاّ أنّ النصب والمسلات والتماثيل الآرامية التي وجدت قريباً من حلب في السفيرة والنيرب وعين التلّ وتل رفعت وآفس وسواها، بالإضافة إلى عبادة الإله حدد الحلبي الآرامي، تؤكّد بشكل غير مباشر أهمّية حلب في الفترة الآرامية.

وتُذكر سورية أيام حكم الملك آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) الذي يرحّل قسماً من سكان سورية وآلهتهم إلى بلاد آشور. ويؤسس نبوبولاصر (٦٢٥-٦٠٥ ق.م) الدولة البابلية الحديثة، ويدخل سورية في السنة الثالثة من حكمه. ويخلفه إبنه البكر نبوخذنصر (٦٠٤-٥٦٢ ق.م) الذي يهاجم سورية مرات عديدة خلال حكمه، ويأخذ اليهود أسرى إلى بابل في حملته عام ٥٨٦ ق.م ويغزو الملك قورش الفارسي (٥٥٩ - ٥٣٠ ق.م) الدولة البابلية الحديثة ويؤسّس الدولة الأخمينية. وتخضع جميع المدن السورية لقمبيز الثاني (٥٢٩-٥٢٢ ق.م) خلال حملته ضد مصر عام ٥٢٦ ق.م، وتصبح سورية جزءاً من المقاطعة (ساترابي) الخامسة عندما يقسّم داريوس الأول (٥٢١-٤٨٦ ق.م) الإمبراطورية إلى عشرين مقاطعة. وكان حاكم المقاطعة الخامسة يقيم في القرن الرابع ق.م في طرابلس وأحياناً في صيدا. وقد حاولت بعض المدن السورية الثورة ضد الفرس خلال حملتها الفاشلة ضد مصر عام ٣٥١ ق.م، إلاّ أن الملك الفارسي ارتحشرشا دحر الثوار وظلّت سورية تحت الحكم الفارسي حتى مجيء الإسكندر المقدوني واحتلاله صور وغزّة ثم مصر. وغادر الإسكندر سورية بعد أن ترك فيها حاكماً مكدونياً، وسار لينتصر على داريوس الثالث في موقعة غوغاميلا عام ٣٣١ ق.م.

ومما يجدر ذكره أن اللغة الآرامية ظلّت في سورية وجزء من العراق فترة طويلة إثر اندثار الممالك الآرامية وحتى بداية فترة الميلاد، ولا زال هناك حتى اليوم ثلاث قرى في جبال القلمون هي معلولا وبخعة وجبعدين يتكلم أهلها اللغة الآرامية التي تكلّمها السيد المسيح قبل عشرين قرناً من الآن. كما تعتبر اللغة التدمرية التي تكلمتها الملكة زنوبيا إحدى لهجات اللغة الآرامية.

حلب والفترات الكلاسيكية[1]

غزا الإسكندر المكدوني الشرق وقد أراد، وهو تلميذ أرسطو، أن يخلق نوعاً من التمازج الحضاري بين الشرق والغرب، لذلك كان وراء إتمام أكبر زواج في التاريخ، عندما قام عدد كبير من قواد وجنود الجيش المكدوني بالزواج من نساء فارسيات في العام ٣٢٤ ق.م أي قبل عام واحد من وفاة الإسكندر. وقد بنى سلوقس نيكاتور مدينة أفاميا على اسم زوجته الفارسية في القرن الثالث ق.م، وهي مدينة عظيمة بشارع رئيس طوله ١٨٠٠ م تبعد حوالي ٥٤ كم إلى الشمال الغربي من حماة قرب نهر العاصي في سهل الغاب.

بعد وفاة الإسكندر اقتسم قواده العظام أجزاء إمبراطوريته فيما بينهم، وكانت العراق وسورية بعد حروب ومعارك من حصة القائد سلوقس نيكاتور الذي أسس الدولة السلوقية التي دامت من (٣٠١- ٦٤ ق.م) وكانت عاصمة سورية أنطاكية وقد بناها سلوقس على اسم والده أنطيوخس، كما بنى اللاذقية على اسم والدته لاوديسا وسلوقية او السويدية على اسمه الشخصي.

أما حلب فقد سميت " بيرويه " في الفترة المكدونية أيام الدولة السلوقية ثم الرومانية فالبيزنطية، وقد تم بناؤها على الشكل الشطرنجي حيث ينتشر السكن حول شارع مستقيم يمتد من الغرب إلى الشرق بين باب أنطاكية والقلعة وتتوازى الشوارع العديدة وتتعامد فيما بينها، وكان الاستيطان في تل العقبة والجلوم، الأقرب إلى نهر قويق وباب أنطاكية، قد سبق السكن في المناطق الأخرى.

وكانت الآغورا (السوق العامة) قريبة من الشارع المستقيم وربما في موقع المدرسة الحلوية حيث كانت الكاتدرائية العظمى. أما في الشارع المستقيم نفسه، وكان بطول ٧٥٠ م بين باب أنطاكية والقلعة وبعرض ١٠ م بين الأعمدة المحيطة به من الجانبين، فقد قامت الحوانيت، كما يذكر الباحث سوفاجيه، داخل الأعمدة إلى كل من جانبيه بعرض ٣ م لكل منها وسقف الفراغ بين الحانوتين المتقابلين، وهكذا بقيت لنا إلى اليوم الأسواق الضيقة بعرض

---

[1] الفترات الكلاسيكية هي الهلنستية والرومانية والبيزنطية من ٣٠١ ق.م - ٦٣٦ م.

٤ م والمسقوفة على وضعها الحالي منذ الفترات العربية الإسلامية. وقد تركزت فتحات النوافذ في الأعلى للإنارة والتهوية، وكانت الكلاب المتوحشة حتى وقت قريب تُطلق ليلاً حرة على الأسطح لمنع سرقة الأسواق عن طريق الدخول اليها من الأسطح والنوافذ العلوية.

ويحتل ديكران ملك أرمينيا قسماً كبيراً من سورية بما فيها حلب عام ٨١ ق.م أيام الدولة السلوقية، ويبقى فيها إلى أن يطارده القائد الروماني بومباي في العام ٦٤ ق.م فيعود أدراجه إلى أرمينيا وتصبح سورية منذئذ ولاية رومانية وتبقى عاصمتها أنطاكية.

وتترى الأحداث ويعفى الإمبراطور تراجان خلال وجوده في أنطاكية في العام ١١٥م أهلها من دفع الضرائب إثر زلزال ذلك العام ليتفرغوا لترميم الدور والمباني المتهدمة. ويقوم الإمبراطور جوليان وهو في طريقه لحرب الفرس عام ٣٦٣ م بتقديم البقرة البيضاء كأضحية على هيكل الإله حدد في قلعة حلب، ويجتاز الفرات ليُقتل في بلاد فارس. وتخضع حلب وسورية للدولة البيزنطية اعتباراً من ٣٩٥ م ويقوم الإمبراطور جوستنيان وزوجته المنبجية تيودورا بترميم أسوار حلب إثر تدميرها من قبل الفرس وملكهم كسرى أنوشروان في العام ٥٤٠م، كما يقوم بترميم الكاتدرائية العظمى التي تشبه تيجان أعمدتها الكورنثية مثيلاتها في كنيسة القديس سمعان العمودي، مما يدل على أنها تعود إلى الفترة نفسها. وتزدهر سورية بما فيها حلب في الفترة البيزنطية. ويعلمنا الباحث لامنس أن عدد سكان سورية في القرن السابع بلغ ٧ ملايين نسمة أقام مليون منهم في المدن الكبرى أنطاكية وحلب وحمص وحماة ودمشق يعتمدون على صناعة المنسوجات والتجارة بينما أقام الباقون في الأرياف القريبة من المدن وفي الجبال يعتمدون على زراعة وصناعة الزيتون والكرمة ورعاية المواشي. وينتهي دور الدولة البيزنطية مع الفتح العربي الإسلامي في العام ١٧هـ/٦٣٦ م حيث تدخل الجيوش العربية حلب سلماً من باب أنطاكية مع القائد عياض بن غنم، ويُبنى أول جامع فيها قرب باب أنطاكية ويسمى جامع الأتراس أو جامع التوتة أو جامع الغضائري أو جامع الشعيبية أو جامع باب أنطاكية حسب المراحل التاريخية العربية الإسلامية المتلاحقة، ويعلمنا ابن شداد أنه كان في حلب نيف وسبعون بيعة (أي كنيسة) في عهده.

حلب والفترات العربية الاسلامية

عرفت حلب مع الفتح العربي والمراحل التالية ازدهاراً كبيراً وخاصة في مجال العمران والتجارة والصناعة، ولا زالت مظاهره تتجلى حتى الآن في الأبنية التاريخية التي خلفتها كل فترة من الفترات العربية الإسلامية سواءً في التاريخ المكتوب أم في طراز الصرح المحفوظ، مما يدل على إبداع الأنامل التي صنعته من تلك المقالع ذات الأحجار البيض الناصعة التي عُرفت بها حلب الشهباء عبر التاريخ.

وكانت حلب منذ الفتح العربي وحتى التاريخ الحديث بوابة الشمال المدافعة عن أرض الوطن تذود عن حدوده ضد كل دخيل ومعتدٍ من أمثال البيزنطيين والفرنجة والمغول والتتر حتى فترات الاحتلال العثماني والانتداب الفرنسي، وجاهدة في كل مرة في تنشيط التجارة العالمية التي وفرها لها موقعها المتميز بين القارات.

وسنحاول أن نرصد الناحية التاريخية والإنجاز الحضاري الذي تم في حلب في كل من الفترات العربية الإسلامية المتلاحقة ثم في فترة الانتداب (١٩٢٠- ١٩٤٦) وعهد الاستقلال وحتى الآن.

حلب والفتح العربي الإسلامي والفترة الاموية:

دخل عياض بن غنم تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح أيام الخليفة عمر بن الخطاب في العام ١٧ هـ /٦٣٦ م مدينة حلب سلماً من باب أنطاكية، وتم إنشاء جامع الأتراس (ويسمى كذلك التوتة - الغضائري- الشعيبية- مسجد باب أنطاكية) حيث جمع المسلمون أسلحتهم وشكروا الله لأن المدينة فتحت سلماً. أما قلعة حلب فقد استعصت على المسلمين، ويخبرنا الواقدي كيف أخذ دامس بن الهول قلعة حلب بالحيلة من جهة البرج الكبير المطل شمالاً على باب الأربعين. وكان أول من سكن القلعة من الأمراء سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني ومن بعده بنو مرداس، إذ كان معظم الحكام الذين سبقوا يفضلون السكن في قصورهم خارج القلعة.

لم يبق في حلب أي اثر من فترة الأمويين سوى الجامع الأموي الكبير أو جامع زكريا. وكان هناك الحاضر السليماني نسبة إلى سليمان بن عبد الملك خارج الزاوية الجنوبية الغربية للأسوار (حي الكلاسة حالياً) وكان له فيه قصر هام.

حلب في الفترة العباسية وأيام ضعفها:

أيام العباسيين عُهد إلى صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بولاية حلب وقنسرين وحمص من سنة ١٣٧ إلى ١٥٢ هـ/ ٧٥٥-٧٦٩ م فبنى لنفسه قصراً خارج المدينة قرب النيرب وبعده تولى ولده الفضل بن صال وأقام بالعقبة من ١٥٢- ١٥٤ هـ /٧٦٩- ٧٧١م كما وُلي سيما الطويل وهو أحد قواد بني العباس حلب والعواصم سنة ٢٥٨ هـ/٨٧٢ م وابتنى داراً حسنة مع بستان بظاهر باب أنطاكية وجدد الجسر على نهر قويق قرب داره. وخلال ضعف الخلافة العباسية مع بداية القرن التاسع وما تلاه سيطر في البدء أحمد بن طولون على حلب سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨ م وولى عنه غلامه لؤلؤ وذهب إلى مصر. ثم سيطر أمراء بني حمدان على شمال سورية والموصل ومنهم علي بن عبد الله بن حمدان الملقب بسيف الدولة سنة ٣٢٩هـ / ٩٤١م بينما كان الإخشيديون في مصر ، واستولى سيف الدولة على حلب سنة ٣٣٣ هـ /٩٤٤م ودافع الحمدانيون عن شمال سورية ضد البيزنطيين حتى العام ٣٩٤ هـ/١٠٠٤م. وكان لسيف الدولة في قصره قرب موقع " الفيض" حالياً بلاط كبير حوى كبار الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء من أمثال أبي الطيب المتنبي والفارابي وأبي فراس والصنوبري.. وربما لم يسكن أمراء حلب القلعة إلا أيام سعد الدولة الحمداني. وقد استولى الروم بقيادة نقفور فوقاس على حلب في العام ٣٥١ هـ/٩٦٢ م لكنهم لم يتمكنوا من فتح القلعة. ويؤخذ أبو فراس الحمداني أسيراً لدى الروم سنة ٣٥١ هـ ويفتدى سنة ٣٥٥ هـ. ويموت سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧م ليدفن حسب وصيته في مسقط رأسه ميافارقين قرب ديار بكر.

عاش في شمال سورية منذ القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) خليط من السكان أغلبهم من العرب المتحدرين من قبيلة كلاب وبعض القبائل الأخرى ، وإلى جانبهم عناصر أخرى كالأكراد والأرمن ومن ثم التركمان الذين توافدوا على المنطقة منذ العام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م وبلغ أوج تدفقهم مع حملتي ألب أرسلان وملكشاه. وعلى الرغم من ذلك

ظل العنصر الأقوى المسيطر هو العرب من الناحية الاقتصادية دون أمور الحكم والسياسة. وشكل "الأحداث[1]" تنظيماً شبه عسكري ورفضوا كل أجنبي طامع ببلدهم.

وخضع أهالي حلب للنفوذ الفاطمي الموجّه من مصر مباشرةً حوالي ٨ سنوات (٤٠٦- ٤١٥ هـ/ ١٠١٧- ١٠٢٥م) هي مرحلة الانتقال بين حكم الحمدانيين وبني مرداس الذين كانوا يعلنون الولاء للفاطميين أحياناً ويحتفظون بشخصيتهم المستقلة أحياناً أخرى.

وحكمت حلب أسرة بني مرداس (٤١٤- ٤٧٢ هـ/ ١٠٢٣-١٠٧٩م) ومؤسسها صالح بن مرداس الملقب بأسد الدولة، وهو من قبيلة كلاب الشهيرة التي سكنت ضواحي حلب وساعدت الحمدانيين على دخولها، وقد سكنوا بدورهم القلعة، ومن بين دورهم فيها "دار الذهب" التي رُصفت أرضها بالمرمر وطليت جدرانها بماء الذهب، وهناك كتابة تُعتبر أقدم الكتابات العربية في قلعة حلب تعود إلى العام ٤٦٥هـ /١٠٧٢م وتذكر محمود بن نصر بن صالح بن مرداس. ومن أهم شعراء بني مرداس ابن سنان الخفاجي وابن حيوس وابن أبي حصينة. وقد عانت إمارة حلب من تذبذب الولاء بين العباسيين والفاطميين، وكانت نهاية بني مرداس على يد العقيليين (٣٨٦- ٤٨٩ هـ/٩٩٦- ١٠٩٦م)، وهم بطن من كلاب من قبائل مضر العربية، وكانوا من أتباع وأعوان بني حمدان في العراق والشام، وعمّت سيطرتهم من بغداد إلى حلب أيام أميرها مسلم بن قريش (٤٥٣ هـ/ ١٠٦١م). ومما يجدر ذكره أن قلعة الشريف، وهي الكتلة الملاصقة للمدينة في طرفها الجنوبي قرب باب قنسرين، تُنسب إلى الشريف أبي علي الحسن هبة الله الحتيتي مقدم الأحداث بحلب الذي سلّم حلب إلى مسلم بن قريش العقيلي سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م. وقد قام الشريف عند موت مسلم في العام ٤٧٨هـ /١٠٨٥ م ببناء تلك القلعة والإقامة فيها.

---

[1] الأحداث او الحرفيون الشباب كانوا نوعاً من الميليشيات البلدية وكانوا مسؤولين عن النظام العام وإطفاء الحرائق ويمارسون دور المعارضة الشعبية الموجهة ضد السلطة الرسمية وضد الغزوات الخارجية وقد لعبوا دوراً هاماً في حلب في القرن الحادي عشر وكان هناك منصب مقدم الأحداث.

حلب والفترة السلجوقية:

ويبدأ تأثير الفترة السلجوقية في إمارة حلب بانتصار التركمان على العرب اعتباراً من العام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بعد أن استعان بهم بعض بني مرداس على بعضهم الآخر في العام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م واقطعهم بعضهم بلدة معرة النعمان. وقد رسم سلطان السلاجقة طغرلبك أهدافه الاستراتيجية؛ **وهي القضاء على الخلافة الفاطمية وتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادته بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر والتوسع على حساب البيزنطيين في أرمينيا وآسيا الصغرى.** وقد مضى التركمان يحاربون البيزنطيين ويكبدونهم الخسائر. كما وقف ابن خان التركماني محمود المرادي في وجه الفاطميين، وكان هناك قائد آخر سلجوقي هو الافشين قتل قائده كمشتكين حاجب السلطان ألب أرسلان، وكان له دور كبير في بلاد الشام انتهى بقدوم السلطان ألب أرسلان إلى حلب. كما كان هناك "صندق" التركي الذي دخل حلب في العام ٤٦٢هـ/١٠٧٠ م ونهب وسلب في بلاد الشام. وأهم وأخطر الجماعات التركمانية هي التي وصلت مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان ومن بعده مع ابنه ملكشاه. وكان هناك الناوكية وهم التركمان الذين تدفقوا إلى الأراضي البيزنطية وأراضي الجزيرة دون علم السلطان أو رضاه (وتعنى الناوكية الخارجين عن السلطة والقانون). ووصل السلطان ملكشاه بعد قواته حلب وتسلمها دون قتال في الثالث من كانون الأول ١٠٨٦ م وتابع السير حتى أنطاكية وعيَّن عليها ياغي سيان حاكماً، بينما كان تتش أخو السلطان ملكشاه حاكم دمشق. وقد عين ملكشاه صديقه آقسنقر الممنوح لقب قسيم الدولة حاكماً على حلب وغيرها من بلاد الشام في أواخر عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦-١٠٨٧ م وبذلك انتهى حكم القبائل العربية لحلب وأزال حالة الفوضى وأحس الناس بالأمن، وقد اعتمد على جيش نظامي مدرب. وبعد موت السلطان ملكشاه قام أخوه تاج الدولة تتش حاكم دمشق بالتوسع ومحاولة أن يخلف أخاه في السلطة. ولما استقر الرأي أن يصبح بركياروق بن ملكشاه سلطاناً أيّد آقسنقر ذلك وعاد تتش خائباً إلى دمشق. ثم التقى جيشا آقسنقر وتتش في ٤٨٧هـ /٢٨ أيار ١٠٩٤م ولعبت الخيانة دورها وانتصر تتش وعساكره وقتل بيديه عدوه آقسنقر في أيار ١٠٩٤م.

ودفن آقسنقر بمشهد قرنبيا شرقي حلب إلى أن نقله فيما بعد ابنه الأتابك عماد الدين زنكي إلى المدرسة الزجاجية بحلب. ودخل تتش حلب في ٣٠ ايار ١٠٩٤ م وتسلم قلعة

الشريف، وسلمه نوح والي القلعة قلعة حلب. وعين تتش أبا القاسم الحسن الخوارزمي وزيراً بحلب ونائباً عنه فيها وتوجه للحصول على السلطنة إلى خراسان وبغداد. والتقى تتش بجيش ابن أخيه بركياروق في ٢٧ شباط ١٠٩٥م قرب مدينة الري حيث انهزم عسكر تتش وقُتل تتش على يد أحد أصحاب آقسنقر، وخلفه بحلب ابنه رضوان وبدمشق ابنه دقاق. وكان القتال مستمراً بين الأخوين حيث كان رضوان يرغب بضم دمشق إلى أملاكه، وكان يعتمد على رجل قوي هو سكمان بن ارتق وقد أقطعه معرة النعمان وسواها، بينما اعتمد أخوه دقاق على ياغي سيان حاكم أنطاكية. واعتمد رضوان على رئيس أحداث حلب بركات بن فارس الفوعي الملقب بالمجنّ في قتل يوسف بن آبق، ثم قتل المجن بدوره كما سبق أن قتل أخويه أبي طالب وبهرام (أخوي رضوان). وقد حاول رضوان الاستقلال عن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية التي تسلمها بركياروق سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، واقتصرت العلاقات بينهما على تبادل الوفود، ومن بينها قدوم وفد شامي إلى بغداد بصحبة القاضي أبي الهروي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨- ١٠٩٩ م للاستنجاد بالخليفة والسلطان ضد الفرنجة.

حكم رضوان حلب من (٤٨٨- ٥٠٧ هـ /١٠٩٥- ١١١٣ م) حيث استقل فيها عن السلطنة السلجوقية وتقرب من الخليفة الفاطمي، ثم عدل عن ذلك وتقرب من أتباع النزارية (الإسماعيلية) واعتمد عليهم في تنفيذ سياسته، وكان متذبذباً مع الصليبيين، تارة يقاتلهم وتارة يدفع لهم الأتاوات. وخلفه في حكم حلب ابنه ألب أرسلان وعمره ١٦ سنة، وعُرف بالأخرس (ألثغ) إذ قتل أخويه ملكشاه ومبارك وتولى تدبير أموره خادم أبيه واسمه لؤلؤ اليايا، وبسبب ضعفه اتصل بطغتكين أتابك دمشق عام ١١١٤ م فجاء حلب وعاد إلى دمشق ومعه والدة رضوان بعد أن أجبره تصرف ألب أرسلان على ذلك بتحريض لؤلؤ اليايا الذي سعى لقتل ألب أرسلان وتنصيب أخيه سلطانشاه على حلب في آب ١١١٤ وعمره ٦ سنوات، وبسبب تهديد الصليبيين راسل طغتكين والسلطان محمد طالباً إرسال العساكر إليه في العام ١١١٥- ١١١٦م وكان يهمه نفسه، وقد قُتل لؤلؤ في طريقه إلى بالس للصيد من قبل جنده في السنة ٥١٠ هـ /١١١٦- ١١١٧ م.

عندما خرج لؤلؤ من حلب بقيت القلعة تحت امرة آمنة خاتون ابنة رضوان، فأسرع أحد قواد رضوان واسمه ياروقتاش فدخل حلب وألقى القبض على قتلة لؤلؤ وقد عاد

بعضهم إلى حلب بينما ذهب بعضهم الآخر إلى الرحبة ليعلموا آقسنقر البرسقي بمقتل لؤلؤ ليأتي للاستيلاء على حلب. اتصل ياروقتاش بنجم الدين إيلغازي بن ارتق أمير ماردين ليقف في وجه البرسقي وكاتب روجيه الصليبي، عندها عاد البرسقي إلى الموصل. وتخلص سكان حلب بأمر من بنات رضوان من ياروقتاش بعد شهر من تسلمه السلطة وأخرجوه من حلب وسلموا القلعة لأحد خدم رضوان. وعين الملك سلطانشاه أبا المعالي المحسن بن الملحي مقدماً لعسكر حلب ومدبراً لأمورها، وجاء إيلغازي في أيار ٥٦١١ هـ/ ١١١٧ م من ماردين وتسلم حلب وعاد إلى الموصل بعد أن ترك فيها ابنه حسام الدين تمرتاش نائباً عنه ليعود إليها مع الجيوش الكافية لإيقاف الصليبيين.

الأراتقة في حلب (٥١١-٥٢٢هـ /١١١٧- ١١٢٨م)

استلم نجم الدين إيلغازي بن أرتق القادم من ماردين حلب في أيار ١١١٧م وترك فيها ابنه حسام الدين تمرتاش وذهب ليحضر الإمدادات لمحاربة الفرنجة (الصليبيين). ويعود ايلغازي إلى حلب وينتصر على الفرنجة في معركة السهل الدامي Ager Sanguinis قرب الدانا وسهل سرمدا في العام ٥١٣هـ /١١١٩م، حيث قُتل العديد من أمراء الفرنجة في تلك المعركة وعلى رأسهم روجيه دو سالين أمير أنطاكية. ويعود ايلغازي ثانية إلى الموصل ليجلب في العام ١١٢٠م جيشاً من التركمان ويصطحب معه ابن أخيه الأمير بلك بن بهرام. ويتوفى نجم الدين إيلغازي في رمضان ٥١٦هـ/ تشرين الثانى ١١٢٢م قرب ميافارقين ويصبح بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق أمير حلب، وهو الذي بنى أول مدرسة في حلب وهي المدرسة الزجاجية سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م. ويتسلم الأمير بلك قلعة حلب من سليمان بن عبد الجبار في ٢٧ حزيران ١١٢٣م، ويرسل سلطانشاه بن رضوان إلى حران ويحارب الفرنجة وينتصر عليهم. ويقتَل بلك بن بهرام بسهم أصاب كتفه قرب صور ويدفن في حلب في حزيران١١٢٤م. ويعود حسام الدين تمرتاش إلى حلب، ويبدأ مفاوضات مع بلدوين الثاني الذي كان أسيراً بحلب منذ أيام بلك. وتحاصَر حلب من قبل بلدوين وجوسلان ودبيس بن صدقة وسلطانشاه بن رضوان ويغيسيان بن عبد الجبار بن أرتق أمير بالس. ويصمد أهل حلب في الدفاع عن مدينتهم، ويخرب الفرنجة شواهد وقبور المسلمين خارج الأسوار، فيحوِّل ابن

الخشاب قاضي حلب أكبر أربع كنائس إلى مساجد. ويذهب بعض الأهالي في وفد إلى ماردين يطلب نجدة من تمرتاش فلا يلبى طلبهم، ويقصدون أمير الموصل آقسنقر البرسقي، وكان مريضاً فتعافى، فيقوم بمراسلة طغتكين بدمشق ويصل حلب في ٣١ كانون الثاني ١١٢٥م ويرحب أهلها بقدومه. ومن أعمال آقسنقر البرسقي بحلب تبادله الأسرى والفدية: ابنة بلدوين وابن جوسلان مقابل ٨٠ ألف دينار. وكسر البرسقي قرب اعزاز عام ١١٢٥م، وقاتل الفرنجة مع حليفه طغتكين، لكنه مرض في حلب وعاد إلى الموصل ليقتل في مسجدها في ٢٧ تشرين الثاني ١١٢٦م. وترك ابنه عز الدين مسعود والياً على حلب لكنه مات بعد أقل من شهر.

جاء حلب خطلغ غلام السلطان محمود وتسلمها من تومان وأصبح نائباً فيها عن عز الدين مسعود البرسقي في تموز ١١٢٧م. إلاّ أن أهالي حلب ثاروا على خطلغ وطالبوا سليمان بن عبد الجبار بن أرتق أن يتولى الأمور فيها، وساعده رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع. وجاء الملك ابراهيم بن رضوان السلجوقي يحاصر حلب بدوره في ١٠ كانون الأول ١١٢٨م. كما عاد الفرنجة لمحاصرة حلب، وهنا وصل الأتابك عماد الدين زنكي ليخلص حلب من الفتنة الناشبة بين خطلغ وسليمان بن عبد الجبار بن أرتق وكان ذلك عام ١١٢٨ م، ومع قدوم عماد الدين بدأ انحسار المد الإفرنجي.

لم يبق بحلب أي أثر من أيام الأراتقة، ويُعتقد أن المدرسة الزجاجية المذكورة التي بناها سليمان بن عبدالجبار، وهي إحدى الكنائس المحولة إلى جامع عام ١١٢٤ م، والتي نقل عماد الدين زنكي فيما بعد رفات والده آقسنقر إليها، كانت موجودة إلى الشرق من خان الطاف مكان كنيسة الشيباني التي بنيت قبل عام ١٨٥٩ إلى جانب مدرسة الأرض المقدسة (مستودع التبغ والتنباك سابقا ومتحف حلب القديمة حالياً) وهدمت في الثلاثينات من القرن العشرين، كما يذكر ذلك الأب لويس شيخو في أحد الأعداد الأولى من مجلة المشرق التي أصدرها عام ١٨٩٨.

الفترة الزنكية:

سيّر عماد الدين زنكي، بعد أن ملك الموصل والجزيرة، الأمير سنقر والأمير حسن قراقوش إلى حلب التي كان فيها سليمان بن عبد الجبّار الأرتقي وخطلغ، ورحّب أهل حلب

بقدوم عماد الدين الذي سلّم خطلغ إلى رئيس البلد فضائل بن بديع فقتله. وهكذا ملَك عماد الدين حلب وقلعتها في محرّم ٥٢٢هـ/ ١١٢٨ م.

وينتصر عماد الدين على الفرنجة في أتارب (عام ٥٢٤هـ/١١٣٠ م) وفي اللاذقية (عام ٥٣٠هـ/١١٣٦ م) ويحدث زلزال كبير (عام ٥٣٣هـ/١١٣٩ م) ويسترد مدينة الرُها من الفرنجة (عام ٥٣٩هـ/١١٤٥ م) ويقوم بنقل رفات والده آقسنقر من مقر الأنبياء إلى المدرسة الزجّاجية بحلب. وفي عام ٥٤١هـ/١١٤٦ م أغتيل عماد الدين زنكي أمام قلعة جعبر من قبل أحد غلمانه، وكان ابنه نور الدين حاضراً فأخذ خاتم والده ووضعه في إصبعه وجاء حلب وملكها. وفي رجب ٥٤٣هـ/١١٤٨ م أمر نور الدين بإبطال " حيّ على خير العمل " في آخر تأذين الغداة، وحارب الفرنجة واستولى على قلعة حارم (عام ٥٤٤هـ/١١٤٩ م) وعلى أفامية (٥٤٥هـ/١١٥٠ م) وعلى دمشق (عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م)، وأسر جوسلان وسجن في قلعة حلب (عام٥٤٦هـ/١١٥١ م)، كما بقي أرناط (رينو دو شاتيون) ١٦ عاماً (١١٦٠- ١١٧٦ م) أسيراً في حلب قبل أن يطلق سراحه بدفع فدية قدرها ١٢٠ ألف دينار. وحدث زلزال كبير (عام ٥٥٢هـ/١١٥٧ م) هلك فيه ١٠٠٠٠ نسمة بحلب ووصل تأثيره إلى حماة وشيزر وقلعة الحصن، وتبعه زلزال آخر عام ٥٦٥هـ/١١٧٩ م. واستعمل نور الدين عام ٥٦٧هـ/١١٧٢ م الحمام الزاجل في المراسلات والبريد. توفي الملك العادل نور الدين محمود الشهيد عام ٥٦٩هـ/١١٧٤ م ودفن بدمشق وخلفه ولده الملك الصالح إسماعيل الذي أقام بحلب وتوفي عام ٥٧٧هـ/١١٨١ م، وبذلك فرغ الجو لصلاح الدين الأيوبي.

من آثار نور الدين الهامة بحلب ترميم المدرسة الشعيبية قرب باب أنطاكية والمدرسة الحلوية غربي الجامع الأموي الكبير، وكذلك ترميم الجامع الكبير وإضافة أجنحة اليه، كما أوصل مياه قناة حلب إلى باب أنطاكية ووسّع البيمارستان النوري كما أقام فصيلاً أمام وحول أسوار المدينة زيادة في تحصينها. كما بنى "دار الذهب" في قلعة حلب بين ٥٦٠-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣ م. وربما كان "المطبخ العجمي" قصر أحد أمراء نور الدين وهو مجد الدين بن الداية، وكان وكيله في قلعة حلب عتيقه شاذبخت وهو خصيّ هندي الأصل تنسب اليه "المدرسة الشاذبختية" في سوق الزرب، كما أن بناء مسجد ابراهيم الأسفل في القلعة يعود إلى أيام نور الدين، وكذلك بناء جزء من أسواق حلب. لقد ثبّت نور الدين أركان المذهب السنّي في البلاد عن طريق المدارس

التي بناها، وكان بداية النهاية للتخلص من احتلال الفرنجة على يديه وذلك بتوحيد الموقف والسلطة بين مصر وسورية ضد العدو المشترك الفرنجة على يد صلاح الدين الأيوبي.

حلب والسلالة الأيوبية (٥٨٢- ٦٥٨ هـ / ١١٨٦- ١٢٦٠م)

تنسب السلالة الأيوبية إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف الذي رافق عمه أسد الدين شيركوه في الحملة التي جاء فيها الزنكيون لمساعدة أهل حلب ضد هجمات الفرنجة (الصليبين)، وقد سلم عماد الدين زنكي بعلبك عندما فتحها إلى أيوب عام (٥٣٤هـ/١١٤٠م) وكان أيوب ذا عقل راجح وحسن السيرة. وفي بعلبك ترعرع صلاح الدين الذي ولد في تكريت عام (٥٣٢هـ/١١٣٨م) وغادرها مع أبيه في العام نفسه وشاهد وهو فتى مهاجمة الصليبيين بعلبك عام (٥٤٦هـ /١١٥٢م) ثم انضم إلى عمه أسد الدين شيركوه الذي أصبح مقدم العسكر لدى نور الدين. وعندما احتل الأخير دمشق تولى صلاح الدين رئاسة الشرطة نيابةً حوالي (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م). وأرسل نور الدين عدة مرات جيشاً إلى مصر بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين لمساعدة الوزير والخليفة الفاطمي في استتباب الأمن في مصر ودحر الصليبيين وكان آخرها عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م إثر مجيء الحملة الصليبية الثالثة. وقد لبى نور الدين النداء مستهدفاً ثلاثة امور: قلب الخلافة الفاطمية وتوحيد سورية ومصر ومتابعة الحرب ضد الفرنجة حتى النهاية. ويذهب شيركوه إلى مصر بـ ٦٠٠٠ فارس و ٢٠٠ ألف دينار ويصبح وزير العاضد بعد قتل شاور، ويخلفه صلاح الدين بدوره بعد وفاة شيركوه عام ١١٦٩م ويستدعي أباه وأخوته إلى مصر ويجهز على الخلافة الفاطمية ويقطع الخطبة للعاضد ويذكر الخليفة العباسي في بغداد، ويرسل المستضيء بالله الخليفة العباسي سيفين أحدهما لنور الدين والآخر لصلاح الدين نائبه في مصر. وكانت علاقة صلاح الدين بنور الدين جيدة لكن "وحشة" بدت بينهما ذكرها ابن الاثير ثم ابن أبي طي، وسببها غيرة نور الدين من استيلاء صلاح الدين على أموال مصر وعدم رغبته بلقاء معلمه ومولاه نور الدين. وبوفاة نور الدين في (٥٦٩هـ / ١١٧٤ م) خلفه ولده الصالح اسماعيل وعمره /١١/ عاماً. ولما توفي الصالح اسماعيل في عام ٥٧٧هـ/١١٨١م تسلم حلب عماد الدين زنكي بن مودود. وجاء حلب صلاح الدين بجيش كبير وأعطى عماد الدين سنجار وبعض المدن بدل حلب، فسار عماد الدين إلى سنجار، عندها جعل أهل حلب ينادون "يا حمار بعت حلب بسنجار".

ورحل صلاح الدين بعد أن رتب ابنه الظاهر غازي في حلب وقد أصبح سلطان مصر والشام والعراق حتى أعالي الموصل. وقد قال بعد تملكه حلب جملته الشهيرة " الآن قد تبينتُ أنني أملك البلاد ، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت". وتزوج صلاح الدين قبل مغادرة دمشق من الخاتون عصمة الدين أم الملك الصالح وابنة معين الدين أنر وكانت قد بقيت بدمشق منذ وفاة زوجها نور الدين ، وبقي صلاح الدين ليلتين بدمشق قرب زوجته الجديدة ثم عاد إلى مصر لمحاربة الفرنجة. وبالفعل بعد استرداد حلب ودمشق وتوحيد سورية ومصر ومهاجمة الإسماعيلية تمكن صلاح الدين من إحكام قبضته على القلاع والمواقع التي في حوزة الفرنجة واستردادها بما في ذلك القدس بعد معركة حطين (عام ٥٨٤هـ/١١٨٧م)، ونقل المنبر الذي كان قد أعده نور الدين وتركه في الجامع الأموي بحلب ليأخذه إلى المسجد الأقصى حين تحرير القدس. ولو تابع صلاح الدين بنفس الحماس والحزم محاربته للصليبيين، بدل الاتفاق على الهدنة مع رتشارد قلب الأسد، لكان تحرير البلاد قد تم على يديه قبل نهاية القرن الثاني عشر، بدل أن يتأخر قرناً آخر ليتم على أيدي المماليك.

سلّم صلاح الدين حلب في البدء إلى أخيه الملك العادل ثم أعطاها لولده الظاهر غازي (عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م). واتخذ الظاهر غازي لقب " سلطان " بعد وفاة والده (عام ١١٩٣/٥٨٩م) وتزوج من ابنتي عمه الملك العادل غازية خاتون ثم ضيفة خاتون التي ولدت له الملك العزيز (عام ٦١١هـ/١٢١٣م). وتوفي الظاهر غازي (عام ٦١٣هـ/١٢١٦م) فخلفه ولده محمد العزيز من ابنة عمه ضيفة خاتون، وكان الأتابك شهاب الدين طغريل بن عبد الله عتيق الظاهر غازي يدير المملكة. وبعد وفاة محمد العزيز (عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م) خلفه ابنه الملك الناصر يوسف الثاني، وكانت جدته ضيفة خاتون وصية عليه، وقد قتله هولاكو في تبريز عام ١٢٦١ م وكان له من العمر ثلاثون عاماً. وبذلك انتهت الدولة الأيوبية على يد المغول، وبدأت دولة المماليك على يد شجر الدر في مصر اعتباراً من عام ٦٢٠هـ/١٢٥٠م وهي من مماليك الأيوبيين.

المباني الأيوبية في حلب:

عرف الأيوبيون بأعمال التحصين والدفاع وقد تركوا كتابات عديدة تبين قيامهم بترميم الأسوار وأبواب المدن والقلاع مثل قلعة حلب والمضيق وحارم وصلخد وسواها.

كما تركوا لنا بعض الخانات التي أنشؤوها على طريق الحج إلى مكة المكرمة مثل خان العروس الموجود على بعد ٥٠ كم شمال دمشق عند مفرق بلدة معلولا ، كما قاموا في حلب ببناء العديد من المدارس والمساجد والخانكاهات خارج أسوار المدينة وداخلها ، كما رمموا أبواب المدينة : باب النصر وباب أنطاكية وباب قنسرين ، وعُرفوا باستعمال أجزاء الأعمدة الأفقية التي توضع بطول /١/ م في جدران الأبراج ومنحدرات القلاع وبتباعد ٢ م فيما بينها لتعطيها شكلاً تزيينياً جميلاً وتقاوم في الوقت نفسه انهيار الجدار بالكامل فيما اذا ضُرب بأحجار المنجنيقات الضخمة. كما استعملوا شرفات إرسال السوائل المحرقة فوق العدو في مداخل الأبراج والقلاع. وتميزوا كذلك بمآذن مساجدهم المربعة واستعملوا الأحجار الضخمة في البناء. ومن مبانيهم خارج أسوار حلب نذكر مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي ، وهناك المدرسة السلطانية البرانية والمدرسة الكاملية ومدفن الهروي ومدرسته وجميعها جنوب الأسوار الجنوبية للمدينة. وهناك مدرسة ابن العديم (الطرنطائية) في الجهة الشرقية خارج السور وضريح الشيخ فارس في الجهة الشمالية ومشهد الحسين في الجهة الغربية.

أما ما تم بناؤه داخل السور فهناك المدرسة السلطانية أمام القلعة والتي حوت رفات الظاهر غازي وربما زوجته وخانكاه الفرافرة والمدرسة الشاذبختية (١١٩٣م) وحمام السلطان شمال القلعة والمطبخ العجمي والمدرسة الشرفية وضريح السهروردي والمدرسة الأتابكية التي بُنيت لتضم رفات الأتابك طغريل لكنه لم يدفن فيها. ولهذا الأتابك - وهو من أصل أرمني - فضل كبير على معظم مباني حلب الأيوبية التي بُنيت على زمنه ، ولا ننسى فضل الظاهر غازي الذي وسّع رقعة المدينة داخل الأسوار بتحويله خندق الروم الشرقي ، عن طريق تعميقه وبناء الأبراج الدفاعية فيه ، إلى سور المدينة الشرقي وبذلك أصبحت القلعة داخل أسوار المدينة بعدما كانت مهيمنة على سورها الشرقي. كما قام الظاهر غازي ببناء قصر في قلعة حلب سماه "قصر العز" عام ١١٩٣ م ، وإثر حريق عام ١٢١٢ بنى "دار الشموس" فيها. كما سعى الأيوبيون منذ أيام الظاهر غازي إلى ترميم قناة حيلان وإيصال المياه إلى القلعة ومعظم الدور داخل الأسواق وخارجها. كما نشطت مع الأيوبيين بدايات التجارة بين البحر المتوسط والشرق الأقصى مروراً بحلب محطة التقاء طرق المواصلات وطريق الحرير حتى مدن إيطاليا المستقلة ذات الأساطيل البحرية مثل البندقية وجنوة وباري وبيزا. لقد كانت الفترة الأيوبية فترة

قصيرة نسبياً في حلب لم تبلغ القرن الواحد لكنها تركت بصماتها واضحة على فنون العمارة الإسلامية الأخرى.

حلب والفترة المملوكية (٦٥٨- ٩٢٢ هـ / ١٢٦٠- ١٥١٦م)

بدأت فترة المماليك في مصر عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م إثر وفاة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب حيث أخفت زوجته شجر الدر أم خليل، وهي أرمنية الأصل، وفاته، وتزوجت عزالدين أيبك أحد أمراء المماليك الذين استمر حكمهم البلاد، بين مماليك أتراك وشراكسة، حتى عام ٩٢٢ هـ /١٥١٦ م، حين احتل العثمانيون سورية ثم مصر والبلاد العربية. وكان الفضل لقطز والظاهر بيبرس في إيقاف جيوش هولاكو في عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م في السنة نفسها التي انتهى فيها حكم الأيوبيين على سورية وقتل فيها هولاكو في عاصمته تبريز آخر السلاطين الأيوبيين الناصر يوسف الثاني. واستتب الأمر للمماليك في مصر وسوريا والبلاد العربية، وكانوا محاربين أشداء تصدوا للهجوم المغولي وأنهوا احتلال الفرنجة للشرق باستعادة القلاع والمدن على طول الساحل مثل أنطاكية (١٢٦٨م) وقلعة الحصن (استردّت عام ١٢٧١م) وقلعة المرقب (١٢٨٥م) وعكا وصور (عام ١٢٩١م) وأخيراً كيليكيا أو أرمينيا الصغرى وعاصمتها سيس عام ١٣٧٥م. وقد امتدت فترة حكم المماليك الأتراك من ٦٤٨- ٧٨٤ هـ/١٢٥٠- ١٣٨٢م. وكان من كبار سلاطينهم عزالدين أيبك والظاهر بيبرس وقلاوون وابناه الأشرف خليل والناصر محمد. ثم استلم سدة الحكم سلاطين المماليك الشراكسة (٧٨٤- ٩٢٥ هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٦ م) بدءاً من الظاهر سيف الدين برقوق، ومن أهم سلاطينهم المؤيد شيخ الذي جاء حلب ليرمم ما يحتاج إلى ترميم في حلب بعد تخريبها من قبل تيمورلنك عام ١٤٠١ م، وقد أشرف بنفسه على ترميم الأسوار والأبواب والأبراج الدفاعية، ثم السلطان برسباي وقايتباي وأخيراً قانصوه الغوري الذي خسر المعركة في مرج دابق التي تبعد حوالي /٥٠/ كم إلى الشمال من حلب، وكان من أسباب الخسارة خيانة والي حلب خاير بك. وقد اهتم المماليك، بالإضافة إلى تصديهم للمغول والفرنجة، بأعمال البناء وبخاصة المساجد والمدافن والحمامات وقساطل المياه وأعمال التحصين الدفاعية في الأبواب والأسوار. وكان في حلب بشكل خاص نائبان أحدهما للمدينة

والآخر يليه مرتبة للقلعة، وفي السنوات الأخيرة من حكم السلطان قانصوه الغوري قبل وصول العثمانيين كان نائب المدينة الأمير خاير بك ونائب القلعة الأمير أبرك. وقد ترك لنا خاير بك اوج خان خارج أسوار المدينة عند باب النصر وخان خاير بك قرب سوق الدهشة داخل المدينة، كما ترك لنا الأمير أبرك خان أبرك أو خان القصابية، وهذا ما يدل على نشاط الحركة التجارية أيام المماليك بسبب فترات السلم الطويلة المساعدة على العمران.

وتمتاز مساجد المماليك بواجهاتها الجميلة ومقرنصات أعالي مداخلها ذات النوازل العديدة، وغالباً ما ازدانت بالرنوك المملوكية المبينة للوظائف أو المناصب التي تقلّدها ذلك الأمير المملوك صاحب البناء، بالإضافة إلى الأعمدة الصغيرة والمضفورة بنعومة بالغة وقد ازدانت بالتيجان المتميزة ذات أوراق النباتات الشبيهة بالتيجان الكورنثية. ومن أهم هذه المساجد بحلب جامع ألطونبغا (ساحة الملح) ٧١٨هـ /١٣١٨ م والجامع العمري (٧٢٨ هـ/ ١٣٢٨ م) في باب الفرج، والجامع الصروي ٨٧٠هـ /١٤٠٢م وجامع الأطروش ٨٠١هـ / ١٣٩٩ م وجامع الموازيني (تغري بردي) ٧٩٧ هـ/١٣٩٥ م والجامع الرومي (منكليبغا) ٧٦٩هـ / ١٣٥٨ م وجامع باب الأحمر (أوغلوبك) ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م وجامع الطواشي بمئذنته القصيرة ومدخله البديع بمقرنصاته والمجدد أيام العثمانيين عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م وجامع المهمندار (القاضي) ذو المئذنة الجميلة بطرازها المغولي، والعديد من المساجد الأخرى. كما خلف المماليك العديد من القساطل لتوفير المياه غالباً قرب المساجد مثل القسطل الحرمي من بناء التاجر برد بك وقسطل الرمضانية وقسطل علي بيك. وأوصل الأمير أرغون الناصري مياه الساجور إلى حلب عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م وبنى الأمير أرغون الكاملي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤ م دار الشفاء "بيمارستان أرغون الكاملي" الذي خصص لأصحاب الأمراض العقلية. ومن أهم المدافن المملوكية نجد مدفن القاضي أوغلوبك المتميز بزخرفة من الدنتيل في واجهته، ومدفن خاير بك الذي أعده لنفسه خارج باب المقام لكنه دفن في القاهرة، وهناك مدفن الأذرعي في الشارع المسمى شارع ضيفة خاتون والقائم فيه مدفن الأمير قره سنقر. كما نذكر في منطقة الأنصاري مدافن الأمراء قصروه وزوجته سورباي والأمير أزدمر والأمير مصرباي، وقد ساهم الأخير في ترميم أسوار المدينة عند ساحة الملح كما تبين كتابة جدار السور الخارجية. أما في القلعة فقد رممت الأسوار وأضاف الأمير جكم البرجين البارزين في شمال وجنوب القلعة، كما أضاف قايتباي وقانصوه الغوري قباب سقف قاعة العرش، ورمم الأخير معظم أبواب

حلب وأبراجها التي سبق أن رمّمها المؤيد شيخ مثل باب قنسرين وباب الحديد وباب الفرج وسواها.

حلب والفترة العثمانية:

دخل العثمانيون حلب إثر انتصارهم في المعركة التي جرت في مرج دابق على بعد /٥٠/ كم شمالي حلب بين المماليك بقيادة السلطان قانصوه الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول وكان ذلك عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م. وزيادة في السخرية والمهانة جعل السلطان سليم جندياً أعرج يحتل قلعة حلب. ثم تابع السلطان سليم سيره إلى دمشق فمصر وقضى هناك على حكم المماليك نهائياً بقتل آخر سلاطينهم طومان باي عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وبذلك بدأ الحكم العثماني لسورية والبلاد العربية ليستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ أي أكثر من أربعة قرون.

كانت حلب تُحكم من قبل والٍ تركي يعينه السلطان العثماني مباشرة، وكانت ولايته تشمل حوالي ربع مساحة القطر الحالية إذ تضم أجزاء من جنوب تركيا منها الرُها وكلز وعنتاب وحتى البادية السورية جنوباً. ورغم الدور السياسي المتشدد الذي مارسته السلطة العثمانية على حلب والقطر، فإن الاستقرار الأمني طويل الأمد الذي فرضته السلطنة العثمانية الواسعة الأرجاء جعلت مدينة مثل حلب، بموقعها التجاري على طرق الحرير والتجارة وما تقدمه من صناعة الحرير والزيت والصابون، مركز جذب تجارياً أمّته أربعون عائلة مسيحية سكنوا في زقاق الأربعين في حي الجديدة، جاؤوها بعد مرور حملة السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٨ م من حلب.

سكن الولاة العثمانيون منطقة الشيخ أبي بكر. وقد عرفت الدول الأجنبية أهمية المدينة فأقامت فيها قنصليات تجارية كان أقدمها مَن مثّل تجار دولة البندقية عام ١٥٤٨م والحكومة الفرنسية ١٥٦٤م والإنكليزية ١٥٨٣ والهولندية ١٦٠٧. وكان ذلك إثر الاتفاقية بين السلطان العثماني سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الأول عام ١٥٣٧ م والتي حصل بموجبها التجار الأجانب على امتيازات هامة.

وتوسعت الأسواق وأقيمت الخانات - وهي مراكز لمبيت التجار وعرض بضائعهم- في أنحاء المدينة وقد بلغ عددها /٦٨/ خاناً في منتصف القرن الثامن عشر، كما يعلمنا د. راسّل، الذي كان يطبب الجالية البريطانية في حلب، في كتابه "التاريخ الطبيعي لحلب". وكانت القناصل الأجنبية تقيم في هذه الخانات من أجل سلامتها ولرعاية مصالحها التجارية.

لقد لعبت الأوقاف في الفترة العثمانية دوراً كبيراً في تنشيط العمران وزيادته في أنحاء المدينة وبشكل خاص إلى الجنوب من الشارع المستقيم الممتد من باب أنطاكية شرقاً وإلى سوق الزرب والقلعة غرباً، إذ قامت في المنطقة الآنفة الذكر المساجد والمدارس العثمانية بدءاً من المدرسة الخسروفية نسبة إلى والي حلب خسرو باشا عام ١٥٣٧ وقد تم بناء مدرسته كتحدّ لعظمة القلعة وأمام مدخلها الرئيسي عام ١٥٤٦ م من قبل المهندس سنان (١٤٨٩- ١٥٨٨ م) معمار الإمبراطورية العثمانية العظيم، وكانت أول عمل مدني له بعد أن تخلى عن عمله كمهندس عسكري في الجيش الإنكشاري. وقد خصّص للمدرسة الخسروفية والعاملين فيها أوقاف مثل خان الشونة وخان قورت بيك وسواهما.

وتشاهَد المساجد والمدارس العثمانية الأخرى بمآذنها التي تشبه قلم الرصاص المدبّب وقبابها الواسعة والمدعمة والتي تشبه قبة كنيسة وجامع آيا صوفيا في القسطنطينية تتتابع كرتل الجنود، إما من القلعة وإما من تل العقبة. فنجد المدرسة العادلية وجامعها والمدرسة البهرامية ومسجد آل جلبي وجامع الحاج موسى الأميري مع ما يلحق كل مدرسة وجامع من أوقاف، حوانيت وخانات وأحياناً طواحين وقرى عامرة، لتأمين موارد ثابتة للعاملين في تلك المدارس والجوامع من مدرسين وطلاب مما أدى إلى زيادة وتنشيط حركة البناء. كما أنشئ وقف أبشير باشا في الجديدة (١٦٥٣) بمساحة /٦٠٠٠/ م٢ وبأبعاد ٩٠ × ٨٥ م.

لم يتخلل فترة السيطرة العثمانية على سورية خلال أربعة قرون سوى غزو إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر إلى سورية عام ١٨٣١ واحتلاله دمشق وحلب ووصوله إلى قونية حيث أصبحت طريق استنبول مفتوحة أمامه. إلا أن تدخل فرنسا وإنكلترا، اللتين اعتبرتا نفسيهما وريثتي الرجل المريض (تركيا)، منع إبراهيم باشا من متابعة الغزو، وبقي في سورية وحلب حتى عام ١٨٤٠ ثم انسحب عائداً إلى مصر، وقد قام بإصدار القوانين لتحديث سورية وساوى بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم.

وقد أصبح لحلب اعتباراً من عام ١٨٦٦ بلدية تهتم بشؤونها العمرانية ، كما قامت فيها مصلحة "الأشغال العامة" ببناء وتوسيع الطرق وأبنية الخدمات العامة مثل إنشاء شارع الخندق (خندق جادسي)[1] عام ١٨٩٣ وبناء برج الساعة قرب باب الفرج ومنتزه السبيل ومخفر العزيزية عام ١٨٩٩ وأنشئت الأحياء الجديدة في العزيزية والجميلية والنيّال والسليمانية والجابرية...

حلب في عهد الانتداب والاستقلال:

انسحب العثمانيون الأتراك من سوريا بانتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ وقد جرت آخر معركة في تلك الحرب قرب قرية حريتان الواقعة على بعد ٥ كم إلى الغرب من حلب بين الجيش البريطاني والأتراك وكان ذلك في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، وقد أقيم نصب تذكاري دعاه الأهالي " القبر الإنكليزي" وهو عبارة عن هرم ثلاثي الأوجه حوت إحدى لوحاته أسماء الذين قتلوا في تلك المعركة من جنود دول الكومنولث البريطاني. وقد نقل النصب حديثاً إلى جنوب الطريق شرق حريتان بسبب تعريض الطريق الحالية المتجهة من حلب إلى أعزاز. وقد جاء الأمير فيصل إلى حلب في بداية العهد الفيصلي العربي ، ثم بدأ الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠ واستمر حتى عام ١٩٤٦ ، حيث حصلت سورية على استقلالها التام وتم الجلاء في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وبدأ عهد الاستقلال والثورة. وقد تم بناء العديد من المباني ذات الواجهات المتميّزة في حلب ، وبخاصة في حي الجميلية والعزيزية ، مما يعتبر استمرارية حضارية في فن عمارة المدينة في فتراتها المختلفة من الواجب الحفاظ عليها وعدم هدمها.

العمارة والعمران الحديث:

لقد تطورت الأحياء الجديدة خارج الأسوار في الفترة العثمانية المتأخرة من النصف الثاني للقرن التاسع عشر وبحسب تخطيط المدن الحديث ، وذلك منذ أن أنشئت بلدية حلب

---

[1] من طريف ما يذكر أن الشيخ كامل الغزي مؤرخ حلب - وكان من حملة النظارات لتصحيح البصر- احتج في حينه على إنشاء جادة الخندق بعرض ١٤/ م ، بحيث أن المار على أحد الرصيفين لا يمكنه مشاهدة صديقه أو جاره على الرصيف الآخر ليسلم عليه.

عام ١٨٦٦ كما ذكرنا. وكان مهندس البلدية الفرنسي شارل شارتيه أيام ثريا باشا خلال ولايته الثانية لحلب. وقد نشط البناء أيام جميل نامق باشا الذي أنشأ حي الجميلية عام ١٨٨٢ كذلك أيام الوالي رائف باشا الذي دشن ساعة باب الفرج ومخفر العزيزية عام ١٨٩٩. وكان قد أنشئ حي العزيزية عام ١٨٦٨ والنيال ١٨٧٨ والسليمانية ١٨٩٥ ثم الجابرية وامتد العمران ليغطي مساحة حوالي /٥٠٠٠/ هكتار بعد أن كانت مساحة المدينة ضمن الأسوار وضاحيتيها الشمالية والشرقية حوالي /٣٥٠/ هكتاراً فقط.

أما عن المباني المدنية في هذه الفترة العثمانية المتأخرة فقد بُني مشفى الغرباء عام ١٨٩٠ مكان السرايا وقصر العدل القديم والمدرسة الرشدية العسكرية غربي القلعة عام ١٨٨٢ وبرج ساعة باب الفرج ومنتزه السبيل والمنشية عام ١٨٩٩ والزاوية الصيادية عام ١٩٠٩ والمكتب السلطاني (ثانوية المأمون حالياً) عام ١٨٩٢ في الجميلية ومديرية المعارف (شرطة النجدة) عام ١٩١٠ وفندق بارون عام ١٩١١ لتقيم فيه الشخصيات الهامة القادمة في قطار الشرق السريع لزيارة حلب.

كما أنشئ العديد من الدور التقليدية ذات الحوش الداخلي والإيوان الصيفي وقاعة الاستقبال الشتوية داخل أسوار المدينة وخارجها من أمثال دور حي (الجديدة) التي تزار ويعود أقدمها إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، مثل دار وكيل ودار أجقباش ودار صادر ودار غزالة ودار كبة ودور أخرى عديدة في حي باب قنسرين والفرافرة وسواهما. ولا ننسى دَور الخانات العديدة التي أنشئت في الفترة العثمانية كأوقاف داعمة بوارداتها للمدارس والجوامع العثمانية القائمة من أمثال خان النحاسين والجمرك والبرغل والعلبية والوزير، وكانت غالباً ما تشتمل على قاعة فخمة لإقامة القناصل الأجانب فيها حفظاً لسلامتهم العامة ومراقبة أعمالهم التجارية، مما كان له الأثر الكبير في تنشيط التجارة في ظل الاستقرار الذي ساد طيلة أربعة قرون. وقد قيل إن ما كان يباع في أسواق القاهرة خلال شهر كان يباع في أسواق حلب خلال يوم واحد فقط قبل فتح قناة السويس الذي وجّه ضربة مؤلمة لتجارة حلب. واعتبر قنصل فرنسا شوفاليه دارفيو حلب المدينة الثالثة بعد استانبول والقاهرة في الأهمية في الإمبراطورية العثمانية، وقال عن أهلها: "الحلبيون أحسن شعوب الممالك العثمانية طباعاً وأقلهم شراً وآمنهم جانباً وأشدهم تمسكاً بمكارم الأخلاق".

أما عن العمران والتنظيم العمراني فإن تطور التكنولوجيا ووصول الخط الحديدي وقطار الشرق السريع إلى حلب عام ١٩٠٨ سهّل استعمال الجيزان المعدنية بشكل حرف I وبالتالي إمكانية بناء الأبنية بعدة طبقات، مما جعل بلدية حلب المنشأة حديثاً عام ١٨٦٦ تتبنى نمط البناء الحديث، ولأسباب اقتصادية بالطبع، في الشوارع الجديدة المنشأة في حي العزيزية والجميلية من حيث التخطيط الشطرنجي والشوارع المتوازية والمتعامدة وبلوكات الأبنية المنفتحة بغرفها وإطلالة شرفاتها على الشارع بدل الباسيو الداخلي (الحوش السماوية)، وبخاصة أن بعض أغنياء سكان العزيزية قلدوا طريقة بناء القناصل في الطبقة العلوية من الخانات بعمل درج طويل يؤدي في الطبقة الثانية إلى قاعة واسعة تؤدي بدورها إلى غرف جانبية والى قاعة أخرى فخمة للاستقبال.

وقام الألماني يونغ (Yung) بعمل مخطط تنظيمي جديد في العام ١٨٩٩ يضم توسع المدينة في الأحياء الجديدة. وهكذا بني العديد من الأبنية ذات الواجهات الجميلة المطلّة على الشارع. وجاءت فترة الانتداب الفرنسي في العشرينات من القرن العشرين لتكرّس هذا الأسلوب الحديث في البناء والشوارع الرئيسية العريضة مع دخول السيارة والحافلات الكهربائية (الترام) مثل شارع الخندق- حي الجميلية والنيال والتلل حتى ساعة باب الفرج، ومن مبنى "الإطفائية" شمال شارع التلل إلى جسر الصيرفي بين البساتين في حي السليمانية والميدان.

وكان تطور المخطط التنظيمي العمراني لحلب الحديثة مع المخططين المعماريين إيكوشار ودانجه وغوتون وبانشويا دون إبداء حسّ تراثي كبير نحو المدينة القديمة ونسيجها العمراني، إذ كان الشغل الشاغل لهؤلاء المخططين هو تسهيل مرور السيارة لإيصالها إلى المراكز الإدارية المنتشرة للأسف في قلب المدينة القديمة حول القلعة من سرايا وبلدية وإدارة الهجرة والجوازات وقصر العدل والمستشفى الوطني ومديرية التربية ... مما سبب اقتراح *إنشاء شوارع الاختراق التي مزقت بتنفيذها النسيج العضوي للمدينة القديمة ليس بتهديمها للعقارات المسكونة عند تعريض هذه الشوارع فحسب، بل بالنظام العمراني المتبّنى والمتضمن إنشاء أبنية عالية على هذه الشوارع قتلت الخصوصية للعقارات المجاورة ذات الطابقين خلفها، فهجرها أهلها وحوّلت إلى مستودعات وورش عمل صناعية صغيرة أو كبيرة ولم تعد صالحة للسكن.*

٢) قلعة حلب ومعبد إله الطقس فيها [١]

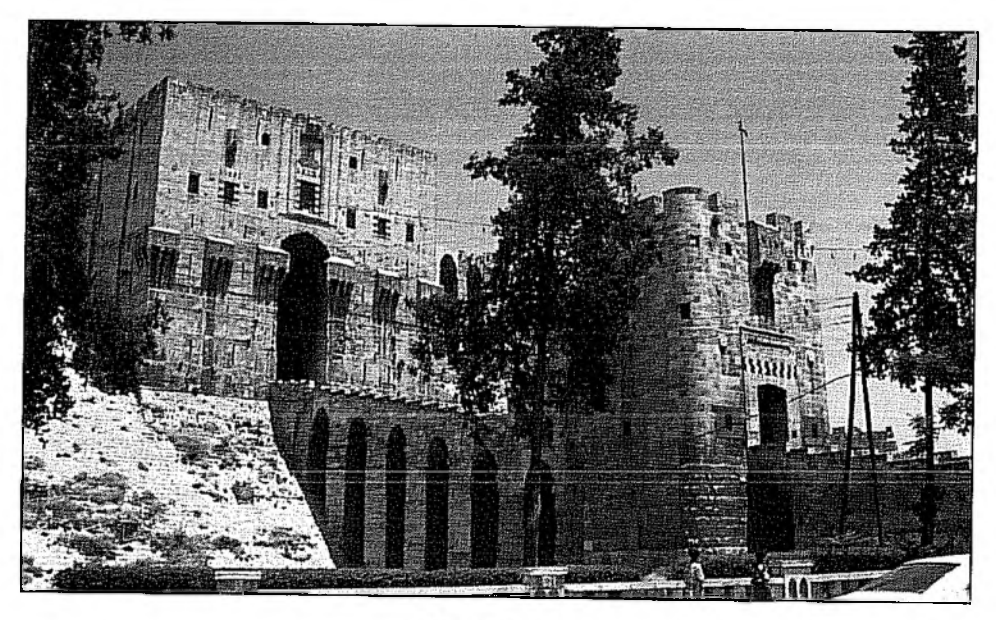
تمهيد: قلعة حلب

إن تاريخ قلعة حلب قديم قدم تاريخ مدينة حلب المذكورة منذ الألف الثالث والثاني قبل الميلاد في إبلا (٢٢٥٠ ق.م) وفي ماري (١٨٠٠ ق.م) لكن الأمر يحتاج إلى حفريات نموذجية نظامية في جسم القلعة لتطلعنا عما دفن فيها من آثار وربما من رقم فخارية تزودنا بتاريخها العريق. وقد بدأت بالفعل منذ عام ١٩٩٦ عمليات تنقيب أثرية في الموقع نفسه الذي بوشر فيه في الثلاثينات وأعطانا اللوح البازلتي لرجلين مجنحين بحالة حركة أمام قرص الإله الشمس وهلال الإله القمر من القرن العاشر ق.م، وتقوم بالتنقيبات بعثة ألمانية سورية مشتركة بإدارة كاي كولماير والأستاذ وحيد خياطة وقد ظهر معها في الموسم الثالث للتنقيب /٨/ ألواح جدارية بازلتية بمشاهد ميتولوجية مختلفة تعود إلى معبد من القرن العاشر ق.م، كما عثر على بقايا كتابات ولقى وأواني فخارية تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ولا زال في القلعة بقايا



[١] نشرت في مجلة المهندس العربي العدد ١٤٧ عام ٢٠٠٥ ص ١٢-١٦

من الفترة الرومانية مثل الناووس الموجود في متحف قلعة حلب والمدفن البيزنطي الموجود قرب مأخذ المياه في قلب القلعة. كما أن هناك كتابات عربية يذكر هرتسفلد أن عددها /٤٤/ كتابة منها /٢٦/ كتابة على أسوار وجدران وأبراج القلعة الخارجية و /١٨/ كتابة على الأبنية المدنية والدينية، وأقدم تلك الكتابات كتابة تعود إلى أيام محمود بن نصر بن صالح بن مرداس والعام ٤٦٥ هـ /١٠٧٢م وهي موجودة في متحف القلعة (تكنة إبراهيم باشا) وأبعادها ١.٠٧ × ٠.٥٨ م. وهناك كتابات من أيام نور الدين زنكي والملك الظاهر غازي وولده العزيز محمد وحفيده صلاح الدين يوسف الثاني ومن فترة المماليك السلطان برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي وقانصوه الغوري، ومن المعروف أن القلعة سُكنت منذ أيام بني مرداس ومن بعدهم سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني ثم السلاجقة والأراتقة والزنكيين فالأيوبيين والمماليك والعثمانيين. ويذكر المؤرخون من دورها "دار العواميد ودار الذهب ودار الشخوص ودار العز". وتعتبر قلعة حلب مثلاً رائعاً لفن العمارة العسكرية العربية الإسلامية في القرون الوسطى، ويُذكر أنها لم تقهر أبداً بالقوة عندما كان ساكنوها يعقدون العزم على الدفاع عنها.



مدخل قلعة حلب

إن معظم الأبنية الحالية في القلعة تعود إلى الفترة الأيوبية وبخاصة أبواب الحديد المطرق والمزين بحدوة الحصان وشجرة النخيل والشمس (من أيام الظاهر غازي ٦٠٦-٦٠٨هـ/ ١٢٠٩- ١٢١١م) ومسجد إبراهيم الأعلى (٦١٠ هـ/ ١٢١٣م) والقصر الأيوبي وحمامه. وهناك مسجد ابراهيم الأسفل من أيام الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي (٥٧٥هـ/١١٧٩م). كما هناك صهريج ضخم من أيام الإمبراطور جوستنيان ربما حوّل إلى سجن أيام حروب الفرنجة ظل فيه بعض أمراء الصليبيين سنوات إلى أن تم إطلاق سراحهم بعد دفع الفدية المطلوبة. وهناك العديد من المستودعات وخزانات الماء الأرضية بالإضافة إلى قاعة الدفاع القائمة أسفل قاعة العرش والتي كانت في معظمها من أيام المماليك بدءاً من أيام المؤيد شيخ وقايتباي وقانصوه الغوري. وقد تمّ استبدال سقفها ذي القباب التسع بسطح مستو إثر دمارها بزلزال حلب الكبير عام ١٨٢٢. كما أن البرجين المتقدمين في سفح القلعة في الجهة الشمالية والجنوبية يعودان إلى أيام الأمير جكم (٨٠٧هـ/١٤٠٥م). وهناك برج وحيد في السور إلى الغرب من قاعة العرش فيه كتابة من أيام السلطان العثماني سليمان القانوني. أما متحف القلعة فقد أقيم في الثكنة التي بناها إبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر خلال احتلاله سورية الذي استمر بين ١٨٣١- ١٨٤٠. كما أضيف للقلعة مدرج حديث عام ١٩٨٠ لحضور حفلات المهرجانات المختلفة. وتتميز القلعة بمدخلها الدفاعي المتعرج وأبراجها وجدرانها الغنية بمرامي السهام وأماكن رمي الزيت المغلي على الأعداء. وهناك إطلالة رائعة جهة الشمال تشاهد منها حدود المدينة القديمة ومقبرة الجبيلة عند شارع الخندق وامتداد الضاحية الشمالية حيث حي الجديدة وحتى جامع التوحيد، كما يشاهد امتداد السكن في الأشرفية والشيخ مقصود وخزانات المياه في العرقوب. وتشاهد بقعة مشروع باب الفرج وأبنية شارع عبد المنعم رياض القائمة على حدوده كأسافين عالية، ويشاهد امتداد المدينة الطبيعي للسكن جهة الغرب بما في ذلك بناء فندق شهباء الشام والبناء العملاق الآخر وهو القصر البلدي. وما يلفت النظر في هذه الإطلالة البانورامية كثافة عدد الصحون اللاقطة لبرامج التلفزيون والتي لا يخلو من عدد منها سطح أي بناء سواء في المدينة القديمة أم الحديثة.

إن قلعة حلب هي رمز حلب الصامدة وقد ذكرت في كتاب "غينيس" للأرقام العالمية القياسية باعتبارها أكبر القلاع حجماً في العالم إذ أن شكل سطحها السفلي بيضوي أبعاده ٥٥٠ × ٣٥٠ م وارتفاعها /٣٨/ م عما يحيط بها وعمق خندقها يصل إلى /٢٢/ م ومنسوب

مدخلها حوالي /٤٠٠/ م عن سطح البحر. وهناك مشروع ضخم لمؤسسة الآغا خان للثقافة ووزارة الثقافة السورية لترميم القلعة ومنحدراتها بعد القيام بدراسة استكشافية كاملة لوضعها العام من قبل الوحدة الهندسية في جامعة حلب واستكمال توثيقها بالتصوير الفوتوغرانومتري بوضعها الراهن والتأكد من سماكة الجدران والخندق تمهيداً لاقتراح أعمال الترميم اللازمة لجزء أو كامل منحدرات القلعة وأبراجها البارزة وجدرانها وخندقها لتظل القلعة الرمز منارة ساطعة تستقطب قلوب سكان حلب والقادمين من جميع أنحاء العالم لزيارتها.

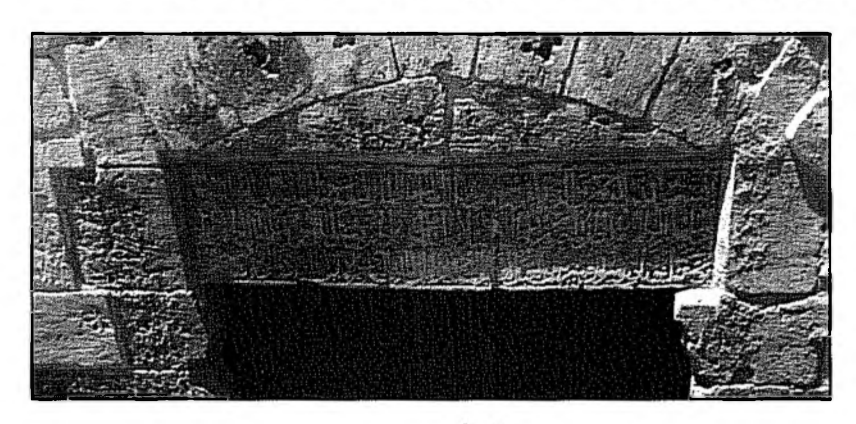
قلعة حلب ومعبد إله الطقس فيها (عرض وتلخيص وتعليق)

مع عام ٢٠٠٤ انتهت أعمال التنقيب الأثرية للبعثة السورية - الألمانية المشتركة في قلعة حلب والتي عملت منذ عام ١٩٩٦ وكانت بإدارة الدكتور كاي كولماير عن الجانب الألماني تعاونه زوجته السيدة جوليا غونيلا الاختصاصية في الآثار الإسلامية والأستاذ وحيد خياطة مدير آثار حلب سابقاً عن الجانب السوري. وقد تم حديثاً إصدار كتاب رائع باللغة الألمانية، غني بالصور عن القلعة وأعمال التنقيب فيها من إعداد كولماير وغونيلا وخياطة، سيقوم الأستاذ خياطة بترجمته قريباً إلى العربية.

تألّف الكتاب من ١٢٠ صفحة ضمت ١٦٠ صورة ولوحة ومخططاً، وقد زُينت صفحة الغلاف الأولى بصورة جوية لمدينة حلب تتوسّطها القلعة الشمّاء، وضمت صفحة الغلاف الأخيرة صورتين للجدار الشمالي والشرقي لمعبد إله الطقس بألواحه البازلتية النافرة الجميلة.

قُسِّم الكتاب بعد المقدمة إلى ثلاثة أقسام تضمن القسم الأول منها، وضمن ١٨ صفحة، لمحة عن الفترات الزمنية في حلب وما حولها بدءاً من فترة ما قبل التاريخ والفترة السورية القديمة في الألف الثاني قبل الميلاد حيث كانت حلب عاصمة مملكة يمحاض وصولاً إلى الفترة الآشورية الحديثة ثم الفترات الأخمينية والهلنستية والرومانية والبيزنطية، ثم الفترات العربية الإسلامية مع الفتح العربي والطولونيين والإخشيديين والحمدانيين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، ثم فترة الانتداب الفرنسي والاستقلال الذي تمّ عام ١٩٤٦. وتعلمنا المصادر التاريخية عن سكن القلعة بدءاً من سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني (٩٦٧ - ٩٩١ م). كما بنى بنو مرداس قصورهم في أعالي القلعة، وأقدم كتابة

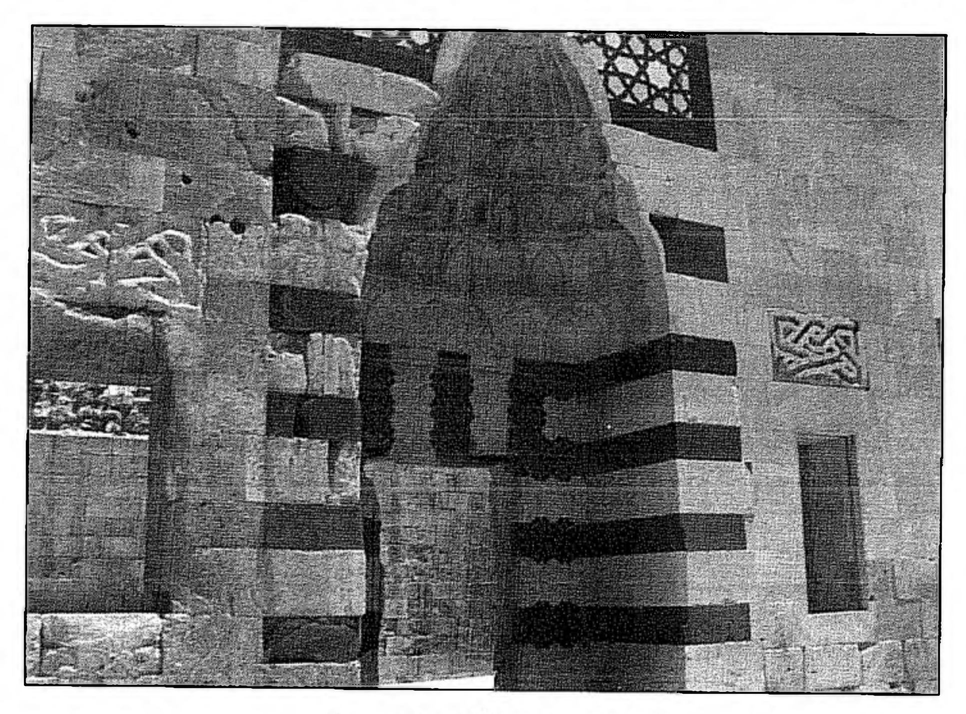
عربيـة وُجـدت في القلعـة تـذكر محمـود بـن نصـر بـن صـالح وتعـود إلى العـام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ - ١٠٧٣ م. ثم بنى الملك السلجوقي رضوان "دار العواميد". كما قام نـور الـدين محمـود بن زنكي (١١٤٦ - ١١٧٤ م) ببناء "دار الذهب" فيها. لكن الملك الظاهر غـازي (١١٨٦ - ١٢١٦ م) ابن صلاح الدين الأيوبي كان من أعظم البناة في حلب وقلعتها بالـذات، وقـد بنـى قصـر "دار العز" وفيه حدائق وأشجار، وبعد حريقه عـام ١٢١٢ م أعاد بنـاء القصـر وأسـماه "قصـر الشـخوص" وأغناه بالرسوم والزخرفة. وخلفه في ملك حلب ولـده الملك العزيـز محمـد (١٢١٦ - ١٢٣٧ م) ثـم حفيده الناصر يوسف الثاني (١٢٣٧ - ١٢٦٠ م)، وكانـت جدتـه ضيفة خـاتون هـي الـتي بنـت مدرسة وجامع الفردوس جنوب المدينة خارج الأسوار خلال وصايتها على حفيدها.



الكتابة الأيوبية عام ١٢٤٥

ثم تمّ الانتقال مع القسم الثاني من الكتـاب، وشمـل ٤٢ صفحة، إلى وصـف القلعة الحالية بأبوابها الدفاعية ومدخلها وسورها وأبراجها مع ذكـر القاعـة المسماة الفارسية والقاعة البيزنطية تحت الأرض، وحمام ومسجد نور الـدين ومحرابه الخشبي الجميـل المفقـود منـذ عـام ١٩٢٢ والمسـجد الأيـوبي بمئذنتـه المربّعـة في الشـمال، وكـذلك القسـم الغربـي السـكني مـع شـوارعه مـن الفـترة العثمانيـة، وقـد تمّ كشفه ضـمن أعمـال الترمـيم الكـبيرة الـتي تقـوم بهـا مشكورة مؤسسة الآغا خان للثقافة في القلعـة منذ سنوات، وشملـت القصـر الأيـوبي وثكنـة إبراهيم باشا وبعض الأبراج الدفاعية وسواها، مما سهّل أمر زيارة مختلف أنحاء القلعة وبخاصـة القسم الغربي المطل على أسواق المدينة أمام السياح والـزوار. وقـد غطّت الصـور أهـم المعـالم الجديرة بالزيارة من الكتابات المرداسية والزنكية والأيوبية والمملوكية والعثمانية. وقـد تم كشـف

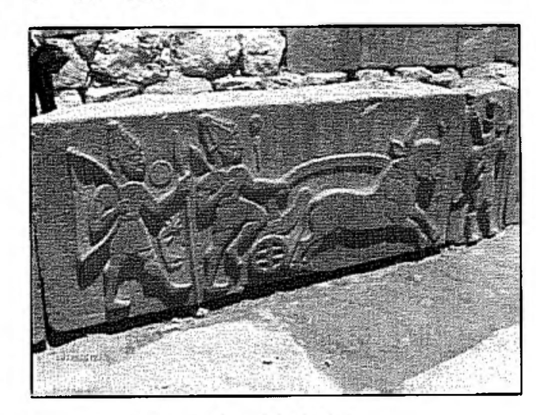
كتابتين أيوبيتين غير معروفتين من قبل تذكر إحداهما صلاح الدين الأيوبي أو أحد أبنائه، والكتابة الثانية مؤرّخة من عام ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م أيام صلاح الدين يوسف الثاني آخر السلاطين الأيوبيين، والذي خنقه هولاكو بيده في عاصمته تبريز، بعد خسارة جيشه في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ م. وقد بيّنت الصور الجميلة تفصيل المدخل الرئيس المتعرّج بأبوابه الأيوبية المعدنية والمؤرخة عام ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م و٦٠٨ هـ/١٢١١ م، وكذلك البرجين البارزين في المنحدر الشمالي والجنوبي للقلعة واللذين تمت إضافتهما أيام الأمير جكم إثر تدمير تيمورلنك للمدينة عام ١٤٠٠ م.



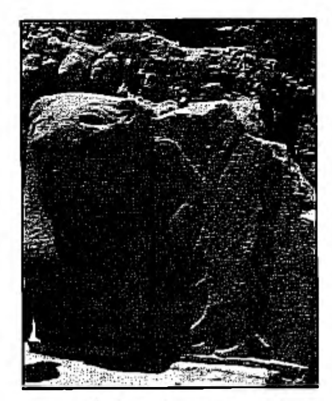
واجهة القصر الأيوبي في القلعة

أما القسم الثالث من الكتاب فقد تكلّم، ضمن ٤٠ صفحة، عن حفريات البعثة السورية - الألمانية المشتركة التي نتج عنها، بعد إزالة الطبقات العلوية العائدة إلى مختلف الفترات العربية الإسلامية والهلنستية وعلى عمق أكثر من عشرة أمتار من سطح الحفرية، الكشف عن معبدين من الألف الثاني والأول قبل الميلاد، مع وجود أحجار تأسيس ضخمة

ألواح من معبد إله الطقس



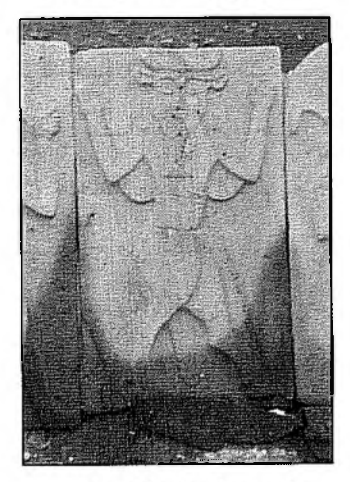
إله الطقس في عربته



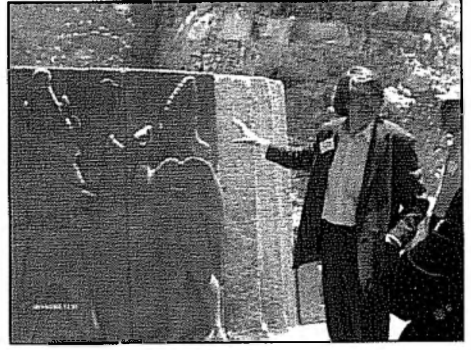
الرجل السمكة والأسد



اللوح المكتشف عام ١٩٢٩



لوح جني في المعبد



المنقب كاي كولماير أمام إله الطقس والملك



أسدان متقابلان

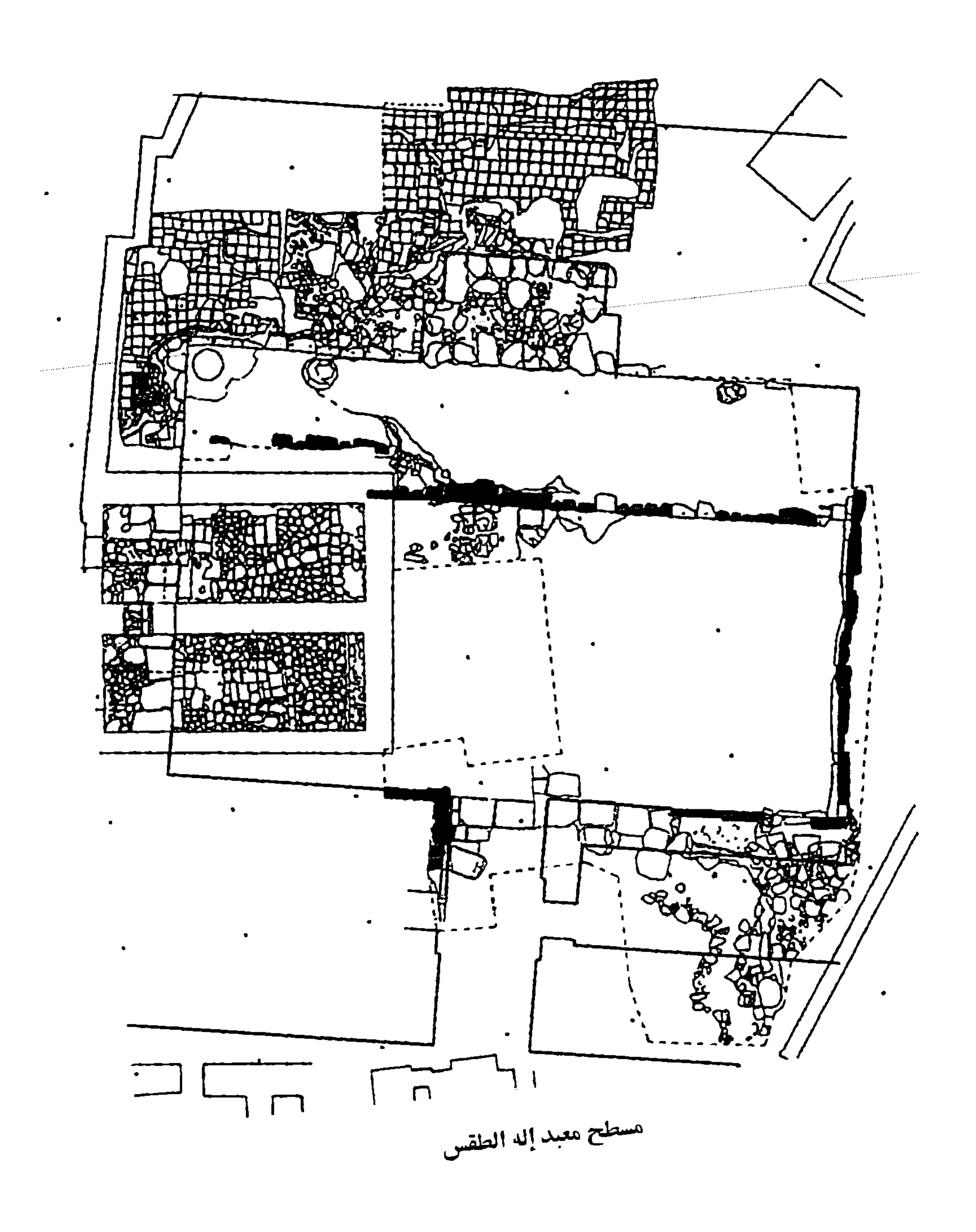
بارتفاع ١,٢٠ م بدون رسوم عليها في المعبد الأقدم، ووجود أكثر من ثلاثين لوحاً معظمها بازلتي تضم رسوماً نافرة لحيوانات وملوك وآلهة من حوالي القرن العاشر قبل الميلاد والفترة الحثّية، تصدّرها جهة الشرق لوح ملك أمام إله الطقس الحلبي مع كتابة هيروغليفية - حثّية من القرن الحادي عشر قبل الميلاد. بينما وُجد في الجهة الغربية من المعبد قرب المدخل وفي آخر أيام موسم التنقيب الأخير عام ٢٠٠٤ تمثال أسد ضخم وبقربه رجل على هيئة سمكة مما هو معروف لدى الآشوريين، وتمثال محطم لأبي الهول (سفينكس).

لقد ظهرت في الطبقات العلوية فوق المعبد لقى من مختلف الفترات الهلنستية والإسلامية من أوانٍ فخارية وحلي وطاسات برونزية وأسرجة وسواها أرفقت بـ ٢٠ صورة لبعض نماذج لها. وظهر في القبو الذي يعود إلى القرون الوسطى أول لوح بازلتي نافر لبقرتين أمام شجرة الحياة وإلى جانبه تتابعت مشاهد عشرين لوحاً نافراً منها لوحة إله يحمل قوساً كبيراً يليه إله يحمل عصا معكوفة وأخرى ذات ثلاث شعاب. تخلّلت الجدار الشرقي للمعبد الحاوي على تمثال بحجم كبير لإله العاصفة يقود عربة وعدّة أحجار بازلتية أو كلسية على شكل نوافذ وهمية فيها زوج من الضفائر المستمرة، والمشاهدة عادة في المعابد الحثّية كما هو الحال في معبد عين دارة جنوب بلدة عفرين وفي الجدار الشرقي من المسجد الكبير في القلعة، حيث يوجد حجر حثي أعيد استعماله في البناء. ومن المعروف أنه سبق أن اكتشف بلوا دو روترو مدير مصلحة الآثار عام ١٩٢٩ في القلعة لوحاً بازلتياً ضخماً يحتوي مشهداً لجنيين مجنّحين في حالة حركة أمام قرص الشمس وهلال القمر، وهو محفوظ حالياً في حديقة المتحف الوطني الخارجية بحلب. لقد تمّ في الكتاب عرض ٤٠ صورة رائعة للألواح البازلتية النافرة من جدران المعبد الحثي. ويبدو أن هذه الألواح ذات الرسوم النافرة للآلهة والإنسان الثور هي الأصل لما وُجد بعد قرنين أو ثلاثة في أسفل جدران القصور الآشورية في شمال العراق مثل خورسآباد ونينوى بغية تزيينها.



معبد إله الطقس

أما بالنسبة إلى معبد إله الطقس وهو بأبعاد ١٦.٨٥ × ٢٦.٦٥م فيبدو أنه قد تعرّض إلى عدة مراحل في بنائه : أقدمها من عصر البرونز القديم وقد جاء ذكره في رُقُم إبلا ، وتليها مرحلة البرونز الوسيط وإليها تعود أحجار التأسيس (أورتوستات) الضخمة بارتفاع ١.٢٠ م في القسم الشمالي من المعبد ، وآخرها المنحوتات البارزة من القرن العاشر قبل الميلاد إلى الجنوب من أحجار التأسيس المذكورة سابقاً. أما الجدار الشرقي للمعبد ، حيث تمثالا الملك وإله العاصفة ، فتذكر الكتابة الهيروغليفية الحثية "الملك البطل تاإيتاس Taitas ملك باداساتيني Padasatini... " ويعيد خبير اللغات دافيد هويكنز اللوحات إلى عام ١١٠٠ ق.م وإن طراز إله الطقس هو حثّي ، بينما يبدو الملك أمامه مع الكتابة من طراز آخر أكثر حداثة. ولم يُعرف حتى الآن المدخل إلى المعبد ، والمفروض أنه من الجنوب حيث توجد حفرية من الفترة البيزنطية يجب إزالتها بالكامل للكشف عنه. زاد عدد اللوحات البارزة على ٣٤ لوحة ضمّت أروع المشاهد لحيوانات عادية وأسطورية وآلهة وملوك وسواها فيها ملامح كاشية وآشورية وحثية ، وهي جديرة بأن تصان وتعرض على زوار القلعة لأنها جزء من تاريخ المدينة وتراثها عندما كانت

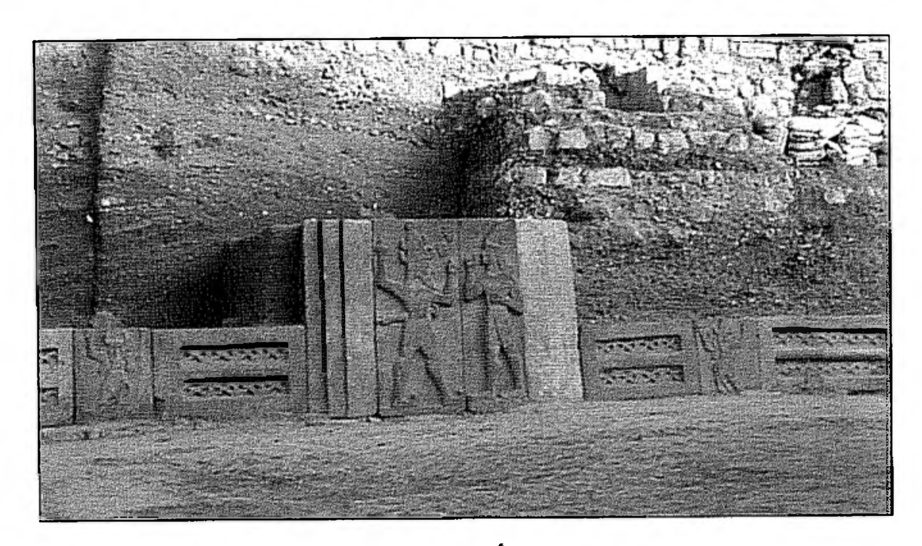


مسطح معبد إله الطقس

حلب عاصمة مملكة يمحاض في الألف الثاني قبل الميلاد، وكذلك مركز حج يضمّ معبد إله العاصفة تقصده جموع سكان المدن المجاورة، وقد ذُكر هذا المعبد بشكل خاص في محفوظات إبلا في الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن المؤسف أن المسرح ومدرجه الذي تم بناؤه عام ١٩٨٢ قد حدّ من التوسع في حفريات معبد إله الطقس جهة الشرق. وربما كانت البقعة أسفل الجهة الغربية للمدرج تحتوي على معبد الإلهة خِبات زوجة إله الطقس حدد، كما قد تكون هناك كذلك محفوظات مملكة يمحاض في الألف الثاني قبل الميلاد.

إنه كتاب رائع سيضيف لبنة ثقافية توضع بين أيدي زوار القلعة حين ترجمته، ويكون دليلاً جيّداً لا يعرّف بتاريخ ومباني القلعة فقط بل بذاكرة المدينة والمنطقة وحضارتها.



إله الطقس وأمامه الملك تاإيتاس

لقد كنا نأمل عند بدء التنقيبات في القلعة أن تُكتشف رُقُم مسمارية تتكلم عن حلب ومملكة يمحاض وملكها يريم ليم وابنته شيبتو التي تزوجها زمريليم ملك ماري، مما سردته علينا محفوظات مملكة ماري. وجدنا بدل ذلك معبد إله العاصفة الذي كان يحج إليه سكان المدن المجاورة مما يدل على أن حلب كانت دوماً منارة حضارية، وهذا رائع. بقي علينا الآن:

١) إبراز معبد إله العاصفة المكتشف والفريد بأبعاده وألواحه وإبقاؤه في موقعه، وحمايته من العوامل الجوية المحيطة والرطوبة بإقامة سقف بلاستيكي مناسب وإبعاد المياه عن الأساسات، وإعداده بالشكل الأفضل لتتم زيارته من قبل زوار القلعة، وذلك بعمل مدخل ومخرج لتسهيل الزيارة دون المساس بالألواح والإضرار بها.

٢) حبّذا لو يُسمح للمنقب ويشجّع على المضي في توسيع حفريته جهة الجنوب والشرق ليستكمل الكشف عن المدخل الرئيس للمعبد في الجنوب. وربما نكون محظوظين فتكتشف بعض رُقُم مسمارية أو محفوظات من الفترة العمورية، فنعرف تاريخ حلب من أرضها مدوّناً من قبل أبنائها بدل أن نجمعه نتفاً من هنا وهناك، من ماري وألالاخ وإبلا وكركميش وحتوشا وسواها. أجل، لدينا أكثر من مئة بعثة تعمل في الكشف عن تراثنا الحضاري في جميع أنحاء القطر، منها ما احتفل بمرور أكثر من ٧٥ عاما على عمله في الموقع نفسه مثل أوغاريت وأفاميا. فما ضرّنا لو سمحنا وساعدنا، مادياً إذا لزم الأمر، البعثة العاملة في قلعة حلب وهي بعثة سورية – ألمانية مشتركة على متابعة التنقيب والبحث حيث تعمل مؤسسة الآغا خان للثقافة منذ سنوات في أعمال الترميم والتنظيم والإعداد السياحي في الموقع نفسه، أعني القلعة ومشاريع إعادة الإحياء والتوظيف للمباني المحيطة بالقلعة!

ورشة عمل دولية للحفاظ على معبد إله العاصفة في قلعة حلب الثلاثاء والأربعاء ١٤ و١٥ /٦ /٢٠٠٥

بدعوة من المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق وبتنظيم من مؤسسة الآغا خان للثقافة أقيمت ورشة عمل دولية في قاعة العرش بقلعة حلب يومي ١٤ و١٥ /٦ /٢٠٠٥ وذلك لدراسة عملية الحفاظ على المعبد المكتشف في حفريات البعثة السورية – الألمانية المشتركة في قلعة حلب والذي يعود إلى فترة الألف الثاني والأول قبل الميلاد، واقتراح الحلول الملائمة لعملية التغطية والخطوات المستقبلية لتحويله إلى متحف يشاهده زوار وسياح القلعة. وقد شارك في ورشة العمل هذه صندوق الأوابد الدولي WMF وصندوق كابلان وخبراء في عملية الحفاظ ومعماريون دوليون.

ألقيت في الافتتاح كلمات المديرية العامة للآثار والمتاحف ومديرية آثار حلب وممثل صندوق الأوابد العالمية ومدير الجانب الألماني للبعثة المشتركة المنقّبة في القلعة والدكتور ستيفانو بيانكا مدير برامج دعم المدن التاريخية في مؤسّسة الآغا خان للثقافة والمهندس عدلي قدسي ممثل مؤسسة الآغا خان للثقافة في سورية وديناميكي ورشة العمل ومحرّكها.

ثم استمع المشاركون إلى وصف موجز للأعمال الجارية في القلعة من قِبَل مؤسسة الآغا خان مع عرض نتائج الحفريات في المعبد وأهميتها. كما تمّت زيارة موقع الحفريات ميدانياً ومشاهدة الألواح الحجرية ومعظمها بازلتية برسومها البارزة الرائعة. ثمّ عرض الخبراء والباحثون أفكارهم على الحضور، كل بحسب اختصاصه وخبرته وممارسته. فتحدّث الدكتور ماتياس كناوت من ألمانيا عن الحفاظ وترميم العناصر الأثرية، كما تحدّث الدكتور جيتانو بالومبو عن صندوق الأوابد الدولي، وتحدّث المعمار عمار خمّاش من الأردن عن تجربة بناء كنيسة الرسل في مادبا لحماية الفسيفساء فيها. كما بيّن الخبير يورغ آيسفيلد من ألمانيا عدة أنواع للأسقف وخيام الحماية. كما تحدّث إيتيان لينا من المعهد الفرنسي للشرق الأوسط عن تجربة بناء معرض آثري من عدة غرف في موقع دورا أوروبوس على الفرات. كما اطلع الحضور على مقترحات البعثة الأثرية المنقّبة ومؤسسة الآغاخان ومداخلات الخبراء ومناقشاتهم حول ضرورة استكمال الدراسات الهيدرولوجية والبيئية والإنشائية للتربة والأساسات والألواح المكتشفة تمهيداً للوصول إلى نوع التغطية المناسبة الواجب تأمينها. وخلص المجتمعون إلى التوصيات والمقترحات التالية:

١) إنهاء الحفريات اللازمة في الموقع كما هو مبين في مخطط للموقع.

٢) إعداد دراسة شاملة للأوضاع الفيزيائية والبيئية كما هو مفصل أدناه:

* نظام مراقبة دقيق وعلمي للبيئة (يستمر مدة سنة على الأقل) لقياس الرطوبة النسبية ودرجات الحرارة...
* تحليل وتقييم الحالة الراهنة للألواح الحجرية وللمعبد بالتفصيل (لتعريف مشاكل محدّدة)
* تقييم الحالة العامة للحفاظ على الموقع بكامله بما في ذلك الأرضية وجدران الحفرية.

* دراسة حركة المياه بما في ذلك تصريفها.
* دراسة ميكانيك التربة وجيوجولية الموقع بما في ذلك الصخرة الأم.
* تقييم حالة الأملاح في تربة الموقع.

٣) القيام بالتجارب الفيزيائية وتقارير سبور التربة والعناصر الإنشائية مع إعداد مخططات طبوغرافية تفصيلية لدعم دراسات التغطية المناسبة.

٤) اختيار خبراء وتكليفهم بإعداد الخطة المرجعية وخطة العمل للدراسات التالية (من أجل تغطية مناسبة):

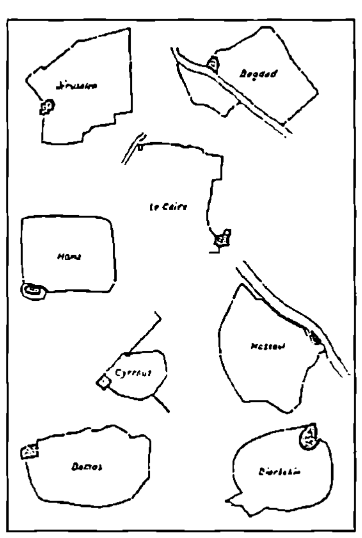
* قيم المعبد التاريخية والعمرانية.
* حلول بديلة لحجم ووظائف التغطية وشكلها الإنشائي اعتماداً على نتائج التجارب الأولية.
* أمور السياحة (أعداد الزوار وتأمين الأمن والسلامة، الكوادر اللازمة للصيانة وتأمين الموقع والميزانية اللازمة لذلك).
* خطة لإدارة الموقع في المستقبل (وتتضمّن التغطية والعرض المتحفي).

(قامت مؤسسة الآغا خان للثقافة بطباعة نشرة رائعة مع الصور وقرص .C.D عن ورشة العمل ومحاضراتها)

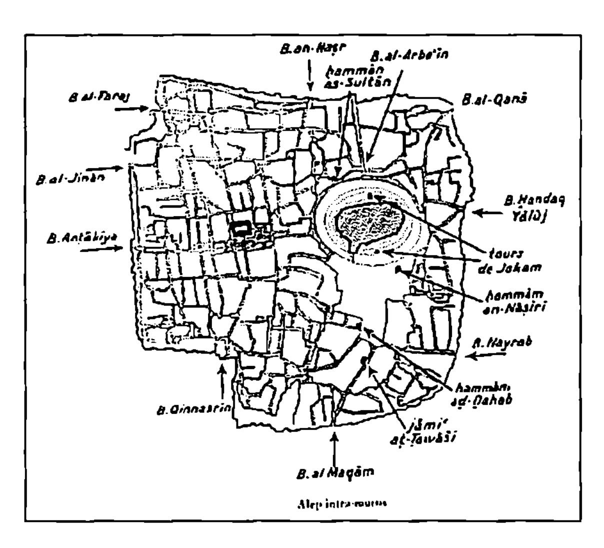
٣) السور البدائي لمدينة حلب [(١)]

ترجمة مقال الباحث جان سوفاجيه

نلاحظ عند دراسة التحصينات القديمة لمدينة حلب أنها تتميز بشيئين : أولهما المسار غير المنتظم للجهة الجنوبية ، وثانيهما الموقع غير المألوف للقلعة المبنية وسط المدينة بدل أن تنشأ مرتفعة فوق جزء مطل من الأسوار أو أن تشغل أحد زواياه كما هو الحال في الحصون الدفاعية عادة (اللوحة I وII) وبما أنه ليس هناك أية خطوط طبوغرافية تبرر وجود القلعة في موقعها الحالي غير المألوف لذا وجب البحث عن الأصل في التعديلات التي تعرّضت لها أسوارها منذ إنشائها.



اللوحة رقم I



اللوحة رقم II

---

(١) نشر مقال سوفاجيه وعنوانه L'enceinte primitive de la ville d'Alep في كتاب mélanges de l'institut français de Damas, t.1(1929) ونشرتُ ترجمة المقال في مجلة "المهندس العربي" في العدد ٦٩ آذار نيسان عام ١٩٨٣ ص ٦ - ١١

لقد ذُكر تاريخ التعديلات التي طرأت على الأسوار في عدة أبحاث سابقة لكني أعتقد أنه من الممكن تحديد المسألة بشكل أكثر دقة ممن سبقوني بالاعتناء بجمع المعطيات الناتجة عن الأرض والتي يمكن أن نستخلصها من دراسة النصوص التاريخية.

إن الدليل المباشر للسور يؤمن لنا في المواقع معلومات متغيرة كما لاحظ فان برشم، لأن السور في وضعه الحالي من عمل الأيوبيين والمماليك وتعود الكتابات التي يضمّها إلى تواريخ متأخرة لا تعطينا معلومات عن تاريخ السور قبل خمسة أو ستة قرون.

وهكذا نجد أن النصوص التاريخية التي وصفت السور وخاصة وصف ابن شدّاد لمدينة حلب الذي أغناه ابن الشحنة بملاحظاته الخاصة، مكّنتنا من متابعة تطور السور من خلال التعديلات المتتابعة التي تعرّض لها، ولا يمكن متابعة تاريخ السور بشكل مفصل دون الرجوع إلى مجموعة ضخمة من النصوص التاريخية. وفي الصفحات التالية لم أتمكن من حل جميع المشاكل اللازمة لدراسة السور آملاً أن أعود يوماً إلى تطور الدراسة الطبوغرافية لمدينة حلب وتدقيقها جيداً.

ولن أتقبل جزء الفرضية الذي يتضمن محاولة الترميم هذه، حيث لا يمكن قبول نتائج نهائية ما لم تكن معتمدة على الوثائق المعمارية.

سور حلب حتى القرن الثالث عشر:

إن الدلائل الأولية الدقيقة لمسار سور حلب التي يعطينا إياها ابن شداد تعود إلى الأعمال التي قام بها نور الدين بنهاية القرن الثاني عشر، وقبل ذلك التاريخ لم يجرِ سوى بعض إعادات ترميم للسور لم تغير بشكل ملحوظ الشكل العام للسور الدفاعي.

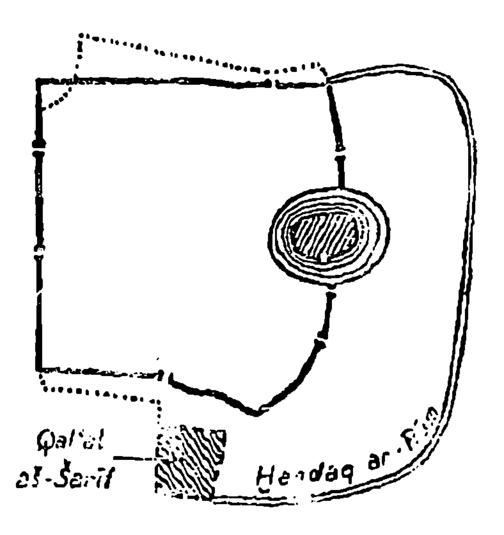
ويمكن القبول بأن السور البيزنطي المرمم والمعدل في تفصيله والمبني من قرن إلى آخر في المكان نفسه لا زال قائماً أيام الظاهر غازي. ويفسَّر ذلك بسهولة، إذ أن إنشاء نظام دفاعي كامل حول مدينة ما هو عمل ضخم ويتطلب تحقيقه زمناً طويلاً وتكاليف باهظة، لذلك يبنى السور الدفاعي ويرمم في مكانه مع مرور الزمن، ولا يخضع لإعادة إنشاء كاملة إلا إذا أصبح لا يؤمن الحماية الكافية أمام وسائل هجوم جديدة أو في حالة التوسع الكبير في ضواحي المدينة المجاورة مما يتطلب انتقال مركز المدينة العمراني.

وقد أصبح من الواجب تعديل التحصين في المدن السورية زمن الصليبيين بسبب تطور الفن العسكري آنئذ، وقد ظلت مدينة حلب في القرن الثاني عشر بلدة ريفية صغيرة ليس لها القيمة الاقتصادية أو الاستراتيجية أو الإدارية التي كانت لها في العهود الكلاسيكية وحتى أيام البيزنطيين.

خندق الروم:

وهو خندق حفره البيزنطيون عند حصارهم حلب عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) وكان هدفه بدون شك حصار القلعة لأنه كان يشكل إلى الشرق من القلعة نصف دائرة كبيرة جداً قطرها بقدر عرض المدينة.

وقد فُكر باستخدام هذا الخندق في القرن الثالث عشر لغاية دفاعية، فتمّ تعميقه وتنظيم منحدره مع إقامة جدار فوقه مبني بالحجارة الناتجة عن حفر الخندق ذاته، وهذا السور الخارجي الممتد من باب المقام وباب النيرب وباب القناة يرسم لنا بدقة خندق الروم بدءاً من قلعة الشريف وحتى المكان الذي يتصل فيه مع خندق المدينة في الزاوية الشمالية الشرقية من السور القديم. (الشكل رقم ١).



الشكل رقم /١/ سور نور الدين، السور المنقط وخندق الروم يدلاّن على السور الحالي

لـذلك لم تخضع تحصينات المدينـة إلى تغـييرات أساسـية خـلال القـرون الخمسـة الأولى للهجرة. ولا نميز سوى حدثين هامين لا علاقة كبيرة لهما بتطـور السـور، لكـن لهمـا تـأثير هـام على تعديل مساره وهما خندق الروم وقلعة الشريف.

وقد اختفت آثار السور في معظمه بسبب اختلاطه مع خندق المدينة الذي رُدم مع مرور الزمن، لكـن لا زال شـكله واضـحاً في القسـم الواقـع إلى الغـرب مـن بـاب القنـاة لأنـه تم حفـر الخندق هناك في صخر مرتفع.

هذا وإنّ استعمال الخندق كمصدر للمواد اللازمة لبناء السور جعله يزداد عمقاً بشـكل ملحوظ بعد أن كان قليلاً في الأصل، بحيث أن الصخر قد ارتفع في بعض الأماكن إلى أكثر مـن عشرة أمتار فوق الشارع الحالي المبني بدوره فوق الردم.

قلعة الشريف:

وهي باسم الشريف أبو علي الحسـن الحتيتي الـذي سلّم حلـب إلى مسـلم بـن قـريش العقيلي، وعند موت مسلم قام الشريف عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ - ١٠٨٦م) ببناء هذه القلعة إما لأنه خاف أن يقتله الأهالي كما تؤكـد النصـوص التـاريخية وإمـا بهـدف الاسـتيلاء علـى المدينـة التي لم تعرف منذ موت حاكمها العقيلي حاكماً فعلياً سواه، وقـد سمحـت لـه نقطـة الاسـتناد هذه بأن يفاجئ حامية القلعة الحقيقية والتي كان يحكمها أحد قواد مسلم الموثوق بهم.

ويصف ابن شداد قلعة الشـريف قـائلاً: "أمـا بالنسـبة لقلعـة الشـريف فهـي ليسـت قلعـة بالمعنى المعروف إذ أن جدار السور كان يتبع في الواقع السور الحالي نفسه، بينمـا كانـت القلعـة تشغل التلة الملاصقة للمدينة في طرفها الجنوبي وسورها مـواز لجدار السـور، وبتعبير آخـر إن قلعة الشريف كانت مبنيـة دون اتصـال مـع تحصـينات المدينـة وكـان سـورها يشـكل حـول التلـة حزاماً كاملاً مغلقاً يشبه بشكله العام السور المحيط بالمدينة لكن بقياس أصغر.

ويمكن التعرّف بسهولة على موقع قلعة الشريف، وهـي الحـي الـذي يحـتفظ حتـى الآن بالاسم نفسه، وهي قائمة على مرتفع صخري يقع خارج السور القديم في طرفه الجنوبي.

ويُصعب بالمقابل معرفة حدودها لأنّ السور فيها قد تهدم عام ٥١٠ هـ (١١١٦ - ١١١٧م) كما أنه ليس من المؤكد أن السور الذي تم إنشاؤه لاحقاً على السفح الغربي والجنوبي للتلة هو المسار الصحيح وإن كان يمكن قبوله مبدئياً ، ونستدل على الواجهات الأخرى للقلعة بالأرض في الشرق وفي الشارع المتجه من الشرق إلى الغرب في الشمال.

ومن المعروف في الواقع أن إنشاء شوارع بشكل مقصود أو عشوائي حول سور أو بناء معماري هام تبقى مبينة حدود هذا السور بعد اندثاره بفترة طويلة.

كما نجد من جهة أخرى أن أبواب السور تصبح بداية شريانات الشوارع الأساسية ولا يمكن تعديلها دون إحداث خلل واضح في اقتصاد المدينة ، حيث تتغير العادات المكتسبة ونظام الملكية في وقت واحد ، ويجري ذلك أيضاً وبدرجة أقل تأثيراً في جميع شوارع المدينة الأخرى. أما في أوروبا فنجد غالباً أن الشخصيات أو الهيئات الاجتماعية القادرة على تطبيق السلطة القسرية على الأفراد تشكل استثناءات لهذه القاعدة ، بينما نادراً ما يحدث ذلك في الشرق ، وعلى الأقل في الفترة التي تهمنا.

ويجدر أن نذكّر هنا باختصار بهذه المبادئ الأساسية : أن ديمومة الطريق التي أشرنا إليها ستكون لنا عوناً كبيراً في الاهتداء - وعلى الطبيعة - إلى السور والملامح البدائية لمدينة حلب.

سور نور الدين:

وجدنا سابقاً أن الإصلاحات الأولى الهامة المنفذة في السور حسب مخطط معين تعود إلى القرن الثاني عشر ، وفي الواقع فإن الزلزال العنيف الذي حدث عام ٥٥٢هـ (١١٥٧م) دمر أسوار حلب بشكل جزئي تاركاً المدينة عرضة لهجمات الفرنجة وملاحقة الأناضول. وقد أُجبر نور الدين على تأمين المدينة وبدون تأخير ضد هذين الخطرين المهدّدين ، وهكذا بدئ منذ السنة التالية ٥٥٣ هـ (١١٥٨م) بإقامة فصيل Fausse braie (وهو جدار يتقدم السور المحصن حسب ابن الشحنة).

ويبدو أن الظروف قد فرضت هذا الحل غير الطبيعي نسبياً ، إذ أن مجاورة الفرنجة تطلبت ضرورة التصرف بسرعة ، كما أن كثرة الحصون المتهدمة لم تكن تسمح بتخصيص

سوى مبلغ ضئيل لترميم كل منها، وبإنشاء هذا الفصيل كان بالإمكان ترك السور الأساسي المحصّن كما هو على الأقل بدون أن يتأثر من إنشاء الفصيل أمامه وذلك للسرعة والاقتصاد، وكان لا بد من الإصلاحات كي لا تبقى صلاحيته مهددة بالتصدّع. لقد عوّض وجود الجدار الأمامي ما ضاع من قيمته الدفاعية بسبب الخراب الناتج عن الهزات الأرضية. نجد بالإضافة إلى ذلك أن تطور الفن العسكري آنئذ لم يكن يسمح بإنجاز ترميم كامل للسور.

ويدلنا ابن شداد بدقة على حدود ذلك الفصيل: "... لقد بنى نور الدين جداراً أمامياً (فصيلاً) وقد كان السور المحصّن يمتد آنئذ من الباب الصغير إلى باب العراق ثم من قلعة الشريف إلى باب قنسرين وإلى باب أنطاكية ثم من باب الجنان إلى باب النصر وإلى باب الأربعين: وقد أعطي إلى هذا الفصيل شكل سور ثان ذي ارتفاع أقل أُقيم أمام السور الأساسي".

إن النقاط المرجعية المقدمة من المؤرخ من حيث عددها ودقة مواقعها كانت كافية: فقلعة الشريف معروفة والأسماء السبعة هي لأبواب حلب التي يُعرف أماكن معظمها على الطبيعة.

١) **باب أنطاكية:** ويطل على الجبهة الغربية في الجهة التي تحمل اسمه من المدينة، ونعرف جيداً بفضل كتابة فاطمية أن الباب موجود في موقعه الحالي قبل أعمال نور الدين.

٢) **باب الجنان:** ويبدو أنه بقي على حالته الأصلية ضمن الجهة الغربية من السور، وفي الواقع فإن في قسمها الجنوبي عدة أبراج لا زالت محتفظة بأساساتها القديمة. فإذا أضفنا ذلك إلى قِدم موقع باب أنطاكية والمسار المستقيم تماماً للأسوار نميل إلى الاعتقاد أن الجبهة الغربية بقيت محافظة على موقعها الأصلي حتى باب الجنان رغم تعرضها للترميمات عدة مرات. وبالمقابل فإن شمال باب الجنان من السور يعود إلى أيام الظاهر غازي حيث يشاهد فوراً التضاد بين مساره المتعرج مع الانتظام المطلق لقسم السور الذي أرجعناه إلى تاريخ سابق.

٣) **باب النصر:** وكان يدعى حتى القرن الثالث عشر باب اليهود لأنه كان يؤدي إلى الحي الذي سكنه اليهود بحلب، بينما كانت مقابرهم تمتد خارجه. وقد أطلق الظاهر غازي عليه اسم "باب النصر" الذي يُعرف به الآن. وإذا كان مظهر باب النصر قد تغيّر بالكامل عند

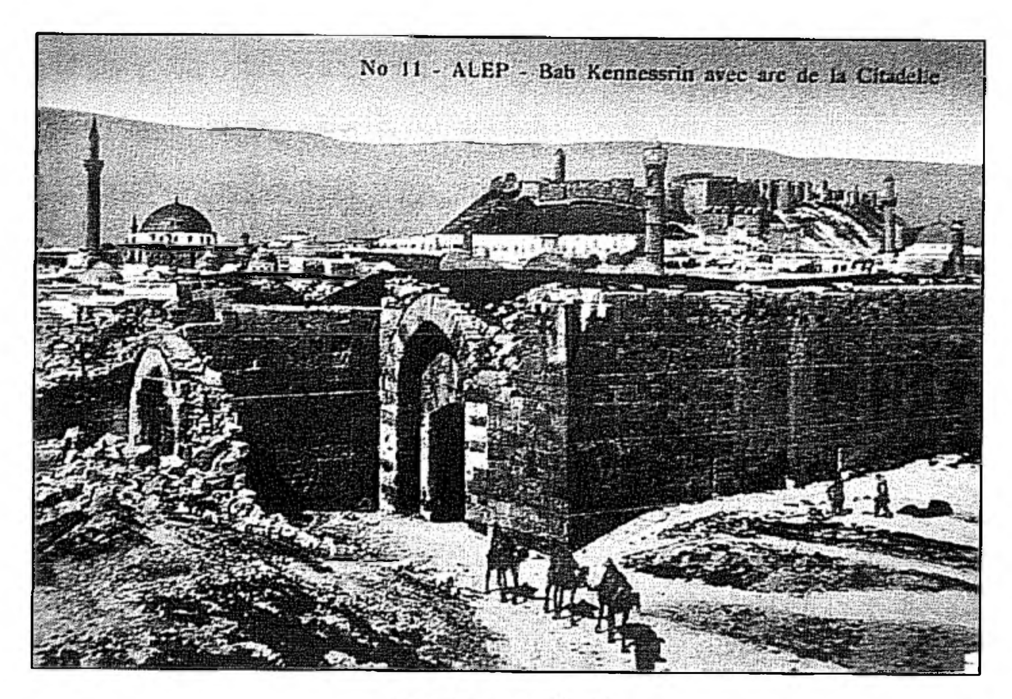
إعادة بنائه في القرن الثالث عشر، لكن لا شيء يجعلنا نفترض أن مدخله بالذات يمكن أن يكون قد تغير أو انتقل من مكانه أكثر من عدة أمتار.

وليس الأمر كذلك في الجبهة الشمالية، إذ أن كلمة "إنشاء" التي استعملها ابن شداد ليعبر بها عن الأعمال المنفذة شمال باب الجنان تدل على أن الموضوع لا يتعلق بترميم بسيط، وإنما بعمل يتضمن نوعاً من الأصالة وحتى الإبداع الفني الفريد في نوعه.

إن قسم السور الواصل بين باب النصر والزاوية الشمالية الغربية الجديدة من السور لا يمكن أن تعود إلاّ إلى الفترة الأيوبية، كما يؤكد ذلك المؤرخ نفسه. ويجب علينا أن نفتش على الطبيعة عن الموقع النظري للسور العائد لأيام نور الدين: ويبدو لنا للأسباب التي سبق ذكرها أن موقعه يجب أن يكون أكثر إلى الجنوب على طول الشارع الذي يجتاز بكامله الحي اليهودي، ذلك الشارع الذي يبدو أنه كان موجوداً منذ زمن بعيد والذي يمكن اعتباره يمثل جزءاً من شارع حول البلدة الذي كان يوازي السور القديم. ورغم صمت المصادر التاريخية يجب القول بانتقال السور إلى الأمام في جزء الجبهة الشمالية الممتد إلى الشرق من باب النصر، ما دام خندق الروم بدلاً من أن يتصل بخندق المدينة كما هو في الأصل نراه الآن قائماً على بعد ٣٠ م منه. إن بقايا برج مربع مبني بأحجار منحوتة وتدل إشارات البناء المحفورة فيه على أنه معاصر للقلعة الأيوبية تبرهن على أن هذا الجزء من السور تم بناؤه كذلك من قبل الظاهر غازي. ولا شك أن الجدار القديم كان يمتدّ بخط مستقيم من الموقع القديم الأساسي لباب النصر حتى خندق الروم إلاّ أن طبوغرافية الحي المتغيرة في الفترة العثمانية نتيجة بناء "المدرسة الرضائية" لم تبق أي أثر من السور المذكور.

٤) **باب قنسرين:** وتاريخه مشابه لباب النصر وقد غيّر موقعه عند ترميمه عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م). لكن من المستحيل القول بأن الباب قد تعرّض لانتقال كبير في موقعه والاّ لذكر ذلك المؤرخون لأهميته، وسكوتهم عن ذكر الموضوع برهان على عدم حدوثه.

أما بالنسبة للسور الحاوي باب قنسرين فقد اختفى في قسمه الشرقي بينما يبدو أن قسمه الغربي قد انتقل إلى الأمام في القرن الثالث عشر عند إعادة بناء باب قنسرين. ويبيّن مكانه الأصلي بدون شك الشارع الواصل بين الزاوية الجنوبية الغربية من السور الحالي وبين ساحة بزة، التي تدل على الزاوية الجنوبية الشرقية من السور القديم.



باب قنسرين مع برجيه

٥) باب الأربعين: وكان يطل على شمال القلعة وبدون شك بجوارها مباشرة، ما دام الباب والقلعة كانا متصلين برواق ذي أقواس. ورغم أن أسماء الأماكن الحالية للمدينة لا تذكر شيئاً عن هذا الباب المهدم منذ خمسة قرون، لكن يمكن تحديد موقعه بدقة وبدون صعوبة. ونعلم في الواقع أنه كان يقع قرب حمام السلطان ومقابل البرج الذي بناه الأمير جكم في سفح القلعة.

ويوجد اليوم مقابل البرج شارع يمتد من الشمال إلى الجنوب نجد في نهايته الجنوبية بقايا البرج المربع المذكور: وليس هناك أدنى شك في أن هذا الشارع قد بني فوق خندق السور القديم الذي كان يتصل بزاوية قائمة بالقلعة بدلاً من أن يتابع نحو الشرق كما هو الحال اليوم.

ويظهر تأكيد مشابه في الحالة الواقعية للأماكن لأنه لا السور ولا الباب تركا آثاراً، إلاّ أنه يشاهد في سور القلعة إلى الشرق من برج جكم باب خفي يطل على الخندق مغلق بمصراع من الحديد المطرق والمزين بحدوات حصان منقولة. ونتعرف على الفور في هذه الفتحة الصغيرة التي لا يتجاوز عرضها ٠.٨٧ م والمختفية في السور في الطرف المقابل للمدخل الرئيسي للقلعة

على الباب السرّي للقلعة ، والذي كان يفتح كما هو الحال في دمشق على الضاحية مباشرة. إذاً كان سور المدينة يمر إلى الغرب من هذا الباب.

كما يذكر نصّ المؤرخ من جهة أخرى المعالم القائمة في التلة "الجبيلة" على أنها واقعة خارج الأسوار مما يدل على أن السور في تلك الفترة لم يكن قد أحاط بالتلة والمعالم الأثرية فيها بعد.

ونجد أخيراً أن المكان المفترض لجدار السور يفسّر سبب إنشاء برج جكم الذي كان دوره حماية نقطة اتصال السور مع خندق القلعة ، ويبدو هذا الموقع مقبولاً وسيسمّى "باب الأربعين" (لوحة II) وهو في القسم الجنوبي من الشارع الذي يدلنا على مكان الخندق مقابل برج جكم وبالقرب من حمام السلطان ، أي حيث نجد في الوقت نفسه الشارع الذي كان يخترق المدينة من الباب والطريق الذي يخرج فيه نحو الشمال الشرقي : هذا والشارع الأخير هو الذي حدّد فيما بعد موقع باب القناة الذي كان موجوداً في الواقع "خارج باب الأربعين".

٦) **الباب الصغير وباب العراق:** وليس من الصعب تعيين مكانهما رغم عدم بقاء أي أثر ظاهر لهما وتغيير التسمية المكانية في الحي منذ فترة قصيرة.

كان الباب الصغير يطل على طرف خندق القلعة : حيث يوجد برج بناه جكم في سفح القلعة (اللوحة II) بتاريخ بناء البرج السابق نفسه ، مما يدلنا أيضاً على النقطة التي كان يتصل فيها السور بخندق القلعة. وعند تلك النقطة كان المكان التقريبي للباب الصغير.

أما باب العراق فكان يطلّ على شمال جامع الطواشي قرب حمام الذهب : إذاً فالباب موقّع في مكانه بدقة.

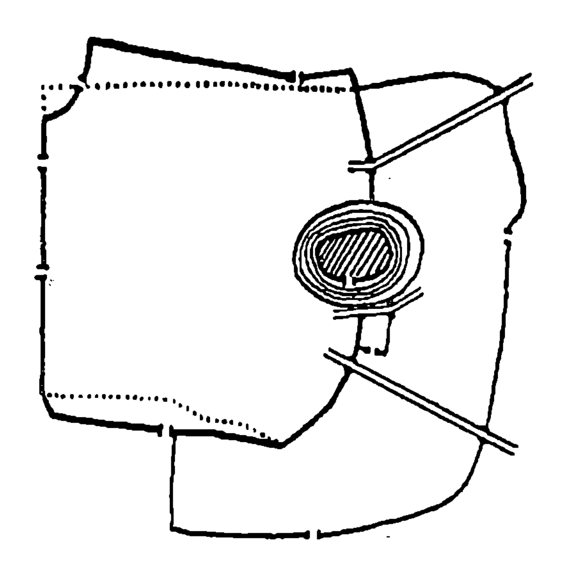
ونعلم أن السور جنوب هذا الباب كان يجتاز "حي بزة" وربما كان يتابع الشارع الذاهب من حمام الذهب إلى ساحة بزة ، أي إلى النقطة التي وضعنا فيها الزاوية الجنوبية الشرقية من السور القديم.

وهكذا نجد أن السور أيام نور الدين كان ذا شكل أكثر انتظاماً مما هو عليه حالياً ولم يكن يحيط بالكامل بالقلعة التي كانت وكأنها تمتطي السور (الشكل ١).

السور الأيوبي:

بدأت في سورية في القرن الثالث عشر فترة الإنشاءات العسكرية الضخمة: ويمكن القول أنه ليس هناك مكان أو قلعة في سورية لم يُعد بناؤها بالكامل في النصف الأول من القرن الثالث عشر. ويفسر ذلك بسهولة إذا أخذنا بالاعتبار التقدم الذي حصل في فن التحصين أيام الحملات الصليبية وكذلك بسبب الوضع السياسي.

لقد اهتم أمير حلب الظاهر غازي بشكل خاص بحماية ممتلكاته من الغزاة المحتلين، وهي حارم وأفامية وقلعة نجم، عن طريق الاعتناء بها وتحصينها أفضل تحصين مع تقوية جبهاتها إلى جانب إخضاع ما يجاورها لعمل السلطان بهدف توحيدها أو مركزيتها. ولم تُنسَ العاصمة حلب من أعمال تجهيز الإمارة فكانت هدفاً لأشغال هامة كان إنجازها يتطلب فترة نصف قرن على الأقل (الشكل ٢).



الشكل رقم /٢/ السور الأيوبي (الخط المنقط هو سور نور الدين)

لو حكمنا على تاريخ السور حسب الحالة التي تذكرها النصوص خلال هذه الفترة لوجدنا أنفسنا أمام ترميمات عرضية تماماً تنفذ بدون أي رابط فيما بينها وحسب الضرورة التي تقتضيها الساعة وحسب رغبة الحكام.

بينما إذا ربطنا بين أعمال الترميم حسب تواريخها وحسب مواصفاتها المعمارية نجد أن هذه الأعمال قد تم تنفيذها أيام حكم الظاهر غازي واللذين جاءا بعده، ونتساءل فيما إذا كانت الأعمال التي خضع لها السور خلال الخمسين عاماً لم تكن تنفذ بشكل نموذجي ومتتابع وبحسب مخطط معيّن.

من المستحيل تحديد فترات إنجاز الأعمال بدقة نظراً لاختفاء الكتابات التي تؤرخها ما عدا كتابات القلعة، ويمكن رسم الخطوط العامة لتواريخ أعمال الترميم قدر الامكان وتصنيفها بحسب أيام حكم الأمراء.

أيام الظاهر غازي (منذ ٥٩٢ هـ):

١) هدم فصيل نور الدين وإعادة بناء السور من باب الجنان إلى باب النصر مع تجديد بناء باب النصر.

٢) إنشاء السور شرقي دار العدل.

٣) إعادة بناء القلعة (٦٠٦ - ٦١١هـ).

٤) تعميق خندق الروم.

أيام حكم العزيز محمد:

٥) بناء جدار على خندق الروم.

أيام حكم الناصر يوسف الثاني:

٦) تجديد بناء السور من باب الجنان حتى باب قنسرين (٦٤٢).

٧) إعادة إنشاء باب أنطاكية (٦٤٣ — ٦٤٥) وباب قنسرين (٦٥٤).

وسنحاول تحديد هذه الأعمال بادئين بالأعمال المتعلقة بالسور البدائي الأساسي:

هدم الفصيل (fausse – braie):

ويبدو لنا ذا أهمية بالغة: لقد تم أيام حكم الظاهر غازي إعادة بناء جزء صغير فقط من السور القديم، حيث كان عمله الرئيسي مركزاً في إعادة بناء القلعة على وجه التحديد. وقد قام منذ استلامه الحكم بهدم السور، وكان ينوي منذ تلك اللحظة إعادة تحصين وبناء السور بكامله ما دام قد خصّه بشكل متعمد بعمل لا يمكن إهمال دوره في الدفاع عن المدينة.

ويدلّ المؤلف عن هذا التهديم بجملة تبدو غامضة للوهلة الأولى: "أمر برفع الفصيل" التي لا يمكن أن تعني أمراً بإقامة السور لسببين؛ أولهما أنه لم يكن بالإمكان متابعة هذا السور الثانوي مما يدل على أنه ما كان موجوداً، وثانيهما أن معظم الأعمال المنفذة في السور تستدعي إزالة الفصيل.

لقد تم انتقال الجبهة الشمالية أيام حكم غازي كما رأينا. وإذا قبلنا الانتقال النظري المفروض للجبهة الشمالية للسور البدائي فيجب نقل الجدار نحو الخارج بحوالي مئة متر في الزاوية الشمالية الغربية وحوالي عشرين متراً على الأكثر عند باب النصر وما بعده.

إعادة بناء السور بين باب الجنان وباب قنسرين:

سبق أن ذكر أن الواجهة الجنوبية تم تقديمها للأمام بينما أعيد بناء الجبهة الغربية في موقعها نفسه، ربما لأن قرب النهر ما كان يسمح بإزاحة السور، وهي عملية تبدو عامة في إعادة ترميم جميع الأسوار.

ومما يجدر ذكره أن أعمال الناصر يوسف أكملت تماماً أعمال الملوك الذين سبقوه: الواجهة الشمالية التي سبق أن أعاد بناءها الظاهر غازي من باب الجنان وحتى الزاوية الشمالية الشرقية. وكان العزيز محمد قد حمى المدينة في الشرق بإقامته سور على خندق الروم من الزاوية الشمالية الشرقية وحتى باب قنسرين، فركّز يوسف الثاني عنايته بباقي السور من باب قنسرين وحتى باب الجنان. وهكذا تمّت حماية المدينة من جميع جهاتها بإنشاءات جديدة حسب الأساليب الحديثة وبذلك تمّ إنجاز مخطط التحصين.

إعادة بناء القلعة:

هناك تقارير دقيقة من الناحية المعمارية تربط بين السور والقلعة. ولم يكن لإعادة إنشاء القلعة أي تأثير على مسار السور الأيوبي: إن أعمال غازي رغم أهميتها لم تغيّر بشكل ملحوظ شكل التلة التي كانت ترتكز عليها القلعة. ولم يكن بالإمكان تعديل مسار الجهة الشرقية لسور المدينة.

سور قصر العدل:

وكان فيه بابان: الباب الصغير الثاني في الطرف الشمالي الشرقي قرب خندق القلعة وباب دار العدل في الطرف الجنوبي. ويُعرف مكان الباب الأول بسهولة حيث كان لا زال يشاهد في القرن الرابع عشر على طرف خندق القلعة قوسان بأحجار كبيرة كان يسمّى أحدهما باب القوس البراني وكان شمال الحمام الناصري، بينما سميّ الآخر بباب القوس الجواني وهو أكبر من الأول وكان يدل على الطرف الغربي لسوق الخيل.

وليس من المستغرب أن ترى في باب القوس الجواني الأكبر والواقع في الطرف الغربي الباب الصغير للسور، وفي باب القوس البراني الباب الصغير الثاني لسور دار العدل. وبما أن حمام الناصري معروف فإن موقع هذا الأخير يعرف فوراً.

لإيجاد باب قصر العدل يجب معرفة مكان قصر العدل هذا. ونعلم أنه كان خارج المدينة إلى الشرق من مدخل القلعة وبدون شك في الجزء الجنوبي من سوق الخيل، وهذا التقريب كافٍ لتصور سور دار العدل الموازي لجنوب الباب الصغير الثاني ولسور المدينة كان يعود إليه بزاوية قائمة، وهذا المسار نظرياً هو الوحيد الذي يمكن أن يتوافق مع معطيات النصوص التاريخية.

بالإضافة إلى ذلك، ليس من الملائم تعليق أهمية مبالغ فيها على هذا السور الذي يبدو أن دوره الأساسي كان حماية دار العدل، والذي ربما كان يختلط جزئياً بسور قصر العدل الذي كان موقعه - مع تقاليد تلك الفترة - يتطلب أن يكون محصناً. وكان استعمال بابه الجنوبي مقتصراً على السلطان بينما بالنسبة لبابه الشرقي فيمكننا معرفة سبب وجوده فوراً، حيث كان الظاهر غازي ملزماً بتأمين فتحة في السور الجديد ليترك مكاناً لمرور الطريق التي كانت تجتاز

الباب الصغير الأول، والباب الجديد ما هو إلاّ المدخل القديم الذي كان على مسافة معينة من المدينة دون أن يحمل اسماً خاصاً.

أعمال خندق الروم:

من الصعب تحديد زمن إنجاز الأشغال ونوعها بدقة، لكن المؤكد أن الظاهر غازي قام بتعميق الخندق ونظم منحدره، وقد تابع هذه الأعمال الأتابك طغريل بعد موت الظاهر غازي. ولا نعرف بالمقابل من الذي بنى السور على طرف الخندق: وينسبه النص أحياناً إلى غازي وأحياناً إلى ابنه العزيز محمد ويبدو أن الابن قام بإكمال عمل والده.

ولا يشك بوجود جدار في هذا المكان أيام الأيوبيين ويؤكد ذلك المؤرخ في عدة مناسبات، كما جرى إصلاح هذا السور عند قيام المؤيد شيخ بأعمال ترميم كبيرة في الأسوار. وتشير عدة دلائل على أن هذا الجدار لعب دوراً ثانوياً في الدفاع عن المدينة.

ويعطينا ابن شداد بدقة طول المحيط الصحيح لسور حلب أيام حكم الناصر يوسف الثاني وهو ٦٦٢٥ ذراعاً بينما طول محيط القلعة ١٥٢٠ ذراعاً، ويشار إلى أن الذراع هنا حوالي ٠.٥٤م، وبذلك يكون محيط السور حوالي ٣٦٠٠ م.

وهذا ليس محيط السور الحالي البالغ حوالي ٥ كم ولكنه محيط السور الداخلي كما يبدو على (الشكل ٢). ويبدو بالنتيجة أن المؤلف قد أهمل سور خندق الروم باعتباره ذا أهمية ثانوية. وإنه لتهور أن نعتمد فقط على هذه الأرقام التي ربما تغيرت وحرّفت من قبل ناسخي المخطوطات المتابعين، لكننا نحصل على دليل أكثر أهمّية في الدراسة الآثارية لهذا الجزء من السور.

إن السور نفسه، وهو مبني بحجارة صغيرة، يعود بكامله إلى فترة المماليك؛ حيث ليس فيه أي أحجار أساس قديمة كما لم تتم إعادة استعمال مواد قديمة فيه، كما كانت الأبواب فقط من عمل سلاطين المسلمين، وأخيراً لم يوجد فيها آثار أعمال ترميم "المؤيد شيخ" رغم تأكيدها من قبل ابن الشحنة.

ونجد بالمقابل أن كامل جزء السور الذي لا ينطبق مع خندق الروم يحتوي على بقايا هامة من الفترة الأيوبية: أحجار أساس ومواد معاد استعمالها أيام "المؤيد شيخ"، وخاصة

ثلاثة أبواب جميلة من القرن الثالث عشر تمّ ترميمها بعناية كما كانت في حالتها البدائية وبقيت كذلك حتى الفترة العثمانية.

إن هذا التضاد تكشفه العين العادية بوجود جدار من على خندق الروم قبل أعمال بارسباي مما لا يتوافق مع النصوص. ويتوضح هذا التناقض الظاهري بفهم طبيعة الأعمال المنفذة في القرن الثالث عشر على خندق الروم: فنحن نعلم أنه تم في البدء إقامة جدار من القرميد غير المشوي، وهذا عمل متميز إذا تذكرنا أن العمارة الأيوبية هي بشكل رئيسي عمارة أحجار منحوتة. وكما هو معروف، وخاصة بحلب دون غيرها، يفضل استعمال المواد الضخمة الموضوعة بكتل كبيرة في الأسوار الحصينة والأبنية بمعرفة وخبرة غالباً ما تكتنفها الصعوبة. لذلك نجد أن تبني استعمال مواد القرميد غير المشوي لا يفسّر إلاّ بكونه لإنشاء مؤقت أو قليل الأهمية[1].

وقد تم في الحال استبدال الجدار المبني بالقرميد غير المشوي بجدار حجري دون أن يتميّز بشيء خاص، ويمكن اعتباره كخط أول للتحصينات الخفيفة وذا قيمة دفاعية أقل من السور القديم، ويحتوي على أبواب ذات طراز بسيط مشابهة في بعض صفاتها لخندق دار العدل مما يدل على أنها لم تكن ذات أهمية كبيرة، مما جعل المؤرخين يصفونها لنا ببعض الإهمال. إن الواجهة الشرقية للسور لم تكن مهددة مباشرة في حالة الهجوم بسبب وجود سور خندق الروم ووجود الخندق، وهذا بدون شك هو السبب في عدم إعادة إنشائها.

إن تعميق حفر خندق الروم وإنشاء سور خارجي عليه رغم ضآلة أهمية المقبرة كان له تأثير هام على تطور ونمو المدينة.

ففي عام ٨٢٠هـ (١٤١٧ م) أمر المؤيد شيخ بإقامة أسوار حلب التي خرِّبت بشكل كبير من قبل تيمورلنك وقد غزتها بيوت الأهالي. وبحسب المخطط الذي وضعه السلطان بنفسه حوفظ على خط الدفاع المزدوج: حيث رُمم خندق الروم وأعيد بناء سور المدينة

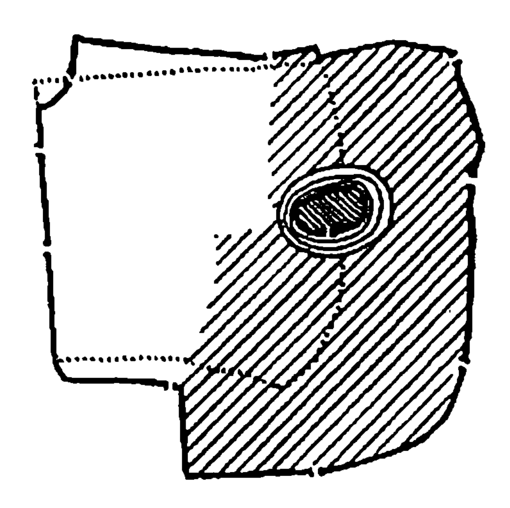
---

[1] بالإضافة إلى أن القرميد غير المشوي لا يستعمل في التحصينات إلاّ بسماكات كبيرة تؤمّن الحماية بكتلتها بسبب ضعف مقاومة المادة نفسها، فإن استعمال القرميد غير المشوي اختصّ به سكان بلاد الرافدين ولا نعتقد انه تمّ تبنّي ذلك في فترة ما في شمال سورية.

الأصلي خلال ثلاث سنوات، اعتباراً من الزاوية الجنوبية الشرقية وحتى باب الجنان وحتى باب العراق من جهة أخرى. إذاً تمّ ترميم بسيط على المكان نفسه.

إثر موت المؤيد شيخ خلفه الأشرف برسباي الذي تابع الأعمال، لكن بمخطط جديد بكامله تم تبنيه بناءً على تقرير مقدم من مسؤول الجيش: حيث تم نقل سور المدينة إلى خندق الروم وأزيلت الواجهة الشرقية للسور القديم (بما في ذلك باب الأربعين والأجزاء التي بناها المؤيد شيخ) وأعيد استعمال موادها في الورشة الجديدة وكان ذلك عام ٨٣١هـ (١٤٢٨م).

إن الشكل الحالي للسور (الشكل ٣) يعود إذن إلى مخطط برسباي وقد حافظ عليه جميع الذين عملوا على تحصين حلب فيما بعد من قايتباي وابنه محمد ثم قانصوه الغوري.



(الشكل رقم ٣) سور بارسباي (القسم المهشر يدل على مناطق مسكونة من قبل المسلمين فقط- الخط المنقط هو السور القديم)

ويفسَّر هذا النقل المفاجئ للسور بسهولة: لقد أثار إنشاء سور دفاعي على خندق الروم السكان القاطنين بين الخطين الدفاعيين (خندق الروم والسور القديم). وجميعهم من المسلمين فقط، وهذا دليل أكيد على أنهم قاطنون جدد نسبياً إذا فكرنا بوجود المسيحيين القديم في سورية. وفي الواقع أن الأحياء الواقعة داخل السور القديم (حدود المدينة البيزنطية) تتضمن عناصر غير مسلمة تتراوح بين ٢٠٪ (في الجلوم) و٩٩٪ (في بحسيتا) كما أن هذه النسبة

تناقصت بانتقال المسيحيين المتزايد نحو الأحياء الشمالية الواقعة خارج الأسوار (الجديدة.. ثم العزيزية) وانتقال اليهود نحو الجميلية. وسنحاول إيجاد التاريخ التقريبي الذي بدأ فيه الأهالي بالسكن في المنطقة الجديدة المحمية:

لم تكن المنطقة مسكونة في عام ١٢٠٨ ودليلنا على ذلك قائمة قساطل توزيع ماء حيلان، حيث كانت جميع القساطل موجودة داخل السور القديم. ولا نصادف مباني بين خندق الروم والمدينة القديمة إلاّ أيام المماليك، في حين أن مباني الأتابكة والأيوبيين في حال وجودها خارج الأسوار نجدها في الضواحي الغربية المسكونة منذ زمن بعيد أو نراها مجمعة في "المقامات" الواقعة على بعد (١) كم إلى الجنوب من المدينة في مكان منعزل يساعد على الدراسة والتأمل.

وجميع هذه الأبنية المملوكية هي مساجد - مدافن ولكل جامع منبره والصحن الواسع المخصص للصلاة جماعةً، مما يفترض وجود أهالي عديدين حوله. وفي الحقيقة أن المسجد – المدفن هو الشكل النموذجي للمدرسة المملوكية، لكن تبنّيه في جزء المدينة الواقع بين السورين ليس أقل دلالة لأنني أعتقد أنه لا يوجد في أي مكان في سورية جامع كبير، وإن كان بجانبه مدفن عظيم، أقيم في مكان غير مسكون. لذلك يمكن التأكيد أنه عندما يقام جامع لأول مرة بحلب في هذه المنطقة عام ٧١٨هـ (١٣١٨م) وهو جامع الطُنبغا فهذا يعني أنه كان هناك عدد كبير من المسلمين القاطنين فيها. إذن ففي السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر أو في بداية القرن الرابع عشر بدأت هذه المنطقة تُسكن، وبذلك نحصل على تفسير كافٍ لنقل السور.

ويقال أن سور خندق الروم كان يختلف بشكل كبير عن باقي السور من وجهة النظر المعمارية، وسنجعل الفرق أكثر حساسية بإجراء وصف مختصر لأبواب المدينة تاركين الأبراج جانباً لأنه لا يكون دائماً فيها بداية الإنشاء في الحقبات المختلفة.

يتضمن سور حلب حالياً خمسة أبواب فقط محفوظة بشكل جيد، وقد هُدمت جزئياً الأبواب الأربعة الأخرى (باب الفرج - باب الجنان - باب النيرب - وباب الأحمر) لكن منذ فترة قريبة، بحيث يمكن معرفة مواقعها. وأخيراً يجب إضافة مدخل القلعة إلى هذه الأبواب لصلة إنشائه مع باقي السور، وبذلك يكون المجموع عشرة أبواب: أربعة منها من الفترة الأيوبية وستة من الفترة المملوكية.

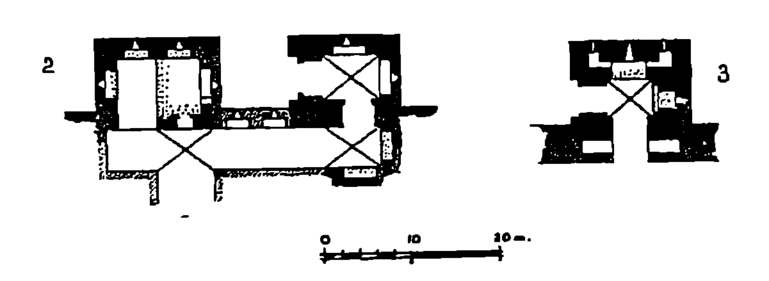
ونجد في الإشارات المحفورة على أحجار السور والقلعة (شكل ٤) دليلاً مادياً، وإن كانت هذه الإشارات قد نسب صنعها إلى الفرنجة، وهي الفرضية الأكثر قبولاً، فإن بعض الإشارات المشتركة في القلعة والسور تدل على أن البناء في الحالتين تمّ بمواد أعيد استعمالها من مصدر واحد ومن الفترة نفسها، والإشارات المبيّنة والخاصة بالسور تمّ أخذها من برج الزاوية الشمالية الشرقية القديمة، وهي الوحيدة التي تمكنت من دراستها عن قرب. وقد سبق نشر بعض الإشارات من قبل الباحث فان برشم.

(الشكل رقم ٤) الإشارات المنحوتة على الأحجار:

السطران العلويان في السور، والسفليان في القلعة

وتختلف كل من مجموعتي الأبواب عن الأخرى اختلافاً كلّياً. فبينما نجد المجموعة الأولى مكونة من أبنية ضخمة (مدخل القلعة يغطي ١٠٠٠م^{٢}) تلفت النظر، رغم الإنشاءات الطارئة التي تسترها جزئياً، سواء بكتلتها أو بالعناية التي تم إنشاؤها بها، نجد المجموعة الثانية تضم أبنية بسيطة انشئت بأحجار صغيرة وبإهمال عجّل بخراب جزء كبير منها. ويبيّن مخطط باب أنطاكية وباب القناة المبنيين بالمقياس نفسه الفرق بين المفهومين السابقين من حيث الإنشاء. (لوحة رقم III).



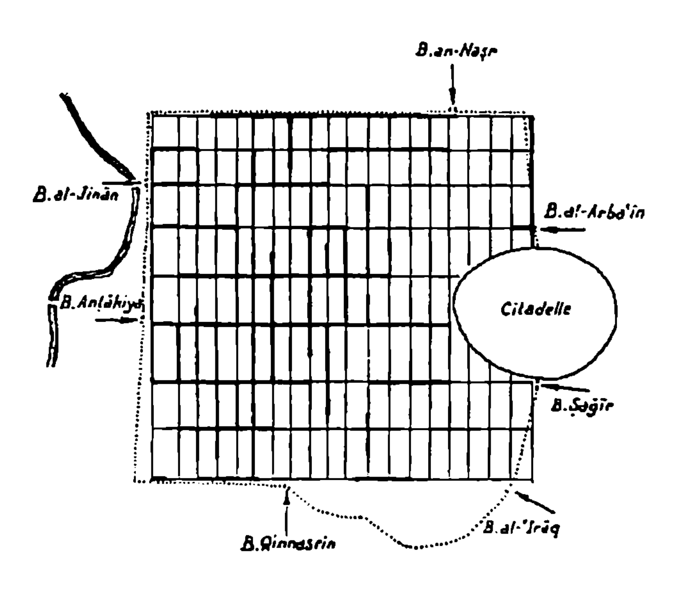


(لوحة رقم III) ١) باب انطاكية، ٢) باب النصر، ٣) باب القناة (الحديد)

كما أن الفرق كبير بين تركيب المدخل: فجميع أبواب القرن الثالث عشر مبنية بشكل متداخل (متعاكس) enchicane: منعطف واحد في باب قنسرين وباب أنطاكية وثلاثة منعطفات في باب النصر وخمسة منعطفات في مدخل القلعة، بينما لا تحتوي خمسة أبواب من أيام المماليك سوى على ممر مستقيم واقع عمودياً على الجدار بين برجين بارزين، ونجد فقط باب القناة بشكل متعاكس، لكن قيمته الدفاعية بعيدة عن أن تشبه باب أنطاكية أو باب قنسرين اللذين يمثلان طراز المدخل الذي على شكل رأس حربة (متوازي) en baionette بأبسط أشكاله.

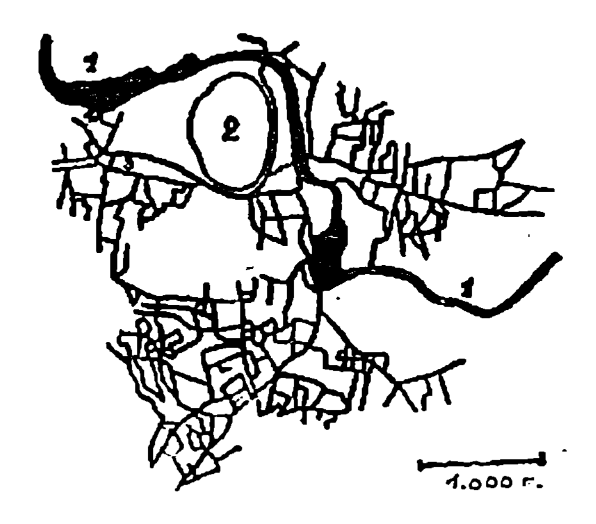
وختاماً لهذه الملاحظات القصيرة أسجل مسألة تحتاج إلى حل وهي مسألة الأصول البعيدة للسور القديم الذي قام نور الدين بإصلاحه وتجهيزه بفصيل. وقد قلنا أننا يجب أن نحصل تقريباً على أثر السور البيزنطي، ولكن ما هو وضع هذا السور البيزنطي بالنسبة للسور القديم؟ قد تؤمن طوبوغرافية المدينة عناصر الإجابة.

يلاحظ في الواقع داخل السور القديم وبداخله فقط مجموعة شوارع ذات اتجاه شمال - جنوب وشرق - غرب تتقاطع بزوايا قائمة وبانتظام كبير (لوحة ١٧). مما تجدر الدلالة إليه هو وجود هذا المخطط على شكل رقعة شطرنج، والذي يمكن أن يكون عرضاً غير مقصود أكثر مما هو انتظام التربيع: أن التباعد بين الشوارع يبقى ثابتاً وهو ٤٥ م بين محوري كل شارعين باتجاه شمال - جنوب و١٢٠م بين محور الشوارع ذات الاتجاه شرق - غرب.



لوحة رقم ١٧ حلب داخل الأسوار: الخطوط السميكة
تدل على اتجاه الشوارع الحالية التقريبي، الخطوط المنقطة تمثل السور القديم

إن التنظيم المشابه ليس له أي مثيل مع مظهر المدن الشرقية التي تبدو في المخطط وكأنها مزيج من بيوت مجموعة بشكل عشوائي يوزع حولها أراضٍ قاحلة وخرائب وبساتين. وفي متاهة شوارعها المتعرجة مع المنظر التجريدي الرائع للأزقّة التي لا حصر لها، فإن الشوارع الرئيسية لا تظهر إلا بصعوبة. وفي سورية نجد مدينة حماة نموذجاً لهذا النوع من التجمع (شكل ٥) والذي يمثل أحياء حلب الواقعة خارج السور البدائي جميع مواصفاته، ولا يوجد في إنشاءات العرب منذ الإسلام وحتى في حالة المراكز العمرانية الهامة جداً كالفسطاط والموصل وبغداد والقاهرة أي تطبيق لجزء مأخوذ من مخطط منتظم.



(الشكل رقم ٥) حماة: ١) العاصي، ٢) القلعة، ٣) الجامع الكبير

لذلك يجب أن لا ينسب الوضع المتشابك لشوارع حلب إلى الحكام المسلمين وإنما لمن سبقهم، علماً أن هذا الإنشاء المنتظم يتفق مع مخططات المدن السلوقية (كاللاذقية ودورا أوروبوس وأفامية) والرومانية (بصرى وتدمر وشهبا وعمان وجرش ودمشق) والبيزنطية (الأندرين والرصافة وجوسية الخراب) في سورية.

وعندما نحاول أن نحدد التاريخ بدقة أكثر نجد أنفسنا محرجين بسبب غياب الوثائق الدقيقة. فبينما نجد أن دمشق تحتفظ بمظاهر عديدة وهامة من الفترة السابقة للعهود الإسلامية، نجد أن حلب لا تقدم شيئاً من المعالم (ما عدا المدرسة الحلوية حيث كانت الكاتدرائية البيزنطية التي ربما سبقها معبد روماني وثني) أو الكتابات. وإلى أن تتوفر لدينا المعلومات الكافية يبدو لي أنه يجب استبعاد فرضية أية إعادة بناء أيام الرومان أو البيزنطيين، لأن حلب آنئذ لم تكن بمقارنتها مع أنطاكية وقنسرين سوى قرية متواضعة لا تستحق أن تكون موضوع أشغال بهذه الضخامة والاتساع: مخططها الشطرنجي هو هلنستي الأصل والمدينة القديمة كما حددها سور نور الدين تمثل تقريباً المساحة التي كانت تشغلها بيرويه Beroia بعدما وسّعها وجمّلها سلوقس نيكاتور. وليكون ذلك ثابتاً، يجب أن تؤكّد هذه الدلالة بمجموعة مقارنات مع الأصول الهلنستية الأخرى التي لا يمكن للأسف القيام بها بسبب قلة المصادر المكتبية المتوفرة في دمشق.

٤) باب أنطاكية [١]

تمهيد:

يقع باب أنطاكية في السور الغربي لمدينة حلب القديمة، ويعتبر من أقدم وأهم أبواب السور في حلب، وقد سمي "باب أنطاكية" لأنه يؤدي إلى مدينة أنطاكية عاصمة سوريا منذ أيام الدولة السلوقية في القرن الرابع قبل الميلاد. كما أن العرب المسلمين دخلوا المدينة سلماً من هذا الباب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عام ١٦هـ/٦٣٧ م، وبنوا بداخله أول مسجد سمّي "مسجد التروس" (حيث جمع العرب المسلمون أسلحتهم وصلّوا شكراً لله) وذلك في موقع قوس نصر روماني قديم يبدأ عنده الشارع المستقيم Via Recta الذي ينتهي شرقاً في باب سوق الزرب عند قلعة حلب، وهذه هي الطريقة الشطرنجية التقليدية لبناء المدن الهلنستية والرومانية والبيزنطية. وكان الاستيطان القديم الأول، حسب رأي الباحث سوفاجيه، في تل العقبة قرب باب أنطاكية - والذي يرتفع ٢١ م عما حوله - وليس في قلعة حلب، إذ كان الإنسان الأول يسكن قرب مواقع المياه أي قرب نهر قويق. وكان السكن قديماً في الأحياء المجاورة للشارع المستقيم أي في الجلوم والعقبة.

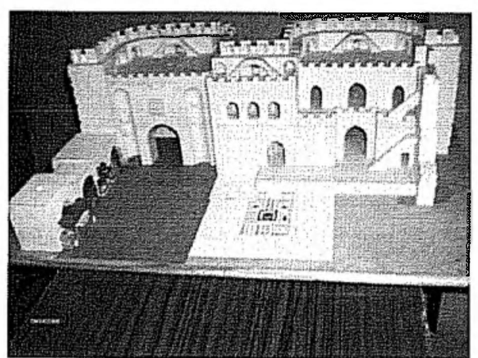
طرأ على باب أنطاكية وسور المدينة تعديلات عديدة على مر السنين وبخاصة إثر كل تخريب تعرضت له المدينة منذ عام ٥٤٠ م حيث دمّرها الفرس أيام الامبراطور جوستينيان، وفي العام ٣٥١هـ/٩٦٢م حيث دمرها نقفور فوقاس البيزنطي أيام سيف الدولة الحمداني، وفي العام ٦٥٨م/١٢٦٠م حيث خرّبها هولاكو الذي دخلها من باب قنسرين، وكذلك أيام تيمورلنك في العام ١٤٠٠م. هذا بالإضافة إلى الزلازل العديدة. وكان يجري ترميم الأسوار إثر كل خراب بما فيها الأبواب. ويأخذ باب أنطاكية نصيبه من الترميم لأهمية موقعه، ونستدل من الكتابات التي خلفها مختلف الحكام على تواريخ أعمال الترميم التي تمت في باب أنطاكية والأبراج الدفاعية البارزة والحامية لهذا الباب.

---

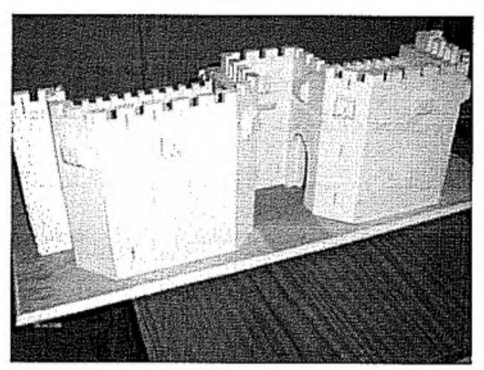
[١] نشرت في مجلة اقتصاديات حلب العدد ١٥ حزيران ٢٠٠٠ (ص٦٤- ٦٧) وقد سقط سهواً ذكر أماكن الكتابات. ماكيت باب أنطاكية، من صنع الفنان المهندس أحمد مرهف خربوطلي.

وصف باب انطاكية:

يتألف الباب من برجين بارزين متوازيين (الشكل رقم ٦) وصل بينهما جدار أصمّ، قام الباب جانبياً في البرج الأيمن، وقد بني بأحجار ضخمة طولها بين ٠.٨٠ -١.٠٠م وقد وضع الباب جانبياً كي يمنع استعمال جذع رأس الخروف في اقتحامه، وفي حال محاولة ذلك في المسافة الصغيرة الفاصلة بين البرجين يكون المهاجمون عرضة لإغراقهم بالزيت والسوائل المغلية المرسلة من المرامي الخاصة القائمة في أعلى البرجين كما هو الحال في الأبنية الدفاعية الأيوبية إجمالاً.

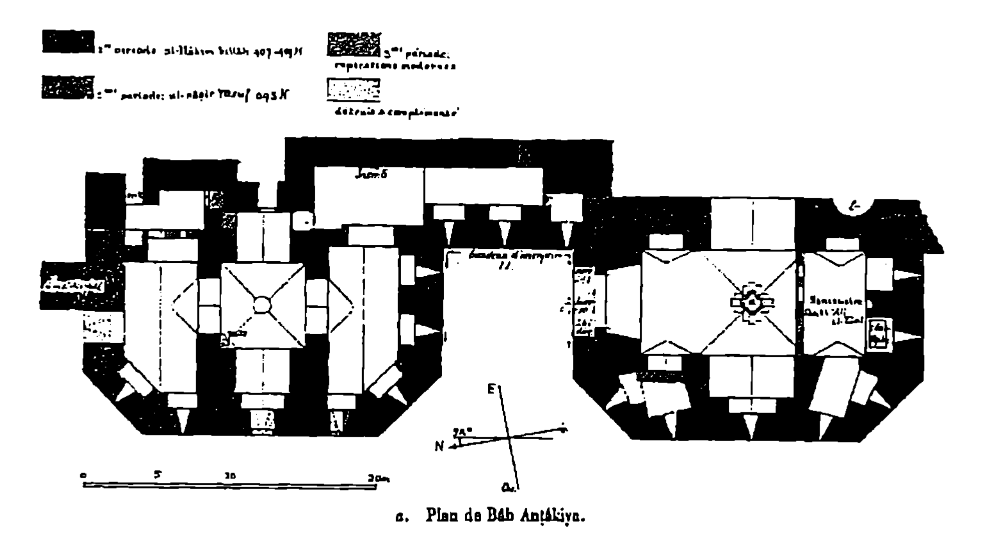


ماكيت باب أنطاكية من الداخل



ماكيت باب أنطاكية من الخارج

وحال الدخول من باب أنطاكية الخشبي الكبير المغطى بالأربطة الحديدية والمسامير الكبيرة نجد في سقف البرج من الداخل كرة معدنية (كلّة) قطرها حوالي ٢٠ سم معلقة بسلسلة تنسب إلى الشيخ معروف بن جمر البطل العربي الفدائي أيام الفرنجة والمدفون في المدرسة الشاذبختية في سوق الزرب على بعد حوالي ٧٠٠م إلى الشرق من باب أنطاكية. ويحوي البرج الأيمن للباب حالياً في طابقه العلوي مطحنة قديمة تحوي حجري رحى لطحن السمسم وإعداد الطحينة، وله ممرات سفلية تؤدي إلى باب أنطاكية والقسم السفلي من السور. وقد شاهد ابن شداد قرميداً فارسياً بين باب الجنان وباب أنطاكية ربما كان نتيجة إصلاحات في السور من القرن السادس للميلاد أيام الإمبراطور جوستنيان. وهناك خانات خارج السور بين بابي الجنان وأنطاكية ويذكرها ابن شداد كذلك.

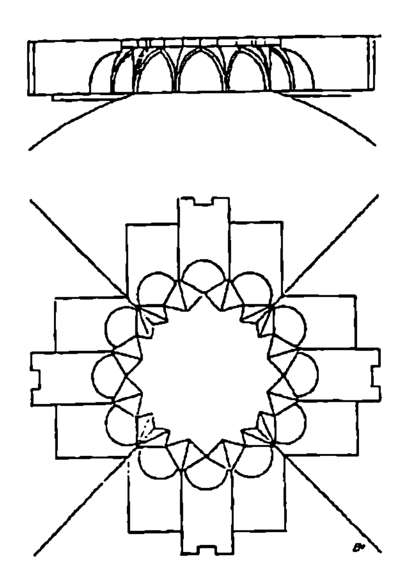


(الشكل رقم ٦) مسطح باب أنطاكية

ويذكر المهندس إيكوشار، وقد أخبر الباحث فيرت بذلك شفهياً، أنه تعرف داخل باب أنطاكية على بابي برجين قديمين بجدرانهما من الفترة الرومانية وعلى أقواس من الفترة الرومانية كذلك وليس الزنكية فقط. وهناك وقف لجامع الأطروش (١٤٥٠م) ذكر فيه نصف مطحنة قرب باب أنطاكية ووقف عثماني ذكر فيه حمام في باب أنطاكية.

يتألف الباب من برجين متقاربين، وفيما عدا الأجزاء فوق القبب فإن البناء يسمح بوجود فترتي إنشاء، وفي الداخل خلف البرج الشمالي وخلف الجدار القصير لا زال قائماً جدار أقدم وكأنه حاجز داخلي لمر قصير بين البرجين بني بأحجار ذات سطح خشن أكبر من الحجم الطبيعي بطول ٠.٦٠ - ١.٠٠م وبارتفاع سوقتين ١.٠٥م، وعلى بعض أحجار هذا الجدار نقشت الكتابة رقم (٨) باسم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي بين العامين ٤٠٧-٤٠٩ هـ/ ١٠١٦-١٠١٨م. ويشكل جزء الجدار حامل هذه الكتابة في المسطح البدائي في الظاهر الواجهة الخارجية لجدار أكثر طولاً بين البرجين البارزين وأكثر ضيقاً من الباب الحالي. ولو لم يكتب "أمر ببنائه.." لأعيد البناء إلى أيام سيف الدولة الحمداني بدل أيام الحاكم بأمر الله. وقد شوهد في طرف الوجه الداخلي للبرج الجنوبي بقايا حنية نصف دائرية مخربة قطرها ١.٤٠م صنعت سوقاتها من أحجار أكثر ضخامة. ويجب أن تكون هذه الحنية قطعة من بناء من أيام سيف

الدولة أو من السور البيزنطي أو الروماني ، أما باقي البناء فمتجانس. إن أبعاد كل من البرجين البارزين ٢٤×١٢.٥م والمسافة بينهما ٩ م وأضلاعهما مقطوعة. ويقسم البرج الشمالي من الداخل إلى ثلاث حجرات مقببة فيها ثماني فتحات لرمي السهام تفيد في الدفاع عن المدخل. ويتم الدخول الوحيد من البرج الجنوبي حيث ينحرف القادم من الخارج إلى اليمين ليدخل من الباب الجانبي في القاعة الكبرى (الدركاه) المستطيلة ذات الأبعاد ١٥.٤٠×٧.٢٠م التي تشغل مساحة البرج بالكامل. وقد تم تجهيز تجاويف عميقة على شكل حجيرات لمرامي السهام في السماكة الكبيرة لجدران البرج التي عرضها ٥.٥ م. وعند الوصول إلى وسط البرج يستدير المرء إلى الشمال ليمر من الباب الثاني الذي ينفذ إلى المدينة ، وهذا الباب واقع على استقامة الجدار الكبير ، وليس هناك أي بروز للبرجين إلى داخل السور. وتتألف قبة القاعة المبنية من الحجر الغشيم (دبش أي حجر صغير وطين) من تداخل نصفي قنطرة ينفتح في مركزهما فتحة مطرية مثل نافذة مستديرة لرمي المواد المحرقة من الأعلى ، وقد بني إطارها بالحجر المصقول بشكل إفريز ذي مقرنصات (شكل ٧) ، وكان الباب الخارجي يغلق بدرفتين بينما الباب الداخلي عبارة عن فتحة بسيطة. ويشاهَد في الجدار الجنوبي للقاعة محراب صغير ، وفي أحد تجاويف مرامي السهام إلى جانبه يوجد قبر ولي يدعى الشيخ علي الرومي.



(الشكل رقم ٧) فتحة رمي المواد المحرقة

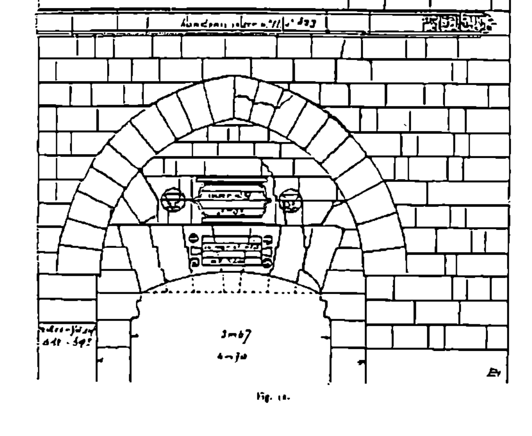
إن تفاصيل باب أنطاكية الخارجية تشبه تفاصيل باب النصر بالكامل إلا أن باب النصر أقدم بـ ٣٥ عاماً. وفي زاويتي مستطيل البناء فإن الحجر العلوي للساعد القائم منحوت جيداً وبارز على شكل ظفر، كما هو الحال في باب قنسرين، وهو من أيام الناصر يوسف وعام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. والاختلافات الصغيرة عادية خلال تطور مدته ٣٥ عاماً. ولا زالت تشاهد العوارض وقد أزيلت بتهور إحدى فقرات قوس تفريغ الحمولة فوق نجفة الباب حين إجراء إصلاحات محدودة أيام برقوق في العام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م.، كما تبين الكتابة رقم ٩. وستعطينا الكتابة رقم ١١ الدليل على أن كل البناء فوق قمة قوس الباب، أي طابق مرامي السهام، قد أعيد بناؤه أيام المؤيد شيخ. لكن إعادة البناء كانت تعني إعادة ما كان سابقاً تماماً، كما تؤكده ترتيبات باب الشبك المعدني للمدخل الذي كان ينزل من الأعلى إلى الأسفل والفتحة في وسط القاعة (الدركاه) التي تفترض وجود طبقة علوية.

الكتابات ومواقعها على باب انطاكية:

يبين الشكل رقم (٨) مواقع الكتابات الأربع كما بينها هرتسفلد ونبدأ بالكتابة الأقدم (رقم ٨).

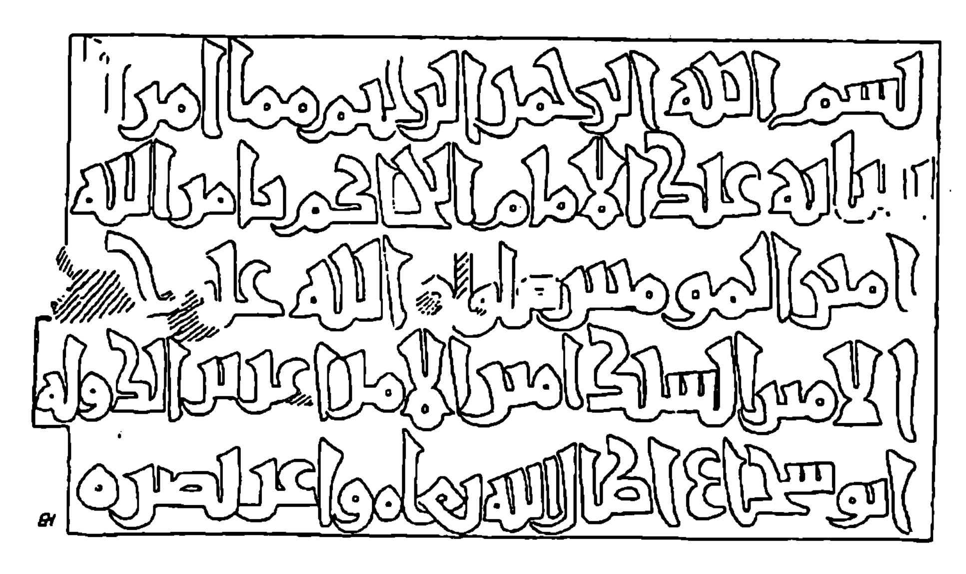
الكتابة رقم ٨ (الشكل رقم ٩):

تقع في الممر خلف الجدار الواصل بين البرجين على الجدار الخارجي وعلى ارتفاع ١.٩٠م عن الأرض، وتتألف من ٥ أسطر كوفي بسيط وهي بأبعاد ٠.٦٥×٠.٣٥ م ونصها: "(١)بسملة.. مما أمر (٢) بينائه عبد الإمام الحاكم بأمر الله (٣) أمير المؤمنين صلوات الله عليه..(٤) الأمير السيد أمير الأمراء عزيز الدولة (٥) أبو شجاع أطال الله بقاه وأعز نصره".



(الشكل رقم ٨) مواقع كتابات باب انطاكية

في العام ٤٠٦هـ/١٠١٥-١٠١٦م سمّي عزيز الدولة فاتك حاكماً لحلب ولم يكن يفصل بين حاكمي المدينة والقلعة. وقد ثار عزيز الدولة على الحاكم بأمر الله وهو حاكم القلعة، لكنه وجد قتيلاً في سريره من قبل بدر عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م. وكان قصره (خانكاه القصر) متصلاً بالقلعة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الخليفة الظاهر وابنه المستنصر ومن بعده السلاطين المماليك يعينون حاكمَين في حلب أحدهما للمدينة والآخر للقلعة، لتجنب تكرار ثورة الفاتك. ويبدو أن باب أنطاكية أمر بإعادة بنائه من قبل الخليفة قبل ثورة فاتك، أي في السنين الأولى من حكمه بين ٤٠٧-٤٠٩هـ.



(الشكل رقم ٩) كتابة عزيز الدولة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م

الكتابة رقم ٩ : (٧٩٢هـ/١٣٩٠م):

تقع فوق نجفة الباب ضمن القوس وتتألف من ٦ أسطر الأول والأخير على الهامش والأسطر ٢-٥ ضمن إطار عميق قليلاً، ويحيط بالكتابة رنك مملوكي من كل من جانبيها، وجميع هذه الأحجار استبدلت ببدل قوس تفريغ حمولة أحجاره باقية، أي أن الكتابة وضعت في مكانها بعد مهاجمة الباب، وهي بأبعاد ١.٢٠×٠.٦٥ م كتبت بخط نسخي مملوكي، و نصها: "(١) بسملة.. إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما

تأخر (٢) بسملة.. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها (٣) إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير جدد هذا الباب المبارك في أيام مولانا السلطان (٤) الملك الظاهر أبي سعيد برقوق خلد الله ملكه بنظر مولانا المقر الأشرف السيفي كمشبغا الظاهري كافل المملكة (٥) الحلبية المحروسة وتولى عمارته أقل عباد الله تعالى محمد بن الخطيب الـ.. قاضي قضاة المسلمين بحلب (٦) بإشارة الجناب العالي الشهابي أحمد بن السلار وذلك في شهر رمضان المعظم سنة اثنين وتسعين وسبعمائة" (١٣٩٠م).

الكتابة رقم (١٠) (٨٠٤هـ/١٤٠٢م):

وتقع تحت الكتابة السابقة مباشرة ويحيط بها أربعة رنوك مملوكية صغيرة في زواياها، أبعاد الكتابة ١.١٠×٠.٤٠ م مؤلفة من ٤ أسطر نسخي مملوكي ونصها: "(١) تدوم عز ونعمة وسعادة مقام مالكنا المليك الناصري ملك المشارق (٢) والمغارب خادم الحرمين عهد من أبيه الظاهري أمر (٣) بتجديده بعد دثوره مولانا المقر الأشرف السيفي دقماق (٤) الملكي الناصري كافل المملكة الشريفة الحلبية المحروسة أعز الله أنصاره بتاريخ شهر شعبان سنة أربع وثمانمائة" (١٤٠٢م).

ويبدو أن هذه الكتابة حفرت في الموقع على الباب الذي كان قائماً آنئذ، وكلمة "تجديد" تعني استبدال شيء قديم، وقد تعني وضع مصراعي الباب. وينسب ابن الخطيب عمل ذلك إلى كمشبُغا.

الكتابة رقم (١١): (٨٢٣ هـ/١٤٢٣):

وهي عبارة عن سطر واحد طوله ٢٤.٥٥ م يمتد على شكل رباط يبدأ أعلى المدخل في البرج الأيمن فوق القوس ويتبع الجدار وحتى نهاية واجهة البرج الأيسر بطول ٧.٧٠ م على كل برج و٩.١٥ م على الجدار الوسط بين البرجين، والكتابة نسخية مملوكية ونصها: "بسملة.. أمر بعمارة هذا الباب والأسوار بعد خرابها ودثارها ومحو رسومها إلا بقية من آثارها مولانا السلطان الأعظم مالك رقاب الأمم سيد سلاطين العرب والعجم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان الإسلام والمسلمين ناصر الغزاة والمجاهدين العالم

العادل الملك المؤيد أبو النصر شيخ خلد الله ملكه في كفالة المقر الأشرف السيفي في شهور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة" (١٤٢٣ م).

ويعلمنا ابن شدّاد أن نقفوز فوقاس البيزنطي هدم باب أنطاكية عند تخريبه حلب في العام ٣٥١هـ/٩٦٢ م وأعاد إنشاءه سعد الدولة بن سيف الدولة عام ٣٦٣هـ/٩٧٤ م، ثم جاء الناصر يوسف الثاني الأيوبي ليهدم الباب ويعيد بناءه من جديد بين عامي ٦٤٣-٦٤٥هـ/١٢٤٥-١٢٤٧م وقد بنى البرجين العظيمين مع قاعة كبيرة (دركاه) ذات بابين.

المطلوب إنجازه في منطقة باب أنطاكية:

١) إزالة الأبنية الطفيلية والشوائب على واجهات الحوانيت من الداخل والخارج ومن على جميع الجدران، لإبراز جميع الكتابات الأصلية والعناصر الجزئية مع إزالة بناء محوّل الكهرباء المشوّه، وذلك بإزالة ما حول برجي الباب ولمسافة ٢٥ م جنوبا وحتى البرج الشمالي الكبير مع كشف السور ووضع الإنارة المناسبة من الداخل والخارج.

٢) إزالة الأبنية والإضافات الطفيلية عن جامع التروس (والمسمى كذلك الشعيبية، التوتة، الغضائري ومسجد باب أنطاكية) وترميمه وإظهاره بالمظهر اللائق بأول مسجد للمسلمين بحلب.

٣) ترتيب السقف في بداية الشارع المستقيم جنوب مسجد الشعيبية وباتجاه القلعة وتغطيته بشكل مثلثي (جملوني) إن أمكن.

٤) ترتيب وترميم الدرج الحجري المؤدي من باب أنطاكية إلى جامع القيقان في العقبة.

٥) عمل سبر أثري في منطقة العقبة إلى الجنوب من جامع القيقان بحوالي ١٠٠ م، وبمعرفة مديرية الآثار، علّنا نجد حلب المغرقة في القدم وأساسات المعبد الحثي أو رُقُم الألف الثاني قبل الميلاد، تحدثنا عن الفترة الحثية أو مملكة يمحاض. علماً أن هناك قطعة أرض فارغة يمكن إجراء السبر الأثري فيها.

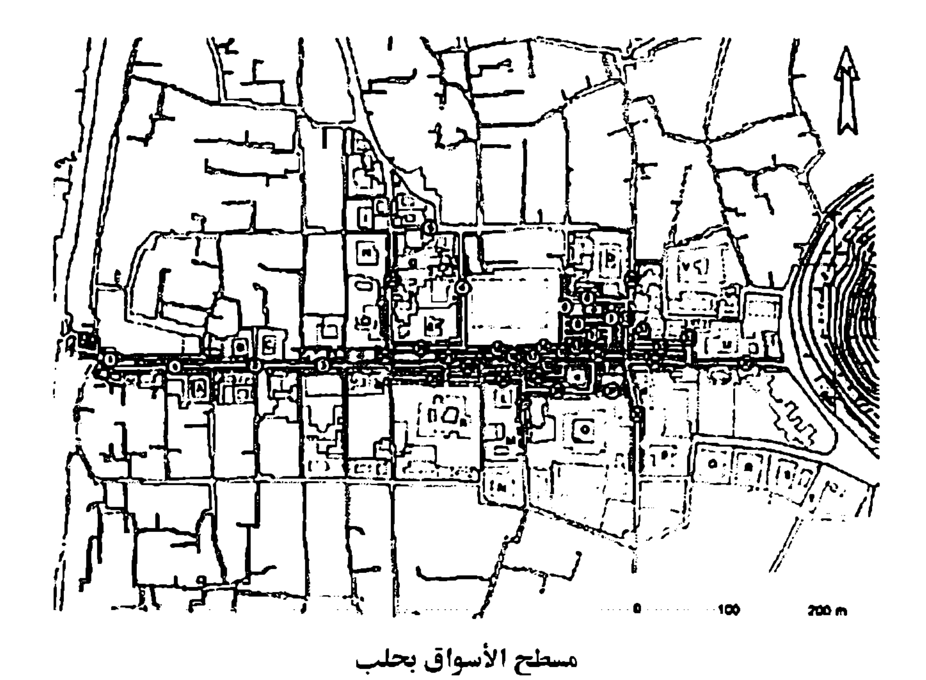
لقد علّق الباحث سوفاجيه آمالاً على تلّ العقبة باعتباره مركز الاستيطان الأقدم ضمن الأسوار لقربه من مصدر المياه، نهر قويق، ووجود الحجر ذي الكتابة الهيروغليفية الحثية المعاد

استخدامه في جامع القيقان والعائد إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مما يدل دلالة واضحة على وجود آثار هامة في تل العقبة. أرجو أن تقوم السلطات الأثرية بالتحريات المطلوبة وذلك بالتوازي مع تنقيبات قلعة حلب الجارية حالياً من قبل بعثة وطنية - ألمانية مشتركة كشفت مؤخراً عن وجود ألواح جدارية بازلتية نافرة جديدة تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد وما قبل ذلك.

٥) خانات حلب: العمارة، الاستخدام التجاري، سكن القناصل

تمهيد: أهمية حلب التجارية

تعتبر حلب من أقدم المدن في العالم التي لا زال يسكنها مليونا نسمة. وقد اكتسبت بموقعها بين القارات الثلاث أهمّية تجارية متميزة حيث كانت تمرّ منها، ومنذ القديم، طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب وكذلك طرق الحرير حاملة البضائع والأفكار، أي المؤثرات الحضارية، وكانت مستودعاً تجارياً لكل أنواع البضائع المعروفة بالإضافة إلى رفدها خطوط التجارة بصناعتها في مجال القطن والأنسجة الحريرية والصوفية والصابون والسجّاد[1].



مسطح الأسواق بحلب

[1] يعلمنا الأب بولس قره ألي بوجود ١٤٠٠٠ دار في حلب عام ١٨١٩ وكان فيها ١٢٠٠٠ نول من كل الأصناف و١٠٠ معمل لخيوط القصب والفضة والذهب، اي بمعدّل نول لكل عائلة تقريباً مما يؤكّد أهمّية صناعة النسيج بحلب. كما يعلمنا شوفاليه دارفيو أن القافلة المحمّلة بالصابون والمتّجهة من حلب إلى ديار بكر عام ١٦٧٥ كانت تضمّ ١٠٠ - ١٢٠ جملاً (مذكرات دارفيو، الجزء السادس صفحة ٤٢٢)

ورد اسم المدينة في رُقُم إبلا (٢٤٠٠ ق.م) وماري (١٨٠٠ق.م) وسمّيت "بيرويه" في الفترات الكلاسيكية، واستعادت اسمها "حلب" مع الفتح العربي الإسلامي، وقد أضاف إلى اسمها تجار المدن- الدول الإيطالية (أمالفي، جنوة، البندقية..)، أقدم من أنشأ علاقات تجارية معها في القرون الوسطى، الحرفين po فأصبحت Aleppo، وكانت لغة التجارة بحلب هي الإيطالية.

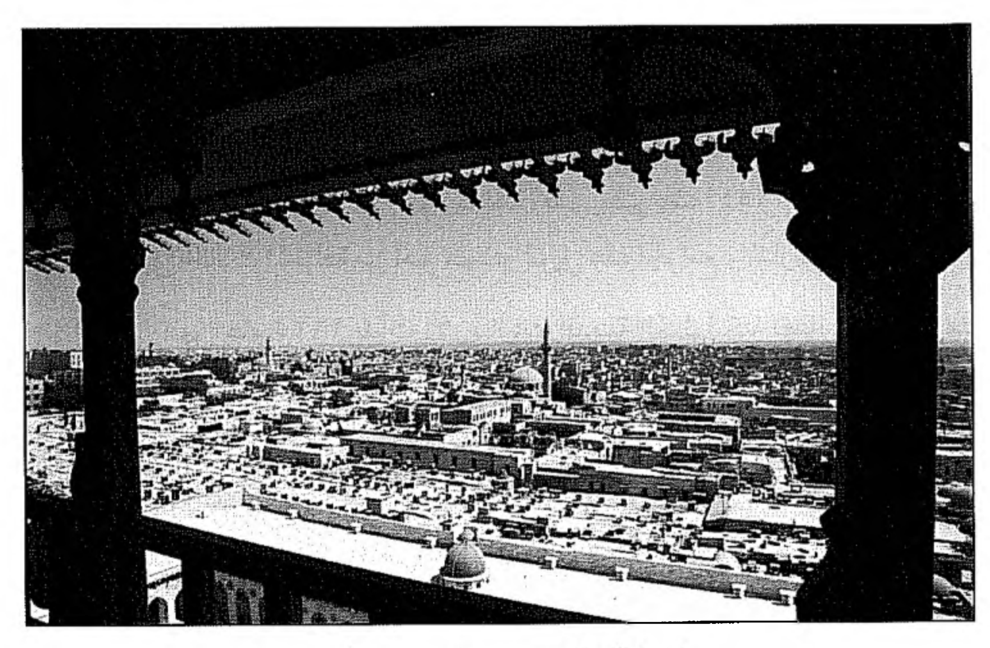
غلب على المدينة التخطيط الشطرنجي، كما يعلمنا الباحث جان سوفاجيه، وكان فيها الشارع المستقيم via recta الممتدّ بين باب أنطاكية والقلعة بطول ٧٥٠ م، وتم في الفترات العربية بناء الدكاكين أمام الأعمدة من الجهتين وسقفت الأسواق، وتكاملت واتسعت أيام الأيوبيين والمماليك. وكان الاتساع الأكبر أيام العثمانيين بدءاً من عام ١٥١٦م، حيث ازدهرت التجارة مع امتداد حدود الإمبراطورية العثمانية والاستقرار الدائم، ويعلمنا الباحث أندره ريمون أن مساحة الأسواق قد زادت من ٦ إلى ١١ هكتاراً خلال خمسين عاما (١٥٤٦- ١٥٨٣)، كما زاد عدد البيوت من ١٠٢٧٠ مسكناً عام ١٥٣٧ إلى ١٤١٤٦ مسكناً عام ١٦٣٨ أي بنسبة زيادة سكانية بحدود ٣٥ ٪، وبخاصة في الضاحيتين الشمالية والشرقية خارج الأسوار حيث ازداد حجم السكان فيهما من ٤٦ ٪ إلى ٦٣ ٪ عام ١٦٨٣. ونذكر هنا السلطان مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠) وطلبه، حين



سقف الأسواق وأرضية الجامع الأموي من المئذنة

مروره بحلب في طريقه إلى بغداد عام ١٦٣٨، إحضار عائلات مسيحية لتشجيع التجارة، وبالفعل تم جلب ٤٠ عائلة مسيحية سكنت جزءاً من حي "الجديدة" سمّي "زقاق الأربعين". لقد أصبحت الآن مساحة الأسواق وملحقاتها من خانات وقيساريات تغطي ١٦ هكتاراً من أصل مساحة المدينة ضمن الأسوار والتي لا تتجاوز ٢٨٥ هكتاراً.

وكان أول من اهتم بالتجارة مع الشرق وأبرم الاتفاقيات التجارية منذ القرون الوسطى المدن- الدول الإيطالية: أمالفي وجنوة وبيزا وبشكل خاص البندقية، وكانت مراكبها تمخر عباب البحر المتوسط. وقد استقبل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي سفير البندقية بيترو مارينياني عام ١٢٠٧ في قلعة حلب، وخُصّص للبنادقة بحلب فندق وحمام وكنيسة. وبالرغم من تعليمات البابا بمنع التجارة مع المسلمين أيام الحروب الصليبية، كانت القوافل التجارية تنتقل بين الطرفين المتحاربين. ويذكر الرحّالة ابن جبير عام ١١٨٤م: "إن أعجب ما حدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"، كما ذكر كثرة الخانات في حلب وفي الطريق إليها وكثرة أسواقها المسقوفة بالخشب.



سقف الأسواق من مئذنة الجامع الأموي

استمرّت العلاقات التجارية قائمة مع المدن الإيطالية أيام المماليك (١٢٦٠- ١٥١٦)، وتشاهد بعض الخانات المملوكية في الجهة الشمالية من الشارع المستقيم وهي من بناء نواب حلب المحروسة- أي الولاة-.

وبدخول العثمانيين البلاد العربية واتساع رقعة الإمبراطورية حيث لم تعد حلب مدينة حدودية، فقد تمّ عقد اتفاقية "الامتيازات" عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا فرانسوا الأول والسلطان العثماني سليمان القانوني، والتي قدّمت التسهيلات للدول الأجنبية وفي مقدّمتها فرنسا، من حيث السماح بالإقامة في خان محدد مع تخصيص معبد صغير فيه وتخفيض الضرائب الجمركية وغير ذلك، مما شجّع على إقامة الجاليات الأجنبية في مرافئ البحر المتوسط وكذلك بشكل خاص في حلب.

ويبدو اهتمام السلاطين جلياً بحلب وأهميتها التجارية في تعيينهم ولاة مقربين وأقوياء فيها، وقد عملوا على ازدهارها وتوسعها العمراني، وذلك عن طريق بناء الجوامع والمدارس الدينية، وتخصيص العديد من المباني من حوانيت وخانات وقيساريات وسواها **كأوقاف** يرصد ريعها ومداخيلها للعاملين في تلك المدارس والجوامع من دارسين ومدرّسين. وهكذا شاهدنا، كما يعلمنا الباحث أندره ريمون، العديد من الأوقاف مثل الخسروفية (عام ١٥٤٦) والعادلية (١٥٥٥) والأحمدية (١٧٥١) والبهرمية (١٥٨٣) وكذلك وقف الحاج موسى الأميري (١٧٦٣) والعثمانية (١٧٢٨)، وكذلك وقف إبشير باشا (١٦٥٤) في حي الجديدة. وكانت مداخيل الخانات المختلفة من أهم مصادر تمويل هذه الجوامع والمدارس.

واعتباراً من عام ١٦٢٥ بدأت الإرساليات الدينية الكاثوليكية تصل إلى حلب مثل رهبانية الكبوشيين والكرمليين واليسوعيين واللعازريين، بينما الرهبانية الفرنسيسية كانت تقيم في الأراضي المقدسة منذ عام ١٢١٩ وفي حلب منذ عام ١٢٣٧ م. وقد ساعد وجود هذه الإرساليات على تشجيع التعليم في المدارس، وأصبح هناك طوائف كاثوليكية إلى جانب الموارنة، نشطت بشكل خاص خلال احتلال إبراهيم باشا سورية بين عامي ١٨٣١ و١٨٤٠.

حلب في عيون الأدباء والرحالة والفنانين الأوروبيين:

يـذكر بولـون Belon الـذي زار حلـب عـام ١٥٣٧ : "إن قوافـل بـلاد العجـم والهنـد والعراق كانت تحمـل إليها محاصيلها، وكـان المسافرون لهـذه الأقطار يجدون في حلب تجاراً مستعدّين لمرافقتهم، وكانت توجد فيها كل محاصيل الشرق. وكان أهل البندقية يرسلون أولادهم إليها ليتقنوا اللغة وعادات أهل سورية". كما إن الرحالة الإنكليزي بوكوك الذي زار حلب عام ١٧٤٦ قال عنها: "إنها من أجمل مدن الشرق".

ويعدّد كوتوفيكوس Cotovicus زائر حلب عام ١٥٠٠ الأجناس التي التقى بها بحلب دليل أهميتها التجارية فيذكر الفرس والهنود والأرمن والجيورجيين وأهل البندقية ومرسيليا وكتالونيا وجنوه والإنكليز والألمان والبلجيك...

أما شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) أديب الإنكليز العظيم فقد ذكر حلب في مسرحيتيه ماكبث وعطيل دليل أهميتها وازدهارها. كما إن الشاعر الفرنسي لامارتين Lamartine تكلّم عن حي الكتّاب غربي نهر قويق وذكر في كتابه "رحلة إلى الشرق" الصادر عام ١٨٣٣ سمو ونبل أخلاق الحلبيين وحسن تصرفاتهم ووقارهم، كما وصف سيدة حلبية تدخّن النارجيلة.

أما الرحالة والرسام ألكسندر دروموند Alexandre Drummond فقد وصف، فيما وصف، زيارته حلب عام ١٧٥٤ في كتابه "أسفار"، وخلّدها في لوحاته وبخاصة لوحته التي رسمها عام ١٧٤٧ وتظهر سقف قاعة العرش في قلعة حلب بقبابه التسع كما كان عليه قبل زلزال عام ١٨٢٢ المدمّر.

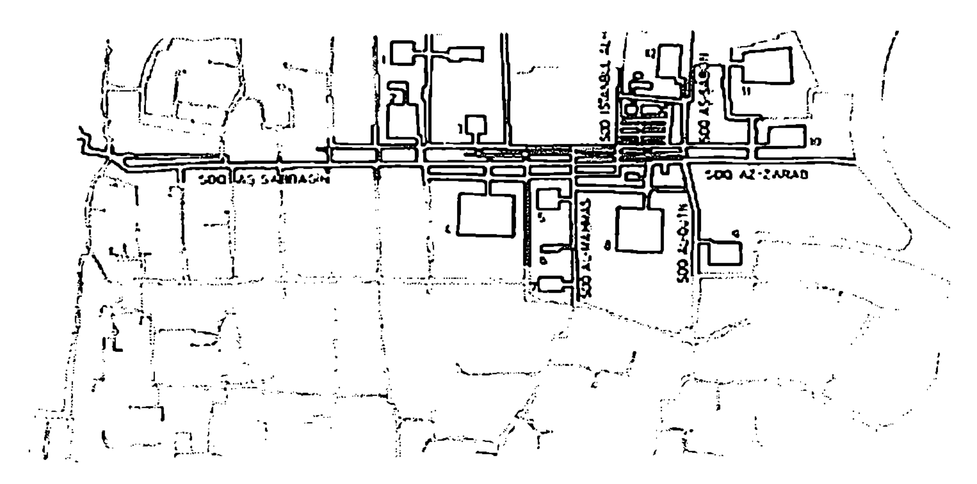
كذلك نذكر الرحالة والمصور الهولندي كورنيليس دوبران Cornelis de Bruijn الذي زار حلب عام ١٦٥٢ أول مرة، ثمّ أقام فيها من ١٢ /١٦٨٢/٥ ولغاية ١٦٨٤/٤/١٠ وكان ينزل في خان الجمرك في دار التاجر الهولندي كونراد كالكبيرزرCoenraad Calckberner، وعند عودته إلى هولندا أعدّ كتابه "رحلات إلى المشرق" وقد ضمّ صوراً رائعة منها صورته الشهيرة لبانوراما مدينة حلب.

ونذكر أخيراً لويس فرانسوا كسّاس Louis François Cassas الذي زار سورية وفلسطين ومصر وكان رساماً، وقد ترك كتابا اسمه "رحلة وصورة في سورية" في ثلاثة

مجلدات ضمّت ٢٥٠ صورة من رسمه، وقد زار حلب في أواخر عام ١٧٨٤ وأدهشه سمو سلوك سكانها وعاداتهم وجمال ألبستهم.

خانات حلب:

هناك بشكل عام نوعان من الخانات: خانات إلى جانب الطرق لإيواء المسافرين وبشكل خاص الذاهبين لأداء فريضة الحج، وتتألّف عادة من طبقة واحدة من البناء، ويعود أقدمها إلى الفترة السلجوقية. وخانات تقام في المدن الهامة، وتكون على طبقتين، عليا لإقامة التجار والمسافرين وسفلى لعرض البضائع، قد يستعمل جزء منها كاصطبل لمبيت الجمال والحيوانات.



Pl. 3 Aleppo Suq. Schlüsselplan der Straßen und Gebäude

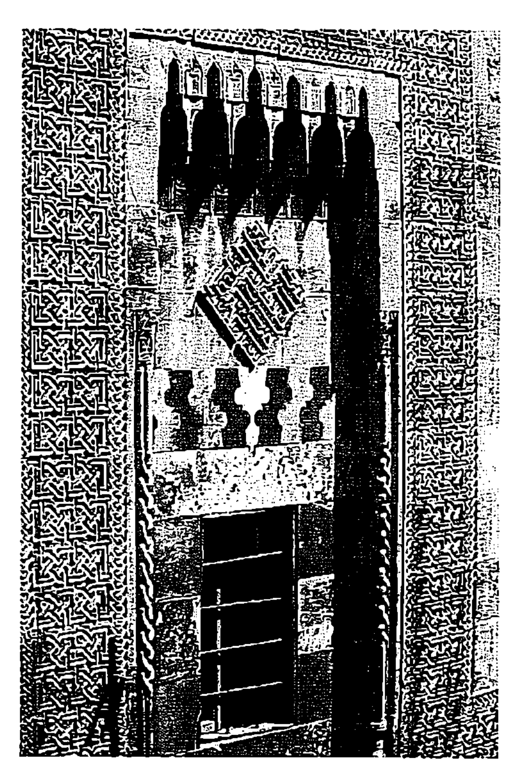
1 HĀN AL-HATAB
2 HĀN AL-QASABIA
3 HĀN AL-HIBĀL
4 HĀN AL-GUMRUK
5 HĀN AN-NAHHASIN
6 HĀN AL-BURGUL
7 HĀN AL-ʿABASI
8 HĀN AL-ʿALABIA
9 HĀN AL-FARRAYIN
10 HĀN HAIR BAK
11 HĀN AL-WAZIR
12 HĀN AS-SABUN

مسطح أهم خانات أسواق المدينة

الخان في المدينة هو بناء ضخم يشبه الحصن الدفاعي مربّع أو مستطيل الشكل يتراوح طول أضلاعه بين ٤٠ و٨٠ م أسماه الأوروبيون caravanserail (مكان القوافل)، يتألف من مدخل واسع وحيد ذي مصراعين وفي أسفله إلى اليمين باب صغير لدخول الناس مساءً عند إغلاق باب الخان. وفي الداخل تقوم باحة واسعة مربعة الشكل أو مستطيلة بحسب شكل الخان، وذلك لتسهيل عملية تعبئة وتحميل وتفريغ البضائع. وتحيط بالباحة بكاملها في الطبقة الأرضية غرف متجاورة عبارة عن مخازن وحوانيت لعرض البضائع وتخزينها أو لإجراء الحسابات، تطل بأبوابها وشبابيكها على الباحة، وقد يُستعمل بعضها اصطبلاً للحيوانات. أمّا الطبقة العلوية من الخان، ويُصعد اليها عادة بدرجين من جهتي المدخل الرئيسي للخان، فتتألف من غرف عديدة متجاورة لإقامة ومبيت التجار، قام أمامها رواق تقدمته أقواس وأعمدة يطلّ منها على الباحة التي غالباً ما يكون في وسطها مسجد صغير للصلاة وميضأة. وغالباً ما يكون مدخل الخان من الخارج مزيناً بواجهة جميلة الزخرفة، وقد يكون هناك إلى جوارها سبيل ماء للشرب. وقد امتازت واجهات الخانات من الفترة المملوكية بزخارفها ونقوشها الجميلة مع الكتابات الدالة على تاريخ البناء واحتوائها على الرنك الخاص بالباني ورموز الوظائف التي كان يمارسها. وكانت الخانات توضع من قبل السلطة تحت تصرّف التجار تسهيلاً لإقامتهم والقيام بتجارتهم دون حق ملكية هذه الخانات. وكان "الجمرك" هو الهيئة التي تدفع الإيجار وتتحمل نفقات الإصلاح والترميم وكانت تحرص على راحة التجار، ويتألف دخلها من الضرائب التي يدفعها التجار على دخول وخروج بضائعهم، وكانت دولة البندقية تدفع ضريبة قدرها ٧٪ على بضائعها، بينما كانت فرنسا وإنكلترا وهولندا تدفع ضريبة ٣ ٪ من القيمة بموجب اتفاقية الامتيازات عام ١٥٣٥. ولم تعامَل البندقية مثل تلك الدول إلاّ في القرن السابع عشر.

أما خانات الفترة العثمانية فقد تميّزت عن الخانات المملوكية غالباً بوجود قاعة هامة فوق مدخل الخان الرئيسي مباشرة كانت تخصّص لإقامة القناصل أو إحدى الشخصيات الهامة، وكانت تزين من الداخل والخارج بالنقوش والإطارات والأعمدة الصغيرة في نوافذها وفتحاتها المطلة على داخل الخان. وكانت هناك غرفة خاصة قريبة من مدخل الخان للآغا أو المشرف الذي يعيّنه صاحب الخان لتحصيل الرسوم على البضائع التي تدخل الخان مع تنظيم الأمور فيه، ويعمل تحت إمرته "أوضه باشي" أي حارس ينوب عنه ويقيم في الخان بشكل

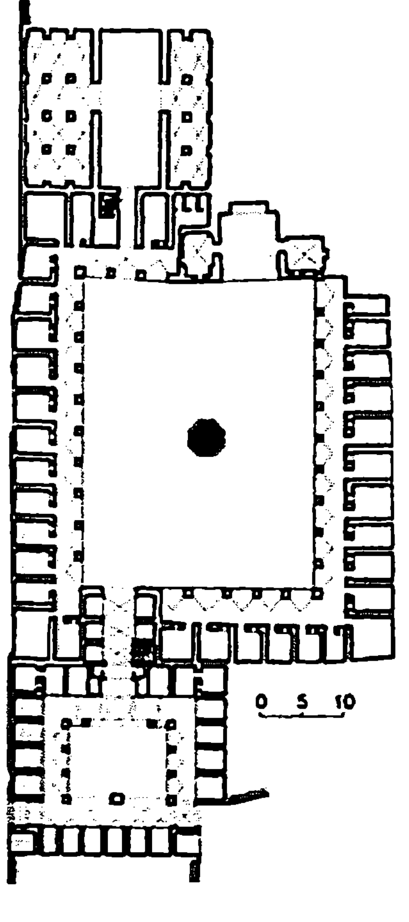
دائم. وكان تجار حلب يستأجرون عدداً من الغرف لعرض بضائعهم وعقد الصفقات التجارية، ولديهم غرفة صغيرة بسيطة الأثاث ملاصقة للمستودع يمكثون فيها من الصباح حتى صلاة العصر، ثمّ يعودون إلى بيوتهم التي قد لا تكون قريبة من "المدينة". أما الطبقة المخصّصة للمسافرين أيام الطبيبين راسل فكان في غرفها حصر- جمع حصيرة- فقط وعلى المسافر أن يؤمّن باقي الأثاث. وغالباً توجد قرب الخان محلات لصنع القهوة والطهي واستراحة التجار. وكانت الخانات تغلق مع أبواب الأسواق مساءً. وكانت الكلاب المتوحشة، قبل خمسين عاماً، تُترك طليقة ليلاً تتجوّل على أسطح الأسواق لمنع الدخلاء من النزول إلى الأسواق من كوى الإنارة والتهوية العلوية في الأسقف بغية السرقة.



واجهة خان الصابون

ويذكر شوفاليه دارفيو قنصل فرنسا بحلب (١٦٧٩- ١٦٨٦) والطبيبان باتريك والكسندر راسل اللذان أقاما بحلب بين ١٧٤٣ و ١٧٦٨ وجود ٦٨ خاناً في المدينة. ولا زال هناك حتى الآن حوالي ٣٠ خاناً، منها خمس خانات من الفترة المملوكية هي **خان الصابون** (بناه الأمير أزدمر نائب حلب مرتين (١٤٧٩- ١٤٨٠) و (١٤٨٤- ١٤٩١) ويمتاز بواجهته البديعة بزخرفتها كالدنتيل مع وجود رنك مملوكي فيها وكتابة بخط كوفي على شكل مربع، وقد هدم الجناح الشمالي من الخان عند تعريض الشارع). و**خان أبرك (القصّابية)** (بناه الأمير أبرك عام ١٥١٠ وكان نائب القلعة أيام السلطان قانصوه الغوري، ويمتاز بوجود كتابة جميلة على واجهته الحجرية وكتابة أخرى على الباب المعدني لمدخله). و**خان خاير بيك** (بناه آخر نواب حلب أيام المماليك عام ١٥١٤) و**أوج خان** (وتعني الخانات الثلاثة، ولم يبق منها سوى مدخل واجهة مملوكي غني جداً بزخرفته ويقع خارج أسوار المدينة شمال باب النصر). وخان

قورت بيك (ومساحته ٣٨٠٠ م٢ فيه قسم مملوكي مع رنوك الأمير أزدمر، وقسم عثماني من بناء قورت بيك ابن خسرو باشا وهو وقف لجامع الخسروية، ويتألف من طبقتين يشغل معظم غرفه صناع الأحذية، وهو جدير بالترميم وإعادة التوظيف والاستثمار).

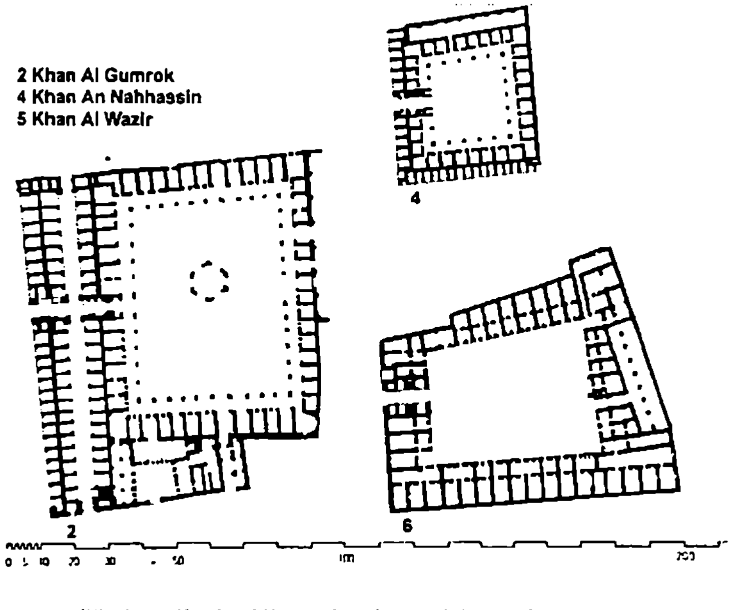


مسطح خان قورت بيك

أمّا أهم الخانات العثمانية فهي خان البنادقة وخان النحاسين وخان الجمرك و خان البرغل وخان الحبال وخان الحرير وخان العلبية وخان الوزير وخان فلكروز وخان التتن الصغير والكبير وخان العبسي وخان الطاف وخان الشونة... ولعلّ **خان البنادقة** هو من أقدم الخانات بحلب وكان من أوقاف المدرسة الحلوية وأقام فيه تجار البندقية، وهم أقدم التجار بحلب، وكان فيه كنيسة برعاية آباء الكرمل، وفيه قسم مقبب قديم وفي طبقته العلوية ثلاثة أقسام للسكن، بينما الطبقة السفلى بكاملها للتجارة، وفيه معامل نسيج حديثة. كما لدينا **خان البرغل** ويقع جنوب وبجوار خان النحاسين، وكان من أوقاف جامع العادلية ويعود بقسمه الجنوبي إلى الفترة المملوكية، وربما كان يدعى " خان القواسين" الذي ذكره مؤرّخ حلب ابن العجمي وأعاد بناءه وأعدّه للسكن علاء الدين علي بن شهاب الدين بن الشياني في العام ١٤٧٢، ويعود قسمه الحديث إلى الفترة العثمانية والقرن السادس عشر. إنّ معظم هذه الخانات بناها الولاة أنفسهم أو التجار والشخصيات الكبيرة في الولاية.

ولا بدّ من ذكر **خان الوزير** بين خانات حلب العثمانية الهامة، بناه عام ١٦٨٢ قره مصطفى والي حلب بين ١٦٧١ و١٦٨٣ والذي أصبح فيما بعد وزيراً في استنبول، لذا سمي

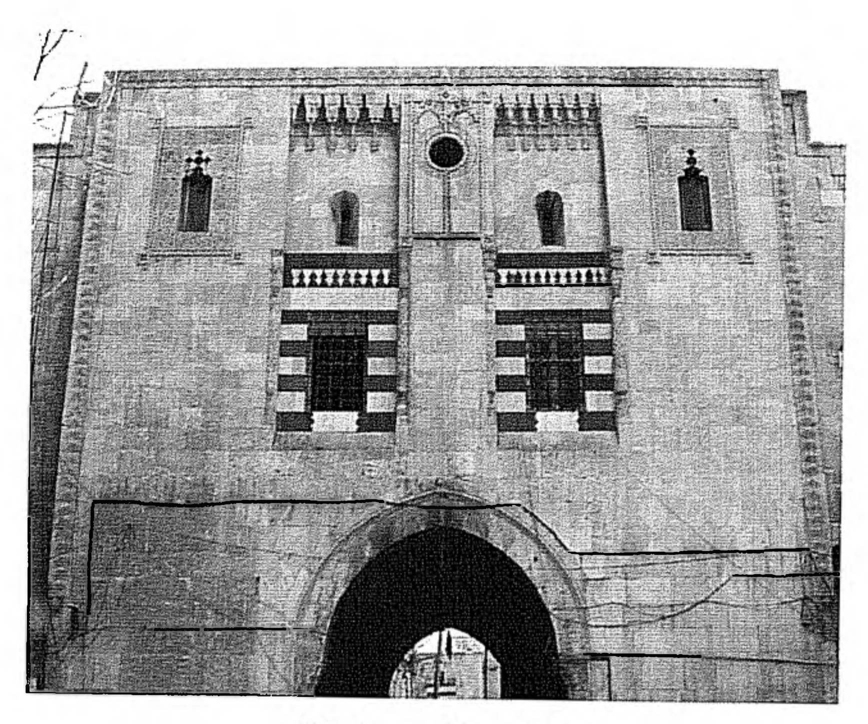
"خان الوزير". تبلغ مساحته ٤٥٦٠ م٢ ويمتاز بزخرفة واجهته البديعة من الداخل والخارج، وقد هدم جزء من جناحه الشمالي، في الطبقة العلوية التي كان ينام فيها التجار والنزلاء القادمين مع بضائعهم من البصرة وبغداد وإيران، عند توسيع الشارع بين الجامع الكبير والقلعة. وتضم الطبقة الأرضية ٣٠ مخزناً لعرض البضائع الخاصة بالتجارة الخارجية.



مسطح خان الوزير (٦) خان النحاسين (٤) خان الجمرك (٢)

كما نذكر مجمّع وقف إبشير باشا في "حي الجديدة" ويضم أسواقاً وجامعاً وأبنية إقتصادية وخاناً (عام ١٦٥٤) ومصبغة وثلاث قيساريات وفرناً ومقهى، ومساحة مجموعة المباني حوالي ٦٠٠٠ م٢ بأبعاد ٩٠×٨٥

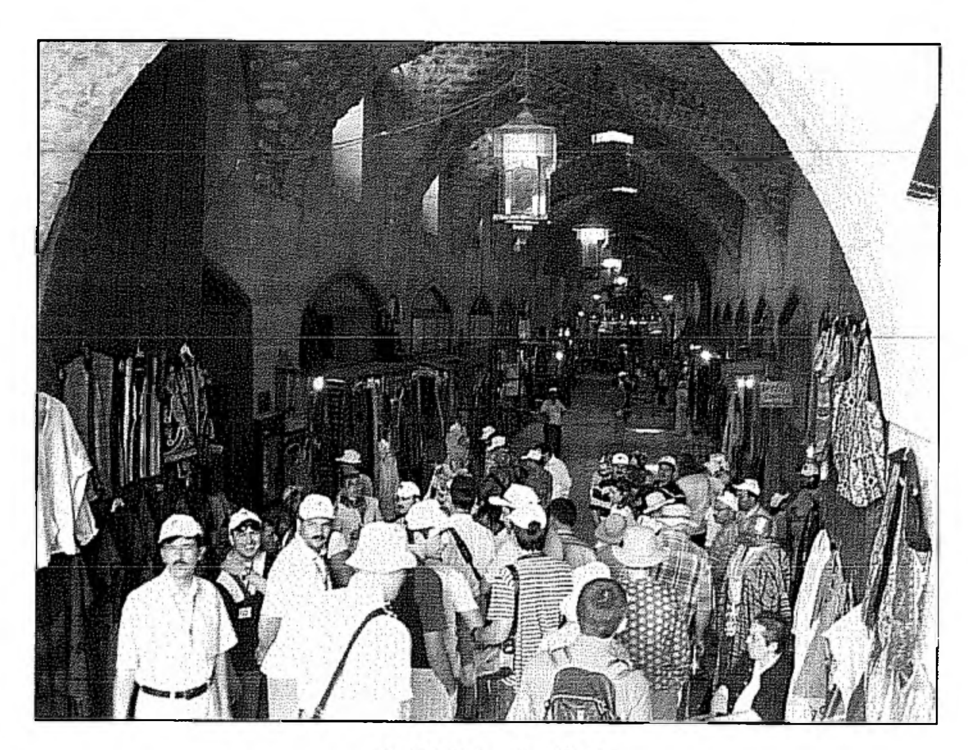
م تقريباً. وأجمل ما فيه واجهة المقهى بأعمدته وقبته، ومساحة مسجده صغيرة لا تتجاوز ٢٥٠ م٢، وقد أنشأه إبشير مصطفى باشا والي حلب مرتين عام (١٦٤٧- ١٦٥٥) في منطقة الجديدة المزدهرة تجارياً.



واجهة خان الوزير من الداخل

ونذكر كذلك **خان الشونة**: ويقع أمام مدخل القلعة، وكان من أوقاف جامع الخسروفية يتألف من قيسارية على شكل سوقين يشكلان حرف L بنيت حوانيتها عام ١٥٤٦، وقد حُوّلت في القرن التاسع عشر إلى خان بإضافة جدارين أحاطا بباحة فتشكل "خان الشونة". وأصبح بملكية عائلة مركوبولي عن طريق "الأجارتين" ويعني ذلك إعطاء العقار الموقوف المتوهن لمن يصرف عليه لإصلاحه واستثماره ليقوم بتأمين الوارد للجامع الموقوف عليه. وقد تم استملاك الخان لصالح وزارة السياحة مؤخراً وتم ترميمه وتحويله إلى مجمع للحرف التقليدية بحلب يزوّد السياح بهدايا وتذكارات جميلة.

ومن بين الخانات الجديدة التي بنيت مع بداية القرن العشرين نجد خان عمر شاهين وهو نفس خان فلكروز، وخان الميسّر نسبة إلى الحاجين محمد وأحمد ولدي الحاج عبد القادر بن عمر ميسر وقد أنشئ عام ١٩١٣ وكان فيه المصرف العثماني. وكذلك خان الزعيم ويتألف من ثلاث طبقات، وكذلك بُني خان الجاكي (الجديد) مقابل خان الحرير.



السيّاح في خان الشونة

وكانت هناك إلى جوار الخانات في الأسواق قيسـاريات- جمع قيسارية-، ويعتقد البعض أن كلمة قيسارية مأخوذة من السوق المغلق الذي بناه يوليوس قيصر في أنطاكية في القرن الأول قبل الميلاد ثم عمّمت. وهي أبنية أصغر حجماً من الخانات وتماثلها من حيث شكل البناء وتوزيع الغرف على طبقتين حول الباحة دون أن تحتوي اصطبلاً للحيوانات، وتضمّ غالباً تجمّع أصحاب المهنة الواحدة والحرفيين، وكانت تستخدم كذلك كفندق لمبيت مرافقي التجار الكبار الذين يقيمون في الخانات، وكان عدد القيساريات أيام القنصل شوفاليه دارفيو ١٨٧ قيسارية تحوّلت إلى أماكن عمل النسّاجين وبدأت تضمّ أصحاب الحرفة الواحدة، ونذكر من هذه القيـساريات قيسارية الحكاكين (الصاغة وساحبو خيوط الذهب) والفرّايين والعلبية والبهرمية والجلبي..

كانت بعض القوافل التجارية تفد إلى حلب وهي مؤلّفة من ٤٠٠٠- ٨٠٠٠ جمل، وقد تلتقي في حلب أكثر من أربع قوافل في الوقت نفسه. وكان قطار قافلة الجمال القادمة من

ميناء البصرة حيث سفن التجار العرب والفرس والهنود يتألف من ١٠٠٠٠ جمل محملة بالبضائع في القرن السابع عشر. ويذكر الكولونيل تشيزني أن مجموع الجِمال التي خرجت من حلب في إحدى السنين باتجاه الأناضول والعراق كان أكثر من خمسين ألف جمل، عدا القوافل المتجهة إلى البلاد الشامية ومنها دمشق وبيروت.

أما البضائع والمواد التي كانت تنقلها القوافل فأهمها الأحجار الكريمة واللآلئ والمنتجات النسيجية والحريرية والصوف والسجّاد والفخار الملوّن والمرايا البرونزية وأشغال الذهب والفضّة والسيوف والأسلحة المزخرفة والأقمشة والأدوات الموسيقية واللوحات الفنّية والتماثيل والخطوط والمصنوعات اليدوية والكتب والمواد الطبّية والتوابل. وكانت البضائع توزع على الأسواق وعددها ٣٧ سوقاً، وقد اختصّ كل سوق بنوع واحد من البضاعة، وسمّي باسم البضاعة التي يبيعها أو باسم الخان المجاور له، مثل سوق العطارين وسوق الصوف وسوق الحبال وسوق الصابون وسوق الصاغة وسوق خان الجمرك وسوق خان الوزير.. وقد قيل أن رجلاً أعمى يستطيع ان يتجوّل في الأسواق ويحدّد موقعه من رائحة المواد المباعة. كما يُذكر أن ما كان يباع في القاهرة خلال شهر كان يباع خلال يوم واحد في أسواق حلب قبل افتتاح قناة السويس في١٢/١١/١٨٦٩ الذي كان ضربة قاضية لتجارة حلب (تدنت التجارة من ١٨ مليون ليرة ذهبية سنوياً إلى حوالي العشر).

وقد ذكر مخطط تنظيم المدن أندره غوتون أن حلب يجب أن تعرف كيف تستفيد سياحياً من أسواقها التي يبلغ مجموع أطوالها ١٢ كم وهي أطول أسواق مسقوفة في العالم.

القناصل والسكن في خانات حلب:

بدأ القناصل الأوروبيون يقيمون في حلب إثر اتفاقية الامتيازات عام ١٥٣٥، وأقامت دولة البندقية قنصليتها بحلب في خان النحاسين منذ عام ١٥٤٨. وجاء أول قنصل فرنسي إلى حلب عام ١٥٦٤ وجاء القنصل الإنكليزي عام ١٥٨٣واسمه جون باريت (١٥٨٣ -١٥٨٦) والقنصل الهولندي عام ١٦٠٧ وقد أقاموا جميعهم أوّل الأمر في **خان الجمرك أو الخان الكبير** (بناه عام ١٥٧٤ إبراهيم خان زاده محمد باشا، وكان يضمّ ٥٢ مخزناً و٧٧ غرفة للسكن والتخزين في الطبقة العلوية. ومساحة الخان ٦٢٠٠ م٢ وقد سمي خان الجمرك لأن السلطة

كانت تستوفي فيه الرسوم الجمركية. وكان القنصل في البدء يسكن مع تجّاره في الخان نفسه متخذاً بعض الغرف مكان إقامة له. وفي القرن السابع عشر استقلّ القنصل بسكن خاص ملاصق أو قريب من الخان. وانتقل قنصل إنكلترا ليقيم في خان البرغل، وظلّت القاعة الكبيرة ذات الواجهة الجميلة المزخرفة من الداخل والخارج في خان الجمرك قاعة استقبال القنصلية الإنكليزية. وأصبح هناك فرع لشركة الهند الشرقية بحلب عام ١٦٠٣. وفي أيام قنصل فرنسا بحلب شوفاليه دارفيو انتقل سكن القنصل إلى **خان الحبال** الكائن في سوق القطن والذي سمّي خان الفرنسيين، وكان وقفا للنيشانجي محمد باشا منذ عام ١٥٩٤ وأعطي لفرنسا حق التمتع الدائم به بين ١٧٨٧ و١٧٩٤، ونزع منها خلال حملة بونابرت على مصر (في ١٧٩٨/٩/١٦ سجن ٣٤ فرنسياً في قلعة حلب ضمن ٤ غرف صغيرة) ثم أعيد إليها عام ١٨٠٣. وقد ضمّ الفرنسيون المنزل المجاور لخان الحبال لإقامة قنصلهم، واستمرّ وجود مكاتب القنصلية في خان الجمرك. كذلك أقام القنصل الهولندي في خان الفلمنك وربما هو خان فلكروز نفسه، وقد سمّي كذلك نسبة إلى تاجر فرنسي أقام فيه يدعى لويس فلكروز. وهكذا نجد أن أهم الخانات كُرّست لإقامة القناصل الأوروبية وكذلك كبار التجار والجاليات الأجنبية مثل عائلة ماركوبولي التي سكنت في **خان العلبية**، وهو وقف منذ عام ١٥٥٦ لجامع العادلية، مساحته ٥٦٠٠ م٢ وفي باحته كتابات من أعوام ١٧٤٠ و١٨٤٦ و١٨٧٩ وقد أضيف إليه بناء على الطراز الأوروبي، وكان فيه قنصليات نابولي وصقلّية وإسبانيا والبرتغال. وكان أفراد من عائلة ماركوبولي قناصل فخريين يمثلون إيطاليا وإسبانيا والبرتغال حتى وقت قريب، كما كان لعائلة جيراردي مصالح تجارية في **خان الطاف (خان أحمد باشا)** الواقع إلى الغرب من معهد وكنيسة الأرض المقدّسة اللذين تمّ بناؤهما في خان الشيباني.

ويعلمنا قنصل حلب دو ليسيبس المقيم في خان الحبال أن عدد الفرنسيين المقيمين في تشرين الثاني ١٨٢٢ قد تدنّى إثر الزلزال إلى ٤١ فرداً بينما كان عددهم عام ١٨١١ يبلغ ١٥ عائلة و٧٠ فرداً فرنسياً بالإضافة إلى ٣٠ عائلة أخرى و١٣٨ فرداً إيطالياً وهولندياً لكن بجنسية فرنسية. وكان هناك عام ١٦١٢ في مدن البحر المتوسط ٢٨ قنصلاً فرنسياً. ومن أوائل القناصل الفرنسيين في حلب كان جان فيفييه (١٦٢١ - ١٦٢٤) وجاك وبيير فيفييه.

ويذكر ماسون أن القنصلية الفرنسية كانت في طرابلس حتى عام ١٦١٢ ثمّ انتقلت إلى حلب بعد ذلك. ويبيّن أرشيف مرسيليا أن جان رينييه قد عيّن قنصل فرنسا في طرابلس

في ٥ أيار ١٥٤٨ وقد أوجبت بلدية مرسيليا أن يتقاضى أتعاباً تعادل ١٪ من قيمة البضائع عند خروجها، بينما كان يدفع قبل ذلك ½ ٪ من قيمة البضائع. وكانت مدّة تعيين القنصل ٣-٥ سنوات مبدئياً وغالباً تمدد أو تبقى مدى الحياة ما دام القنصل حسن السيرة ومرضياً عنه.

(ويبين الجدول رقم ١ مقارنة بين أهم هذه الخانات من حيث تاريخ البناء والمساحة).

الجدول رقم ١ (أسماء أهم خانات حلب مع تاريخ البناء والمساحة)

الرقم	اسم الخان	تاريخ البناء	المساحة الكلية (م²)	مساحة الباحة (م²)
١	الحرير	القرن ١٦	٢٠٠٠	٦٠٠
٢	القصّابية (أبرك)	١٥١٠	٣٣٠٠	١٠٠٠
٣	الحبال	١٥٩٤	١٧٠٠	٤٠٠
٤	الجمرك	١٥٧٤	٦٢٠٠	٢٤٠٠
٥	النحّاسين	١٥٤٨	١٥٠٠	٥٠٠
٦	البرغل	القرن ١٥/١٦	١١٠٠	١٣٠
٧	العبسي	القرن ١٦/١٧	٢٠٠٠	٣٥٠
٨	العلبية	١٥٥٦	٥٦٠٠	٢٠٠٠
٩	الفرّايين	القرن ١٧	٢٥٠٠	٩٠٠
١٠	خاير بيك	١٥١٤	٣٠٠٠	٨٠٠
١١	الوزير	١٦٨٢	٤٨٠٠	١٨٠٠
١٢	الصابون	قبل ١٤٩٣	٢٣٠٠	٧٠٠

ودليل على الوجود الكثيف للجاليات الأجنبية في حلب وازدهار التجارة الخارجية أنه أصبح لإنكلترا أكثر من ٥٠ شركة ولفرنسا أكثر من ٨٠ تاجراً في خان الجمرك عام ١٦٦٢. ويذكر الأخوان راسل اللذان كانا طبيبي الجالية البريطانية بحلب بين عامي ١٧٤٣-١٧٦٨

وجود ٨٠ مؤسسة تجارية عائداتها ١٨ مليون فرنك. ويذكر جون باركر[١] قنصل إنكلترا بحلب (١٨٠٣- ١٨١٤) أنه كان هناك في حلب واسكندرونة ٨٠ تاجراً ووكالة بريطانية في أيامه (كتابه، جزء، أول، ص١٣). كما إن القنصل الفرنسي Gedoyn le Turc عندما ذهب للقاء الوالي بحلب لأول مرة بتاريخ ٢٧ آب ١٦٢٤ كان برفقته ١٠٠ تاجر فرنسي. وتعتز حلب بأنه فيها تمّ إنشاء أول "غرفة تجارة" عام ١٨٨٣ وفتح أول فرع للمصرف العثماني عام ١٨٩٣.

لقد أقامت القناصل والجاليات الأجنبية في الخانات، وسُمح لهم بتحويل إحدى الغرف إلى معبد صغير لممارسة شعائرهم الدينية أو الصلاة في كنيسة الموارنة، وكانت الكنيسة الكاثوليكية الوحيدة في حلب. وكانت هناك كنيسة صغيرة في خان الحبال يرعاها الآباء اليسوعيون، وأخرى في خان أبرك (القصابية) يرعاها الآباء الكبوشيون. وبالإضافة إلى الكنيسة التي كان يرعاها رهبان الكرمل للجالية الفرنسية في خان الجمرك، كان هناك معبد للجالية الإنكليزية يرعاه رجل دين أنكليكاني يتقاضى ٤٠٠ جنيه سنوياً عام ١٥٩٩. وكان يرسل مع قنصل البندقية قس يعمل كاتباً وسكرتيراً، ثمّ عيّن فيما بعد مسجل Qadernier للقيام بأعمال سكرتارية القنصلية.

وكان هناك أكثر من مترجم، وكان التراجمة هم الوسطاء بين الجاليات الأوروبية وسكان البلاد ورجال السلطة. ونصّت اتفاقية "الامتيازات" انّه إذا كان لأحد أهالي البلد دعوى على تاجر فرنسي، فلا يجوز للقاضي أن يبتّ في الدعوى إلاّ بوجود الترجمان، وتؤجّل الدعوى حتى حضوره. وكان لكل قنصل عدد من المترجمين وكانوا يرتدون ملابس

---

[١] جون باركر أُرسل كاتب قنصل لإنكلترا إلى حلب في أيار ١٧٩٩ ثم أصبح قنصلاً في ١٨ تشرين الثاني ١٨٠٣ ولغاية عام ١٨١٤، وكان في مقدّمة تراجمته نعوم حسون والد رزق الله حسّون الذي أصدر في إستنبول أول جريدة عربية في العالم عام ١٨٥٥ أسماها "مرآة الأحوال". لعب باركر دوراً هاماً في أحداث المنطقة ووصف الطاعون وزلزال عام ١٨٢٢ وعاصر ليدي هستر ستانهوب التي زارت تدمر عام ١٨١٢ وقابلت محمد علي باشا في مصر وبقيت في سورية ٢٧ عاماً حتى وفاتها عام ١٨٣٩ ودفنت في جونية (لبنان)، وكان جدها وليم بيت رئيس وزراء إنكلترا. تابع باركر عمله كقنصل في مصر وعندما مات عام ١٨٤٩ طلب أن يدفن في بتياس قرب أنطاكية، ورفات زوجته ماريان باركر في المقبرة الإنجيلية في الشيخ مقصود بحلب. ترك مذكرات أصدرها ابنه إدوار بمجلدين وبعنوان

Syria & Egypt under the last five sultan of Turkey,London1876.

مميّزة (قبعة من الفرو وخف أصفر) ويستفيدون من الحماية القنصلية ويُعفون من دفع الخراج. ومما يجدر ذكره أن لوك فونتون Luc Fonton، وكان الترجمان الأول للقنصل الفرنسي بحلب، أصدر الباب العالي فرماناً في منتصف تموز ١٧٩٩ يأمر فيه قاضي حلب بوضع المترجم وابنه تحت حماية نائب القنصل الإسباني والسماح لهما بالبقاء بحلب التي عاش لوك فيها ٤٣ سنة وذلك لحسن سلوكه ورضى القضاة والضباط عنه طيلة تلك المدّة. ويذكر مؤرّخ حلب الشيخ كامل الغزّي أنّ مجموع عدد التراجمة بحلب عام ١٧٩٣ بلغ ١٥٠٠ مترجم.

وكان يرافق القنصل حارس (جاويش) يعمل كمراسل، وقد سُمح للقناصل بحق اختيار إنكشارية لحراستهم، وكان عددهم في حلب يتراوح بين اثنين وأربعة أشخاص. وفي القرن السابع عشر أصبح وجود طبيب في البعثة ضرورياً لتقديم العناية الصحّية للجالية، وبخاصة عند انتشار الأوبئة. وكان هناك مع القنصل بعض الخدم يتراوح عددهم بين ٤ و٧ عناصر بالإضافة إلى الطبّاخ.

إن الرحّالة فولني Volney مؤلف كتاب" رحلة في سورية ومصر" ذكر أن التجار الأوروبيين في أيّ مكان لا يتمتعون بما يتمتعون به من حرية في حلب، كما أن أهليها يعتبرون بحق، مسلمين ومسيحيين، أكثر سكان تركيا ثقافة. ويصف المدينة بأنها ربما المدينة الأكثر نظافة والأجمل بناء في السلطنة، وألطفها عشرة وأصحّها مناخاً، والحلبيون هم أكثر أهل السلطنة تمدّناً.

كما إنّ كتاب "تاريخ حلب الطبيعي" من تأليف الأخوين راسل، وكانا طبيبين معيّنين من قبل الحكومة البريطانية للعناية بجاليتها بحلب بين عامي ١٧٤٢ و ١٧٦٨، يعطينا فكرة مسهبة عن حياة الأوروبيين بحلب، بالإضافة إلى تفصيله عن حياة سكانها على اختلاف مذاهبهم وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية... ويذكر الأوبئة التي كانت تتعرّض لها المدينة، ويعلمنا كيف كان الأوروبيون يحبسون أنفسهم في الخانات عند اجتياح الأوبئة وبخاصة الطاعون. وكان الأوروبيون يتمتعون بالراحة وكانوا يخرجون إلى أسطح خاناتهم للنزهة، وكانوا ينامون على الأسطح ليلاً بدءاً من شهر حزيران وحتى أواخر أيلول. كما كانوا يتزاورون فيما بينهم عن طريقها دون النزول إلى الشارع، وبخاصة عند وجود الطاعون أو الكوليرا حيث كانت الخانات تُغلق دفعاً لنقل الوباء، كما يعلمنا ذلك القنصل جون باركر

الذي كان يقيم في خان البرغل، والذي ذكر أن ضحايا الطاعون بحلب الذي انتهى في ١٥ أب ١٨١٤ بلغت ٨٠٠٠ نسمة.

وكان القناصل يذهبون للصيد في الربيع إلى جهات السفيرة والجنوب، ويذكر قنصل إنكلترا جون باركر أنه اصطاد مرة ٦٦ طائراً من نوع الحجل perdrix في يوم واحد. وكان يصطحب معه رئيس رهبان دير الفرنسيسكان الذي كان يسكن في خان الدير الواقع إلى الغرب من خان البرغل والمقابل إلى معهد الأرض المقدّسة[1] college de terre sainte الذي بني فيما بعد مع الكنيسة في خان الشيباني وبدئ التدريس فيه عام ١٨٥٩. وكان الهدف من بناء المعهد تدريس الطلاّب اللغات الأجنبية وفي مقدّمتها الإيطالية والرياضيات والعلوم.. وإعدادهم لدخول الجامعة أو لاستلام أعمال التجارة من الجاليات والتجار الأوروبيين الذين بدأوا ينزحون إلى مرسيليا والإسكندرية ومرافئ البحر المتوسط مع بدء الثورة الصناعية في أوروبا، ومنافستها لبضائع الشرق من حيث الأسعار والجودة، وافتتاح قناة السويس اللاحق الذي أثّر كثيراً على الحركة التجارية في حلب. وهكذا بدأت العائلات الحلبية، التي كانت تعمل في الترجمة مع القناصل الأوروبيين واكتسبت خبرة تجارية جيّدة، بإشغال مكان التجار الأجانب النازحين والقيام بأعمالهم، وقد نجحوا بالفعل في ملء الفراغ بشكل جيّد.

كانت الجاليات الأوروبية على اختلاف جنسياتها تعيش مع بعضها في وئام وسلام بالرغم من اختلاف مصالحها التجارية. وكانوا يجتمعون بين الفترة والأخرى إما لإقامة حفلات لعب الورق، وأحيانا لإقامة حفلات تنكريّة في الكرنفال أو للاستماع إلى موسيقى الحجرة أو إلى عزف ثنائي من بيانو وكمان أو إلى عزف منفرد يؤديه أفراد هواة من أبناء الجالية، وكان الحفل الموسيقي يتم تقريباً بشكل أسبوعي. وتعلمنا السيدة بولين هلفر P.Helfer

---

[1] معهد الأرض المقدسة بني مقابل دير الرهبان الفرنسيسيين في خان الشيباني والى الشرق من خان الطاف ومدفن أحمد بو متياب. تم تدشينه عام ١٨٥٩ وكان فيه ٢٨ طالباً أصبح عددهم أكثر من ٢٠٠ طالب كانوا يعدّون لدخول الجامعة بتدريسهم الحسابات والرياضيات واللغات الأجنبية بما فيها الإيطالية. وتعتبر أقدم مدرسة ثانوية في حلب (راجع ٦- معهد الأرض المقدسة في الشيباني).

التي رافقت مع زوجها الطبيب بعثة الفرات بقيادة الكولونيل تشيزني[1] Chesney انها استمعت خلال إقامتها بحلب عام ١٨٣٥ إلى حفلة موسيقية شارك في العزف فيها أحد أفراد عائلة بوخه آنئذ. وقد أكد لنا تقليد إقامة الحفل الموسيقي المرحوم الدكتور أدولف بوخه (١٨٩٥-١٩٨٧) آخر من أقام من الجاليات الأوروبية في خان، هو خان النحاسين الذي كانت تقيم فيه قنصلية البندقية، ويُعتبر أقدم بيت في الشرق الأدنى لا زال يُسكن منذ عام ١٥٤٨ حتى الآن.

كانت الخانات، بسبب إقامة الجاليات فيها، تتمتّع بالحماية وتمنع السلطات العثمانية اقتحامها، لذلك كان التجار الحلبيون، في الأيام الحرجة، يضعون أموالهم ومجوهراتهم أمانة لدى القناصل والتجار الأجانب في الخانات، كي لا يُستولى عليها وهي مخبأة في بيوتهم. وكانت للفرنسيين والإنكليز مقابرهم الخاصة، وعندما ضاقت بموتاهم تمّت الموافقة، بناءً على اقتراح القنصل الفرنسي شوفاليه دارفيو، على شراء مكان في مقبرة المسيحيين العامة، وكذلك فعل الإنكليز. وكانت المقابر في حي العزيزية إلى الغرب من شارع التلل حالياً، حيث دفن الباحث الأثري جورج سميث[2] عام ١٨٧٦، ثمّ نقلت رفاته عام ١٩٣٨ إلى "الشيخ مقصود" لترتاح في المقبرة الإنجيلية، وتم ذلك بحضور عالم الآثار ماكس ملوان زوج الروائية البوليسية أغاثا كريستي.

ويذكر بول ماسون أن الأوروبيين كانوا يشغلون حوالي ٤٠ خاناً من أصل ٦٨ خاناً بحلب يُستعمل بعضها لاستقبال بضائع القوافل وبعضها الآخر لإقامة الجاليات الأوروبية. وقد

---

(١) الكولونيل فرنسيس راودون تشيزني إيرلندي عمل في البحرية البريطانية، وقاد بعثة استكشاف نهر الفرات عام ١٨٣٥ ليبرهن أن الفرات قابل للملاحة، وأنه أقصر طريق بين إنكلترا والهند. أنزل في النهر سفينتين أسماهما "دجلة" و"الفرات" شمال جرابلس، وغرقت السفينة "دجلة" قرب الصالحية (التي عُرف فيما بعد أنها مدينة دورا أوروبوس) يوم ٢١ أيار ١٨٣٦ إثر إعصار عنيف قتل فيه ٢٢ إنكليزياً. كان تشيزني صاحب فكرة شق قناة السويس وقد سمّاه فرديناند دولسّبس باسم "أبو القناة". كما اقترح تشيزني مدّ خط حديدي من البحر المتوسط إلى تدمر فالعراق وإيران، وكان يفتش دائماً عن أقصر الطرق الموصلة إلى الهند.

(٢) جورج سميث (١٨٣٠- ١٨٧٦) باحث من المتحف البريطاني قرأ عام ١٨٧٣ لأول مرة قصة الطوفان في كسيرة فخارية مرسلة من حفريات "نينوى" في العراق. (راجع ١٢- مدفن جورج سميث بحلب وقصة الطوفان).

سكنت عائلة ماركوبولي في خان الجمرك وخان العلبية حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما سكنت عائلة بوخه خان النحاسين وخان البرغل حتى فترة قريبة. أما باقي الدور في الخانات التي سكنتها الجاليات الأوروبية فقد تحولت إلى مدرسة أو مطعم أو فندق أو قسّمت إلى دور مستقلة.

تخطيط سكن القناصل وتأثيره في أبنية العزيزية:

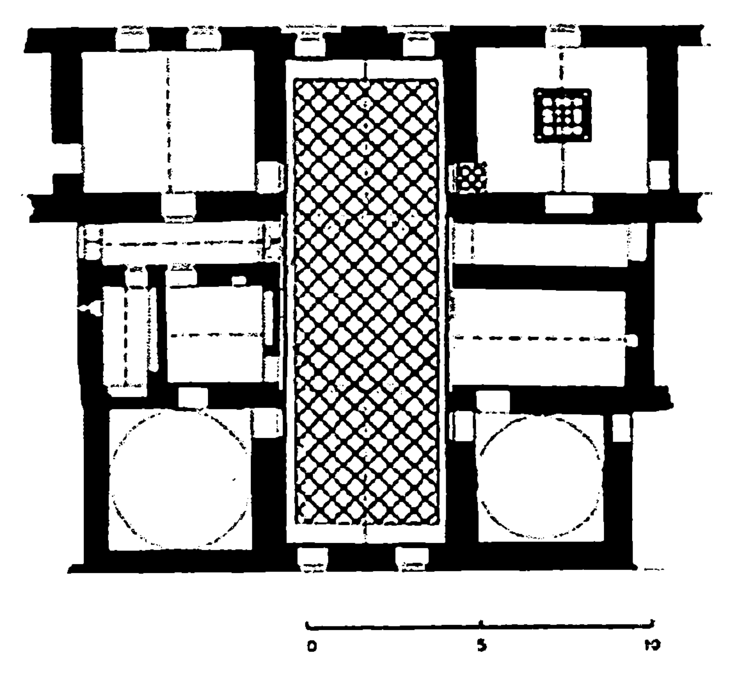
نتيجة حتمية إقامة القناصل الأوروبيين في الخانات، فقد أدخل تعديل على الطبقة العلوية في قسمها المخصّص لسكنهم لينسجم مع طريقة العيش التي اعتادوا عليها قبل مجيئهم إلى حلب. وكان سكنهم في بعض الخانات الرئيسية حيث تكون البيوت فسيحة ومريحة في الطبقة العلوية التي عُدّل تخطيطها ليمتد السكن على جزء أو كامل الطبقة العلوية. وطريقة تخطيط السكن كانت تتألف غالباً من رواق طوله حوالي ١٥ م وبعرض ٥ م، يُستعمل كموزّع على الغرف القائمة إلى كل جانب منه، وينتهي بقاعة استقبال هامة. وكانت النوافذ تطلّ على باحة الخان الداخلية لمراقبة البضائع ووصول القوافل.

عند إحداث بلدية حلب عام ١٨٦٦ والبدء بالبناء في حي العزيزية[١] وحي الجميلية حسب التخطيط الأوروبي، الذي تبنّى شوارع بعرض ١٣ و١٦م (في المدينة القديمة كان العرض أقل من ٥ م وفي بعض الأزقة ٢-٣ م) والذي لم يعد يعتمد كثيراً مخطّط البيت التقليدي، من حيث وجود صحن الدار والإيوان وقاعة الاستقبال على شكل حرف T مقلوب، كما هو الحال في بيوت حي الجديدة الشهيرة مثل بيت وكيل وبيت باسيل وبيت

---

(١) أحدثت بلدية حلب عام ١٨٦٦ عند البدء ببناء دور السكن في حي العزيزية والجميلية، ولم يكن بين أيدينا سوى مخطّط لمدينة حلب قام بإعداده عام ١٨١٨ قنصل فرنسا بحلب السيد روسو، وأصدره عام ١٨٢٥ وقد بين عليه بالأرقام والحروف الصغيرة والكبيرة أهم المباني التاريخية والخانات والأسواق (يذكر ٤٥ سوقاً في خريطته) والقنصليات والدور التي كانت قائمة آنئذ. وقد قام باربييه دو بوكاج Barbié de Bocage بذكر لمحة عن جميع المعالم المبينة على الخريطة- المخطّط ونشره في الجزء الثاني من كتاب "حصيلة الأسفار والمذكرات" الذي أصدرته الجمعية الجغرافية في باريس عام ١٨٢٥ تحت عنوان "وصف حلب" صفحة ٢١٨ - ٢٤٢. وكان مخطط روسو أول مخطط سبق مخطط الألماني يونغ الذي وضع لمدينة حلب عام ١٨٩٩. (راجع ١٥- مخطط يونغ صفحة ٢٠٣).

صادر[1] وبيت آجقباش وسواها، فقد قام مالكو هذه الدور، وهم من الطبقة البرجوازية والتجار الأغنياء الذين كانوا يعملون مع القناصل والتجار الأوروبيين غالباً كمترجمين أو وكلاء، قاموا ببناء دورهم الجديدة على نمط مخطط سكن القناصل في الخانات، وبخاصة في الطبقة العليا من الدار والتي كان يوصل اليها بدرج واحد مستمر، وليس على شكل شاحطين،

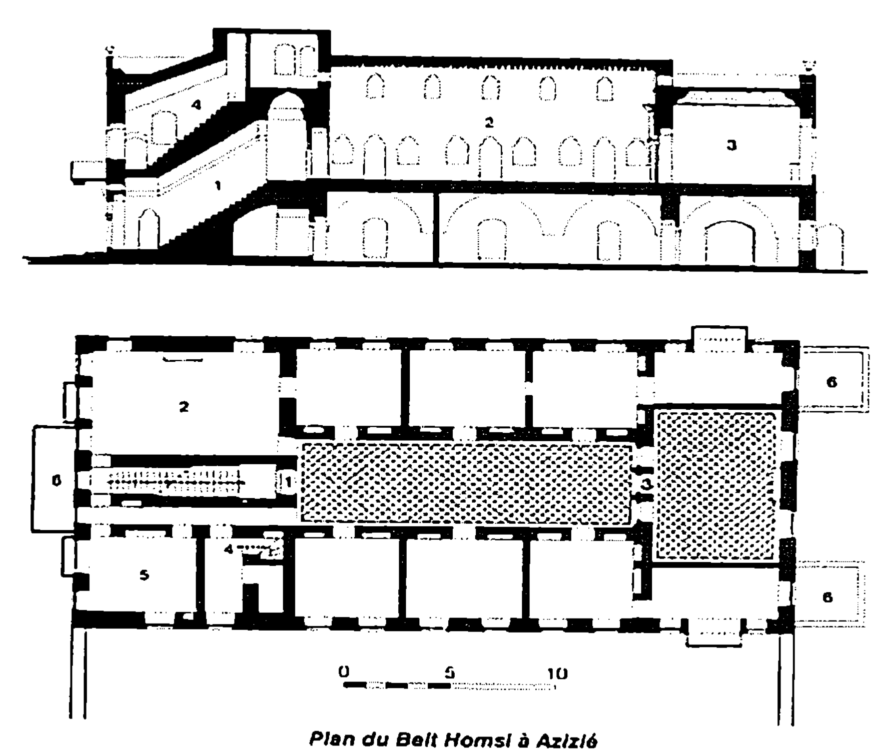


مسطح قاعة خان الجمرك

عدد درجاته بحسب ارتفاع الطبقة الأرضية وكان يزيد على خمسة أمتار. ويؤدي الدرج إلى ممر عريض بطول حوالي ١٥ م تتوزع على طرفيه الغرف للاستعمالات المختلفة وينتهي الممر غالباً بقاعة الاستقبال الرئيسية، وقد تتصل غرف الطبقة الأرضية بحديقة صغيرة تطل عليها بعض الغرف العلوية بنوافذ أو بشرفات، وقد أصبح البيت بكامله على سوية واحدة وألغيت

(١) يذكر الفرنسي أوسيب دوسال Eusebe de Salle الذي زار حلب عام ١٨٣٩ إعجابه بخشبيات بيت صادر ونقوش بيت قره ألي (آجقباش)، وقد حُوِّل حالياً إلى متحف التقاليد الشعبية، وقال عن حلب" إنها حقاً ملكة الشرق.". بينما سماها الإنكليزي رامبليز Ramblaise عام ١٨٥٩ "لندن الصغرى".

العتبات من الغرف. ونجد هذه الحالة، كما درسها الباحث جان كلود دافيد، في بيت رزق الله حمصي (بني عام ١٨٩٠) وفي بيت غزالة (المستشفى الإيطالي سابقاً) وفي مدرسة القدس (القديسة كاترين سابقاً) وفي بناء الجمعية الخيرية الأرمنية (الذي هدم عام ٢٠٠١) وهذه الدور يعود تاريخ بنائها إلى نهاية القرن التاسع عشر بين ١٨٧٣ و١٨٩٩. ولعلّ أقدم دار لا زالت قائمة في العزيزية هي دار الخوري (مدرسة الزنابق حالياً) ويعود بناؤها إلى عام ١٨٦٩. وهكذا نجد بشكل واضح تأثير مخطط السكن الذي اعتمده القناصل في الخانات في تخطيط أبنية حلب المنشأة في حي العزيزية وحي الجميلية الحديثين.

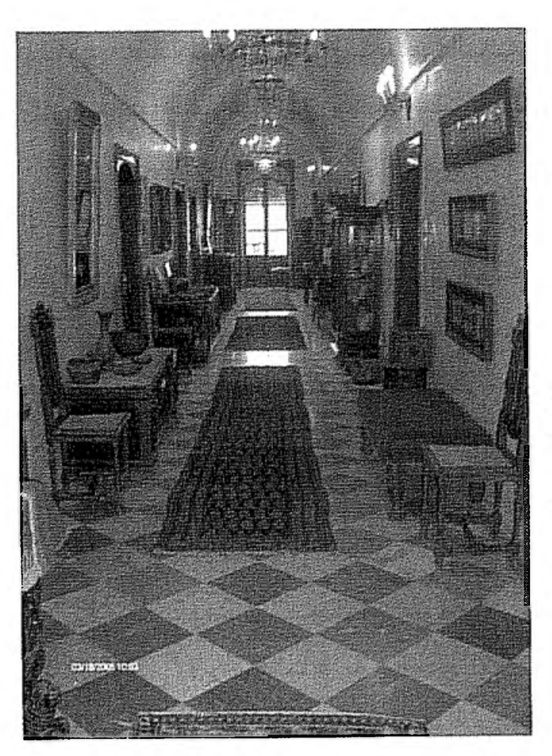


Plan du Beit Homsi à Azizié

1. Entrée au corridor 2. Salle à manger 3. Entrée au grand salon
4. Escaliers vers la cuisine, l'office et la cour au Rez-de-Chaussée
5. Petit salon 6. balcons

مسطح دار رزق الله حمصي في العزيزية

دار بوخه في خان النحاسين:

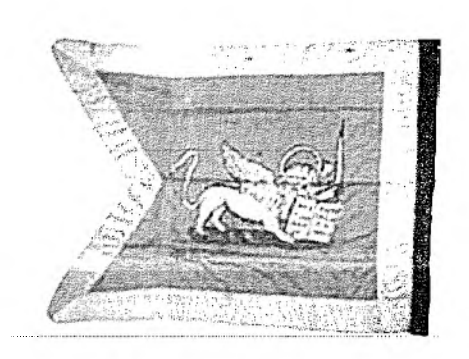


صورة رواق دار بوخه

يبعد خان النحاسين حوالي ١٠٠ م إلى الجنوب من الجامع الأموي الكبير، وهو من أوقاف جامع العادلية، وكان مقر قنصلية البندقية منذ عام ١٥٤٨ والتي كان جهازها يتألّف من القنصل وعائلته والترجمان ورجل الدين والطبيب، واستمرت القنصلية قائمة حتى أوائل ١٦٧٥ حيث ألغيت بسبب انحطاط تجارة البندقية وبسبب حرب كانديه. ثم أعيد فتح القنصلية في حلب في ١٧٦٢/١٢/٢٩ وظلّت قائمة حتى عام ١٧٩٨. وأصبحت الدار لآل بوخه إثر زواج جوزيف بوخه تاجر ووكيل مبيعات الكريستال البوهيمي القادم من النمسا عام ١٨١٩ من مرغريت الابنة المتبنّاة لساليريو ريتسيني آخر قنصل لدولة البندقية. ومن المعروف أن معاهدة كومبوفورنيو Compofornio عام ١٧٩٨ أدخلت البندقية في الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية، ثمّ أصبحت بعد قرن جزءاً من الدولة الإيطالية.

شغلت القنصلية من سكن ومكاتب الطبقة العلوية من الخان بكاملها، وهي مؤلّفة من جناحين يوصل إليهما من باحة الخان بدرج مشترك ولكل جناح مدخل مستقل، وتألّف كل جناح، بحسب طراز سكن أهل البندقية، من ممر طويل على شكل حرف L انتشرت الغرف على جانبيه ومن بينها قاعة استقبال كبيرة تتصل بها شرفة مساحتها حوالي ٣٠ م^{2} وغرفة طعام واسعة زينت جدرانها وخزاناتها صحون وأواني زجاجية نادرة، وغرفة مكتب ومكتبة.. وفي نهاية الممر إطلالة جميلة على حديقة في الطبقة الأرضية. وهناك باب في الممر يؤدّي عن

طريق ممر آخر بطول ٥ م إلى باحة سماوية بمستوى الطابقة نفسه في أطرافها بعض النباتات والمزروعات الجميلة، ويزيّن جدارها سلسبيل ماء مما يجعل الاستراحة في الباحة تستطاب في فترات الغروب والأمسيات الربيعية. وهناك درج حلزوني في زاوية الباحة يُصعد منه إلى السطح المجهّز بسطيحة أبعادها حوالي ١٠×١٠م مبلطة ومسيّجة بدرابزون حجري مخرّم يشاهد منها مئذنة



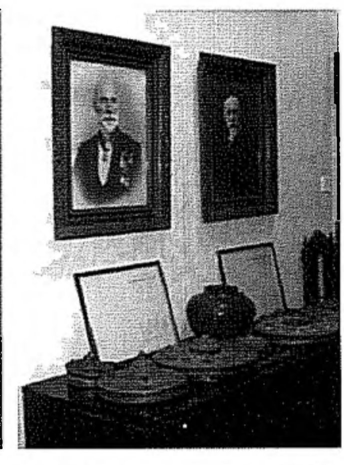
دار بوخه – علم دولة البندقية

الجامع الكبير المربعة، وهي تسبّح الخالق منذ عام ١٠٩٠ م في كل مرّة ينطلق منها صوت المؤذن الرخيم داعياً المؤمنين إلى الصلاة. كما يشاهد في الجهة المقابلة جامع العادلية بقبته ومئذنته الدائرية الرشيقة، وهو أجمل جوامع الفترة العثمانية بحلب. وعن طريق هذا السطح كان بالإمكان الوصول إلى خان البرغل المجاور والاتصال بخانات أخرى. وهناك درج نصف دائري الشكل لا زال قائماً في باحة الخان كان يؤدّي إلى الكنيسة الصغيرة في الجناح المقابل لجناح السكن والمخصص لمكاتب القنصلية من الطابقة العليا.

خلّف جوزيف بوخه (١٧٨٨- ١٨٥٥) خمسة أبناء ذكور وابنة واحدة هم أدولف وفريديريك وفرديناند وألبير وغليوم وماري تيريز. وقد عرف **ألبير بوخه (١٨٤٢- ١٩٢٩)** بهوايته التصوير الفوتوغرافي وربما كان أول من امتلك آلة تصوير في حلب، وقد رافق الرحالة المركيز جان ملكيور دو فوغويه[1] J.M.de Vogué عام ١٨٦١ في زيارة القرى الأثرية التي سمّيت "المدن الميّتة" villes mortes، وترك صوراً رائعة وكتيباً ضمّ صوراً عن آثار جبل سمعان مع نص من تأليف دو فوغويه طُبع في باريس عام ١٨٧٨. كما كان يحب الرسم، وقد رسم

(١) المركيز جان ملكيور دو فوغويه J.M. de Vogué مؤلف كتاب "سورية المركزية Syrie Centrale الذي صدر في باريس عام ١٨٧٨. كان رائد من كتبوا عن القرى المنسية التي سميت "المدن الميتة" villes mortes عند مجيئه إلى سورية عام ١٨٦١ برفقة زميله وَدنغتون Waddington، وقد وصف فن العمارة في الكتلة الكلسية الشمالية والكتلة البازلتية الجنوبية، وقد رافقه ألبير بوخه في جولته في جبل سمعان. ومن المعروف أن كتاب دو فوغويه كان الباعث لمجيء البعثة الأمريكية الأثرية إلى سورية في أعوام ١٨٩٩ و١٩٠٤ و١٩٠٩ بإدارة أستاذ تاريخ الفن والعمارة في جامعة برنستون المهندس المعمار هوارد كروسبي بتلر، وأصدرت المطبوعات الرائعة عن هذه المواقع الأثرية مع صورها البديعة التي ستساعد في أعمال ترميم هذه المباني، فيما إذا وضعت خطة للترميم في المستقبل.

لوحة زيتية لمدينة حلب وقلعتها بأبعاد ٣٤×٢٥ سم وهي روعة فنية رغم عدم اكتمالها. أمّا غليوم بوخه (١٨٤٥- ١٩٣١) فقد عُرف بمحبّته للآثار واقتناء التحف، وكان عضواً في جمعية الآثار(أصدقاء القلعة والمتحف وفيما بعد سميت "العاديات")، وله مخطط جولة أثرية في جبل سمعان ربّما من نهاية القرن التاسع عشر. أمّا **فريديريك بوخه** (١٨٣٦- ١٩١٢)، وكان يهوى الدبلوماسية، فكان قنصل بلجيكا عام ١٨٧٥ ثم أصبح نائب قنصل روسيا القيصرية عام ١٨٧٦ وكذلك نائب قنصل الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٥، ونال العديد من الأوسمة من الدول التي مثّلها.



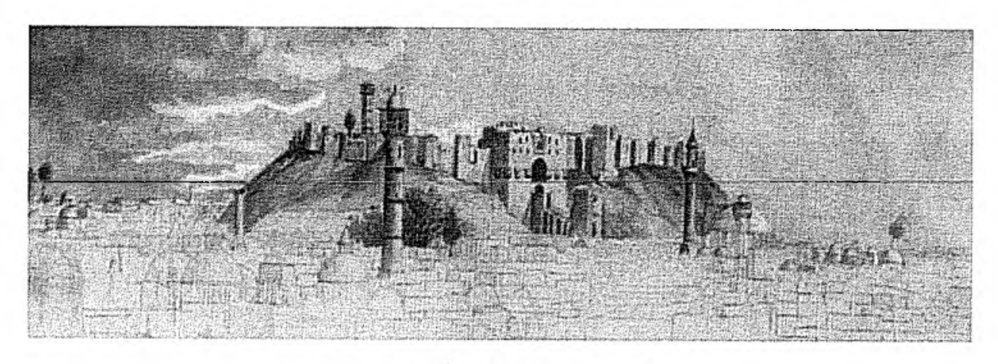




ألبير بوخه — فريدريك بوخه — غليوم بوخه — د. أدولف بوخه

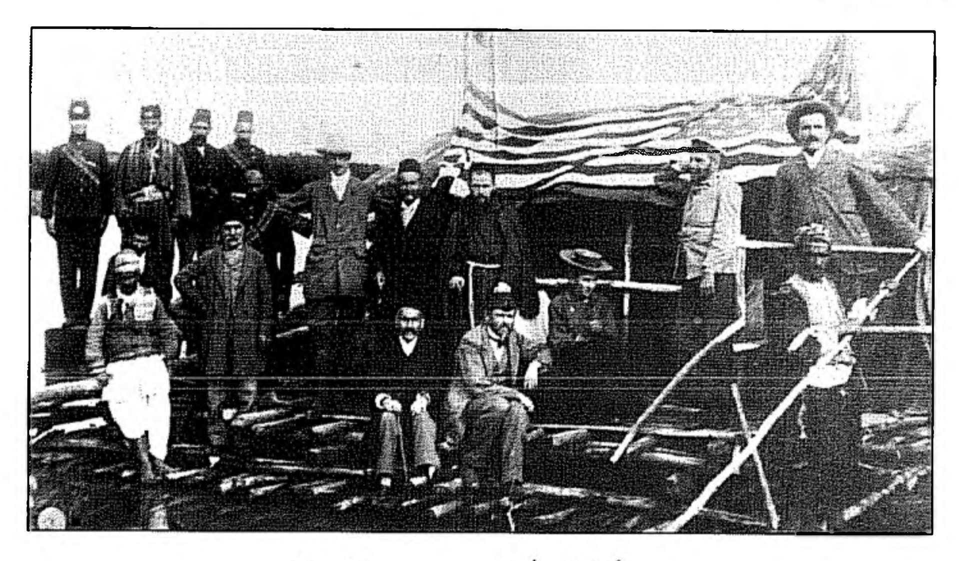
أمّا **الدكتور أدولف بوخه** (١٨٩٥- ١٩٨٧) وهو ابن ألبير هاوي التصوير، فكان طبيباً تقاعد عام ١٩٦٥ ومن مؤسّسي جمعية العاديات ورئيسها بين عامي ١٩٧٢- ١٩٧٦، كما كان قنصل ألمانيا الفخري (١٩٢٩- ١٩٣٨) والقنصل الفخري لبلجيكا منذ عام ١٩٦٥ وحتى وفاته عام ١٩٨٧. بينما كان أخوه رودلف قنصل هولندا في الفترة (١٩٢٤- ١٩٦٥)، وكان يقيم في خان البرغل المجاور. وكان الدكتور أدولف رحمه الله يتمتع بذاكرة قوية حتى آخر أيام حياته، كما كان بيته مقصد علماء الآثار وكبار زوار حلب من أمثال عالم الآثار ماكس ملوان وأغاثا كريستي ولورنس العرب وأنطون مورتغات وسواهم. وكان آخر الكبار من الجاليات

الأوروبية التي عاشت وأقامت في خانات حلب. لذلك لم يكن خان النحاسين مقر قنصلية البندقية فقط وإنّما استمر مقراً قنصلياً حتى اليوم.



قلعة حلب من رسم ألبير بوخه

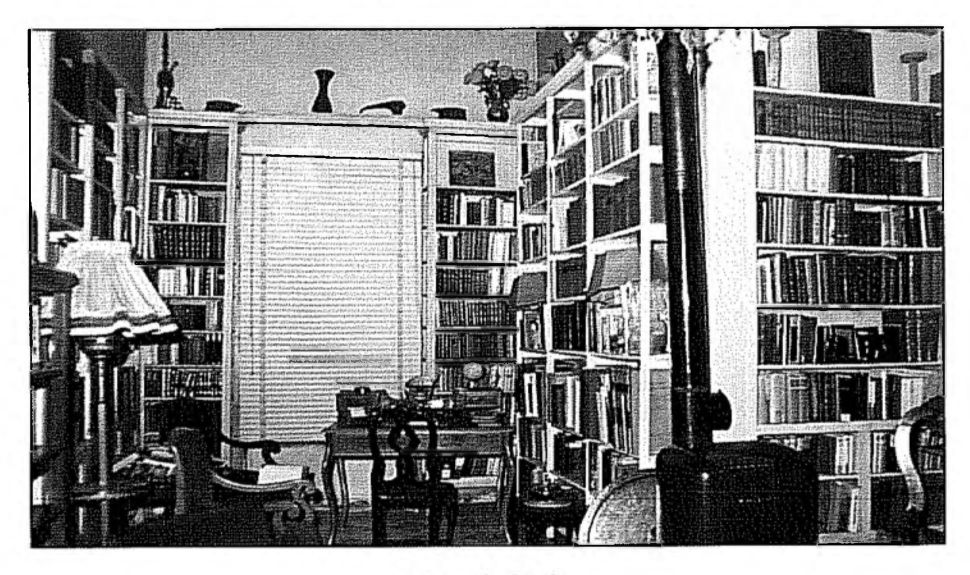
ومما يجدر ذكره أنه من خان النحاسين انطلقت مجموعة من التجار الإنكليز عام ١٦٧٨ لاكتشاف تدمر وتعرّضوا لعدوان البدو، وأطلق سراحهم بعد دفع فدية. وقد عادت المجموعة نفسها إلى تدمر بعد ١٣ عاماً بصحبة القس هاليفاكس الذي قام بنسخ أول ثلاث كتابات أدّت فيما بعد إلى فك رموز الكتابة التدمرية عام ١٧٥٣ من قبل العالِمين الأب بارتلمي الفرنسي والإنكليزي سوينتن.



من أرشيف ألبير بوخه – رحلة نهرية

إنّ **السيدة جيني مرّاش**، ابنة الدكتور أدولف بوخه ووالدة السيد باسيل مراش قنصل بلجيكا الفخري بحلب حالياً، تتواجد غالباً ظهر كل يوم جمعة، وتكون الأسواق مغلقة، في دار بوخه في خان النحاسين، وذلك إحياء لذكرى العائلة. ويمكن للمهتمين زيارة الدار عندئذ، وعن طريق الحديث الشيق في سرد قصة العائلة من السيدة جيني ومشاهدة الموجودات النفيسة في الدار، يتحسّسون ويتخيّلون طراز المعيشة الذي ساد حياة الجاليات الأوروبية في حلب خلال أكثر من قرنين من الزمن.

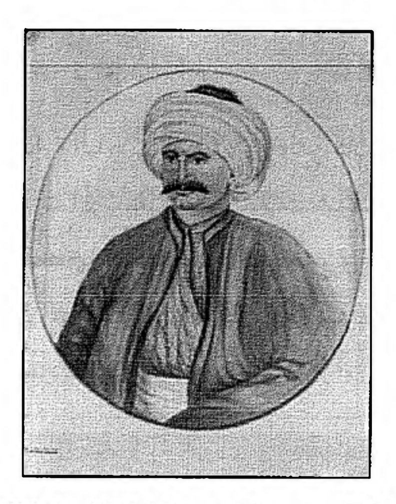
وتقوم مجموعة عمل بإدارة الباحث الدكتور روديغر كلاين R.Klein من جامعة توبنجن الألمانية بتوثيق ودراسة محفوظات (أرشيف) ومراسلات عائلتي بوخه وماركوبولي المكتوبة بعدة لغات، ويتجاوز عدد صفحاتها نصف مليون صفحة، والتي ملأت رفوف خزانات عدة غرف من مقر القنصلية في خان النحاسين، مما سيلقي بلا شك، مزيداً من الضوء على الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في حلب وعلاقاتها مع أوروبا خلال القرنين الماضيين.



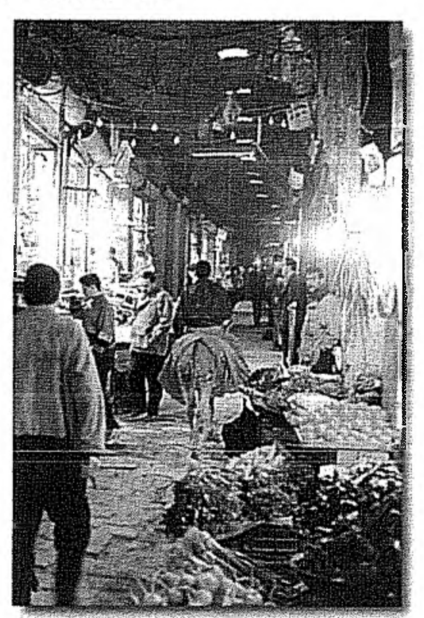
مكتبة دار بوخه

لم يعد للخانات اليوم سحرها الغابر. لقد مضى عهد القوافل والجمال، ولا زال التجار وبشكل خاص تجار بضائع الجملة الكبار يقيمون في غرف هذه الخانات يجترّون ربما أمجاد الماضي ويستعيدون ذكريات الآباء والجدود. وتحولت غرف الطبقة العلوية إلى أماكن

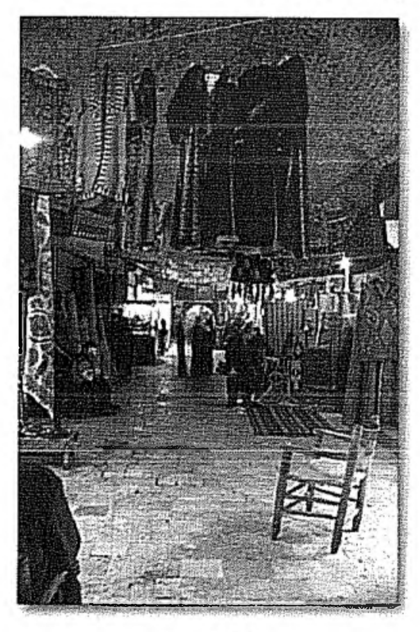
تخزين أو عمل للحرفيين ولم تعد تصلح لمبيت التجار فيها. إلاّ أنه لا زال هناك حالياً حوالي ثلاثين قنصلاً فخرياً من أبناء حلب يمثّلون الدول الأوروبية وقارات العالم بحلب بالإضافة إلى قنصليات فرنسا وروسيا الاتحادية وتركيا وأرمينيا التي يمثّلها قناصل مواطنون من بلادهم، مما يدل على استمرارية أهمّية حلب عبر الأجيال.



المؤسس جوزيف بوخه (١٧٨٨- ١٨٥٥)



سوق السقطية



سوق الحراج

أمّا أسواق المدينة فلا زالت في حركة دائمة يقصدها سكان حلب وأبناء الريف القريب منها، وكذلك يقصدها السياح يسيرون الهوينا يتأملون أشكال البضائع المعروضة ويستنشقون روائح التوابل والعطورات والصابون، وينبهرون بمعروضات الحلي والمصوغات الذهبية والفضية وأنواع المعادن الثمينة وكذلك الأدوات العتيقة من مصابيح وثريات وحلي بدوية طريفة، ويتأملون مختلف أنواع الألبسة والمشالح والشالات والمناديل الحريرية وأنواع السجاد من إيران وتركيا وشرق آسيا يعرضها الباعة بوجوه ودودة، مبتسمة ومرحّبة وملحّة في محاولة إقناع السائح بشراء ما يعرضون، ولو بأبخس الأسعار التي لا تقارَن مع أسعار مثيلاتها في أوروبا. ويخرج السائح من باب سوق الزرب ليُشدَه بالقلعة الشماء تنتصب أمامه. أجل إنه سحر الشرق ممثل في أسواق حلب وخاناتها وطيب أهلها ومأكولاتها وآثارها يخلّف الانطباع الرضي لدى الزائر.

حلب ٢٠٠٣/٤/٢٨

المراجع:

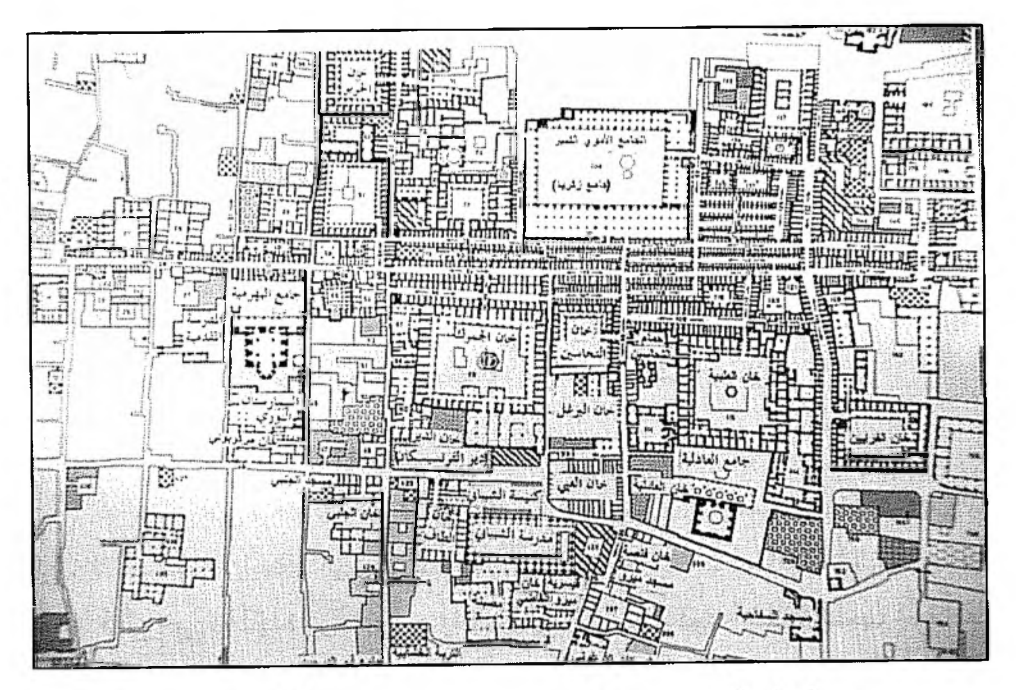
- مذكرات لويس لوران شوفالييه دارفيو، الكتاب السادس، باريس ١٧٣٥
- تاريخ حلب الطبيعي، تأليف ألكسندر وباتريك راسل، لندن ١٧٩٤
- سورية ومصر أيام آخر خمسة سلاطين في تركيا، تأليف إدوار باركر، جزءان، لندن ١٨٧٦
- نهر الذهب في تاريخ حلب، تأليف الشيخ كامل الغزّي، ٣ أجزاء حلب ١٩٢٥
- حلب تأليف جان سوفاجيه، باريس، ١٩٤١
- مقالة"السكن الدائم لكبار التجار في خانات حلب في الفترة العثمانية"، تأليف جان كلود دافيد وتييري غراندان
- مقالة "النشاط العمراني في حلب في الفترة العثمانية، أندره ريمون"، ترجمة إحسان شيط.

- حلب، تأليف اوجين فيرت وهاينس غاوبه، فيسبادن ١٩٨٤
- البازار، تأليف محمد شرابي، توبنجن، ١٩٨٥
- الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الدكتورة ليلى الصبّاغ، جزءان، بيروت، ١٩٨٩.
- أحداث حلب خلال حملة نابليون على مصر، هيديمتسو كوروكي، بحث قدّم إلى الاجتماع ٣١ لدراسات الشرق الأوسط في سان فرانسيسكو، ١٩٩٧.
- مقالة " قنصلية البندقية- دار بوخه - بحلب"، المهندس عبد الله حجار، الحوليات العربية السورية، المجلد ٤٣ عام ١٩٩٩ ص ١٨٧- ١٩٣.
- معالم حلب الأثرية، المهندس عبد الله حجار، حلب طبعة ثانية، ١٩٩٨.
- محاضرة "حلب لدى الرحالة والزوار"، الدكتور سمير أنطاكي، ألقيت في جمعية العاديات في ٢٠٠٠/١٢/٦.
- محاضرة "التحولات الثقافية والاقتصادية الهامة في حلب في القرون الثلاثة الماضية"، فؤاد هلال، ألقيت في جمعية العاديات بحلب بتاريخ ٢٠٠٣/٤/١٦

٦) معهد الأرض المقدسة في الشيباني

تمهيد:

سُمح للقـديس فرنسيس الأسيزي مؤسس الرهبانية الفرنسـيـة وسمـي أعضـاؤها "رهبان الحبل" بالتواجد في الأراضـي المقدسـة في فلسـطين وسـورية ومصر إثر لقائه مع الملك الكامل بن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي في بلدة دمياط في مصر عـام ١٢١٩ م أيام الحروب الصليبية.



مسطح لموقع المدرسة وخان الدير المقابل لها والكنيسة التي هدمت

ولرهبـان الحبـل الفرنـسـيـين تواجـد قـديم في حلـب يعـود إلى اتفاقيـة تمـت بـين البابـا غريغوريوس التاسع والملك العزيز محمد عام ١٢٣٧ م أرسل بموجبها رهباناً للاهتمام روحياً بأمراء الصليبيين المسجونين في قلعة حلب إلى حين إطلاق سراحهم بعد دفع الفدية التي يتفق عليها.

ومن المعروف أن علاقات الأيوبيين مع ممالك المدن الإيطالية، بالرغم من الحروب مع الفرنجة، كانت جيدة منذ استقبال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين مبعوث جمهورية البندقية بيترو مارينياني في قلعة حلب عام ١٢٠٧.



الهيئة التدريسية في معهد الأرض المقدسة في الشيباني

لم يُعرف على وجه التحديد المكان الذي سكنه الرهبان الفرنسيسيون بحلب في أوائل القرن الثالث عشر، ويُعتقد أنهم سكنوا المدينة القديمة قرب باب أنطاكية، ثم انتقلوا عام ١٦٤٥ م إلى حي الجديدة وربما إلى حارة السيسي التي قد تكون أخذت اسمها محرفاً عن الأسيزي (أو لسكنها من قبل جاليات أرمنية قدمت من سيس عاصمة كيليكيا أو أرمينيا الصغرى). ثمّ عادوا من جديد إلى المدينة القديمة ليسكنوا عام ١٦٨١ في خان الشيباني حيث شيّدوا هناك كنيسة وديراً أعيد ترميمهما عام ١٨٦٤. (وهناك بلاطة مرمرية كانت غطاء أحد قبور الرهبان تحمل كتابة لاتينية ومؤرخة من عام ١٦٨٤ محفوظة في قاعة متحف حلب القديمة في مدرسة الشيباني تؤكّد سكن الدير في تلك الفترة).

كما بنى الرهبان الفرنسيسيون " معهد الأرض المقدسة" إلى جانب الكنيسة وكان مكرساً على اسم القديس أنطونيوس البادوي الذي لا زالت المنصة التي كان تمثاله فوقها قائمة وسط باحة المدرسة قريباً من الممر حتى الآن. بدئ ببناء المدرسة عام ١٨٥٣ وانتهى البناء وفتحت أبوابها للدراسة في ٢ تشرين الثاني عام ١٨٥٩ وكان مديرها الأب برنار دورليان ومعه الأخ الراهب لويس دميان لتدريس الفرنسية. وكان عدد التلاميذ سنة افتتاحها ٣٧ تلميذاً منهم ٣٢ تلميذاً من حلب و٥ تلاميذ من أنطاكية واسكندرون. وقد زاد عدد طلابها إلى ٢٠٠ طالب جاؤوها من سورية ولبنان. وأضيف للمدرسة أجنحة جديدة، كما تبيّن اللوحة المرمرية في جدار الطبقة العلوية المطلة على الباحة والمؤرخة عام ١٨٧٩.

وتكمن أهمية إنشاء معهد الأرض المقدّسة في الشيباني في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتعدّ المواطنين الحلبيين ليسدّوا الفراغ الذي بدأ يحصل بنزوح التجار الأجانب المقيمين منذ أكثر من قرنين عن حلب إلى أوروبا والمرافئ على البحر المتوسط مثل مرسيليا والاسكندرية وبيروت واللاذقية وصيدا وصور، إثر احتلال إبراهيم باشا سورية (١٨٣١ – ١٨٤٠) وإثر الثورة الصناعية في أوروبا وتطور المنسوجات وآلات صناعتها وتقنيتها ورخصها مما أفقد حلب أهميتها الصناعية التي كانت تتمتع بها عن طريق أنوال النسيج التقليدية اليدوية والتي ما كان بيت حلبي يخلو من وجود أحدها فيه، مما كان أحد أسباب الأزمة الاقتصادية التي أدّت إلى فتنة عام ١٨٥٠ بحلب حيث ثار الكادحون بحلب على أحياء برجوازيي حي الجديدة. وهكذا قامت مدرسة الشيباني بتدريسها اللغات الأجنبية وأعمال المحاسبة وإعداد الطلاب للالتحاق بالدراسة الجامعية بتأهيل أبناء حلب ليحلّوا مكان التجار الأجانب الذين غادروا المدينة إلى أماكن جذب تجاري أفضل. وفي الواقع فإن المواطنين الذين كانوا يعملون تراجمة لدى القناصل الأجنبية هم الذين احتلوا في معظم الأحوال مكان التجار الأجانب. وقد أصبح بعضهم، أو أولادهم الذين درسوا في مدرسة الشيباني فيما بعد، قناصل فخريين للدول التي كانوا يعملون في قنصلياتها.

ومن الجدير بالذكر أن السيدة الألمانية مارتا كوخ التي عاشت بحلب في أوائل القرن العشرين وقامت عام ١٩١٢ بشراء الكسوة الخشبية الرائعة لجدران قاعة الاستقبال في دار وكيل في "الجديدة" بمبلغ ألف ليرة عثمانية ذهب ونقلتها إلى برلين لتعرض في متحف برغامون

باسم الغرفة الحلبية Aleppo Zimmer ، هذه السيدة نفسها قامت عام ١٩٠٣ ، كما تبين يوميات الطائفة اللاتينية بحلب ، بتكليف أحد الفنانين لرسم لوحة كبيرة للقديس فرنسيس الأسيزي ، وهو يُنزل السيد المسيح من على الصليب ، وقد ظهرت جراحات المسيح على يدي القديس (وهي لوحة شهيرة للفنان الإسباني برتولومي موريّو B.Murillo). وقد تم تزيين هيكل كنيسة الشيباني بتلك اللوحة. وعندما هُدمت كنيسة الشيباني وتمّ بناء كنيسة اللاتين في العزيزية عام ١٩٣٧ نُقلت تلك اللوحة الرائعة لتزيّن صدر الهيكل الرئيسي في الكنيسة الجديدة ولا زالت هناك حتى الآن.



صورة القديس فرنسيس للفنان موريو

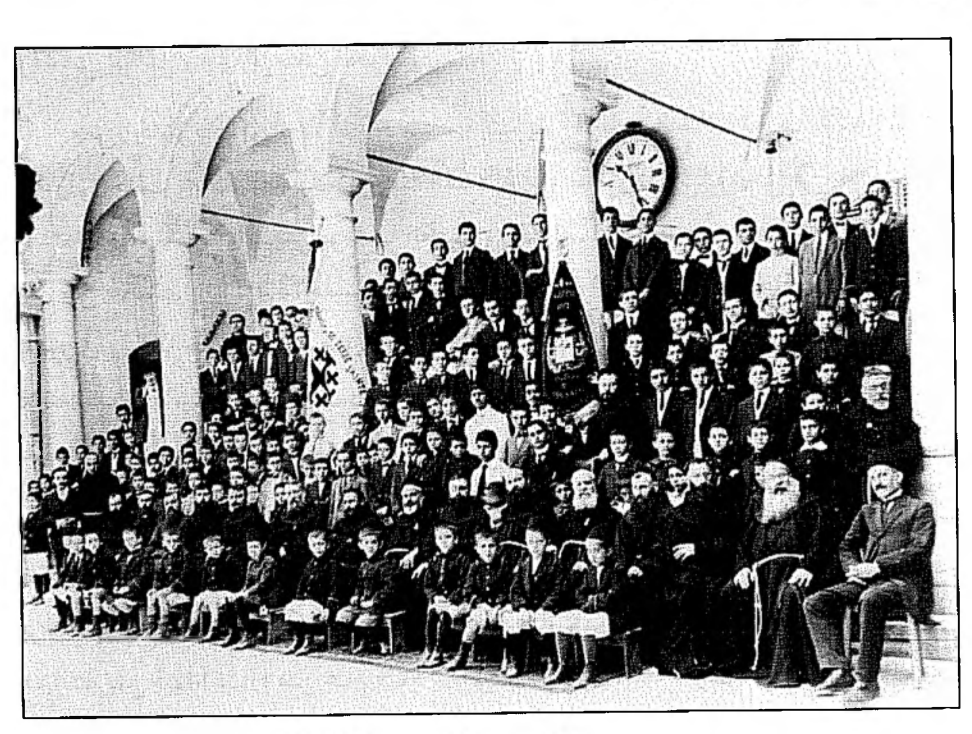
هذا وقد احتفلت مدرسة الشيباني بيوبيلها الذهبي أي بمرور ٥٠ عاماً على إنشائها عام ١٩٠٩. وهناك وصف أحد الزائرين للكلية عام ١٩٠٩ يذكر فيه أنها بناء مؤلف من ثلاث طبقات يحيط بباحة مساحتها ٧٠٠م٢ مزينة بأشجار وارفة. وتتألف الطبقة الأرضية من صالة كبيرة وصالتين صغيرتين ومطبخ وحمّامات ومخازن للمؤونة. أما الطبقة الأولى فعبارة عن ممشى عريض زيّن بأنواع النباتات والزهور المختلفة ، وفيه خزانات زجاجية لحفظ التحف المحلية القديمة. وتضمّ الإدارة والمكتبة التي كانت تحوي ٢٥٠٠ مجلد باللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، ومخبراً للفيزياء وآخر للكيمياء وقاعة موسيقى وأخرى للرسم ، بالإضافة إلى أربعة مهاجع وغرف المسؤولين عن المدرسة وغرفة لتجليد الكتب. أما الطبقة الثانية ففيها غرفة للمرضى وبجانبها صيدلية وغرفة ثالثة لحفظ الألبسة. وما لفت النظر هو النظافة والترتيب الذي ساد أرجاء الكلية كافة. وكان الجهاز الإداري يتألف من المدير و٢٩ مدرساً وأربعة مراقبين ووكيل وخازن وتسعة مستخدمين. وكان الطلاب على ثلاثة أنواع : داخلي أي مبيت وإطعام ، أو نصف داخلي يتناول طعام الغداء في المدرسة ، أو خارجي يتلقى الدروس فقط. وكان هناك في جوارها مدرسة مجانية للفقراء.

كانت الدروس توزع إلى ثلاثة أقسام:

١) قسم أدبي: ويشمل اللغة العربية والتركية والإيطالية والفرنسية وجميعها إلزامية. أما الإنكليزية والألمانية فلمن يطلبهما وكذلك الجغرافيا والتاريخ.

٢) قسم مهني: أو تجاري ويشمل الحساب والرياضيات وقانون التجارة والآلة الحاسبة والرسم.

٣) قسم علمي: ويشمل الهندسة والجبر والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والفلسفة وعلوم الاجتماع والتربية والجمال وتاريخ الفن. بالإضافة إلى التربية الدينية الإلزامية لكل الطلبة والرياضة والموسيقى.



الطلاب والهيئة التدريسية في مدرسة الشيباني

وكانت هذه المواد موزّعة على إحدى عشرة سنة أي أحد عشر صفاً بين المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والسنة النهائية. وكانت شهادة المعهد تؤهل صاحبها للالتحاق بالجامعة السورية في دمشق وبجامعات العالم المختلفة. ومن المعروف أن الكلية قد حُوّلت إلى

مشفى كان بإدارة الدكتور جميل صقال خلال الحرب العالمية الأولى. وتحتفظ المدرسة بسجل أسماء المدراء الذين تعاقبوا على إدارتها منذ تأسيسها وحتى انتقالها إلى حي العزيزية عام ١٩٣٧ وكان آخرهم الأب ألبرتو غوري الذي انتُخب لاحقاً بطريركاً على القدس عام ١٩٣٧.

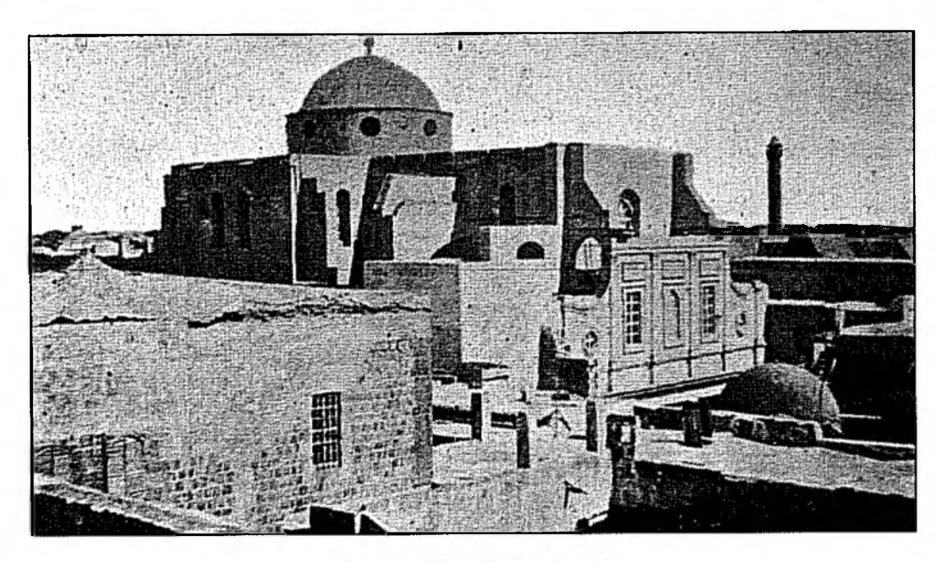
كما تعتز الكلية بتخريجها العديد من الطلاب الذين تابعوا دراساتهم في جامعات العالم وكانوا علامات مضيئة في المجتمع الحلبي من أمثال الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية الأسبق والدكتور مصطفى العطار والدكتور ديمتري سلطانم والأستاذ هنري صقال والأستاذ طالب الصابوني والمهندس ليون مراديان والدكتور أنور حاتم والأستاذ شوقي صلاحية والأستاذ جبرائيل غزال وسواهم. وكان طلاب المدرسة يطّلعون على مقالات أدباء النهضة في القرن التاسع عشر التي كانت تنشر في مجلة "النحلة" و"الجوائب" و"الجنان" مثل جبرائيل دلال وفرنسيس المراش وعبد الرحمن الكواكبي.

ومن الجدير بالذكر أنه تم افتتاح مدرسة لتدريس الإناث عام ١٢٧٢ هـ/١٨٥٥ في الحي نفسه والى جانب جامع العادلية من جهته الشمالية الغربية، وكان لها مدخل من خان العلبية، وكانت بإدارة راهبات القديس يوسف الظهور. وقد استمر التدريس فيها حتى عام ١٩٠٧ وكان من طالباتها الشاعرة الحلبية مريانا مرّاش (١٨٤٨- ١٩١٩) صاحبة الصالون الأدبي الشهير في وسط حارة الحصرم في حي "الجديدة".. ولا زالت باحة المدرسة العلوية تحتفظ بالقاعدة التي كانت تحمل تمثال السيدة العذراء مريم. وقد تمت متابعة الدراسة في مدرسة القديسة جان دارك (المحبة حالياً) إثر بنائها وافتتاحها عام ١٩١٠ في حي العزيزية.

وفي عام ١٩٣٤ عُلّق التدريس في معهد الأرض المقدسة في الشيباني ونُقلت المدرسة إلى منطقة جبل النهر في العزيزية والى المبنى الذي تشغله حالياً المدرسة المركزية الأرمنية (شارع جبرائيل دلاّل)، واستمر التدريس فيها إلى أن تم بناء المدرسة الجديدة في طريق حول البلدة وبدأ التدريس فيها اعتباراً من عام ١٩٤٩ وتوقف عام ١٩٦٧ حيث حُوّل معظم البناء إلى معهد الإعداد الحزبي. أما مدرسة الشيباني فقد حُوّلت إلى مستودع تابع لمصلحة إدارة التبغ والتنباك، ظل مهملاً سنوات عديدة إلى أن قيض الله له أن يشمل برعاية "مشروع إحياء حلب القديمة" فتمّ ترميم أحد أجنحة طبقته الأولى ليكون معرضاً دائماً لمدينة حلب وتاريخها. كما تمّ إنجاز ترميم كامل المبنى وتوظيفه في نشاطات ثقافية واجتماعية ومعارض فنية وسواها من الأنشطة التي تحتاجها المدينة القديمة.

ولا بدّ من توضيح صغير حول **كنيسة الشيباني**، وذلك بسبب بعض الالتباس الذي حصل، إذ اعتبر البعض مبنى المدرسة الذي استعملته إدارة التبغ والتنباك هو كنيسة الشيباني. كما أن الباحثين غاوبة وفيرت في كتابهما الرائع عن حلب يذكران أن الدير هو الذي حُوّل إلى مستودع لإدارة التبغ (وليس المدرسة)، متجاهلين وجود الدير في الجهة المقابلة من الجادة.

في الواقع إن كنيسة الشيباني التي بدئ ببنائها عام ١٨٥٣ كانت إلى الشمال من المدرسة وملاصقة لخان الطاف في جهته الشرقية، وكانت تقابل دير الرهبان الفرنسيسيين الواقع في الجهة الأخرى من الجادة الكبرى التي تفصل بينهما. وكان يتم الانتقال بين الدير والكنيسة عن طريق قنطرة (سيباط) معقودة فوق الشارع تعلوها غرفتان فوق بعضهما، وذلك دون الحاجة للنزول إلى الشارع. وقد هُدمت الكنيسة عام ١٩٣٤ (ولا زال مكانها فارغاً حتى الآن حيث الباحة المسوّرة التي حُوّلت إلى حديقة إلى الغرب من مدخل المدرسة) وهُدمت معها القنطرة التي كانت تصلها بالدير المقابل من الجادة، ولا زال الظفر الحجري لاستناد بعض أخشاب القنطرة ظاهراً في جدار سور الكنيسة. وقد تم نقل أحجار الكنيسة لتستخدم في بناء كنيسة اللاتين في العزيزية حيث كانت مقبرة الطائفة. وقد تم تدشين كنيسة العزيزية في ١٠ تشرين الأول عام ١٩٣٧ وقد اختيرت بطراز مماثل لكنائس القرن السادس الجميلة والمنتشرة في القرى الأثرية في الريف السوري.



كنيسة الشيباني قبل هدمها

ويؤكد الشيخ كامل الغزي ما ذكرت عن موقع كنيسة الشيباني (نهر الذهب.. الجزء ٢، ص. ٧٩) من أنها باتصال خان الطاف من شرقيه وقد بدئ ببنائها حوالي عام ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣، وظهر من عارض البناء فتوقف العمل فيها ثم استؤنف وانتهى البناء عام ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣. والمشهور بين الناس أن الكنيسة دخل في عمارتها حمام قديم كان يُعرف بحمام البنات ودار مضافة لأحمد موتياب باشا. وخان الطاف لصيق الكنيسة كان من أوقاف موتياب أحمد باشا. ويضيف الغزّي، بأنه كان يتصل بالكنيسة من جهتها الشمالية دير عظيم يفصل بينهما الجادة ويوصلهما ببعضهما قنطرة معقودة على الجادة تعلوها غرفتان فوق بعضهما. ويذكر باربيه دو بوكاج، الذي شرح عام ١٨٢٥ خريطة روسو قنصل فرنسا بحلب، وجود كنيسة ودير الفرنسيسيين في خان الشيباني. ولم تكن مدرسة الأرض المقدسة في الشيباني قد بُنيت بعد.

وبغية إكمال وصف المباني المحيطة بكنيسة ومدرسة الشيباني نذكر كذلك من كتاب الغزّي:

مدفن أحمد باشا مطاف: هو أحمد باشا موتياب بن محمود بك الجندي، مدفنه ملاصق خان الطاف المنسوب اليه من جهته الشرقية وملاصق كنيسة رهبنة الفرنسيسيين من جهتها الغربية، فهو بين الكنيسة والخان على الجادة الكبرى. وقد وقف صاحبه ١٠٠٠٠ دينار ذهب (تاريخ الوقف ١٠٠٤ هـ/١٥٩٦ م) ليشتري خان الطاف ودارين قربه. وشرط أن تُعمر بعد وفاته قبة على مدفنه ومكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم ودار حديث. أما القبة فقد عُمِّرت وأما المكتب فلم يزل مكتوماً أمره إلى حدود عام ١٣٠٠ هـ. وأما دار الحديث فبقي أمرها مهملاً إلى عام ١٣١١ هـ/١٨٩٣ حيث تم شراء دار في محلة سويقة حاتم وجُعلت دار حديث وهي غير صالحة لذلك. ويبدو أن مكتب تعليم الأطفال مع حمّام تسمّى "حمّام البنات" وعدة دور أخرى هُدمت ودخلت في عمارة الكنيسة عام ١٨٥٣.

خان الطاف: وهو خان أحمد باشا اشتراه عام ١٥٨٤ م كوقف، وعلى جزء من هذا الخان سبق أن أنشئت أقدم مدرسة بحلب هي المدرسة الزجاجية. وتذكر السالنامة أن الأمير أحمد تولى ولاية حلب بين ١٠٠٥-١٠٠٨ هـ/١٥٩٧-١٦٠٠ م. وعلى زمنه احترق سوق العطّارين وكان ولده درويش من أكابر الأعيان، وقد حبسه والي حلب حسين جانبولاط

(١٠١٣ -١٠١٤ هـ/ ١٦٠٤-١٦٠٥ م) في قلعة حلب، ثمّ خنقه وعلّقه على باب السجن وادّعى انه قتل نفسه. ودفن عام ١٠٠٨ هـ/١٦٠٠ م بمحلّة الجلوم لصق باب الخان.

مسجد خان الطاف (مسجد الشيباني): ويتصل بخان الطاف من جهته الغربية ويطلّ على الجادة الكبرى، وهو مسجد قديم له باب مكتوب على نجفته: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارته مولانا الملك العادل سيف الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين أبو بكر(محمد بن أيوب) خليل أمير المؤمنين أدام الله أيامه بتولي الفقير إلى رحمة الله أحمد بن عبد الله القصري الشافعي في سنة٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م". وللمسجد قبلية صغيرة. ويبدو أن حجرة الكتابة هي في غير مكانها الأصلي.

ويزوّدنا الباحث هرتسفلد بمعلومات تاريخية قيمة جعلته يعتقد أن الكتابة تعود إلى مسجد الشيباني، ومفادها أن صلاح الدين الأيوبي عندما استلم حلب في صفر ٥٧٩هـ / أيار- حزيران ١١٨٣ م سلّمها أولاً لولده الظاهر غازي، وبعد عدة أشهر أعطاها لأخيه الملك العادل. وبعد ثلاث سنوات أي في عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م أقنع سليمان بن جندر - أحد المقربين الأذكياء - صلاح الدين بأنه يجب أن يقوي أبناءه ليستلموا من بعده، فأعاد صلاح الدين ابنه الظاهر غازي إلى حلب وأرسل أخاه العادل إلى القاهرة. وبقي الظاهر غازي يحكم حلب حتى وفاته في ٢٠ جمادى الثاني ٦١٣ هـ/ ٦ أيلول ١٢١٦.

وكان الأيوبيون يعتمدون في قوتهم الضاربة بشكل أساسي على المماليك الناصرية الصلاحية، وكان بعضهم في مصر مع مقدّمهم فخر الدين جركس، وبعضهم في دمشق قرب الأفضل علي بن صلاح الدين مثل ميمون القصري وسنقر الكبير وعز الدين إيبك فطيس. كما كان هناك المماليك الأسدية مع أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين والأكراد الأبطال في تحرير القدس. وقد تركوا جميعهم أبنية في القدس ودمشق وأماكن أخرى.

وتعود كتابة المسجد المذكورة أعلاه إلى أيام استلام الملك العادل حكم حلب مدة سنتين من ١١٨٤ م إلى ١١٨٦ م. وبتولي أحمد بن عبد الله القصري (ويعلمنا ابن الأثير أن نسبة "القصري" تعني أنه من مماليك قصر الخليفة الفاطمي في القاهرة). ويعتقد الباحث هرتسفلد، بسبب الصلة الحميمة بين الملك العادل والقصري المذكور في الكتابة، أنه هو نفسه

ميمون القصري الشهير أو أبوه. لأن الباب الذي وُضعت فوقه الكتابة يعود إلى جامع الشيباني، وفارس الدين ميمون القصري هو سبب ثروة عائلة الشيباني في حلب.

إذاً أحمد بن عبد الله القصري كان شخصية هامة لعبت دوراً هاماً وربما كان الأمير الكبير ميمون نفسه او أحد أقاربه وكان يتولى حلب، وأرسله الظاهر غازي لمحاربة ليون الأرمني عام ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م. وقد جعل القصري الشاب أبا الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي يعمل أمين سر له. وبعد موت القصري عام ٦١٠ هـ/١٢١٣ م كلف الظاهر غازي علي الشيباني بتنظيم الدواوين.

والشيباني نسبة إلى عشيرة عربية هي بنو شيبان أصلها من الكوفة وجاءت "القفط" في مصر. وكان يوسف والد علي وزيراً عدة مرات لدى صلاح الدين، ومات ودفن في اليمن عام ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م.

عند موت الظاهر غازي انسحب علي القصري من الوظيفة، ثم عاد وكُلّف برئاسة الديوان ولُقب القاضي الأكرم والصاحب جمال الدين طيلة ١٣ عاماً، وبقي وزيراً حتى وفاته عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م وقد مدحه ياقوت الحموي عندما زار حلب عدة مرات وكان على رأس عمله.(وهنا نتساءل عن العلاقة بين ياقوت الحموي واستضافته من قبل الأخوين ولدي القفطي بحلب، وعن مكان دفن ياقوت في حلب عام ١٢٢٩ م بعد وفاة صديقه علي أبو بكر الهروي الذي دفن كذلك بحلب قرب المعادي جنوب حي الفردوس عام ١٢٠٧م، هل دفن قريباً من مدفن الهروي خارج أسوار المدينة أم قرب أحد الخانات أو في تربة إحدى المدارس غير المعروفة؟ الله أعلم! وحبذا لو يهتم أحد الباحثين بتقفي آثار ما كُتب عن صاحب كتاب معجم البلدان العظيم لعلّه يكشف لنا مكان دفنه بحلب). وقد عاش آل الشيباني في حلب، علي جمال الدين وأخوه إبراهيم مؤيد الدين ووالدهما يوسف، وكانوا من الكتاب الماهرين وقد تركوا عدة مبان مثل دار الحديث (أسّسها مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطي) أمام الفردوس، وخان الشيباني (وكان اسمه أيام إبن الشحنة والبتروني خان الفرنج) وحمام الشيباني قرب الخان في محلّة الجلوم.

المدرسة الزجّاجية: (الغزي في "نهر الذهب.." الجزء ٢، ص ٨٤) يعلمنا الغزّي أن المدرسة درست معالمها وجُهل محلّها، وقد بحث عن موقعها كثيراً فلم يظهر على وجه

التحقيق، ولعلّها كانت قرب زاوية مسجد أبي الدرجين وخربت في حادثة التتر. وكانت أول مدرسة شافعية بنيت بحلب سنة ٥١٦ هـ/١١٢٣ م. وكان مدفوناً فيها آقسنقر (قسيم الدولة) والد عماد الدين زنكي المتوفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م والذي كان مدفوناً قبلها في قرنبيا (مقر الأنبياء) ثم نقله ولده إلى هذه المدرسة.

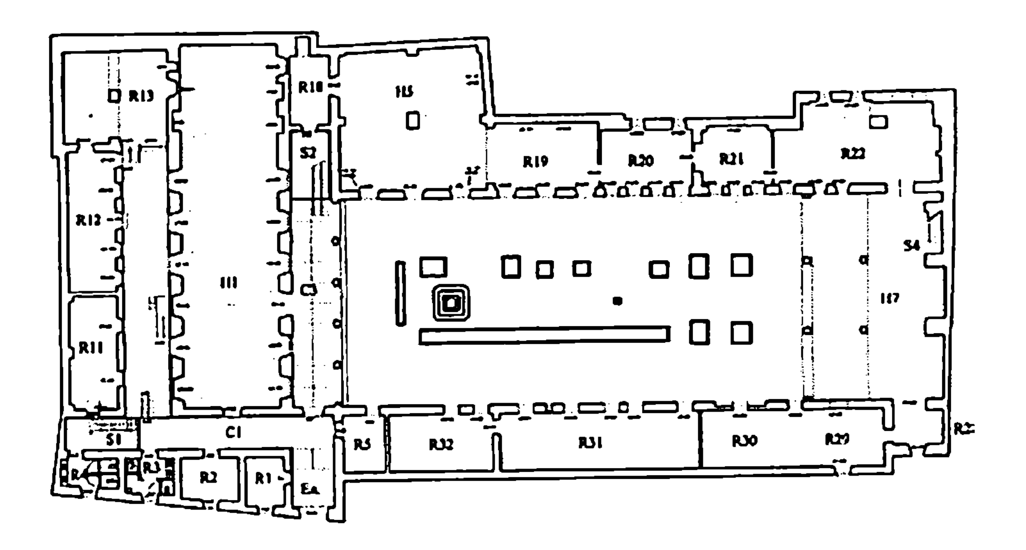
ونعلم أن المدرسة الزجاجية المذكورة قد بنيت مكان إحدى الكنائس الأربع التي حولها قاضي حلب ابن الخشّاب إلى مساجد عام ٥١٦ هـ/١١٢٣ م إثر الهجوم الصليبي الفاشل على حلب آنئذ. *ويذكر لنا الأب لويس شيخو صاحب" مجلة المشرق" أن كنيسة الشيباني الخاصة بالرهبنة الفرنسيسية قد بنيت عام ١٨٥٣ في نفس المكان الذي كانت فيه الكنيسة القديمة والتي تحولت إلى المدرسة الزجّاجية عام ١١٢٣* م، وبدون أن يذكر شيئاً عن قبر آقسنقر والد عماد الدين.

وأخيراً

لقد تمّ إعادة إحياء مدرسة الشيباني بعد إهمالها سبعين عاماً لتشملها رعاية "مشروع إحياء حلب القديمة" فيُبدأ بترميمها على مراحل، ويُنشأ فيها معرض دائم لحلب القديمة ضم مجسماً (ماكيت) للمدينة وأحيائها ومبانيها ضمن الأسوار مع بيان تطور المدينة مع مخططاتها التنظيمية المتلاحقة. كما تمّ إعداد وترميم بعض قاعات الطبقة العلوية وأعدّت لتضمّ معارض فنّية جوالة ومتميّزة عن تراث حلب وعطائها، وكان من بينها المعرض المتميّز للصور الفوتوغرافية التي التقطتها أعين مصورين هواة من حارات المدينة القديمة وزواياها وسكانها الطيبين وحرفييها الكادحين والمبدعين. ولا زالت أعمال الترميم والإحياء مستمرة نشطة لتبعث الحياة في جميع قاعات وأقبية المبنى التاريخي من جديد.

وحبّذا لو يخصص أحد الأجنحة الكبيرة التي يجري ترميمها ليكون مكتبة " وثائق حلب التاريخية" تخصّص لجمع كل ما كتب عن حلب ومبانيها وتاريخها وتراثها ورجالاتها في العصور المختلفة وبمختلف اللغات، وذلك عن طريق الاتصال بالجهات المعنية في المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى وجلب وثائق ملف حلب من وزارة الخارجية البريطانية وجلب الوثائق العثمانية وسالنامة حلب من استنبول وسجلات المحاكم الشرعية الخاصة بحلب من مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وجمع ما كتب عن حلب عن طريق معهد الآثار الألماني

بدمشق وما كتبه الباحثون اليابانيون حديثاً، بالإضافة إلى دراسة أرشيف عائلتي ماركوبولي وبوخه حال إنجازها... يكلّف بإدارتها والإشراف عليها أحد الخبراء العاشقين من أبناء حلب، وتوضع تحت تصرف الباحثين الجادين تساعدهم في دراسة المدينة التي تضم مكنوناتها كنوز أبحاث معمارية وفنية وتراثية لا تنضب تعود إلى مختلف المراحل والفترات التاريخية، ويجدر بكل منها أن يكون عنوان بحث لطلاب الدراسات العليا في كليات العمارة والهندسة المدنية والتاريخ والآثار ومعهد التراث وقسم اللغات في جامعة حلب وسواها من جامعات القطر.



مسطح مدرسة الشيباني / الطبقة الأرضية

وكم هو رائع أن يخصّص في المستقبل قاعة لتحتوي مجسّمات (ماكيتات) بعض الأبنية التاريخية بمقياس معين مثل الجامع الأموي وقلعة حلب وجامع الأطروش وجامع الفردوس والمدرسة الحلوية وبعض الدور التقليدية الهامة مع أنواع الخطوط والزخارف والنقوش الرائعة من مختلف المباني في حلب التراث تكون قبلة للناظرين والباحثين. وحبذا لو تخصّص كذلك قاعة لسماع المحاضرات وإقامة الندوات وورشات العمل المتميزة والهادفة، وبذلك تصبح مدرسة الشيباني بحق منارة ثقافية ساطعة كما كانت عند إنشائها قبل حوالي مئة وخمسين عاماً.

المراجع:

- نشرة معهد الأرض المقدسة بحلب
- الشيخ كامل الغزي "نهر الذهب في تاريخ حلب"، ٣ أجزاء
- الشيخ محمد راغب الطباخ "أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء"، ٧ أجزاء
- إرنست هرتسفيلد "مدونة كتابات حلب العربية" جزءان القاهرة ١٩٥٥
- هاينس غاوبه وأوجين فيرت، "حلب"، فيسبادن ١٩٨٤

٧) المباني العثمانية حول قلعة حلب ومبنى المصرف الزراعي[1]

تمهيد:

ابتدأت الفترة العثمانية في سورية مع معركة مرج دابق في حلب العام ٩٢٢هـ/١٥١٦م بانتصار سليم الأول العثماني على المماليك، وانتهت مع نهاية الحرب العالمية الأولى العام ١٩١٨. وقد عرفت سورية ازدهاراً اقتصادياً وبخاصة مدينة حلب التي اعتُبرت المدينة الثالثة في الإمبراطورية العثمانية بعد استنبول والقاهرة، وذلك نتيجة موقعها الاستراتيجي على طريق الحرير وطرق التجارة وتشجيع الجاليات الأجنبية على الإقامة والإتجار، إثر اتفاقية الامتيازات في العام ١٥٣٦ بين الملك الفرنسي فرنسوا الأول والسلطان العثماني سليمان القانوني. وقد ذكر من الناحية التجارية أن ما كان يباع في القاهرة خلال شهر كان يباع في أسواق حلب خلال يوم واحد فقط وذلك قبل افتتاح قناة السويس العام ١٨٦٩.

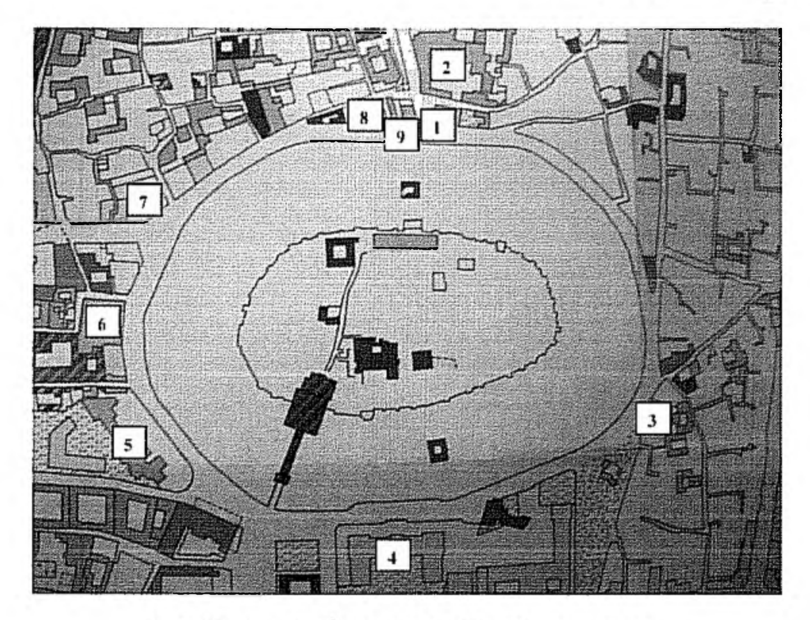


صورة جوية للقلعة من الشمال

[1] نُشرت في مجلة "المهندس العربي" العدد ١٦٦ العام ٢٠١٠ ص ٣٤-٣٦.

ازدهرت حلب كذلك عمرانياً في الفترة العثمانية حيث أقيمت المساجد والجوامع وخُصصت لها الأوقاف لتمويلها، وكان ذلك سبباً في ملء الجهة الجنوبية من الشارع المستقيم بين باب أنطاكية غرباً والقلعة شرقاً بجوامع الخسروفية والعادلية والأحمدية والبهرمية وما تبعها من خانات وأسواق ومبان وطواحين وقرى وسواها. وكان أقربها إلى القلعة وأقدمها جامع الخسروية الذي كان قرب مدخل قلعة حلب وقد بني تحدّيا لها في العام ١٥٤٦م. وكان أول عمل من تصميم المعمار سنان الذي أصبح معمار الإمبراطورية، وقد أشرف على أعمال التنفيذ للجامع مدة أسبوعين، وبُنيت الدكاكين الأربعون التي حوّلت في ما بعد إلى "خان الشونة" لتؤمن دخلاً للدارسين والمدرّسين في جامع الخسروية. وكانت هناك أوقاف أخرى مثل وقف الأميري وإبشير باشا وسواهما في أماكن أخرى من المدينة حتى أطلق على حلب اسم "مدينة الوقف".

المباني حول قلعة حلب:



مخطط مباني الفترة العثمانية المتأخرة حول قلعة حلب

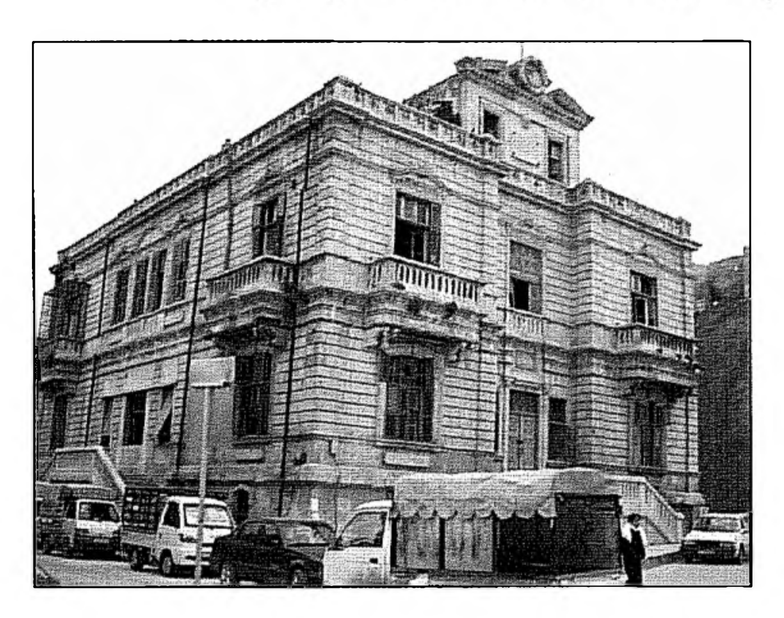
١) مبنى بلدية حلب ٢) سرايا إسماعيل باشا ٣) الزاوية الصيادية (دار الإفتاء)

٤) السرايا الحكومية ٥) مشفى الغرباء ٦) المدرسة الرشدية العسكرية

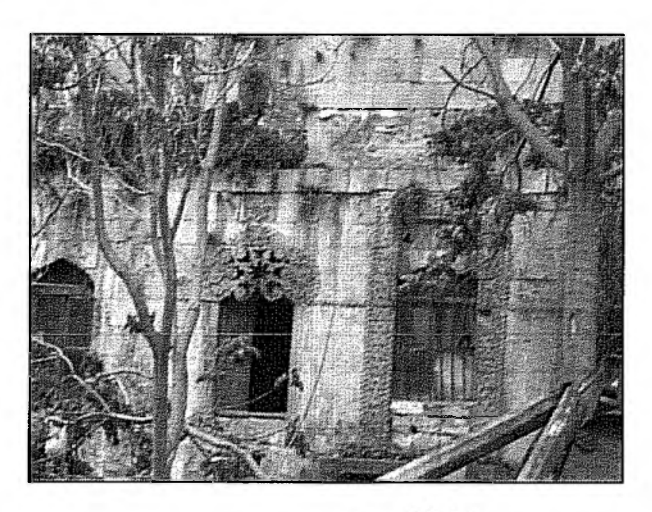
٧) قناق الكيخيا ٨) المدرسة الإسماعيلية ٩) المصرف الزراعي (مطعم بيرويا)

تمّ إنشاء العديد من المباني في الفترة العثمانية المتأخرة حول محيط قلعة حلب منذ إنشاء بلدية حلب في العام ١٨٦٦ وحتى انسحاب العثمانيين من حلب في العام ١٩١٨. وهذه المباني هي :

١) **مبنى البلدية القديمة** (إدارة الهجرة والجوازات سابقاً) وقد أنشئت شمال البرج الشمالي لسفح القلعة منذ ١٩٠٥-١٩٠٧. وقد أضيفت طبقة ثانية للمبنى العام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥ كما تبين الكتابة على اللوحة المرمرية أعلى واجهة البناء. والمبنى حالياً مهجور يتم التفكير بإعادة توظيفه واستثماره بالشكل الأمثل.

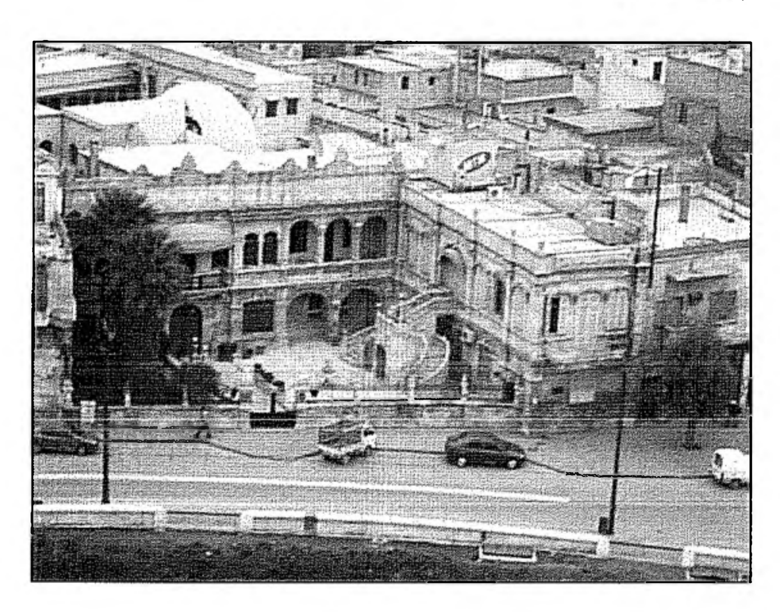


٢) **سرايا إسماعيل باشا (الحكومة)** (مكان السجن القديم المهدوم) وهو بناء واسع هدم معظمه وأهمل، وكان مقر الوالي إسماعيل باشا (الحكومة) أيام احتلال إبراهيم باشا المصري حلب في العام ١٨٣١ -١٨٤٠. وكانت بعض واجهاته تضم نقوشاً وزخارف جميلة في أحجارها الكلسية. وكان في قسمه الجنوبي مبنى للبريد والبرق والسجن القديم. وكانت هناك عدّة مشاريع لاستثماره لم يقرّر أي منها ليدخل مجال التنفيذ.



زخرفة من سرايا اسماعيل باشا

٣) **الزاوية الصيادية** (دار الإفتاء حالياً) ويعود بناؤها إلى العام ١٩٠٩ وهي أول بناء على الطريقة الأوروبية بمدخل ذي منعطف لولبي جميل بني داخل أسوار المدينة القديمة. أسّس الزاوية الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي الذي سمّي نقيب الأشراف في عموم ولاية حلب في العام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤.



٤) **السرايا الحكومية:** ويُذكر أنه فكّر ببنائها في أواخر الفترة العثمانية في العام ١٩١٤مكان سوق الجمعة في الجهة الجنوبية من القلعة ، وتم البدء بحفر الأساسات في العام ١٩١٧ ثم توقف البناء ليتابع في العام ١٩٢٧ أيام الانتداب الفرنسي، وانتهى البناء في العام ١٩٣٦. وقد استلهم في طراز واجهتها الجميلة محاكاة الشرفات الدفاعية في أبراج القلعة المواجهة لها. وقد أخليت السرايا حالياً بعد أن كانت تضم مقرّ محافظ حلب ومكاتب الإدارة المحلية. وهناك مشروع لتأهيلها وتوظيفها لتكون فندقاً بخمس نجوم.



٥) **مشفى الغرباء:** وهو مستشفى تم البدء بإنشائه في العام ١٣٠٩ هـ/١٨٩١ وأنجز في العام ١٣٣٥ هـ/١٨٩٧ وكان مخصصاً للغرباء. وقد حوّل إلى مدرسة للتمريض، وأعطي استثماره مؤخراً ليكون فندقاً سياحياً من الدرجة الأولى (فندق كارلتون). وتّم تجهيزه وتوظيفه على هذا الأساس.

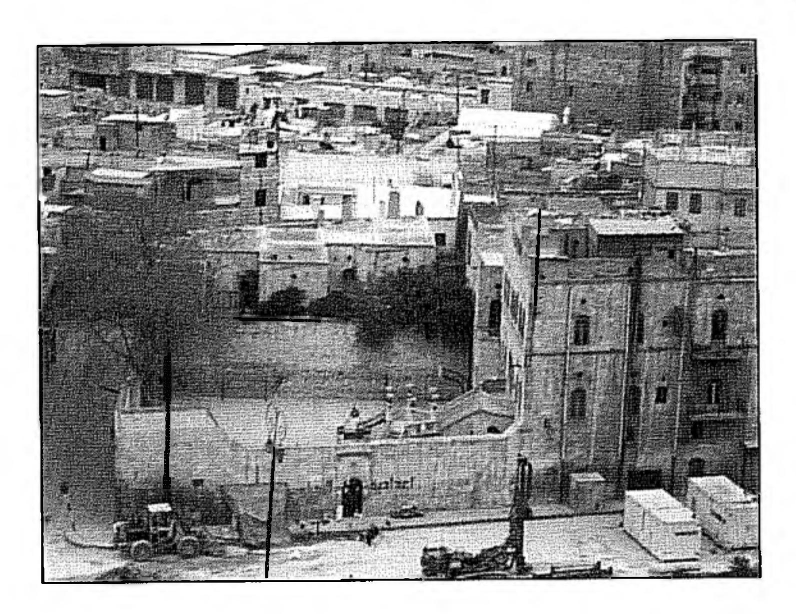


مشفى الغرباء (فندق كارلتون)

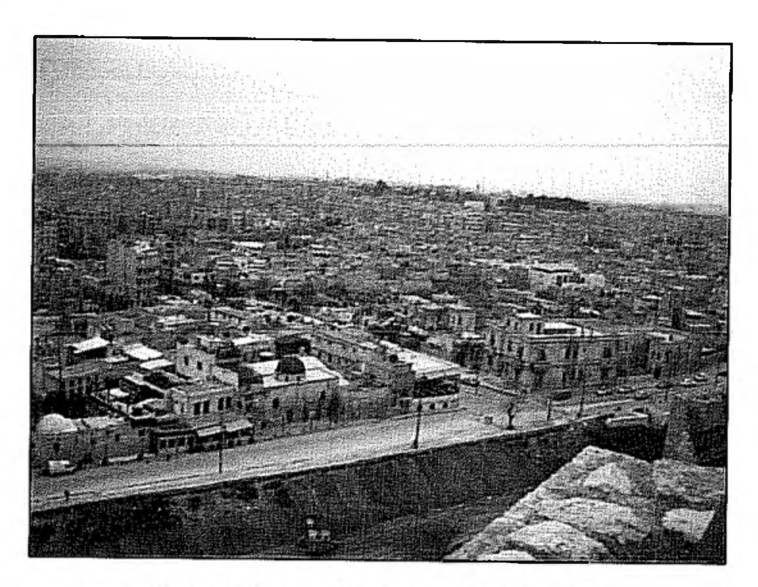
٦) **المدرسة الرشدية العسكرية** (مديرية الخدمات الفنية بحلب سابقاً): وكانت مدرسة للطلاب الذين بلغوا سن الرشد (إعدادي) وهي مخصّصة للعلوم العسكرية. بنيت في العام ١٣٠٠ هـ/١٨٨٢ أيام الوالي جميل نامق باشا (١٢٩٧- ١٣٠٧ هـ)الذي بني حي "الجميلية" على اسمه.



٧) **قناق الكيخيا:** وهو بناء واسع يطل من الفرافرة على الجهة الشمالية الغربية من القلعة وتشغله حالياً إعدادية عبد الحميد الزهراوي. بناه أحمد توفيق أفندي كيخيا عضو مجلس إدارة ولاية حلب عام ١٨٦٨ والذي انتخب عدة مرات واستمرت عضويته ٢٦ عاماً وحتى العام ١٩١١، ثم اختير عضواً في مجلس الأعيان في الأستانة حتى عام ١٩١٤حيث رجع إلى حلب وتوفي فيها عام ١٩١٩ ودفن في مقبرة الصالحين. وقد بنى داره الواسعة على مراحل حتى عام ١٨٩٧ وكان فيها العديد من الغرف وعرفت بقناق الكيخيا. والمعروف أنه أضيف إليها درج فخم ملتو على الطريقة الحديثة عندما أقام فيها جمال باشا (السفاح) خلال وجوده في حلب عام ١٩١٦.

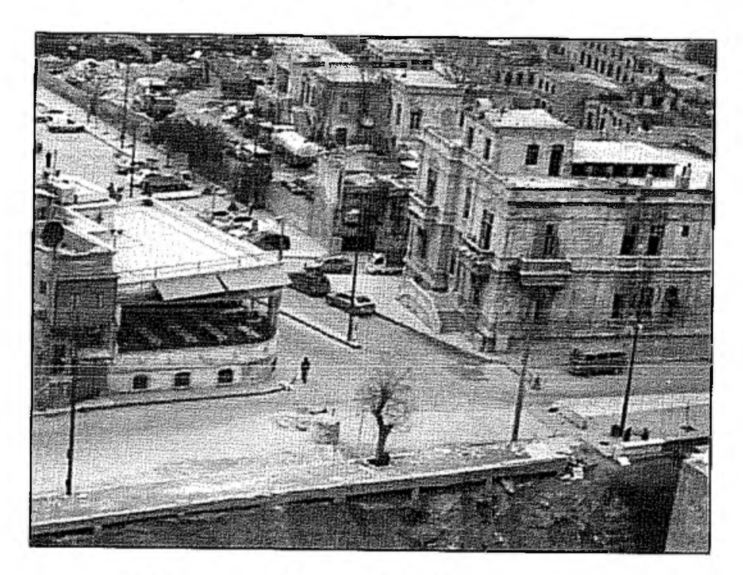


٨) **المدرسة الإسماعيلية:** وتقع إلى الشرق من ضريح النسيمي، بناها إسماعيل بك بن محمد انطرمه لي، وكان مكانها مسجد يعرف باسم "مسجد الصبّارة". وهي مدرسة جميلة يُصعد إليها بدرجات من شمالها، وكان لها أوقاف في خانطومان. في أعلى مدخلها على الشارع كتابة ذات أربعة أسطر تحمل التاريخ ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩.



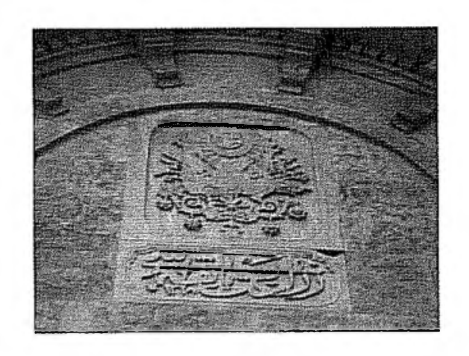
المدرسة الاسماعلية بين مدفن النسيمي والمصرف الزراعي

٩) **المصرف الزراعي** (مطعم بيرويه حالياً): ويقع شمال القلعة مقابل مبنى البلدية والى الغرب منه، وقد أنجز بناؤه عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ كما تبين كتابة اللوحة المرمرية في أعلى مدخل البناء ونصّها: "زراعت بانقه سي" وفي أعلاها شعار الدولة العثمانية وفي أسفلها التاريخ ١٣٢٨هـ الموافق للعام ١٩١٠. وقد استمرّ مصرفاً زراعياً أيام الانتداب الفرنسي ثم حوّل إلى مقهى.

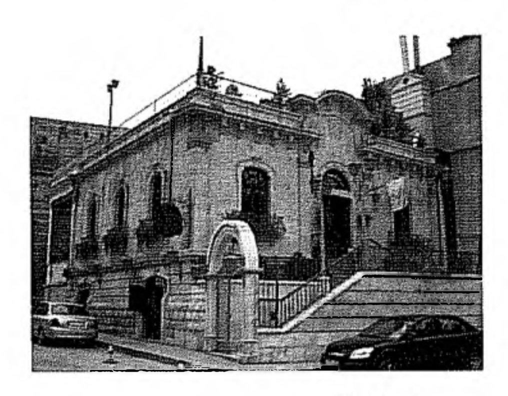


مبنى المصرف الزراعي وبلدية حلب القديمة

ونتوقف عند المصرف الزراعي الذي مضى هذا العام قرن كامل على إنشائه (١٩١٠ - ٢٠١٠) كي ندرك الأهمية التي أولتها الدولة العثمانية لشؤون الزراعة آنئذ فأنشأت مصرفاً لتقديم الدعم المالي للشؤون الزراعية في مدينة حلب وما حولها. ومن المعروف أنه صدرت إرادة سنيّة من الإمبراطورية العثمانية بتأسيس المصرف الزراعي بتاريخ ١٣٠٤/٨/١٥هـ الموافق للعام ١٨٨٢ وأنشئ فرع له بحلب العام ١٣٢٨هـ/١٩١٠ شمال القلعة إلى الغرب من مبنى البلدية للاهتمام بالزراعة وإقراض المزارعين.

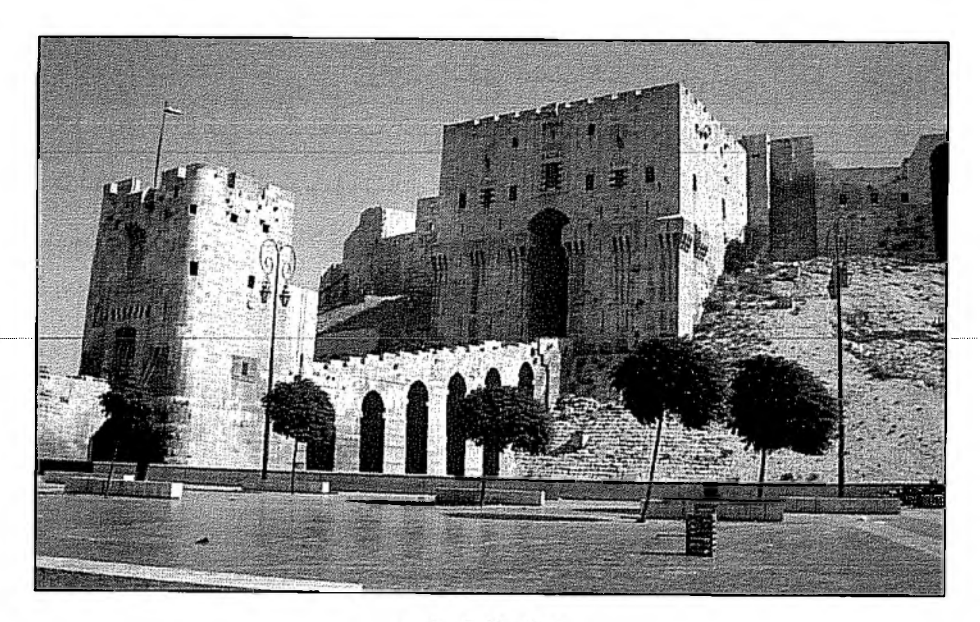


زراعت بانقه سي ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م)



مبنى البنك الزراعي (مطعم بيروبا)

والطريف أنه عند انسحاب الأتراك من سورية بانتهاء الحرب العالمية الأولى أخذوا معهم قيود المصرف الزراعي. وصدر القرار رقم ٢٠٥ تاريخ ١٣/ ١١/ ١٩١٨ بإعادة تأسيس المصرف الزراعي. ونظراً لعدم وجود قيود تُعرف منها ذمّة المزارعين المستقرضين، وكان المصرف لا يمنح قروضاً إلاّ لقاء تأمينات عقارية، لجأ موظفو المصرف إلى دراسة السجلّ العقاري واعتبروا كل مالك تضمّ صفحة عقاره إشارة رهن لصالح المصرف مديناً بمبلغ تلك الإشارة، وتبرأ ذمّته إذا قدّم إيصالات رسمية صادرة عن المصرف الزراعي بتسديده تلك المبالغ، وهكذا حلّت مشكلة السجلات المفقودة. هذا وقد أصبح المصرف زراعياً تعاونياً في عام ١٩٦١ أيام الجمهورية العربية المتحدة التي هدفت إلى تعميم النظام التعاوني في مناطق الإقليم السوري كافة.



مدخل قلعة حلب

ملاحظة: يمكن إضافة بعض المعلومات الأكثر دقة وتفصيلاً حال إنجاز مشروع ترجمة أعداد "السالنامة" الخاصة بالسنوات الأخيرة من الفترة العثمانية في سورية من التركية إلى العربية، والذي كانت الزميلة المرحومة الدكتورة نجوى عثمان تشارك في تنفيذه مع فريق عمل متخصص.

حلب ٣١/٥/٢٠١٠

المراجع

- "نهر الذهب في تاريخ حلب" الشيخ كامل الغزّي ١٩٢٤ حلب.
- كتاب "حلب" هاينس غاوبة وأوجين فيرت ١٩٨٤ فيسبادن.
- "كتابات سورية" هاينس غاوبة ، ١٩٧٨ بيروت.
- "معالم حلب الأثرية" المهندس عبدالله حجار طبعة ثالثة ٢٠١٠ حلب.
- حلب في مئة عام (١٨٥٠ - ١٩٥٠) فؤاد عنتابي ونجوى عثمان ١٩٩٠ حلب.
- مقالة عن المصرف الزراعي التعاوني - نسيم عرنوق مدير المصرف بحلب ، نشرت في المجموعة الاقتصادية لغرفة تجارة حلب عام ١٩٦١.

٨) زقاق الأربعين ووثيقة آل دلاّل
و
الشاعر جبرائيل دلال (١٨٣٦ - ١٨٩٢)
من أوائل شهداء الحرية والتنوير

تمهيد:

في محاولة لربط الزمان بالمكان وبالحدث الذي يفعّله الإنسان سنحاول أن ننقل خطواتنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عصر النهضة والتنوير الذي ساهمت به حلب بمطبعتها الأولى (١٧٠٦) والمطبعة المارونية وبصحافتها وأبنائها روّاد النهضة.. وفي نشأة زقاق الأربعين في أطراف حي "الجديدة" وذاكرة حلب حول شاعرها جبرائيل دلاّل (١٨٣٦ - ١٨٩٢) الذي يعتبر أول شهداء الفكر والتنوير في بلادنا سبق شهداء الحرية الذين علقت مشانقهم في ٦ أيار ١٩١٦. ولا بأس من أن نعرّج على ابن اخت الدلال شاعر حلب الكبير قسطاكي الحمصي وعائلته الكريمة وتمسكه باللغة العربية وإمكانياتها اللامحدودة في التعبير والترجمة عن اللغات الأخرى وذلك منذ بداية القرن العشرين. وليس الهدف من ذلك السرد التاريخي فقط بل لأخذ العبرة بالنسبة لحاضرنا بوجهه المشرق المأمول. ولنبدأ أولاً بالمكان زقاق الأربعين ووثيقة آل دلال في تحديد نشأته وبعض الخواطر حول ذلك.

حارة "زقاق الأربعين" في حي الجديدة

يتساءل الكثيرون من سكان حي الجديدة عن سبب تسمية " زقاق الأربعين" الواقع شمال الحي (ويقع إلى الشمال من مطعم قصر الوالي حالياً) وتاريخ إنشائه ، هل تسمية الأربعين تعود للشهداء الأربعين في عام ٣٢٠ أيام الإمبرطور ليكينيوس شريك الملك قسطنطين في الحكم ، ولدينا كنيسة الأربعين شهيداً للأرمن الأرثوذكس من أقدم كنائس الجديدة؟ أم أن للتسمية علاقة بقصة علي بابا والأربعين حرامي؟ وكان هناك "باب الأربعين" في شمال السور الشرقي المار من قلعة حلب قبل إزالته وتعميق خندق الروم المجاور ليصبح السور الشرقي للمدينة وبذلك أصبحت القلعة وسط المدينة.

ويعلمنا كذلك الشيخ كامل الغزّي (في الجزء الثاني من كتابه "نهر الذهب.." ص٤٢٧) حدود حارة زقاق الأربعين وهي جنوباً حارة عبد الرحيم وشمالاً الهزّازة وغرباً عبد الحي وشرقاً محلّة الأكراد. ويذكر: "إن هذه المحلة مما أسس السلطان سليم خان العثماني بعد استيلائه على حلب وقد أحضر اليها أربعين أسرة من المسيحيين ليقوي بها تجارة حلب. فبنت تلك الأسر في هذا الموضع أربعين داراً اتخذوها لسكناهم وسمّيت بعددهم." كما يذكر الشيء نفسه المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف.

لقد حسمت هذا الموضوع وثيقة هامة، في حال صحتها بالطبع، خاصة بعائلة دلاّل في حلب يذكر فيها كاتبها واسمه عبد الله جبران (جبرايل) دلال ويعود تاريخها إلى عام ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م أن الجدّ الأول للعائلة قدم إلى حلب بناء على طلب السلطان العثماني مراد الرابع حين مروره بحلب في طريقه إلى بغداد عام ١٦٣٨ والذي أمر بجلب أربعين عائلة مسيحية إلى حلب. وقد تم جلبهم من متقدمي المدن القديمة، دون أن تذكر الوثيقة المصدر هل هو من لبنان أو ماردين أو حمص أو القنية.. وقد سكنوا محلة " زقاق الأربعين" خارج باب النصر. وكان الجد الأول واسمه متروك "وتعني ديمتري" دلال رأس إحدى العائلات الأربعين، وكان من طائفة الروم الملكية. ويذكر كاتب الوثيقة أسماء ١٥ جيلاً بدءاً من الجد متروك ووصولاً إليه، أي خلال ٢٠٠ عام. وقد تم كتابة وتوقيع الوثيقة في ٥ ربيع أول ١٢٥٤ هـ الموافق ١٤ أيار ١٨٣٨م.

ونبين صورة عن الوثيقة الخاصة بآل دلاّل، وهي عائلة حلبية عريقة كان منها تجار وشعراء وكانت لهم في "حارة السيسي" دار واسعة تتميز بباحتها وإيوانها والأحواض المرمرية لبركتها والمصنوعة في إيطاليا مع زخارف ونقوش جدرانها الداخلية المطلة على الباحة. وقد حُوّلت الدار إلى مدرسة كيليكيا الابتدائية الأرمنية، وقد تصدّرت إيوانها لوحة برونزية للمحسن الأرمني الكبير كالوست غولبنكيان الذي تقدم مؤسسته المساعدات للأرمن وسواهم في أنحاء العالم.

بيان نسبة عائلتنا الشهيرة [illegible] عيلة [illegible] دلال [illegible] الجد الأول
الذي أتى أولاً وسكن [illegible]

يجب أن تعلم أنه لما [illegible] نزل [illegible] متجهاً إلى [illegible]
[illegible] وذلك في [illegible] وقد شاهد [illegible] المدينة خالية [illegible]
[illegible] الملك وجوه أهالي هذه البلدة
وأمراءه [illegible] أن [illegible] وتسلم [illegible] المدينة [illegible]
[illegible] إذا لم يرى [illegible]
[illegible] غسل مسيحيين [illegible]
[illegible] وسميت بزقاق الأربعين [illegible]
[illegible] خارج باب النصر [illegible]
[illegible] الزمان [illegible]
[illegible] كان جدنا الأول [illegible]
[illegible]
[illegible] دلال [illegible] هذا الكتاب وذلك [illegible] ١٢ [illegible]

الأول [illegible] — ١
الثاني [illegible] — ١
الثالث [illegible] — ١
الرابع [illegible] — ١
الخامس [illegible] — ١
السادس [illegible] — ١
السابع [illegible] — ١
الثامن [illegible] — ١
التاسع جبرائيل أولد عبد الله — ١
العاشر عبد الله أولد جبرائيل ونصر الله — ١
الحادي عشر نصر الله ولد عبد الله وجبرائيل — ١
الثاني عشر جبرائيل أولد نصري ويوسف [illegible] — ١
الثالث عشر جبرائيل أولد [illegible]
الرابع عشر منير أولد عبد الله دلال — ١
الخامس عشر [illegible] أولد [illegible] — ١

وثيقة آل دلال حول زقاق الأربعين

نص وثيقة آل دلال:

بيان نسبة عيلتنا الشهيرة بحلب باسم عيلة يعقوب دلال ومن هو الجد الأول الذي أتى أولاً وسكن بحلب.

يجب أن تعلم أنه لما شرف لحلب ركاب السلطان مراد المعظم متوجهاً إلى فتوح مدينة بغداد وذلك في سنة ١٦٣٨ وقد شاهد هذه المدينة خالية من وجود سكنا مسيحيين بها في تلك الأوقات فزجر الملك وجوه أهالي هذه البلدة وأصدر أمره الشاهاني أن تحضر مسيحيين وتسكن بهذه المدينة وتهدد الأهالي أنه لحين رجوعه من بغداد إذا لم يرى مسيحيين قاطنين بها فيقاصصهم فاقتضى وجوه البلدة يطلبوا من متقدمي مدن القريبة لحلب عيل مسيحيين وأحضروا من الجهات أربعين عيلة وأعطوهم محلة للسكنى وسميت بزقاق الأربعين تلك المحلة المشهورة إلى يومنا هذا وهي خارج باب النصر. ولما رجع المرحوم السلطان مراد وشاهد نفود أمره الشاهاني فانسرّ من ذلك ومع تمادي الزمان تزايدوا المسيحيين ونموا وقد كان في محلة أحد الأربعين عيلة الذين أولاً أحضروهم لحلب بموجب الأمر الملوكي كان جدنا الأول وهو المدعو متروك أي ديمتري من طائفة الروم الملكية ولأجل البيان وتذكيراً لمن يأتي بعدنا قد دونتها الفقير عبد الله جبرائيل دلال في هذا الكتاب وذلك بتاريخ ٥ ربيع أول ١٢٥٤ الموافق مسيحية ١٤ أيار ١٨٣٨

عبدالله

جبرائيل

دلال

ع

الأول ديمتري المدعو متروك

١ الثاني ديمتري أولد يعقوب

١ الثالث يعقوب أولد فياض

١ الرابع فياض أولد يعقوب

١ الخامس يعقوب أولد جرجس

١ السادس جرجس أولد ديمتري

١ السابع ديمتري أولد يوسف

١ الثامن يوسف أولد جبرائيل

١ التاسع جبرائيل أولد عبد الله

١ العاشر عبد الله أولد جبرائيل ونصر الله

١ الأحد عشر نصر الله أولد عبد الله وجبرائيل

١ الثاني عشر عبد الله أولد نصري ورأيف وتوأمين ضياء ومنير

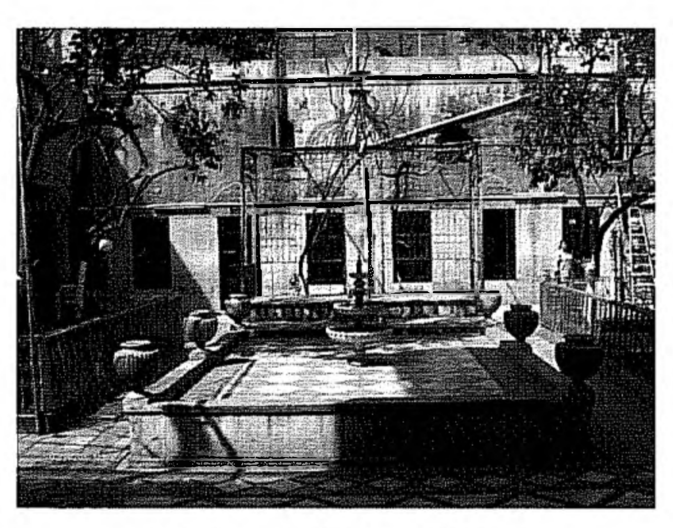
١ الثالث عشر جبرائيل أولد إدكر وإدمون

١ الرابع عشر منير أولد عبد الله دلال

١ الخامس عشر ادمون أولد جبرائيل



الشاعر جبرائيل دلال



بيت دلال في حارة السيسي - الجديدة

لا شك انه كانت هناك العديد من العائلات المسيحية المقيمة في حلب قبل مرور السلطان مراد الرابع بها عام ١٦٣٨ وأمره بجلب ٤٠ عائلة مسيحية إليها. ودليلنا على ذلك شهادة مؤرخ حلب ابن الشحنة عام ١٤٢١ م بإنشاء حي للنصارى خارج أسوار المدينة بعد تخريبها من قبل تيمورلنك عام ١٤٠٠ م. كما يذكر الرحالة بيترو دي لافاله عام ١٦٢٥ م وجود خمس كنائس في الجديدة، كما إن بعض هذه الكنائس مذكورة في مخطوطات من أيام المماليك، أي قبل دخول العثمانيين سورية عام ١٥١٦ م، مما يدل على وجود مؤمنين يصلون في تلك الكنائس. كما أن بعض الدور التقليدية القائمة حتى الآن والتي استثمرت بوظائف جديدة كفندق (بيت وكيل وخشبية جدران قاعته الرئيسية مؤرخة من عام ١٦٠١ وصاحبها أرمني هو عيسى بن بدروس السمسار) أو مطعم وسواها تحمل تواريخ سابقة لعام ١٦٣٨ تاريخ مرور السلطان مراد الرابع بحلب. وقصة السلطان المذكور مع المواطن الأرمني بدروس (خوجه بديك) حول الوليمة التي أولمها للسلطان وكسر على أثرها الصحون والأواني الصينية غالية الثمن بحجة عدم استعمالها ثانية من قبل أحد بعد عظمة السلطان، مما جعل بدروس يحصل على موافقة السلطان على توسيع كنيسة الأربعين شهيداً وجعلها بازليك ذات ثلاثة أبهاء هي قصة معروفة. ولا شك أن العائلات المسيحية موجودة منذ القرن الثالث عشر عندما ذهب ابن العبري مطران السريان بحلب إلى هولاكو المقيم في قلعة نجم يرجوه عدم مهاجمة المدينة، فسجنه هولاكو هناك وجاء ودمّر حلب عام ١٢٦٠ م. كما نذكر قول المؤرخ ابن شداد بوجود نيف وسبعين بيعة (كنيسة) بحلب في أيامه.

إن ما يهمني قوله أنه كان هناك في حلب العديد من العائلات المسيحية العريقة والقديمة وبشكل خاص من الأرمن والسريان والروم والموارنة، وتشهد على ذلك الدور التقليدية التي لا زالت قائمة في حي الجديدة وسواه من أمثال دار كبه وغزالة (سابا عايدة) ووكيل وبليط وصادر ودلاّل وصائغ وزمريا وحمصي وأنطاكي وأندريا ومرّاش وباسيل وحسون وأخرس وجحا وخوري وخياط وجروة وكنيدر وسواها... وكان لكل من هذه العائلات دَور في مجال التجارة أو الأدب أو الترجمة لدى القناصل الأجنبية أو الإحسان إلى غير ذلك مما هو مفيد لمدينة حلب وذاكرتها. حبذا لو يتصدى لهذا الموضوع أحد الباحثين، ويفضل أن يكون من المقرّبين إلى السجلاّت والوثائق المتوفرة لدى الطوائف المختلفة ليتمكن من متابعة شجرة العائلة موضوع البحث بسهولة ويدوّن الملاحظات المميزة لأعضائها والوظائف أو الأعمال

التي قاموا بها، وذلك أسوة بالبحث الجيد الذي قامت به الباحثة الأمريكية مرغريت ماري ويتر في كتابها الذي ترجمه الأستاذ خالد جبيلي باسم "القرابة الحقة، العائلة والمجتمع في العهد العثماني"، وذكرت فيه أصول أهم العائلات المسلمة بحلب في القرون الثلاثة الأخيرة. فهل هناك من باحث يقوم بهذه المهمة الصعبة؟ وهل هناك من مموّل متبرع يدعم هذا العمل؟ وفي حال وجود أكثر من باحث يمكن أن يهتم كل منهم بعائلات إحدى الطوائف، وبذلك يوزّع العمل ويصبح أكثر تركيزاً ومرونة، ويكون الكاهن المسؤول عن سجلات الطائفة من ولادات (عمادات) وزواجات ووفيات خير معين للباحث. كما أن الاتصال بورثة المؤرخ المرحوم عيسى اسكندر المعلوف في زحلة مفيد جداً لما كان لديه من مخطوطات هامة لم تنشر مثل "مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر"(مخطوط في مجلدين) وسواها. ويذكر فيما يذكر أن أصل عائلة الدلال الحلبية ربّما من ديار بكر أو من القسطنطينية وقد جاء جدّهم متروك "متري أو ديمتري" إلى حلب سنة ١٦٣٨.

ونذكر هنا العمل الكبير الذي قام به المرحوم الأب فردينان توتل اليسوعي (١٨٨٧ - ١٩٧٧) ابن حلب البار عندما عرّفنا وباسلوب بسيط ومختصر على أهم الأحداث التي جرت في المجتمع الحلبي، وبخاصة المسيحي، في السلسلة التي أصدرها بعنوان" وثائق تاريخية عن حلب" وتكلم فيها عن مختلف الطوائف المسيحية (أرمن، روم، سريان، موارنة ولاتين...) ومن أقدم سجلاتها الخاصة بها والمتوفرة وحتى منتصف القرن العشرين، مما كان له أطيب الصدى من حيث الحقيقة التاريخية لذاكرة المدينة الطيبة والعريقة. كما نذكر له تعريفنا على حياة وأرجوزة الشيخ محمد أبي الوفاء الرفاعي (١٧٦٥-١٨٤٧) الشهيرة "منظومة الشيخ وفاء" التي ذكر فيها جميع الأولياء المدفونين بحلب. ويذكر المرحوم الأب توتل في حاشية صفحة ٥ أسماء الأسر الحلبية موضوع الجزء الرابع من كتاب المرحوم الغزي والذي أرته إياه ابنته الآنسة نفيسة، تلميذة مدرسة الراهبات الفرنسيسيات سابقاً، وكانت قد نسخته بيدها والذي لم يطبع بعد وفاة مؤلفه. وهذه الأسر هي: أسرة الأميري، النيرباني، يكن، ميسر، الطيار، الكيالية، باقي زاده، مرعشلي، قطار آغاسي، مدرس زاده، الجابري، القدسي، كتخدا، المرتيني، الترمانيني، الغوري، قرقلاري، الحيدرية، مشاطي، روتيني، الجنباز، خير الله، بشير الغزّي، الحلوي.

كما لا ننسى للأب توتل فضله في تعريفنا بالمجتمع الحلبي المسيحي العادي وليس الرسمي بحلب عن طريق تحقيقه "يوميات المعلم نعوم بخاش" بشكل موجز، والتي قام المرحوم الأب يوسف قوشاقجي (١٩١٣-١٩٩٥) بنشرها والتعليق عليها بالكامل، لتكون صورة مشرقة من صور الأدب الشعبي في حلب بين بداية الربع الثاني ونهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر.

خمائر عصر النهضة

بدأت ملامح عصر النهضة تبدو في القرن السادس عشر والسابع عشر بتشجيع الأجانب على الإقامة بحلب بموجب اتفاقية عام ١٥٣٥ (الملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني) وبدأت القنصليات والبيوت التجارية الأجنبية تقيم بحلب (القنصل الفرنسي ١٥٦٤ والبريطاني ١٥٨٣ والهولندي ١٦٠٧، وقد سبقهم تجار البندقية ١٥٤٨ والدول- المدن الإيطالية الأخرى)، وافتتحت المدارس مع بدء مجيء الإرساليات التبشيرية إلى حلب عام ١٦٢٥ وبدأ العلم ينتشر عن طريقها.

ووجدت بحلب أول مطبعة في الوطن العربي بأحرف عربية عام ١٧٠٢ جلبها البطريرك أثناسيوس الدباس من رومانيا وصنع حروفها الشماس عبد الله زاخر الحلبي، لكنها عاشت فترة قصيرة طبعت خلالها "المزامير" وبعض الكتب الدينية، ثم انتقل صاحبها الشماس الزاخر إلى لبنان.

وكانت بوادر النهضة الحقيقية بتأسيس المطبعة المارونية التي أدخلها المطران يوسف مطر عام ١٨٥٨ وبدأت تطبع إلى جانب الكتب الدينية مقالات المفكرين فرنسيس المرّاش ونصر الله دلاّل وتوزّعها على الجماهير. وكان للإصلاحات العثمانية (الكولخانة والخط الهمايوني والدستور) دور في الانفتاح، وكذلك كان للصحافة مثل "الجوائب" و"النحلة" (يصدرها الكاهن الكاثوليكي لويس صابونجي في بيروت) و"الجنان" (أصدرها بطرس البستاني وولده سليم في بيروت عام ١٨٧٠) دور كبير في التنوير حيث كانت تنشر أفكار المفكّرين النهضويين وكان يتداولها طلاب معهد الأرض المقدّسة (المؤسّس في الشيباني عام ١٨٥٩ ويعدّ طلابه لدخول الجامعة) وطلاب مدرسة اليسوعية في ترب الغرباء (المنشأة عام ١٨٧٨). ولا ننسى

ذكر شيخ الصحافة العربية رزق الله حسون الذي أسّس جريدة "مرآة الأحوال" عام ١٨٥٥ في الآستانة وتابع إصدارها في لندن.

كان مفكرو عصر النهضة أبناء تجار موسرين توفرت لهم سبل الدراسة والاطلاع على الثقافة الغربية الحديثة والترحال إلى الغرب والتجوال فيه، وقد اعتبروا الغرب، مع اعتزازهم بثقافتهم وحضارتهم العربية، مثالاً يحتذى في التقدم والتطوّر. وكانوا يتصفون بنزعة عقلانية علمية، وكان معظمهم يحتضن بذور الشك والعداء للسلطة الكنسية تأثراً بفلاسفة الثورة الفرنسية من أمثال فولتير وسواه وأفكار غاريبالدي وجمعية إيطاليا الفتاة... أجل تشرّب المفكرون بأفكار الحرّية والمدنية والتقدّم العلمي مما جعلهم يسخطون على مجتمعهم المتخلّف.

في هذه البيئة ومع هذه المقدّمات سطع مفكرو النهضة في منتصف القرن التاسع عشر بحلب ونذكر منهم فرنسيس المراش (١٨٣٦ – ١٩٧٣) وأخاه عبدالله مراش (١٨٣٩ - ١٩٠٠) وأختهما مريانا (١٨٤٨- ١٩١٩) وكانت أول امرأة كتبت مقالة في مجلة أو جريدة، وقد نشرت في مجلّة "الجنان"، ونصر الله دلاّل (١٨٤١ -١٨٨٣) وجبرائيل دلاّل (١٨٣٦ - ١٨٩٢) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨- ١٩٠٢) وقسطاكي الحمصي (١٨٥٨ - ١٩٤١) واندرج نشاطهم في السياق العام لنشاط العثمانيين الجدد في محيطهم الثقافي والاجتماعي والسياسي، وكان لكل منهم أفكاره وطريقته وتصوّره لإصلاح المجتمع وبناء النهضة بحسب البيئة التي عاشها والتأثرات التي استوعبها وبنى عليها أفكاره في الإصلاح.

الشاعر جبرائيل دلال (١٨٣٦ - ١٨٩٢):

ولد جبرائيل دلال في الثالث من نيسان ١٨٣٦ من عائلة كريمة وكان بيت والده عبد الله من أعرق بيوتات حلب ملتقى رجال الفكر والأدب يجتمع فيه الشعراء من أولاد المراش ونصر الله الطرابلسي وسواهم. فقد أباه وهو في الحادية عشرة من العمر فقامت عمته بتربيته، وكان من تلاميذ مكتب نعوم بخاش في "الجديدة"، وتلقى تعليماً إكليريكياً في عينطورة في لبنان. أتقن اللغتين الفرنسية والإيطالية إلى جانب التركية لغة الدولة والعربية لغة آبائه وأجداده، وكان ذكياً جداً ويميل إلى العلوم ويتمتع بذاكرة قوية، وكان شديد الاعتزاز بالهوية الثقافية الحضارية

العربية، وقد حفظ دواوين المتنبي وصفي الدين الحلّي ومقامات الحريري والكثير من مقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع وقسماً كبيراً من القرآن الكريم، كما يعلمنا ابن اخته قسطاكي الحمصي في كتابه "السحر الحلال في شعر الدلال" مما كوّن لديه خلفية أدبية فكرية رائعة جعلته يكتب وينظم في مختلف مواضيع الشعر. وكان يميل إلى الرسم والموسيقى، وكان صدره أشبه بخزانة علوم وفنون في عصر عمّ فيه الجهل. كما كان لطيف الشمائل خفيف الروح صحيح الانتقاد وفياً وذا تفكير حرّ.

سافر إلى استنبول إثر وفاة عمه الغني فيها وبقي هناك خمسة أشهر ذهل بعظمة المدينة وآثارها وقصورها وجوامعها وتعرّف على شخصياتها، وبعد تصفية التركة عاد إلى حلب، وبعد سبع سنوات تزوج في حلب من أجمل فتيات المدينة وتدعى سوسن كريمة فتح الله عجوري الحلبي. وعاد إلى استنبول ليبقى فيها سنة ونصف يطلع فيها عروسه على مفاتن العاصمة، وكرّ عائدا إلى حلب. وتاقت نفسه من جديد فزار فرنسا وإيطاليا وإسبانيا (فردوس العرب المفقود) وهو يري زوجته رفيقة الدرب روائع الأندلس. ومن اسبانيا سافر إلى البرتغال بمهمة خاصة وحظي بمقابلة الملك. وفي طريق العودة إلى وطنه أصيبت زوجته وهو في مرسيليا بمرض عضال فقضت نحبها وكانت من أجمل بنات الشرق. ويذكر عن جمالها المبهر أن الشاعر دعي خلال إقامته في باريس إلى حفلة راقصة أقامها نابليون الثالث في قصر فرساي، وقد افتتح الإمبراطور الحفل بمراقصتها ولقّبها بنجمة الشرق Etoile d'orient ولها رسم زيتي محفوظ في متحف الآثار في باريس.

فجع الشاعر بوفاة زوجته الحبيبة وهو في الغربة ولم يطق العودة إلى حلب والوطن فعاد إلى باريس علّه ينسى. ومن باريس إلى الجزائر فبلجيكا ثم عودة إلى باريس ليتعاقد عام ١٨٧٧، وذلك كي يسلو عن مصابه بفقد زوجته، مع وزير المعارف لتحرير جريدة "الصدى" العربية لنشر رسالة الحكومة الفرنسية في الشرق والمغرب العربي. وقد ترك العمل في الجريدة لأنه " لم يكتب فيها ما يريد بل ما يراد، وبإيعاز وزارة المعارف الفرنسية" كما يعلمنا ابن اخته قسطاكي الحمصي. وفي باريس كان يترجم لسفراء الحكومات العربية الذين يقصدونها وفيها تعرّف على الوزير التونسي خير الدين باشا الذي جعله أمين سرّه ومترجم مراسلاته. وعندما انتدب خير الدين ليكون الصدر الأعظم في استنبول عام

١٨٧٩ طلب جبرائيل دلال ليكون سكرتيره الخاص وأصبح لسان الصدر الأعظم الذي كلّفه بإصدار صحيفة "السلام" ينشر بها آراءه السياسية وأفكاره عن طرق الإصلاح. وقد قال فيها الشاعر إبراهيم بن بطرس كرامة :

نشرت صحيفتنا السلام ونشرها	قد طاب يا أهل الوفاء لديكم
إن ضنّ بالخبر الصحيح مؤرّخ	يتلو حوادثه السلام عليكم

ثمّ ألغيت الصحيفة. وحين استقال خير الدين استأذنه شاعرنا ليعود إلى حلب ، لكنه تلقى رسالة عام ١٨٨٢ من رئيس المكتب الملكي في فينا ليكون أستاذ اللغة العربية في عاصمة النمسا. بقي في هذا المنصب سنتين راسل خلالها الجرائد العربية الكبرى مثل "الجوائب" في الآستانة و"الجنان" في بيروت و"الأهرام " في الإسكندرية و"مرآة الأحوال" في لندن.. كان كثير الإنتاج يكتب في السياسة والأدب وينظم الشعر ويوزع قصائد المدح حسب الطلب ، ومدح شاه إيران عند زيارته باريس. وكان يراسل عشير صباه فرنسيس فتح الله مراش وشقيقه عبد الله ورزق الله حسون ومريانا مراش. لقد بقي ١٧ عاماً في أوروبا وآسيا وأفريقية غائباً عن الوطن والأهل. وعاد إلى الوطن عام ١٨٨٤ وشعر هناك بالوحدة والألم ؛ لا أب ولا أم ولا زوجة سوى بعض الأنسباء الذين أحاطوه بالعناية والتقدير. وجاء الجميع ينهلون من علمه وأدبه وخبرته فأصبح بيته ، كما في عهد أبيه ، منتدى للأدباء والشعراء. لكن بعض المتزمتين الحاقدين لم ترق لهم المنزلة الرفيعة التي حظي بها أديبنا فأخذوا يبثون السموم عن أفكاره التقدمية ونزعاته التجديدية فهرب إلى بيروت حيث استُقبل بحفاوة تليق بمكانته وعلمه. وحنّ من جديد إلى استنبول وحلّ ضيفاً على صديقه منيف باشا وزير المعارف آنئذٍ ، وأراد صديقه أن يبعده عن الجو المشحون في العاصمة فأعاده إلى حلب حيث عيّنه بوظيفة متواضعة لا تليق بمكانته وأضاف اليها منصب أستاذ أول للغة الفرنسية في المكتب الإعدادي. وقام بواجبه في مجال التعليم خير قيام.

لكن مجموعة من الحاقدين والحساد ، وفي مقدمتهم مأمور محاسبة معارف ولاية حلب ، رأت أن تثير موضوع قصيدته "العرش والهيكل" التي سبق أن نشرها في باريس قبل حوالي ثلاثين عاماً وذلك لتحطيمه والقضاء عليه. بدأت الوشايات من جواسيس عبد

الحميد ومن رجال الكهنوت متهمينه بالغمز من قناة السلطان والهرطقة والتجديف، ووشى بذلك والي حلب عارف باشا وكاتم سرّه ناظم باشا، فصدرت إرادة سلطانية بعزله من منصبه وسجنه ومحاكمته. لم تجد المحكمة وسيلة للحكم عليه بعد مرور حوالي ثلاثين عاما على القصيدة، إلاّ انها لم تطلق سراحه في ظل استبداد السلطان عبد الحميد حيث كان الهمس أو التلويح بكلمة الحرية كافياً لأن يودي بصاحبها إلى التهلكة. لم يفلح أصدقاؤه في سعيهم لإصدار العفو عنه وهو يقاسي آلام السجن المريرة، وقد أثّر به ذلك وهو صاحب الشعور المرهف، رغم الحرية التي أعطيت له وإمكانية زيارته. وقد نُصح بالتماس عفو السلطان بقصيدة استعطاف نظمها على مضض ليتخلص مما هو فيه، وفيها الكثير من التكلف وختمها بازدراء الوشاة، لكنها لم تستدرّ عطف السلطان. ظلّ في مرارة سجنه سنتين ولفظ أنفاسه، وهناك من يقول أنه سُمّم، صباح الرابع والعشرين من شهر كانون الأول ١٨٩٢ وله من العمر ستة وخمسون عاماً. وقد نقل من السجن إلى منزله ثمّ إلى المقبرة ليدفن بموكب حافل بين الدموع والقلوب الكلمى الدامية، شاركت فيه حلب بكاملها وفي مقدمتهم صديقه المفكر عبد الرحمن الكواكبي.

قصيدة "العرش والهيكل":

يعلمنا بشير يوسف صاحب جريدة "القاهرة" التي كانت تصدر في مصر عام ١٩٠٣ أن الدلال سافر إلى باريس وهو شاب واطلع على كتابات فولتير فيلسوف الثورة الفرنسية وسواه وقام بترجمة قصيدة ثورية لفولتير شعراً وأسماها "العرش والهيكل" ويقال أن رزق الله حسون وعبد الله مراش ساعداه بترجمتها، وأنها طبعت بمطابع حجرية في باريس عام ١٨٦٤. انها قصيدة ثورية أراد منها ناظمها الشاب المتحرّر والمتشبّع بآراء الفلاسفة الأحرار أن يدعو الشعوب، مثل فولتير، للتخلّص من الاستبداد الديني والسياسي. وبعد حوالي ثلاثين عاماً من ظهور القصيدة أثار حاسدوه بحلب موضوع قصيدة "العرش والهيكل" التي كانت، مثل شعر المتنبي، سبباً في مقتله ووفاته في سجنه.

إن القصيدة التي ترجمها الدلال شعراً عن قصيدة لفولتير، هي قصيدة ثورية بكل معنى الكلمة، وقد أراد بها الشاعر والمترجم تحرير الشعوب من الاستبداد الديني والسياسي.

ويدل ذلك على مدى تشرّب شاعرنا الدلاّل لمبادئ الحرية وأفكار فلاسفتها، مما جعله بدوره شهيد الفكر والحرية. ويدور موضوع القصيدة حول ثلاثة أمور أساسية وهي: مقاومة سلطان الكهنوت ومقاومة استبداد السلطة والدعوة إلى حكم الجماهير.

تتألف القصيدة من ١٥٢ بيتاً نظمها على البحر الكامل وقد اختار لها شاعرنا، تشبهاً بلزوميات أبي العلاء المعري، قافية صعبة ألزم نفسه بها تنتهي بثلاثة حروف متشابهة. ويبدأ الشاعر القصيدة على طريقة شعراء قدامى العرب بمقدمة عبارة عن مواعظ وحكم (٣٣ بيتاً) يذكر فيها عسر الأيام ويسرها والشباب والمشيب وشروق الشمس وغروبها في لوحات حكمية جميلة. وكان مطلعها:

عسرت لك الأيام في تجريبها ومضت ... وسرت بك الأوهام إذ تجري بها
أويقات الهنا وتلاعبت ... أيدي سبا ببعيدها وقريبها
فإلام تعرض ناسيا ذكر البلى ... وعلى مَ تغريك الحياة بطيبها

ثمّ ينتقل الشاعر إلى وصف رجال الدين، من خلال عشرة أبيات، وأن همّهم كسب المال يرون صغير العيب في الناس وهم مغلّفون بالموبقات ونذكر بعض ذلك:

كل الأنام وإن تباين حالها ... فالمال جلّ القصد من مطلوبها
فلكسبه أحبار روما وزّعت ... للناس كفارات غفر ذنوبها
ولأجله القسّان في بيعاتها ... باعت ذخائرها وعودَ صليبها
عميت عن الخشب الذي بعيونها ... وقذى الأنام رأت ونذر عيوبها
فهي الذئاب وإن تردّت حيلة ... بلباس حملان وظاهر ثوبها
بسوادها تنساب فهي أساور ... تسعى لتنفث سمّها بلبوسها

ثم ينتقل لوصف تعاليم المسيحية وعقائدها (٩ أبيات) وتعاليم التوراة وأسفارها (٤٠ بيتاً) بشكل مسهب من موسى وسيناء وإعطاء الوصايا واجتياز البحر وإمطار المنّ والسلوى وتفجير الماء في سيناء...

ويعود الدلال إلى ذكر القساوسة وأساليبهم في الترهيب والترغيب (ضمن ٢٦ بيتاً) وأن فولتير قد فضحهم وبيّن اهتمامهم بجمع المال وانتشار الفساد لكن النور سينتصر. ومما يقوله:

وعـدت بجنـات النعـيم لطـائع — وتوعّـدت بالنـار في ترهيبهـا
حيث الشياطين الـتي تغـوي الـورى — تسـطو علـى الهلكـى ببعلزبوبهـا
لمـا رأت شمـس التمـدّن أشـرقت — وضـلالها يبغـي دوام قتوبهـا
بمحـاورات الشـهم فـولتير الـتي — انـدفعت ميـاه الحـقّ مـن أنبوبهـا
أنّـى اختفـاء النـور مهمـا حاولـت — رتـق الفتيـق وأيـن سـدُّ ثقوبهـا
والله عـالم سـرّنا لا يرتضـي — فيمـا افـترت ويُسـرّ في تخييبهـا
كل البلايـا والشـرور أتـت بذي — الدنيا وهـا التاريـخ من تحزيبهـا

وينتقل الشاعر أخيراً فيما تبقّى من أبيات القصيدة (٣٤ بيتاً) إلى الموضوع السياسي واستبداد الحكام وتخريب الغزاة للبلاد وظلم الرعية، علماً أنهم أفراد مثلنا وجيشهم للقتال من أبنائنا وبذخهم من أموالنا، ويدعو إلى عدم الخضوع والى الثورة، مما اعتبره الوشاة مساساً بالعزة السلطانية لعبد الحميد، وكانت سبب نهاية الشاعر في السجن. وفيما يلي بعض هذه الأبيات:

وكـذا الملـوك فليس ينكـر مـا جـرى — فينـا مـن اسـتبدادها ووثوبهـا
أو جـور مـن فـتح الممالـك عنـوة — ويبغـي علـى سـكانها وغريبهـا
فبنصـره خـذل العلـوم وأخربـت — تلـك الـبلاد جيوشُـه بحروبهـا
أودى بأسـباب المعيشـة بطشـها — وعلـى التجـارة سـدّ أصـلَ دروبهـا
نـزل الـبلاء علـى الفلاحـة والبـوا — ر فامحلـت بغراسـها وحبوبـها
ذبـح العبـاد على الوهـاد بظلمـه — وسـقى المهـاد دماءهـا عن صوبـها

ويتابع الشاعر متسائلاً:

فلـمَ الخضـوع لـذي البغـاة ومالهـا — عجبـاً تتيـه بتاجهـا وقضيبـها
أم كيـف نحمـل جورهـا ونُقـاد — رغمـا مرتضـين بغمرهـا كنجيبهـا

وبمَ نرى فضلت على كل الورى ... وسمت على نحريرها ولبيبها

باللحظ أم بالسمع أم بالذوق أم ... باللمس أم بالشمّ فضل حسيبها

هل إنها الاّ أناس مثلنا ... وبنا ومنّا العزم في تغليبها

فالجيش من أولادنا لقتالها ... والبذخ من أموالنا لمعيبها

لولا اختلاس الكل من اتعابنا ... لغدت تموت بجوعها وبلوبها

ولها أذلّ من العباد رقابها ... أرجاف واشيها وخوف رقيبها

وينهي الشاعر قصيدته بصرخة نداء إلى الثورة والمساواة:

يا غافلين تنبّهوا من رقدة ... طالت لسعد الوحش في تأديبها

فيها قد افترستكموا مذ كشّرت ... عن شرّ أنياب لهول نبيبها

هيّا انهضوا، وبطردها اجتهدوا فقد ... ساد الدمار وعمّ من تخريبها

أي لا أبالكم، اخلعوا الأنيار إذ ... جارت على أعناقكم بأثوابها

وليحكم الجمهور من عقلائه ... قوم تراعى خيرة كنسيبها

ولتستوِ كل الحقوق تعادلاً ... فيعود صوت قصيرها كأريبها

حتى ترى كل الورى فوق الثرى ... بالأمن يرعى شاتها مع ديبها

ويذكر عطا حسني عضو الجمعية العلمية والجغرافية في باريس في كتابه "خواطر في الإسلام": " هذه قصيدة نظمها العلامة الفيلسوف الشاعر فولتير أبو الثورة الفرنسية وقد ترجمها إلى العربية نظماً عام ١٨٦٤ في باريس المأسوف عليه شهيد الحرية جبرائيل دلاّل الحلبي. وبعد حوالي ثلاثين عاماً رجع إلى وطنه فوشى به القسيسون إلى الحكومة بأنه من أنصار الحريّة مستشهدين بهذه القصيدة فسجن ومات في سجنه عام ١٨٩٢ شهيد الحرية".

لم يكن الدلال يُعنى بجمع شعره فجمع بعضه ابن اخته شاعر حلب قسطاكي الحمصي وطبع ديوانه في مصر عام ١٩٠٣ وسماه "السحر الحلال في شعر الدلاّل". وطالما التقى في

مجالس والده أدباء من أولاد المراش والشاعر نصر الله الطرابلسي[1] الذي كان يعمل لدى قنصل فرنسا وسواهم. وكان يحب ابن اخته الشاعر قسطاكي الحمصي وله شعر جميل وموشّحات.

---

(1) الشاعر نصرالله الطرابلسي الحلبي (١٧٧٠أو ١٧٨٠-١٨٤٠) من كبار شعراء حلب انتقل والده إليها من طرابلس للتجارة. مدح جوزيف لويس روسو قنصل فرنسا بحلب (صاحب مخطط حلب الشهير عام ١٨١٨) ورثى شهداء العام ١٨١٨ ولعب دوراً هاماً في ثورة حلب ضد الوالي خورشيد عام ١٨١٩ حيث كان يحرّك مشاعر الثوار بقصائده الحماسية. أحرق خورشيد بيته ونوى قتله ثم اكتفى بسجنه وتغريمه ضريبة ، فقد كل ما يملك من أجل أدائها ، فرفده عبد الله دلال بمال وفى به ما عليه. فارق حلب بعد انتهاء الثورة إلى مصر واتصل بحبيب البحري رئيس كتاب محمد علي ومدحه ونال عنده حظوة ثم شكّ في إخلاصه فلزم الشاعر بيته ومات مهملاً في القاهرة حوالي العام ١٨٤٠. له قصائد عديدة لم تجمع في ديوان وكان ينظم بالفارسية والتركية كذلك.

وله من قصيدة يهنئ فيها قنصل فرنسا بحلب بعيد الفصح عام ١٨٠٨ مطلعها:

لك الله من ظبي غدا يقنص الأسدا　　　أجهلاً رميت الصبّ باللحظ أم عمدا

ونذكر بعض أبيات من قصيدة مدح بها عبد الله دلال والد الشاعر جبرائيل دلال الذي أسعفه وأنقذه من السجن ومطلعها:

يا للهـوى ما للعـذول ومالي　　　أنا قد رضيت بكافة الأحـوال

يلحـو ولا يدري أيقبل عاشـق　　　صُمّت مسـامعه عن العـذّال

ومنها:

إن أرخصتـــي فـإن لـــي　　　فضلاً على رغم الأعادي غالِ

ويقول بالمدح:

وإذا اقتضاك الدهر تقصد ماجداً　　　ذا همّة عليـك بالمفضـال

النـدب عبد الله فخـراً وإنـه　　　نسل الأماجد من بني الدلاّل

فهـو الذي يشـري الثناءَ بماله　　　ويزيـن الأقـوال بالأفعـال

وهـو الـذي لم يخلُ قـط زمانه　　　من غوث ملهوف وبذلِ نوالِ

وله قصائد ومساجلات مودة مع أدباء وشعراء حلب وأشعار حكم لا مجال لذكرها هنا. وحبذا لو يتصدى أحد الباحثين لجمع نتاج هذا الشاعر المبدع ذي الشعر الرصين والموزون والسلس، وإن شابه المبالغة مرض العصر آنئذ.

ومن شعر جبرائيل دلال هذا الموشح :

أذاع سـراً أحدثـه سـقمي ومـا جـرى قـط ذكـره بدمـي
واعيني أفصحت وقـد فضحـت مـا في فـؤادي من لـوعة الألـم

فيظهر وهو لا يقال ويُذكر دون ما سؤال

صـبري كصـدر مـن الجـوى حـرج فـإن أبـح مـا علـيّ مـن حـرج
ونـار هجـر الحبيـب إن لفحـت تُطفـى بدمـع يفيـض كاللجـج

إذا مرّ طيفه ومال وزوّر زورة الخيال

قوامـك الغـضّ زيـن بـالهيف وجسـمك الـبضّ خُـصّ بـالترف
وغـرّة الحسـن فيك ما برحـت تثنيـك تيهـاً بالعجـب والصـلف

تبخترْ وازهُ بالجمال فما ضرّ لطفك الدلال

ومن قصيدة إلى صديقه المراش في باريس وهو من شعر صباه :

فـؤادي قريب منكـم في بعـاده وعـن غيركـم في قربـه متبـاعدُ

دار دلال:

وتقع دار الدلال في حارة السيسي من حي "الجديدة" قرب ساحة الحطب وتستعمل حالياً مدرسة ابتدائية أرمنية. ويدل اتساع الدار على غنى ووجاهة العائلة التي سكنتها وتعود إلى القرن السابع عشر. ويُذكر من العائلة نصر الله الدلال أخو الشاعر جبرائيل المولود في حلب في ١٣ تموز ١٨٤١ والمتوفى في بيروت في ١٥ نيسان ١٨٨٢ وكان بيته في حلب ملتقى الشعراء والأدباء.

ووفاء لابن حلب الشهيد أُطلق اسم جبرائيل دلال على الشارع العريض الممتد من الشمال من "بيت البيتزا" ومحطّة المحروقات "شمس" باتجاه الجنوب إلى طلعة جبل النهر حيث

المدرسة المركزية ومدرسة الزنابق (دار الخوري وهي أقدم دار قائمة في العزيزية بنيت عام ١٨٦٩) مروراً بمدرسة القدس ومخفر العزيزية (بني عام ١٩٠٠) والمركز الثقافي العربي وحديقة المنشية.

الشاعر قسطاكي الحمصي وابنته السيدة علية وأحرار حلب:

وعلى ذكر الحرية والأحرار لا بأس من أن نذكر أمراً يتعلق بشهداء ٦ أيار عام ١٩١٦ وهو ذو علاقة وثيقة بشاعرنا جبرائيل دلال وابن أخته شاعر حلب العلامة قسطاكي حمصي وكبرى بناته السيدة علية الحمصي زوجة الوجيه المالي والصناعي الحلبي ألبير رزق الله حمصي الذي كان صاحب بنك حمصي في حلب والقاهرة ومن كبار مؤسسي شركة النسيج الآلي بحلب عام ١٩٣٥. كانت السيدة علية الحمصي بارعة الجمال وكانت ذات مكانة اجتماعية عالية. وتخبرنا اختها السيدة زوية (وتعني حياة باليونانية) الحمصي الغضبان، وقد كتبت ذلك بالفرنسية في العدد الخاص من "مجلة الكلمة" الذي صدر عام ١٩٦٥ عن المرحومة علية ولم تحدّد للأسف تاريخ الواقعة (اليوم والشهر) التي كانت عام ١٩١٦، ذكرت: " بينما كانت الأحكام التعسّفية على أشدّها وأعواد المشانق تُنصب في ساحات دمشق وبيروت وكانت حلب تخشى أن يصيبها سوء طالعهما، وكانت الابتهالات والصلوات ترتفع إلى الله من بين جدران الكنائس والجوامع تتلوها قلوب هلعة واجفة، عقدت في ذلك الحين في حلب جلسة هامة لأركان ديوان الحرب تضمّ القواد جمال باشا ومصطفى باشا الذي عرف فيما بعد باسم أتاتورك وغيرهما من رجال الجيش البارزين. وقد طلب جمال باشا من صهري (ألبير حمصي) إقامة مأدبة على شرف هؤلاء الأشخاص. وبينما كانت ربة المنزل تراقب استعدادات هذه الدعوة الهامة وجدت نفسها أمام بعض السيدات من معارفها أتينها جزعات يتوسّلن اليها أن تلتمس العفو عن أزواجهنّ المسجونين بتهمة الخيانة العظمى.

وفي المساء، وفرسان الجنود يحيطون بحي العزيزية، ومنزل ألبير حمصي يتلألأ بأنوار المصابيح، والضيوف يتجوّلون في الأبهاء الفسيحة والمضيفة تظهر ببشاشتها ومهابتها المعهودتين. وكان الموقف يحتاج إلى جرأة ومرونة للقيام بمفاتحة القائد جمال. وأخذت تدافع عن هؤلاء المساكين بكثير من الدراية والنعومة حتى أنقذتهم من حكم الإعدام".

وبفضل هذه الوساطة قدّر لمدينة حلب أن لا تشاهد أعواد المشانق. أفلا ترون معي صحّة المثل الحلبي: فلان أو فلانة بتنزّل من المشنقة. هذا ما فعلته السيدة علية حمصي أحلى جميلات عصرها، والتي قال فيها الشاعر ميخائيل الصقال هذه الأبيات التي يحتفظ بها تحت صورتها حفيدها السيد جورج أنطاكي في منزله وهي:



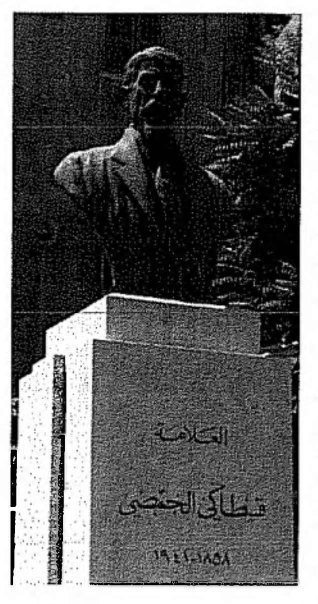
السيدة علية الحمصي

مـاذا أرى ! هـل هـذه الحـوراء أم	ملكٌ على عرش الجمال قد استوى
هـذي العليّـةُ بـابليٌّ عيونهـا	يروي لنا عن حسنها سوَر الهوى
فاقـرأ بطرفٍ خاشـعٍ في وجههـا	ما ضلّ من عَبَدَ الجمـالَ ولا غوى

وقد كانت، كما يصفها لنا المرحوم الأستاذ فتح الله الصقال، زوجة صالحة وأما عطوفة وزينة المجتمعات ومحسنة كريمة ومثال التقوى والفضيلة. لها من الباري الرحمة بقدر حسناتها.

ومن الجدير بالذكر أنه تم اكتشاف فسيفساء من القرن السادس للميلاد أثناء حفر الأساسات لإنشاء كنيسة الملاك ميخائيل عام ١٩٣٤ إلى الجنوب الغربي من دار حمصي. وقد سمحت السلطات الأثرية للسيد فتحي أنطاكي بالاحتفاظ بقطعة الفسيفساء الرائعة في داره الواقعة إلى الشمال من الكنيسة. وقد سميت الساحة المجاورة "ساحة الحرية" ونُصب في وسطها تمثال نصفي لشاعر حلب العلاّمة قسطاكي الحمصي.

الشاعر قسطاكي الحمصي (١٨٥٨- ١٩٤١):



لن أدخل في حياة الشاعر الخاصة أو في مواضيع الشعر التي طرقها، وهو الذي عرّفنا على شعر ابن أخيه جبرائيل الدلال، ولكن سأكتفي بذكر أمرين أحدهما محبته لترجمة مواضيع وقصائد عن اللغة الفرنسية نظماً وشعراً ويبدو أنها كانت الموضة في ذلك الزمن، ومثل هذه الترجمة هي التي أودت بحياة شاعرنا الدلال. لكن ما يحق الذكر بالفعل هو إيمانه بإمكانيات اللغة العربية اللامحدودة لترجمة أي نص من أية لغة. ويقول في هذا الخصوص: "إن لغتنا إذا رزقت قريحة مواتية وهمة غير وانية ونظراً بصيراً بمواقع اللفظ وبتفهّم كلام النصّ، مع حظ الحفظ وتذوّق آداب اللغة العربية ووقوفاً كافياً على روح اللغة الأعجمية التي يراد تعريب كلامها فإن لغتنا هذه لا تقصر عن الجري مع أحدث اللغات العصرية في كل ميدان، ولا تشكو في الحقيقة إلاّ فقرها إلى أسماء بعض الرياش المفروش من متاع البيت أو مثله من الملبوس والماعون وغيره من الآلات والأدوات المستحدثة، مع سواها من الاستنباطات ولا سيما الأجزاء من تلك الآلات المستحدثات".

لقد كان قسطاكي الحمصي مغرماً بتعريب القصائد الشعرية الفرنسية. وكم نرى، في أيامنا هذه، رأيه صائباً في نظرته إلى الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية على أن يكون المترجم متمكناً من اللغتين العربية والمترجم عنها، وأن يكون قادراً على استنباط - أي نحت - كلمات جديدة مناسبة ضمن اختصاص كل مترجم متمكن من لغته العربية كذلك. وهذا ما نحتاجه اليوم في عصر العولمة والحواسيب، إما أن تتعلم اللغة الأجنبية وإما أن تقوم بالترجمة لكل علم ومعرفة وتوجد وتنحت كلمات جديدة من أعماق فقه اللغة العربية للكلمات الجديدة التي لا ترجمة سابقة لها.

أمّا الأمر الثاني فهو محبة قسطاكي الحمصي للغة العربية ودفاعه عنها. ففي صيف عام ١٩٢٠ قام نفر من الشعوبيين في بيروت ولبنان يدعون الناس لمطالبة حكومتهم بجعل اللغة الفرنسية لغة رسمية في دوائرها ومحاكمها. وأبى كرام القوم من ذوي الأصل العربي ذلك مما

ألهم شاعرنا الحمصي ينظم قصيدة "البدوية" ذات الخمسين بيتاً التي طالما تغنّى بها كثير من طلاب المدارس بحلب ومطلعها :

بالله يـا نسمـــــات الرنــد والبـــــان   من نجــد جئتنّ أم من روض غسّـــــان

ونقتطف منها هذه الأبيات ، ويقصد فيها لغتنا العربية :

حروفهـــــا لِمعـــــانٍ لا تُطاولُهـــــا   في حســـنها بنــتُ يونـــان ورومـــان
ألفاظهـــــا دررٌ تركيبهـــــا ســــوَرٌ   آياتـــــــها غـــــررٌ في كـــــلّ قـــرآن
غزيــرة الفضــل لم يجحــد محاســنها   إلاّ جهـــــولٌ بإيجـــــاز وتبيـــــان
لهـــا الفصـــاحة أينمـــا وجـــدت   شـــهودها مثــل قـــسّ أو كسحبـــان
وفي البلاغـــة هل خــــودٌ تضارعهـــا   وأصلهـــا صاعـــد يسمــــو لقحطـــان

ونختم ببيت طريف من قصيدة من شعر الصبا يحاور فيها صبية بدأت تصدّه ومطلعها :

ما كـــان ذنبــي يا أعـــــزّ النـــاس   حتــى بَدّلتِ بالجفـــا إينـــاســـــــي

ويقول فيها :

إن كان قد أفتــى لك القسيـــس فـــي   صدّي فمطـــران الهوى شمّاســـــــي

(من هدية الكلمة عام ١٩٣٩ "مختارات من نظم الأديب الشاعر قسطاكي الحمصي")، ومن الجدير بالذكر تلك المقارنة التي ذكرها شاعرنا الحمصي بين مضمون رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والكوميديا (الألعوبة) الإلهية لشاعر إيطاليا الكبير دانتي أليغيري والاقتباس الذي أخذه دانتي من شاعرنا الفيلسوف ، مما أصبح اليوم ، وإثر عدة مؤتمرات ودراسات معمّقة ، حقيقة لا لبس فيها.

المراجع:

- "السحر الحلال في شعر الدلاّل" قسطاكي الحمصي مصر ١٩٠٣
- محاضرات عن الحركة الأدبية في سورية (١٨٠٠-١٩٥٠) سامي الكيالي القاهرة ١٩٥٦
- مختارات من نظم الأديب الشاعر قسطاكي الحمصي هدية الكلمة عام ١٩٣٩
- آل الدلال الحلبيون عيسى اسكندر المعلوف مجلّة الكلمة عام ١٩٤٢
- حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر جمال باروت وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٤
- عدد خاص من مجلة الكلمة عن المرحومة عليّة الحمصي نيسان ١٩٦٥
- من أرشيف العائلة (جورج أنطاكي).

٩) كنيسة السريان بحلب

تمهيد: حي الجديدة والصليبة وكنيسة السريان فيها:

يخبرنا مؤرخ حلب ابن الشحنة أن حي "الجديدة" سكنه النصارى بعد خراب حلب من قِبَل تيمورلنك عام ١٤٠٠م. ولما كان الحي المذكور خارج أسوار المدينة الشمالية دون حماية فقد أقيم على شكل حارات صغيرة ضيقة مغلقة من الطرف الآخر، لها بوابات مع حراس يسألون عن القادم بعد ساعة معينة مساءً. وكانت الدور التقليدية ذات الباحة الواسعة وحوض الماء والإيوان وقاعة الاستقبال تنتشر إلى جانبي الحارة بواجهات مرتفعة وذات أبواب صغيرة ونوافذ عالية محمية بقضبان الحديد كي لا تلفت نظر المارة من بدو وسواهم. وكان هناك تصالب شارعين سماه الأهالي "الصليبة"، وأصبح اسمها لاحقاً الصليبة الكبرى عندما أصبحت هناك عند حي التلل الصليبة الصغرى.

وفي هذه الصليبة الكبرى قامت كنائس المسيحيين، وكانت أربع كنائس منها هي كنائس الروم والأرمن (كنيستان) والموارنة تشترك بباحة واحدة يدخل منها المؤمنون إلى هذه الكنائس. أما كنيسة السريان فكانت تطّل لوحدها بمدخلها على الشارع المؤدي من بوابة الياسمين[1] إلى هذه الكنائس (سوق الصوف حالياً) وعلى مسافة حوالي ١٥٠م إلى الشرق منها.

تاريخ الكنيسة:

ذكر في حاشية من مخطوط يتضمن مزامير داؤود وُجد في مكتبة السريان بالقدس كتب سنة ١٤٧٥ وجود اثنين من قسوس السريان بحلب هما القس يوسف بن اسحق حريزاتي الحلبي والقس عيسى بن الغنيمة. كما ذكر في حاشية على مخطوط في الفاتيكان اسم البطريرك

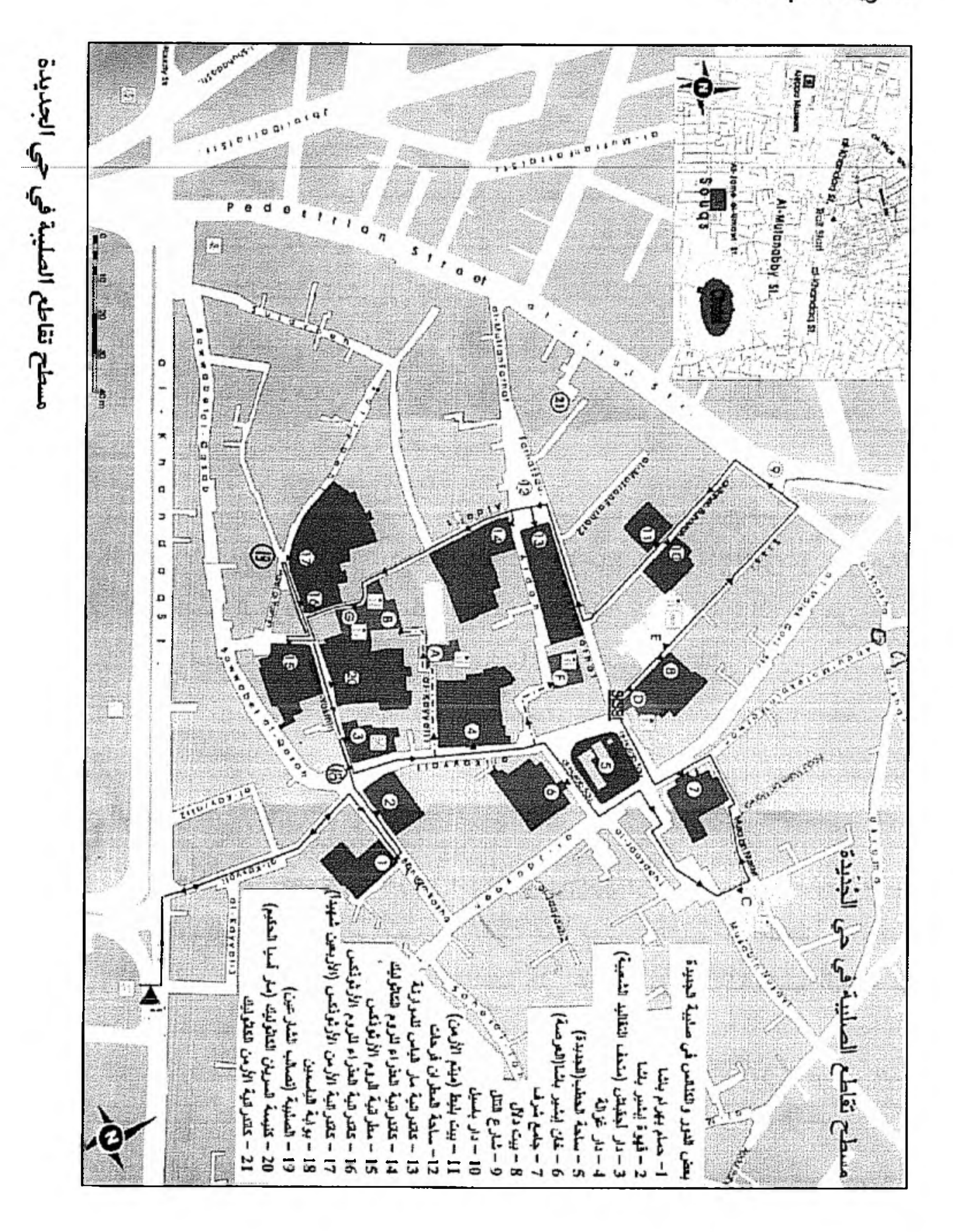
---

(١) كان الفقراء يقفون عند بوابة الياسمين للاستعطاء لأن جميع المسيحيين يمرون أيام الأحد وفي الأعياد من هذه البوابة للدخول إلى كنائسهم لحضور القداس والصلاة، لذلك قيل هذا المثل المعروف لدى مسيحيي حلب:

الذي يكسب عشرة ويصرف عشرين ألا يعرف الوقفة ببوابة الياسمين؟

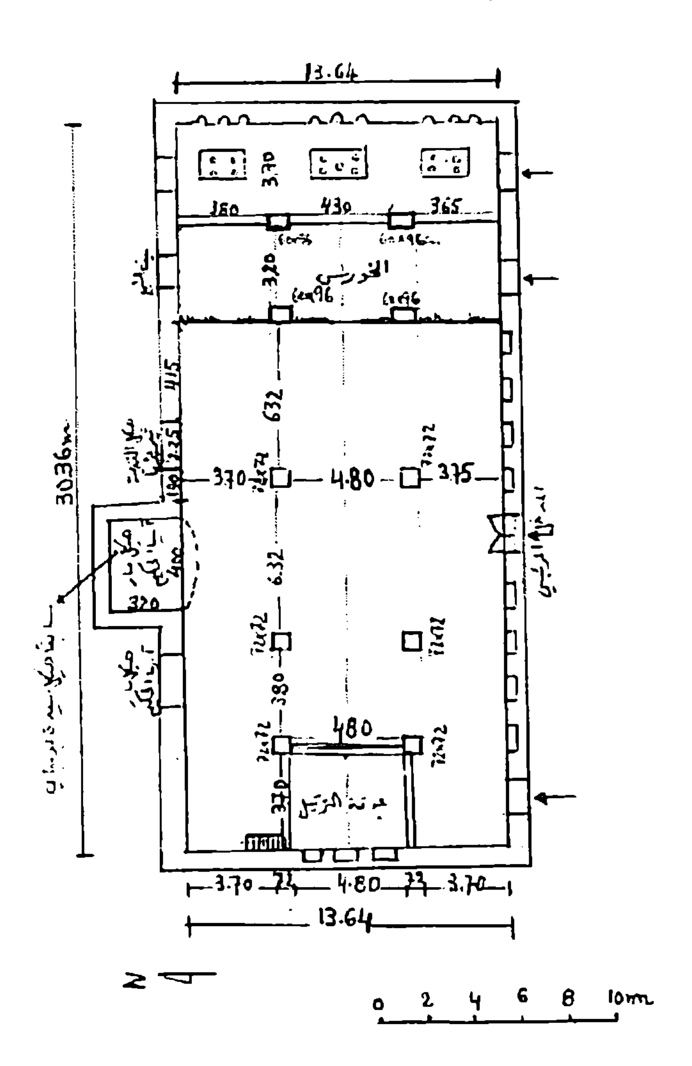
أي من يصرف أكثر مما يكسب سيصبح شحاذاً.

نـوح في مدينـة حلـب في حـارة الجديـدة عـام ١٥٠٥م، ممـا يـدل علـى وجـود طائفـة وكنيسـة للسريان بحلب آنئذ..



مسطح تقاطع الصليبة في حي الجديدة

كما أن أقدم ذكر لكنيسة السريان في حي الجديدة ورد في حاشية على ورقة ملحقة بكتاب صلوات يدعى "الفَنقيت" محفوظ في مطرانية حلب للسريان، تذكر: رسم روح القدس الأيكونومس فلان لكنيسة والدة الله مريم بحلب سنة ١٨٢١ يونانية (الموافقة ١٥١٠م) ويليها حاشية ثانية: كان عندنا أبونا مار غريغوريوس ومعه الأخ العزيز القس جرجس من دير الزرجل في سنة ١٨٣٣ يونانية (١٥٢٢م) وكان ذلك على يد القس عيسى ابن المرحوم المقدسي اسحق الملقب بالكرباني في جديدة حلب المحروسة".



مسطح كنيسة سيدة الانتقال للسريان الكاثوليك في الجديدة (الصليبة)

ويُستدل مما سبق أن كنيسة السيدة للسريان تم بناؤها قبل نهاية القرن الخامس عشر وقد رسم لها أيكونومس (أي قيّم اقتصادي لإدارة ممتلكاتها مما يدل على أهميتها) منذ سنة ١٥١٠ في أواخر عهد المماليك. ومن المعروف أن الرحالة الإيطالي بيترو ديلافاله الذي زار حلب عام ١٦٢٥ يذكر: "زرت محلة المسيحيين في حلب فإذا هي بقعة خارج سور المدينة قيل لها "الجديدة" لاستحداثها. وكنائسهم قريبة منها وهي أربع متجاورة في بقعة واحدة ولجميعها فناء واحد ومدخل واحد عمومي. فللأرمن كنيستان إحداهما على اسم الأربعين شهيداً والثانية على اسم العذراء، وللروم كنيسة على اسم مار نيقولا، وللموارنة واحدة على اسم النبي الياس. أما كنيسة السريان وتسميها العامة "ستنا السيدة" فمنفردة وقد ألفيتُها أجمل وأوسع من سواها وفيها يقيم بطريركهم بطرس هدايا".

كيف أصبحت الكنيسة للسريان الكاثوليك:

وُجد في مخطوطة رقم ١٣٧٨ من المكتبة المارونية بحلب العبارة التالية: "في ١٣ تشرين الثاني ١٧٥٢ ابتدأت عمارة كنيسة السريان بعمل سقفها والتلييس وفي ١٥ منه أرسل القاضي فختم الكنيسة وأبطل العمل حتى يعطوه الدراهم.."

كان للسريان بحلب كنيسة وحيدة ولما أصبح معظم أبناء الطائفة على المذهب الكاثوليكي[1] تنازعت الفئتان الكاثوليكية والأرثوذكسية على حيازة الكنيسة فترة من الزمن.

---

[1] حج بطريرك السريان اليعاقبة أغناطيوس داود إلى القدس أيام استيلاء الفرنجة (الصليبيين) عليها وجاهر بالاتفاق مع الكنيسة الرومانية وكتب صورة إيمانه ووجهها إلى البابا غريغوريوس التاسع. وقد جدد ذلك العهد أيام البابا أنوسنتيوس الرابع عام ١٢٤٧م.

أمت الإرساليات التبشيرية مدينة حلب التجارية الهامة وكان فيها تجار إيطاليون وبنادقة وفرنسيون، وكان أول من افتتح رسالة كاثوليكية فيها الكبوشيون سنة ١٦٢٦ ثم الكرمليون ١٦٦٧ ثم اليسوعيون، وعدد المسيحيين يومئذ فيها ٤٠٠٠٠ نسمة من طوائف الروم والأرمن والسريان والموارنة وبطاركة أكثرهم يسكنون حلب. واعتنق سنة ١٦٤٩ مطران حلب ديونوسيوس قسطنطين الكاثوليكية وهو على فراش الموت وخلفه المطران ديونوسيوس توما المؤيد للكثلكة ففتح كنيسته لوعظ الرهبان المرسلين وبعد موته سعى قنصل فرنسا فرنسوا بيكه لتنصيب أندراوس اخيجان أسقف على أبرشية حلب السريانية فتسلم زمامها في ٩ آب ١٦٥٦ وعند وفاة البطريرك شمعون أعلن أندراوس اخيجان بطريركاً على السريان في ١٩ نيسان ١٦٦٢ واعترف به السلطان محمد الرابع =

وحول عام ١٧٧٣ كانت الكنيسة مرهقة بغرامة باهظة للحكومة العثمانية قدرها ٢٠٠٠٠ غرش فدفعت الفئة الكاثوليكية تلك الغرامة واستحوذت على الكنيسة إلى يومنا هذا، وساعدها في ذلك باقي الطوائف الكاثوليكية ولا سيما الروم الكاثوليك.[١]

بدأ ساعد الكثلكة يشتد في طائفة السريان التي كانت تتبع المذهب اليعقوبي، وذلك نتيجة نشاط الإرساليات الكاثوليكية وتدخل ومساعدة الدول الأجنبية وخاصةً فرنسا. وكان الكاثوليك الجدد يلقون الاضطهاد من الولاة العثمانيين، وكان قنصل فرنسا بحلب والسفير في استنبول يساعدان الكاثوليك للتخلص من المآزق الحرجة[٢].

وتحسب حلب باكورة جميع الأبرشيات السريانية بعد عهد تجديد اتحادها الثابت مع السدة الرسولية في منتصف القرن السابع عشر، وتمتد ولاية مطارنة هذه الأبرشية إلى حلب وأضنة وطرسوس ومرسين وعينتاب ومرعش وكلّس والاسكندرونة وتوابعها. ومنذ القرن السادس عشر وجدت فيها آثاراً للكثلكة، حيث منح البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٦ لقب "كونت روماني" لرجل سرياني يدعى سفر بن منصور قريع وكان قد سبق إرسال قانون إيمانه إلى روما، وهو من أعيان النصارى بحلب ومحترم لدى الحكام ووكيل لأشغال بطريرك السريان وملتزم واردات جمرك المدينة وذو ثروة طائلة وتجارة واسعة. وأصحاب الفضل على أبرشية حلب الكاثوليكية عائلات المركيز دي جروة والمركيز دي صعب والياس بن سمعان قصاب ويوسف بن باسيل حجّة ويوسف بن يوحنا قرمز ورزق الله شتات وآل القدسي ومصر شاه واشتمّا وحوّارة وفتّال وضاهر ومدلّل وإسلامبولية وربّاط وشلحت ومارين وحمصي وشوكتلي وغيرهم. بيد أن أشهرهم هو نعمت الله بن فرج الله بن فتح الله بن فرج الله بن جرجس بن موسى صباغ الذي توفي بدون عقب في ٢٤ نيسان ١٨٦٥ فدفن في الكنيسة الكبرى وقد تبرع بجانب عظيم من متروكاته الواسعة على كنيسته وفقرائها[٣]. ويعتبر البطريرك أندراوس أخيجان (مطران حلب ١٦٥٦ وبطريرك ١٦٦٢، توفي عام ١٦٧٧) من

= بأمر همايوني وشاهاني في ١٣ آب ١٦٦٢ ومنحه البابا درع الثبيت في ٢٢ تموز ١٦٦٣. **تاريخ الكنيسة الشرقية للأبوين ميشيل يتيم وأغناطيوس ديك مطبعة الإحسان بحلب ط. ثانية ١٩٦٣ ص ١٦١.**

[١] جولة في كنائس حلب، المطران ناوفيطوس إدلبي (ص ٣٣).

[٢] عناية الرحمان في هداية السريان، المطران أفرام نقاشة (ص ٢٠٨-٢١٠-٢٤٤).

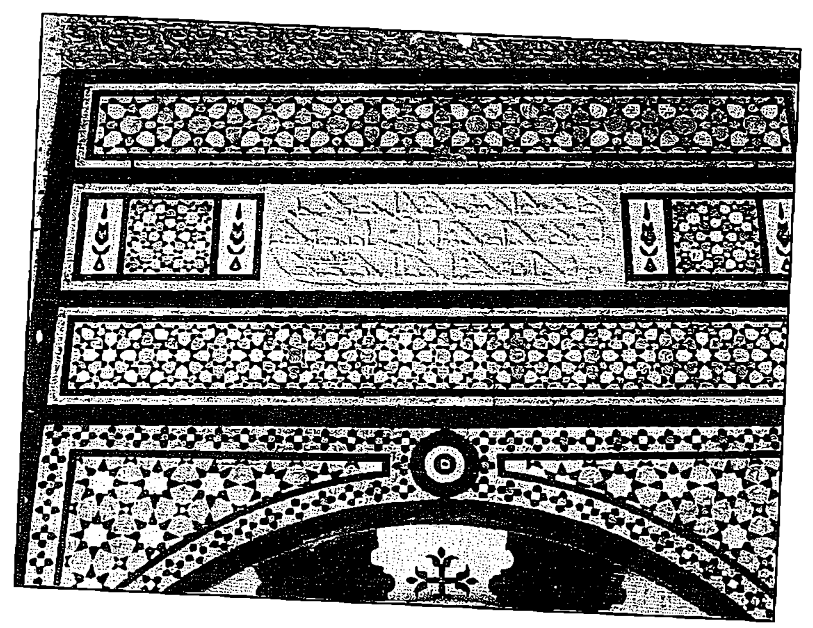
[٣] من كتاب السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية بقلم الفيكونت فيليب دي طرازي - بيروت ١٩١٠.

أوائل البطاركة السريان الكاثوليك، بينما كان يقيم في الكنيسة عند زيارة الرحالة بيترو ديلافاله عام ١٦٢٥ البطريرك بطرس هدايا وكان يعقوبياً وقد توفي عام ١٦٣٩.[1]

وصف الكنيسة:

آ - من الخارج:

تقع الكنيسة في سوق الصوف إلى يمين الداخل من بوابة الياسمين باتجاه منطقة الكنائس الأخرى. وتطل على الشارع ببابين يؤديان إلى باحة واسعة مساحتها ٢١٠م٢ تقدمت الباب الجنوبي الرئيسي في واجهة الكنيسة. ويعلو مدخل الكنيسة كتابة كرشونية بخط سرياني مؤلف من ثلاثة أسطر تنص الكتابة[2]: "(١) بأمر ملكنا المعظم السلطان عبد المجيد خان دام



الكتابة الكرشونية عند مدخل الكنيسة

---

(١) جولة في كنائس حلب القديمة - المطران إدلبي (ص ٣١)

(٢) يعلمنا المعلم نعوم بخاش في كتاب يومياته الجزء ٢ ص ٢٩٩ أنه كتب يوم الخميس ١٨٥٢/٨/١٢ حجر رخام للسريان بالعربية "تجدّدت" ثم كتبها بالكرشوني (كلمات عربية بأحرف سريانية) يوم السبت ٩ تشرين الأول ١٨٥٢.

(٢) ملكه إلى آخر الدوران جددت كنيسة السيدة هذه (٣) لطائفة السريان الكاثوليكيين بحلب سنة ١٨٥٢". وقد ازدان المدخل الحجري بجمال الزخرفة بتناوب الحجر الأسود والأصفر في إطاره والنقوش الجميلة أعلى القوس وقد أقيم رفراف عريض (طيوان) مزخرف فوقه للحماية من المطر وقد ركب فوق باب الكنيسة قنطرة النواعم يوم السبت ٢٦ حزيران ١٨٥٢[١]. وقد امتد درابزون بديع الزخرفة من الحديد إلى كل من جانبي الباب ولمسافة الدرجتين اللتين تتقدماه ورفعوا فوانيس فوق الدرابزونات[٢] أما المدخل الآخر المخصص للنساء في الواجهة الجنوبية إلى جانب باب الرجال فلم يُفتح إلاّ أيام المطران جرجس شلحت[٣] وخلص عماره السبت ٢٣ كانون الثاني ١٨٦٩. وهناك إلى كل من جانبي مدخل الكنيسة أربع نوافذ مستطيلة تعلو كل منها نافذة أخرى تماثلها في الشكل لكن بحجم أصغر تؤمن الإنارة والتهوية للكنيسة. وإلى شرق الباحة قامت مصطبة عريضة يدخل منها إلى غرفة المعمودية والسكرستيا (قسم الخدمة للكنيسة) وقد قام على سطحها جرس الكنيسة. أما إلى غرب الباحة فهناك ممر بطول ٦م يصلها ببناء المطرانية المجاور.

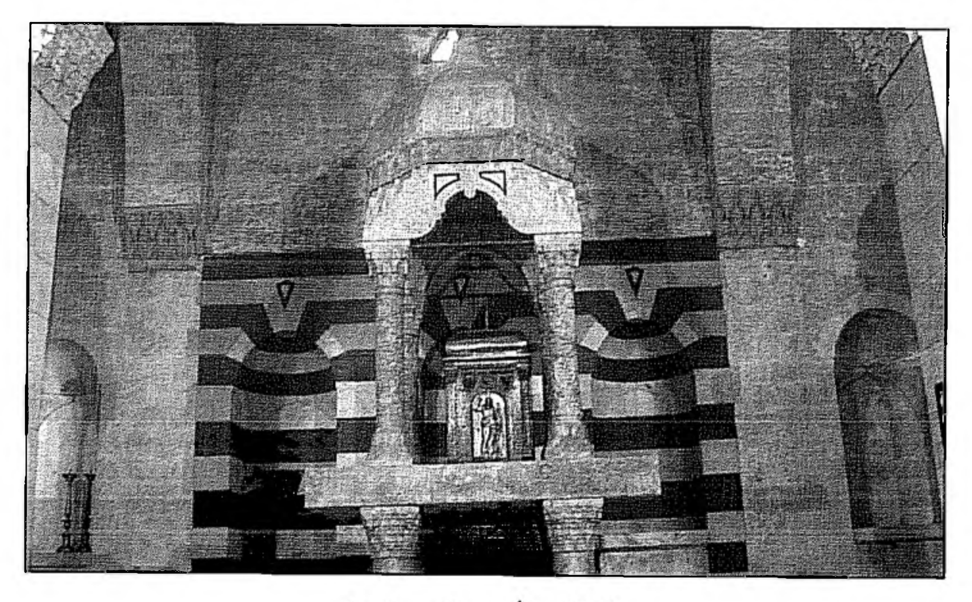
ب - داخل الكنيسة:

والكنيسة من الداخل مستطيلة الشكل طولها من الشرق إلى الغرب ٣٠.٣٦م وعرضها ١٣.٦٥م وارتفاعها حوالي ٩م وتقسم إلى ثلاثة أقسام القسم الأول وهو الأقرب إلى الشرق تقوم فيه الهياكل الثلاثة وقد وضع في الهيكل الوسطاني بيت القربان[٤] الذي جلبه المطران جرجس شلحت من روما وكان ذلك يوم الخميس ١٨٦٧/٩/٢٦، وكان حجر الهيكل الوسطاني وهو قطعة واحدة قد جلب لتركيبه يوم الثلاثاء ١٠ تموز ١٨٥٥[٥]. والقسم الثاني وهو الذي يليه وينخفض عنه بدرجتين ويسمى الخورس وهو مكان إقامة الإكليروس من كهنة وشمامسة، ويفصله درابزون معدني قليل الارتفاع عن القسم الثالث المخصص للمؤمنين والذي ينخفض بدوره درجة واحدة عن مستوى الخورس. ومثل جميع كنائس الرعية

---

(١) المصدر السابق جزء ٢/ ص ٢٨٧.
(٢) المصدر السابق الاثنين ١٨٦٦/٤/٢ جزء ٤ ص ١٢.
(٣) المصدر السابق جزء ٤ ص ١٦٠.
(٤) المصدر السابق جزء ٤ ص ٨٩.
(٥) المصدر السابق جزء ٢ ص ٤٢٧.

(البازليك) يقسم طول الكنيسة إلى ثلاثة أروقة: رواق أوسط بعرض ٤.٨٠ ورواقين جانبيين عرض كل منهما ٣.٧٥ و ٣.٧٠ وتفصل بين الأروقة خمس ركائز: الاثنتان الأقرب إلى الهيكل في الشرق بأبعاد ٦٠ × ٩٦ سم والركائز الثلاث الأخرى مربعة طول ضلعها ٧٢سم. وفي نهاية الكنيسة جهة الغرب قامت شرفة عالية بأبعاد ٣.٧٠ ×٤.٨٠م في نهاية الرواق الأوسط يصعد إليها المرتلون المشاركون في خدمة القداس. وأقيمت القبة في الرواق الأوسط لموقع الخورس. وقد أقيم صليب أعلى القوس المخطط بأحجاره الصفر والسود المتناوبة في الجهة الجنوبية للقبة وقد علا الصليب كتابة أسطرنجيلية على كامل عرض الرواق الأوسط وهي من (رؤيا يوحنا١٤ : ١) ترجمتها: "ثم ظهرت آية بيّنة في السماء، امرأة ملتحفة بالشمس، والقمر تحت قدميها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً". أما في أعلى قوس الجهة الشمالية للقبة من الداخل فقد كتب بالعربية فوق الصليب وعلى حجر ضمن إطار جميل مثمن الزوايا جملة من المزمور (٤٥ : ٦): "الله في وسطها فلا تتزعزع"[1].



الهيكل الأوسط في الكنيسة

---

[1] المصدر السابق الجزء ٢ ص ٣٤٩: الخميس ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٣ كتبت للسريان حجر "الله في وسطها فلن تتزعزع" لقنطرة الوسطانية.

وهناك كتابة سريانية على لوحة في أعلى جدار الكنيسة الشرقي خلف الهيكل الأوسط مؤلفة من أربعة أسطر ترجمتها: " (١) تم بناء هذه الكنيسة لوالدة الله العذراء (٢) مريم سيدة الانتقال وتقدست أيام أبينا (٣) الجليل مار ديونوسيوس جرجس شلحت رئيس (٤) أساقفة بيرويه (حلب) في سنة ١٨٦٣ مسيحية". ويبدو أنه بهذا التاريخ اكتمل[1] بناء الكنيسة التي بدئ بتجديدها سنة ١٨٥٢ كما تبين الكتابة الكرشونية أعلى مدخلها من الخارج.

أما القسم المخصص للمؤمنين من الكنيسة وهو بطول ٢٢م من أصل طول الكنيسة ٣٠.٣٥م فقد حُفرت أحرف الأبجدية بالسريانية على أحجار أرضيته يفصل بين الحروف حوالي المترين، وهي تدل على أماكن وجود قبور كهنة الأبرشية المدفونين في أرضية الكنيسة وقد بلغ عددهم ١٢ خورأسقفاً و١٦ قسيساً وثلاثة شمامسة ومؤمنين أتقياء. بينما وضع على جدران وركائز القسم الشرقي المخصص للهياكل الثلاثة والخورس من الكنيسة وهو بطول ٨.٢٠ م لوحات مرمرية تذكر تواريخ دفن أحبار الكنيسة وبعض بطاركتها مثل البطريرك بطرس جروه المدفون سنة ١٨٥١ والبطريرك جرجس شلحت المدفون عام ١٨٩١ في حجرة شمالية شرقية من الكنيسة تسمّى "بيت الشمع" والمطران حبيب نعساني المتوفى سنة ١٩٤٩ والمطران بطرس هندية المتوفى سنة ١٩٥٩. كما أن هناك مطرانين آخرين مدفونين في الأرضية ومكان وقوف المؤمنين وكأقرب ما يكون إلى ركيزتي الخورس هما المطران يوسف الحايك[2] (توفي ١٨٦٣) والمطران يوسف سمنة (توفي عام ١٨٧٠ ومدفون أمام صورة سيدة النجاة (صورة مار يوسف الآن) ولم يُترك لهما لوحة تذكارية.

أما الواجهة الشمالية الداخلية للكنيسة فتبدأ في الشرق بغرفة للخدمة يليها غرفة الشمع التي دفن فيها البطريرك جرجس شلحت. وقد رفع المطران جبرائيل تبوني عام ١٩٢٤ مصطبة بيت النساء في الكنيسة لتغدو بسوية واحدة مع باقي أرضية الكنيسة، وبنى في واجهة الكنيسة الشمالية هيكل سيدة بومباي وهو بأبعاد ٤×٣.٢٠م وارتفاع ٦.٧٥م وهيكلاً آخر أصغر حجماً

---

[1] المصدر السابق جزء ٣/ ص ٣٥٤ يذكر: الأحد ٨ تشرين الثاني ١٨٦٣ كرّز (كرّس بمعنى بارك أي مسح بالزيت) المطران جرجس شلحت كنيسة السيدة من بعد عمارها من الحريق.

[2] المصدر السابق الجمعة الساعة ٦ في ٢٧ شباط ١٨٦٣ توفي المطران يوسف الحايك مطران بيروت سابقاً وقبروه بالكنيسة قدام صورة العذراء بعضاضة، ما بين نافذتين. (جزء ٣/ ص ٣١٩).

للقديسة تيريزيا الطفل يسوع وضع فيه تمثالها وأدخل الكهرباء للكنيسة ودهن الكنيسة وتبرع بالدهان الكومندور ميشيل يغمور. وفي ١٩٢٤/٩/٣ بيعت كنيسة مار آسيا الحكيم في حارة العنكبوت شرقي الألجي لانتقال المسيحيين من الحارة، فنُقل منها هيكل مار آسيا الحكيم. أما تمثالا مار آسيا الحكيم والفتاة التي تخرج من فمها الحية والموضوعان ضمن هيكل غربي هيكل سيدة وردية بومباي فهما من صنع الفنان الإيطالي المقيم بمصر السيد ميكيلي مارينو، وقد تبرع بنفقاتهما السيد عارف بن فرج الله بيلوني عام ١٩٦١ وأشرفت على صنعهما السيدة ديزي قرينة المرحوم الدكتور ألفونس بحري في هليوبوليس بمساعي الخورأسقف فيليب بيلوني النائب الأسقفي العام بحلب. وعندما نُقل تمثال العذراء سيدة بومباي إلى الكاتدرائية الجديدة التي تم بناؤها عام ١٩٧٠ وُضعت مكانه أيقونة مار آسيا الحكيم.[١]

أما الجدار الغربي للكنيسة فقد قامت فيه كراسي الاعتراف الخشبية الخمسة والشرفة التي يشارك منها المرتلون في خدمة القداس، وقد تم إنارة الكنيسة عن طريق ثلاث نوافذ متساوية الارتفاع أعلى الشرفة، كما قامت في وسط سقف الرواق الأوسط فتحة سداسية الشكل لتأمين الإنارة كذلك وكُسيت بالزجاج من الخارج للحماية من المطر.

أما القبة المركزية أعلى الخورس فقد تم فيها الانتقال من الشكل المربع في الجدران إلى القبة المستديرة بالاستعانة بالمثلثات الكروية في الزوايا الأربع، وقد أقيم أسفل القبة ١٢ نافذة صغيرة لتأمين الإنارة. وقد أعطى تناوب اللون الأسود والأصفر في سوقات أحجار الأقواس الأمامية للهياكل الثلاثة وجدار الكنيسة الشرقي وراء الهيكل الأوسط وكذلك في إطارات الهياكل الأخرى، شكلاً جمالياً مقبولاً. كذلك كانت أعمدة وقباب الهياكل الثلاثة غنية بالزخرفة البديعة.

كما أن تقبيب السقف في الأروقة الثلاثة للكنيسة كان على الطراز المعروف بنهاية فترة المماليك وبداية الفترة العثمانية، حيث يتشكل السقف من قوسين وسطح أفقي يصل بين نهايتهما العلوية على طول الرواق.

---

[١] شكري للأب ليون عبد الصمد وللأب إميل أسود اللذين زوداني بهذه المعلومات من أرشيف الكنيسة وساعداني بقراءة النصوص السريانية.

ذكر أعمال البناء للكنيسة في يوميات نعوم بخاش:

والواقع أن المعلم نعوم بخاش وكان سريانياً ترك لنا في يومياته عن حلب التي حققها ونشرها بالكامل الأب يوسف قوشاقجي في ثلاثة أجزاء، وصدر الجزء الرابع والأخير مؤخراً بعد تأمين فهرسه، ترك لنا معلومات تفصيلية عن مواعيد بناء الأقسام الأساسية من كنيسته السريانية المخصصة للعذراء في الجديدة، ونعلم منه العديد من التفاصيل عن الحياة اليومية والطوائف، منها أن أهل حارة أبو عجور ضربوا (عملوا قتلة) المؤرخ الدكتور بيشوف ومن بينهم آل عرقتنجي وليان وأخيه وكان ذلك الأحد ٢٥ ك١ ١٨٧٠ ثم تصالحوا معه بعد أيام. وغيروا بوابة الياسمين يوم السبت ١١/٢/١٨٧١ وأهل الصايح (المحلة) يدفعون التكاليف. ومما يذكر عن الكنيسة:

- الأحد ٢٦/١٠/١٨٥١ قدّسوا السريان لقاعة قلاية الكبيرة ودخّلوا إيوان بيت النسوان إليها وبديوا يقدسوا. جزء٢ / ص٢٥٤.
- كتب يوم السبت ٢٧/٣/١٨٥٢ ورقة منشور من مطران جبرائيل حمصي إلى رومية لخوري جرجس شلحت لأجل الشحادة لبناء كنيسة السريان.
- الجمعة ١٨/٣/١٨٥٣ بدئ بعمار خشخاشة عند السريان تحت السكرستيا جزء ٢ /ص ٣١٧
- الخميس ٧/٤/١٨٥٣ توفي القس أنطون بخاش بن شكر الله من الذين دفنوا بنصف الكنيسة وكانت بلا سقف، والمرحوم كان ابن ابن عم والدي المرحوم الله يرحمه. جزء ٢ / ص ٣٢١.
- الأحد ١/١/١٨٥٤ صلينا بالكنيسة الجديدة. وكانت بلا أبواب وبلا تلييس وبلا هياكل وبلا تبليط ورميت بالصينية ١٥ غرش وعمل زياح بعد القداس الخوري باسيليوس صعب على نية الذين اشتركوا ببناء الكنيسة. جزء ٢ / ص ٣٥٥.
- الاثنين ٦/٢/١٨٥٤ ركبوا باب الكنيسة وبدأوا برفع حيط المعمودية والسكرستيا والبيت الذي على المصطبة وكملوا عقد شعاري بيت النسوان الجديد. جزء ٢/ ص ٣٦٠.
- الاثنين ٢٦/٢/١٨٥٤ الكنيسة تكف جزء ٢/ ص ٣٦٣.

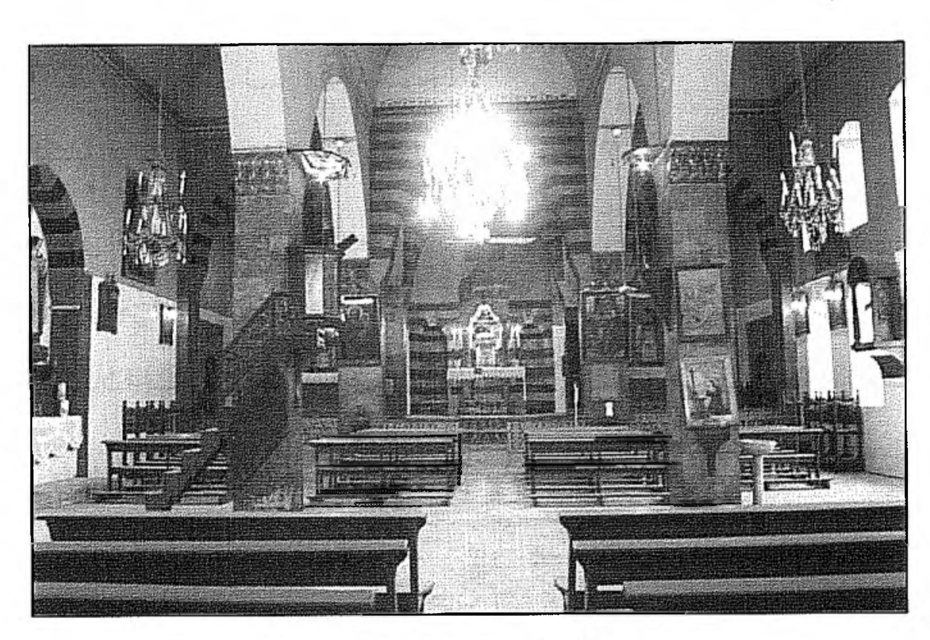
- الثلاثاء ١٨٥٤/٣/٦ خصص عربانه من شأن نقل الحجر من الجبل إلى كنيسة السريان جزء٢/ص٤١٢.
- الاثنين ١٨٥٤/٥/١٥ بدأوا بتزريق سطح كنيسة السريان جزء ٢ /ص ٣٧٤.
- السبت ١٨٥٤/٨/٥ خلصت المعمودية على المصطبة وزرقوها وجلسوا فيها الكهنة جزء ٢ / ص ٣٨٤.
- الأحد ١٨٥٧/٢/١٤ بدأوا بتلييس الرواق الأول بجانب الباب وحفر قبور القسوس وعمارهم /٥/ قبور جزء ٣ / ص ١١٠.
- السبت ١٨٥٧/٣/٦ ركبوا صليب الهيكل الوسطاني جزء ٣/ ص ٦٨.
- الأحد ١٨٥٧/٨/٩ أرسل خلفي نعمة الله صباغ أن أكتب أنه أتم عمارة الهيكل الوسطاني جزء ٣/ ص٧٠.
- الجمعة ١٨٥٨/٨/٦ وخلص تبليط كنيسة السريان كلها ما عدا الرخام في الوسط جزء ٣/ ص ١٢٨.
- الأحد ١٨٥٨/٨/٢٣ كتبت صورة سيدة النجاة لكنيسة السريان وقف بن يوسف نصره، جزء ٣/ ص ١٣٢.
- الثلاثاء ١٨٥٩/٢/٢٢ بديوا بالرخام بكنيسة السريان يبلطوا الثلاث (أروقة) تحت الخورس، جزء٣ / ص ١٥٠.
- السبت ١٨٦٠/٤/١٤ ركبوا درابزون حديد مضفور قدام الهيكل الوسطاني فقط باب بمصراعين من حديد جزء ٣/ ص ١٩١.
- الجمعة ١٨٦١/٢/٨ "صار عند خوري جرجس شلحت بالقلاية كوميديا (تمثيلية) يوسف الحسن وفرعون ويعقوب وأولاده وكان مقدار ١٠٠ ومطران التونجي وقس يوسف حاتم". جزء ٣/ ص١٩ ، لا شك أن هذه التمثيلية هي من أوائل التمثيليات التي أقيمت في حلب.

- الأحد ١٨٦٣/١١/٨ كرّز (كرس بمعنى بارك) المطران جرجس شلحت كنيسة السيدة من بعد عمارها من الحريق.

- الخميس ١٨٦٧/٩/٢٦ وضعوا بالهيكل الوسطاني بيت القربان الذي جلبه من رومية المطران جرجس شلحت. جزء٤/ ص ٨٩.

- السبت ١٨٦٩/١/٢٣ مطران جرجس شلحت فتح باب لكنيسة السريان للنسوان جنب باب الرجال وخلص عماره، جزء ٤/ ص ١٦٠.

ومن التواريخ المذكورة أعلاه يتبين أنه بعد حريق الكنيسة في "قومة البلد" عام ١٨٥٠ وإلى أن سُمح بإعادة ترميمها وتجديدها عام ١٨٥٢ وإلى أن اكتمل التجديد وتمّ تقديسها وتكريسها عام ١٨٦٣ كان المؤمنون يصلون أحياناً في قلاية (قاعة المطرانية) الكنيسة كما ذكر بخاش في ٢٦ تشرين الأول ١٨٥١. وقد أضيفت بعض أعمال متفرقة بعد ذلك مثل فتح باب النسوان عام ١٨٦٩.



كنيسة السريان من الداخل

كتابات الدفن في الكنيسة:

وبالإضافة إلى كتابة المدخل الكرشونية والكتابة العربية داخل القبة والسطر الأسطرنجيلي في القنطرة الخارجية للخورس والكتابة السريانية خلف الهيكل الأوسط في جدار الكنيسة الشرقي نجد الكتابات التالية الدالة على دفن بعض البطاركة والأساقفة في أرضية الكنيسة الشرقية حيث الهياكل الثلاثة وهي حسب القدم:

- الكتابة الأولى عربية مؤلفة من أربعة أسطر عُلقت على الوجه الجنوبي للركيزة اليسرى الأقرب للهيكل الأوسط. وهي: (١) انتقل إلى رحمته تعالى السيد (٢) الكلي الطوبى مار أغناطيوس (٣) بطرس جروة بطريرك السريان (٤) الكاثوليكيين الأنطاكي في سنة ١٨٥١ مسيحية.

- الكتابة الثانية سريانية مواجهة للكتابة الأولى عُلقت على الوجه الشمالي للركيزة اليمنى الأقرب للهيكل الأوسط وهي مؤلفة من أربعة أسطر ترجمتها: "(١) انتقل من الحياة الزمنية إلى الحياة الأبدية. (٢) مار أغناطيوس كلي الطوبى (٣) البطريرك مار بطرس يوم ٦ (٤) تشرين الأول لسنة ١٨٥١ مسيحية".

- الكتابة الثالثة هي في جدار غرفة بيت الشمع عبارة عن ٣ أسطر من الشعر:

قضى البطل البطريرك جرجس شلحت	إمام بنى السريان الكنيسة فخراً
فيا شعب إن جزت الضريح مسائلاً	أفاز إمامي بالحيوة السعيدة
يجبك لسان الحال مؤرخاً عنه	أجل جال في الدارين حائز غبطة

في ٨ كانون الأول ١٨٩١

وهناك كتابة رابعة سريانية بأربعة أسطر على الجدار الآخر لغرفة بيت الشمع ترجمتها:

(١) انتقل من الحياة الزمنية إلى الحياة الأبدية.

(٢) مار أغناطيوس جرجس شلحت.

(٣) بطريرك أنطاكية للسريان.

(٤) في ٨ كانون الأول سنة ١٨٩١.

- والكتابة الخامسة عربية وضعت في الوجه الغربي للركيزة اليسرى الأقرب للهيكل الأوسط وهي عبارة عن ستة أسطر ونصها: "(١) هنا يرقد (٢) المثلث الرحمات مار (٣) ديونيسيوس حبيب نعساني (٤) مطران حلب (٥) سيم أسقفاً في ١٥ أيار ١٩٣٢ (٦) وتوفي في ٢٩ نيسان ١٩٤٩".

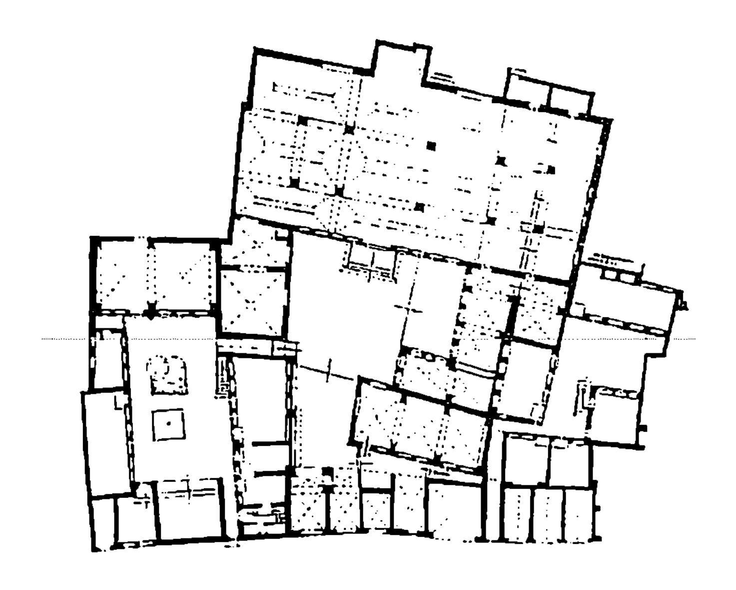
- والكتابة السادسة على الوجه الشرقي لنفس ركيزة الكتابة السابقة ومؤلفة من ستة أسطر نصها: "(١) هنا يرقد (٢) مار ديونوسيوس بطرس هندية (٣) مطران حلب (٤) ولد في ١ تشرين الأول ١٨٩٦ (٥) سيم أسقفاً في ٢ تشرين الأول ١٩٤٩ (٦) توفي في ٥ آذار ١٩٥٩".

- وهناك مطارنة يعاقبة دفنوا في الكنيسة لكن لم يبقَ لوحات تذكارية لهم مثل مار غريغوريوس يوسف الكرجي مطران أورشليم وحلب الذي دفن بحلب سنة ١٥٣٧ وسواه.

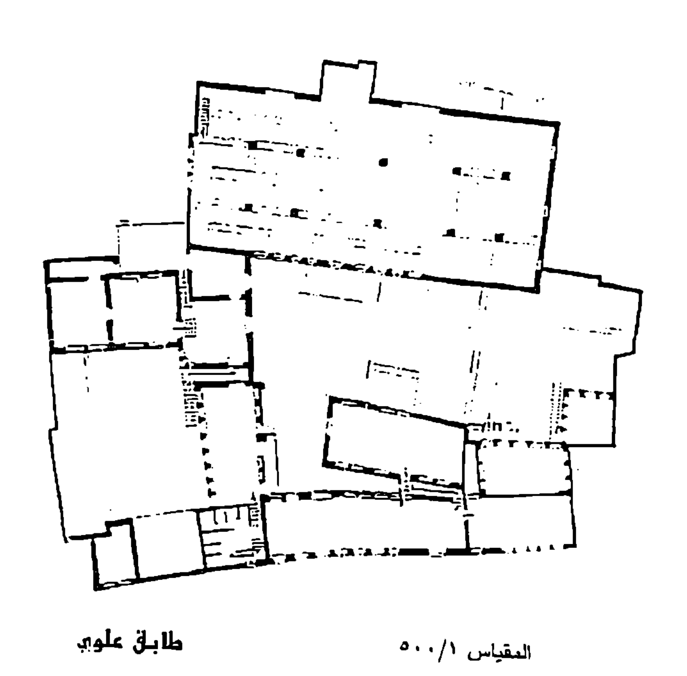
الصور في الكنيسة:

وهناك صور مختلفة للقديسين موزعة على جدران الكنيسة على ارتفاع ٤.٥م من الأرضية وكل منها بأبعاد ١.٥م×١م ثلاث صور خلف الهياكل الثلاثة وهي في الوسط العذراء والطفل وإلى يمينها صورة القديسين بطرس وبولس وإلى يسارها صورة القديس جاورجيوس.

أما على جدار الكنيسة الشمالي فهناك صورة انتقال العذراء إلى السماء إلى يمين الناظر إلى هيكل مار آسيا الحكيم وصورة تجلي الرب إلى يسار الهيكل المذكور. وعلى الجدار الغربي للكنيسة صورة مار الياس الحي وعربته النارية في الجهة الشمالية الغربية وصورة يسوع منزل عن الصليب وفي حضن أمه (وقد كتب عليها موقوفة من مصورها نديم رزق الله بخاش حلب في ١٨-٤-١٩٣٤) في الجهة الجنوبية الغربية.



طابق أرضي



طابق علوي

المقياس ١/٥٠٠

مسطح كنيسة السريان الكاثوليك وملحقاتها:

المدرسة والمطرانية والسكرستيا والمعمودية

أما على الواجهة الجنوبية للكنيسة وحيث يجلس المؤمنون فقد عُلقت في الجهة الغربية صورة الملاك يقتل الشيطان وهو على هيئة رجل، وفي الجهة الشرقية صورة مار الياس، وفوق المدخل الرئيسي إطار جميل نزعت منه صورته.

كما عُلقت على الوجه الغربي للركيزة الجنوبية القريبة من مدخل الكنيسة والمطلة من قسم الخورس على المؤمنين وعلى ارتفاع ٤.٥م صورة القديس يوسف وتحته صورة قلب يسوع بينما عُلقت على الوجه نفسه من الركيزة الشمالية المطلة على المؤمنين صورة العذراء والطفل وفي الأسفل صورة العذراء سيدة بومباي.

هذا وقد وُضع خمسة كراسي للاعتراف عند الجدار الغربي للكنيسة لتقبل اعترافات المؤمنين. كما وُضع تمثال صغير للسيد المسيح إلى يمين الداخل إلى الكنيسة من مدخلها الرئيسي، وهناك منبر خشبي جميل حلزوني الشكل تحلق حول الركيزة القريبة من هيكل مار آسيا وسط الكنيسة يصعد إليه الكاهن لإلقاء العظة على المؤمنين. وقرب المدخل كان يقام جرن الماء للتبريك. كما قامت اللوحات الأربع عشرة لمراحل درب الصليب المقدس، وكل لوحة بأبعاد ٨٠×٦٠سم، واللوحات السبع الأولى توزعت على ارتفاع غير عال على الجدار الشمالي للكنيسة، واللوحات السبع الأخرى تقابلها على الجدار الجنوبي للكنيسة.

ملحقات الكنيسة:

كما ذُكر سابقاً، وكما هو مبين في مسطح محضر عقار الكنيسة، فقد ألحق بمبنى الكنيسة الرئيسي بأبعادها ٣٤×١٦م وإلى الشرق من الباحة المؤدية إليها المصطبة وبناء المعمودية والسكرستيا، وهناك غرفتان في الطبقة الأرضية وثلاث غرف في الطبقة العلوية استُعملت كمدرسة ابتدائية للبنات. أما إلى الغرب من الباحة المؤدية إلى الكنيسة فقد قام بناء المطرانية الذي يتصل بالباحة بممر طوله ٦م ويؤدي إلى باحة واسعة مساحتها ١٣.٣٥×٧.٧٠م فيها حوض ماء، كذلك قامت حولها وعلى طبقتين غرف المطرانية، ست غرف في الطبقة الأرضية وخمس غرف في الطبقة العلوية، وقد استقلت بمدخل خاص بها من الشارع يرتفع بمقدار درجتين عن سوية الحارة ومدخل الكنيسة.

وقد تمت إضافة إيوان إلى مبنى المطرانية في الجهة الجنوبية من باحتها في عام ١٨٦٢ أيام المطران جرجس شلحت[1] كما تذكر الكتابة الموضوعة في صدر الإيوان وهي بيتان من الشعر، هذا نصهما:

سعى حبرنا المفضال جرجس شلحت ... بتجديد إيوان حسنه السني

فقال بديع النظم تاريخه على ... سما الفخر إيوان للسيادة قد بني[2]

وقد أصبحت هذه المطرانية بطريركية في فترة البطريرك جرجس شلحت التي امتدت من ١٨٧٤-١٨٩١ إذ جعل إقامة البطريركية بحلب شرطاً عند انتخابه بطريركاً للسريان على الكرسي الأنطاكي. لأن مناخ ماردين لا يوافق صحته، وقد سُمح له بالإقامة في حلب أو في دير الشرفة في لبنان وكان شعاره: "بك يا رب رجوت فلا أخزى".

الاستعمال الحالي:

وتستخدم المطرانية حالياً مركزاً لإقامة طلاب اكليريكيين لتأهيلهم لاستقبال سر الكهنوت والمركز بإدارة الأب إميل أسود، وتجري أعمال الترميم في الأبنية الملحقة بالكنيسة ليعاد استخدامها من أجل الخدمات الاجتماعية للطائفة. هذا ومن المعروف أن مكتبة المطرانية

---

(١) من المعروف أن البطريرك جرجس شلحت كان من أكبر البنائين في طائفة السريان بحلب وقد ملك العديد من الأوقاف لطائفته وبنى كنائس وأديرة ومدارس (مدرستين للبنين والبنات بحلب) واشترى الأراضي والأوقاف لتأمين استمرار الحياة لهذه المؤسسات، ومن أهم ما تركه في حلب: دار ودكان في قسطل الجورة (للمطرانية)- دار ومخزن في خان الجفتلك (للمطرانية)- دار وثلاث دكاكين في بوابة الياسمين (ثلث للمطرانية وثلثان للفقراء) قيسارية البطريرك التي أقامها على أرض جنينة القدسي (للبطريركية)- أراضي في العزيزية وغيرها جعل جزءاً منها جنينة دعيت باسم جنينة البطريرك وهي إلى الغرب من مخفر العزيزية بحلب. وابتنى خاناً دعي باسمه أيضاً. ويذكر كثيرون أن عيني البطريرك كانت تدمع وهو يذكر حريق ١٨٥٠، وما أتلفه من مخطوطات نادرة ثمينة، وكان شاعراً.

من كتاب البطريرك جرجس شلحت
بقلم القس جرجس شلحت ص ٧٦-٩٣.

(٢) يوميات نعوم بخاش تحقيق الأب قوشاقجي، جزء ٣/ ص ٣٥٢ تذكر: السبت ٢٤ تشرين الأول ١٨٦٣ كتبت حجر لليوان القلاية باسم المطران شلحت رخام تأليف (المراش) نصري بخاش.

كانت تشمل على مكتبة هامة كانت تضم حوالي ٣٤٦ مخطوطة عربية وسريانية قام بفهرستها الأب اسحق أرملة وتم نقلها إلى مكتبة الشرفة (في لبنان) التي تعتبر خامس أضخم مكتبة في المخطوطات العربية في الشرق.

ويزور العديد من السياح المارين بحي الجديدة كنيسة السريان لقدمها وأهميتها. ويقام احتفال في الكنيسة يوم ذكرى عيد القديس مار آسيا الحكيم (توفي +٣٧٧) في السادس عشر من شهر تشرين الأول من كل عام حيث تمتلئ الكنيسة بالمؤمنين الذين يجلبون معهم - وهذا تقليد قديم درجوا عليه - قناني ملأى بالماء لمباركتها وتقديسها يوم عيد القديس يشربونها فيما بعد حين مرضهم لتشفيهم بشفاعة مار آسيا الحكيم.

المراجع:

- جولة في كنائس حلب القديمة، بقلم المطران ناوفيطوس إدلبي، مطبعة الإحسان بحلب ١٩٨٨
- عناية الرحمن في هداية السريان، جمعه ديونيسيوس أفرام نقاشة، مطبعة صبرا بيروت ١٩١٠
- تاريخ الكنيسة الشرقية، للأبوين ميشيل وأغناطيوس ديك، طبعة ثانية منقحة، مطبعة الإحسان ١٩٦٣
- البطريرك جرجس شلحت، بقلم القس جرجس شلحت، مطبعة الإحسان حلب ١٩٥٦ طبعة ثانية
- أخبار حلب كما كتبها نعوم بخاش في دفاتر الجمعية، تحقيق وتعليق الأب يوسف قوشاقجي الجزء ١-٤
- السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية بقلم الفيكونت فيليب دي طرّازي - بيروت ١٩١٠

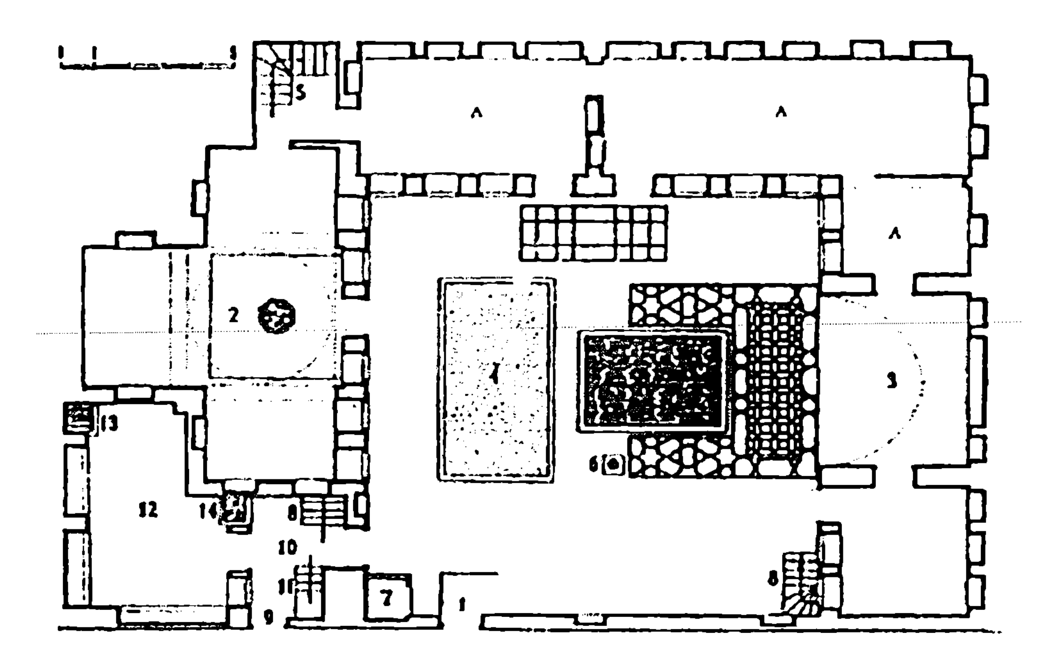
١٠) دار باسيل: نموذج للدور التقليدية في حي الجديدة[١]

تقع دار باسيل وسط حارة الزبّال (الراهب بحيرى) وتطلّ واجهتها وهي بطول حوالي ٢٥ م على الحارة ببابين يؤدّي أحدهما إلى باحة الدار والثاني إلى قسم الخدمات والمطبخ، وهناك عدّة نوافذ صغيرة وعالية ذات قضبان حديدية قامت في أعلى الجدار الأصمّ لا تلفت النظر إلى روعة ما بالداخل. أمّا حوش (باحة) الدار وهي بأبعاد ١٣×١٢م فقد قامت في وسطها بركة ماء وأشجار النارنج والكبّاد مقابل الإيوان المقام جهة الشرق ليستقبل الهواء الغربي العليل. وقامت غرف السكن وقاعة الاستقبال حول الباحة وقد ازدانت جدرانها بالنقوش الزخرفية الجميلة بتداخلاتها الشريطية البديعة من طراز القرن الثامن عشر زيّنت مداخل الغرف وشبابيكها المنخفضة والواسعة، أمّا صف النوافذ العلوي للغرف فقد كان على استقامة واحدة لتأمين إنارة الغرف من السماوي ولإقامة أعشاش اليمامات وهي تطلق هديلها الحنون كل صباح باعثة التفاؤل في النفوس.

أمّا الإيوان، وهو غرفة مفتوحة على الباحة وسقفها أعلى من أسقف الغرف الأخرى وذلك لاستقبال الهواء العليل، ففيه يجلس رب الدار مع ضيوفه في أمسيات الصيف الرائعة يتأمّلون خرير الماء وانسيابه من نوافير البركة وسط الباحة وتمايل أغصان الأشجار الغضّة وسماع موسيقى التخت الشرقي تشنّف آذان الحضور بأحلى التقاسيم أو المعزوفات الجماعية والمنفردة أحياناً، والتي قد يصاحبها الموشحات أو المواويل من صوت جميل مع أداء رقص السماح المعروف، حيث يُستعذب السهر ويستطاب. ويمتاز الإيوان بسقفه الخشبي الملوّن وكلمات كتاباته الحكمية، وبالبابين اللذين يؤديان إلى الغرفتين الجانبيتين، وهناك في أعلاه من الخارج مردّ خشبي بعرض حوالي المتر يحمي الجالسين في الإيوان من المطر وأشعة الشمس وقد زيّنته المتدلّيات البديعة والكلمات الحكمية الجميلة.

---

[١] نشر المقال في مجلة "هندسة" العدد ٢٦ عام ٢٠٠٢ ص ٢٢-٢٣

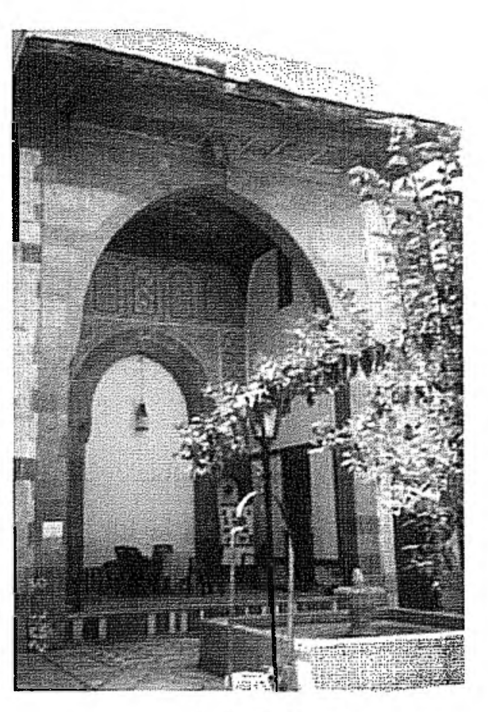


دار باسيل

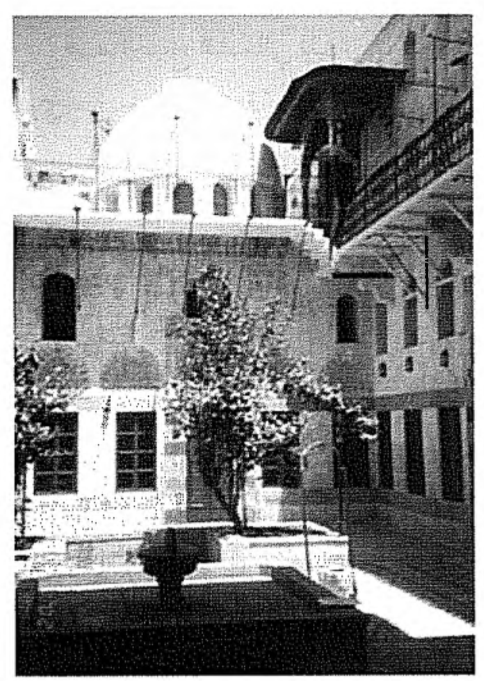
١ باب المدخل ٢ قاعة الاستقبال ٣ ايوان ٤ أرضية زهو ٥ درج للطابق العلوي ٦ غرفة في الطابق
٦ فتحة الصهريج ٧ دورة مياه ٨ درج للمغارة الملجأ ٩ مدخل الخدمة ١٠ باحة الخدمة
١١ درج للمطبخ ١٢ حامل ماء ١٤ بئر

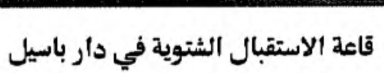
مسطح الدار

أمّا قاعة الاستقبال، وتستخدم لاستقبال الضيوف وبخاصة في فصل الشتاء وغالباً ما تقابل الإيوان كما هو الحال في دار باسيل، فتتألّف من غرفة واسعة يرى الداخل اليها من بابها ثلاثة أواوين إلى يمينه وإلى يساره وأمامه، وعلى مسافة بضعة أقدام من المدخل قامت البركة الحجرية وسط العتبة تقابلها في الأعلى القبة وقد ازدانت بالعديد من نوافذ الإنارة المزوّدة بأنواع الزجاج الملوّن. ولا زالت الأسقف الخشبية الثلاثة بألوانها الباهتة قائمة في أسقف القاعة، كما ملأت الكسوة الخشبية ما بين ألواح الجدران والخزانات المتعدّدة فيها، وقد استعملت احدى هذه الخزانات لتغيير هواء القاعة بعد أن تمّ ايصال فتحتها إلى السطح لجلب الهواء ، وهو ما يسمّى الملقف(البادنج) ويوضع فيه عادة قماش (كيس جنفاص) يرطّب بالماء ليحجز الغبار ويسمح بمرور الهواء النقي وكأنّه جهاز تهوية حديث air conditionner.

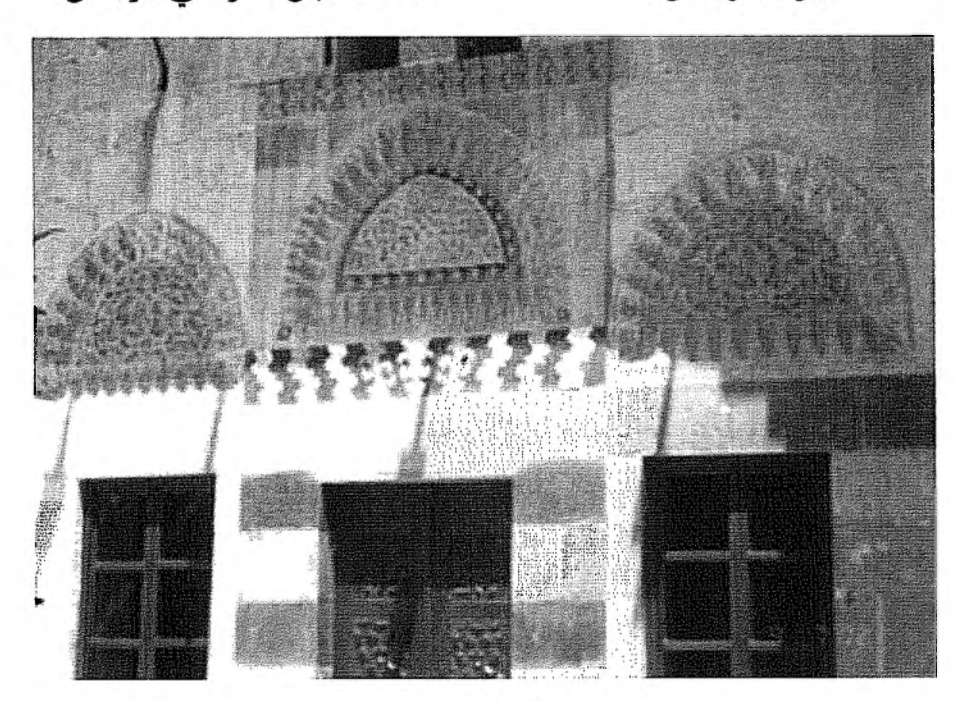


إيوان دار باسيل





قاعة الاستقبال الشتوية في دار باسيل



زخارف في باحة دار باسيل

ضمّ الجناح الشمالي للدار غرفتين كبيرتين للمعيشة والطعام، وقد رسم في القسم العلوي من جدران الغرفة الثلاثة مشهد بحر وأشجار ونساء مما هو معروف في طراز الفن العثماني في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كما مُلئت مستطيلات أعلى الخزائن بأبيات شعر جميلة حوى أحدها تاريخ السكن وهو ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م. ومن المعروف وجود شاعر في آل باسيل لم يصلنا للأسف شيء من أشعاره رغم وجود اسمه في فهرس المكتبة المارونية بحلب تحت رقم ٤٥٠ وهو الياس فرج باسيل، إلاّ ان كتابه "مجموعة أشعار" المطبوع في القدس عام ١٨٧٩ شبه مفقود.

أمّا غرف النوم فتقع في الطبقة الثانية وفي الجهة الشمالية والشمالية الشرقية، وهي عبارة عن ثلاث غرف متصلة ولها شرفة تطلّ بها على الباحة ويوصل إليها بدرج يقع إلى يسار مدخل الدار، وتمتاز غرف النوم بمدخل جميل ذي سقف خشبي لحماية الداخلين من المطر ازدان بالأشعار الجميلة. وتبدو قبة قاعة الاستقبال الشتوية مع شبابيك الإنارة بارزة أعلى سطح القاعة.

أمّا في الزاوية الجنوبية الشرقية من الباحة فنجد الدرج المؤدّي إلى القبو والمغارة والملجأ الممتدّة تحت الإيوان والغرفتين المجاورتين له والغرفة الشمالية الشرقية مع وجود فتحات تهوية وإنارة للقبو ظاهرة أسفل الإيوان والغرف.

شغلت الراهبات الباسيليات الحلبيات دار باسيل فترة استخدمت فيها ميتماً لأبناء وبنات طائفة الروم الكاثوليك، وقد تمّ أخيراً بهمّة المطران يوحنا جنبرت جزيل الاحترام ترميم العقار بطريقة فنية وتحت إشراف مديرية الآثار بحلب، وتمّ تكريسه باسم "معهد دار باسيل" وجهّزت غرفه بأجهزة الكمبيوتر (الحواسب) والإسقاط والأدوات المتطوّرة ليقوم بمهمّة معهد للغات ومركز للدراسات والبحوث التاريخية والآثارية والسياحية والمعلوماتية، وليكون منبراً لسماع المحاضرات التراثية المفيدة ونموذجاً للبيت الحلبي التقليدي في "الجديدة".

١١) محلة العزيزية وحديقة المنشية بحلب[1]

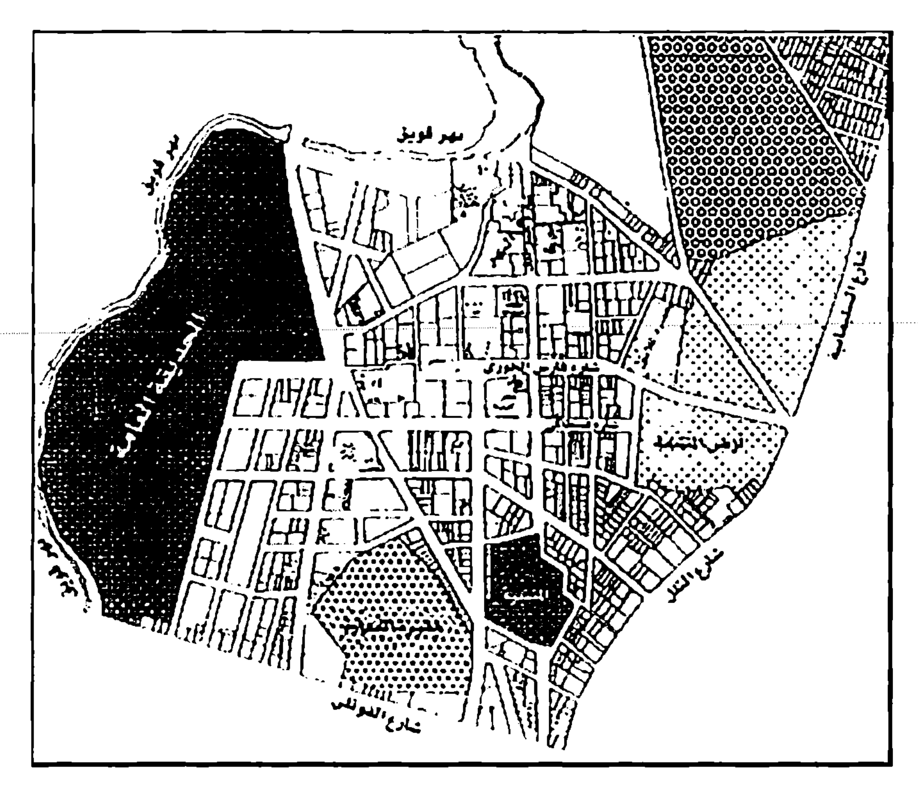
تمهيد: محلة العزيزية

تقع محلة العزيزية في القسم الشمالي الغربي من مدينة حلب القديمة خارج الأسوار. وقد سميت كذلك نسبة إلى السلطان العثماني عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) الذي أنشئت في أيامه، إثر إنشاء بلدية في حلب عام ١٨٦٦. وحدودها بحسب الشيخ كامل الغزي: "الجادة العامة (شارع القوتلي حالياً) في الجنوب، ومحلة الصليبة الصغرى ومقابر المسيحيين في الشرق، وبستان القبّار وبستان الريحاوي شمالاً، وبستان الحجازي وبستان كور مصري وبستان العويجة (على مسار نهر قويق) غرباً. وكان في المحلة جبل مطل على النهر تتفسح فيه النساء في الربيع هو جبل النهر(حيث شارع الشاعر جبرائيل دلال الممتد من محطة محروقات " شمس" شمالاً وحتى مخفر العزيزية والمنشية جنوباً)، وكان لا يجسر أحد في بداية القرن العشرين على المرور في تلك المنطقة بعد غروب الشمس خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق."

وكان الجبل وقفاً لجامع ومدرسة العثمانية، وعندما احتاجت الحكومة إلى أموال لإنشاء مدرسة الصنائع، كما يعلمنا الغزي الذي عيّن مديراً لها، قامت ببيع أراضي الجبل بأسعار زهيدة فاشتراها بعض التجار والعائلات المسيحية. وسُكن الجبل بعد أن بدأت بعض العائلات تسكن إلى الغرب من محلة "الجديدة" في محلة العزيزية، وامتد البناء حتى "أرض المشنقة" (غرب شارع التلل حالياً) التي كانت أراضيها وقفاً للمدرسة الحلوية وبعضها من أوقاف الجامع الكبير. وهكذا سُكن الجبل واتصل البناء بين جهات المحلة ومال الناس إلى البناء في بعض أراضي البساتين المجاورة.

---

[1] نشرت في مجلة المهندس العربي العدد ١٤٤ عام ٢٠٠٥ ص ١٨- ٢٠.



مخطط العزيزية والمنشية

طراز البناء:

تميّز البناء في محلة العزيزية - وينسحب ذلك نسبياً على محلة الجميلية - بالمباني التي جمعت بين طراز الدور التقليدية التي تضم باحة سماوية وإيواناً وقاعة استقبال وطراز الدور الحديثة المبنية بدون باحة وعلى كامل المساحة مع الشرفات في الطبقة العليا والمطلة على الشوارع العريضة في التخطيط الشطرنجي الذي اعتمدته البلدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ونرى نماذج لهذه المباني في بيت حمصي ومدرسة القديسة كاترينا (القدس حالياً) والمستشفى الإيطالي ومقر مطرانية اللاتين وسواها مما بُني في نهاية القرن التاسع عشر. وقد ساعد على إنشاء عدة طبقات وبروز أكبر للشرفات استعمال الجيزان المعدنية (البروفيلات على شكل حرف I) التي بدأت تصل مع الخط الجديدي من معامل الصلب في أوروبا اعتباراً من عام ١٩٠٦.

لقد استوحى سكان محلة العزيزية، كما يذكر الباحث جان كلود دافيد، ومعظمهم من تجار "المدينة"، الطراز الذي شاهدوه في بيوت القناصل الأجانب الذين سكنوا فترة طويلة في الطبقة العلوية من الخانات فاستعملوه في سكنهم، أي بوجود درج طويل يوصل للطبقة العليا ثم ممر عريض ينتهي غالباً إلى قاعة استقبال واسعة وقد قامت غرف السكن ومختلف الاستعمالات على طرفي الممر العريض الذي غالباً ما كان ينتهي بسقف جميل وأحياناً على شكل أسطواني تُرسم فيه المناظر الطبيعية من خضرة وماء وسواها.

ويذكر الغزي عن محلة العزيزية في أيامه (عام ١٩٢٦) أن عدد بيوتها ٢٠٥ وعدد سكانها ١٠٩٥ نسمة منهم ٤٣ مسلمون و٩٢٥ كاثوليك (أرمن وروم وسريان وموارنة ولاتين وكلدان) و١١٥ أرثوذكس و١٥ بروتستانت.

أما أهم آثارها: **كنيسة الكلدان** وكانت على اسم القديسين بطرس وبولس وقد بنيت عام ١٨٨٦ أيام الخوري بطرس رسام (وقد هُدمت الكنيسة وبُنيت كنيسة على اسم القديس يوسف عوضاً عنها إلى الشمال من جامع التوحيد في بداية شارع الفيلات) **وكنيسة صغيرة** لطائفة اللاتين في المقبرة (وقد بُني مكانها كاتدرائية عظيمة ودير عام ١٩٣٧) **ومدرستان:** مدرسة القديسة جان دارك (مدرسة المحبة حالياً) بنيت عام ١٩٠٧ وهي بإدارة راهبات مار يوسف الظهور، وانتقلت إليها المدرسة التي كانت شمال جامع العادلية والمؤسسة منذ عام ١٨٥٥) ومدرسة قلب يسوع الأقدس. ومن آثار المحلة **مستشفى الطبيب ألطونيان** وكانت أرضه وقفاً للجامع الأموي. **والمنتزه العام (المنشية)** وفيه حوض صناعي على مثال الدردنيل والبوسفور أنشئ عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠ بسعي جرجي بن سمعان خياط وزوجته كليليا الخوري وقد أقيم بجانبه مخفر جميل على نفقة أهل المحلة، وكان زعيم إنشاء المنتزه والمخفرعلي محسن باشا.

ولا بد من كلمة عن **التلل والصليبة الصغرى**. شارع التلل الحالي كان مكان رمي أكوام الأتربة التي نتجت عن ركام الدور التي هُدمت في زلزال عام ١٨٢٢ المدمّر (دُمر ثلثا دور حلب مع ٢٠٠٠٠ قتيل) والتي كانت توضع خارج أسوار المدينة والى الغرب من القسم المسكون من "الجديدة"، واستعملت تلال مناشر الزبل هذه وهي وقف للمدرسة الحلوية وكانت تابعة للصليبة. ثم سمتها الحكومة العثمانية الصليبة الصغرى (كوجوك صليبة). وقد

اتصلت مع امتداد السكن فيها بمحلة العزيزية، وحدودها: جنوباً جادة الناعورة المؤدية إلى جسر الناعورة جنوب بستان الشهبندر، وغرباً زقاق الصفي (الصفية أو شارع يوسف العظمة) المار شرقي بستان الشهبندر والفاصل بينه وبين بستان كل آب، وشمالاً محلة العزيزية وجادة الجسر الجديد الآخذة إلى محطة الشام، وشرقاً الجادة الفاصلة بينها وبين الصليبة الآخذة إلى برج ساعة باب الفرج (شارع التلل حالياً). أي أن الصليبة الصغرى تشمل أراضي بستان كل آب والتلل وبعض الأراضي المجاورة لهما.

منشية العزيزية:

ولنعد إلى موضوع المتنزه العام (المنشية) المنشور في صحيفة "تشرين" بتاريخ الاثنين ٢٠٠٥/١/١٧ من قبل السيد عمرو الملاح بعنوان: "منشية العبارة في حلب أم العزيزية" فأقول باختصار: *هناك منشية واحدة هي المنشية القائمة حالياً في العزيزية حيث المقصف العمالي إلى جانب الصيدلية العمالية* وفي جنوبها وشرقها موقف باصات النقل العام. وهي نفسها المنشية التي سعى بإنشائها جرجي خياط عام ١٨٩٩ وكان فيها بركة على نسق البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة. والتي أزيلت معالمها وملئت بالتراب واندثر أثرها كما يذكر الأب فردنان توتل. ويُذكر أن من بين أسباب نقمة السلطان عبد الحميد على والي حلب هدمه القسطل الذي أنشأه السلطان سليمان القانوني ليبني برج ساعة باب الفرج "بدعة الإفرنج" مكانه عام ١٨٩٩ وقد عُزل عن الولاية عام ١٩٠٠ (يبدو أن حساد الوالي رائف باشا كانوا كثيرين).

أما العبّارة فهي مقبرة ظاهر البلد قرب زقاق الصفية، حيث سينما حلب وجامع العبّارة حالياً وهي في محلة العزيزية، وكانت تمتد من المقابر عند التلل حتى زقاق الصفية (شارع يوسف العظمة حالياً) وإلى الشمال منها وقرب مستشفى ألطونيان (مدرسة الحكمة التي هدمت) كانت مقابر المسيحيين، ومن بينها المقبرة التي دُفن فيها العالم جورج سميث[١]

---

[١] جورج سميث (١٨٤٠ - ١٨٧٦) عالم إنكليزي كبير قرأ لأول مرة عام ١٨٧٣ قصة طوفان نوح كما وردت في أحد ألواح ملحمة جلكامش والتي اكتشفت في مكتبة آشوربانيبال في نينوى، وتعود الملحمة في أصولها إلى الألف الثالث قبل الميلاد وفيها تفصيل عن نوح وسفينته أوسع مما هو مذكور في كتاب العهد القديم.

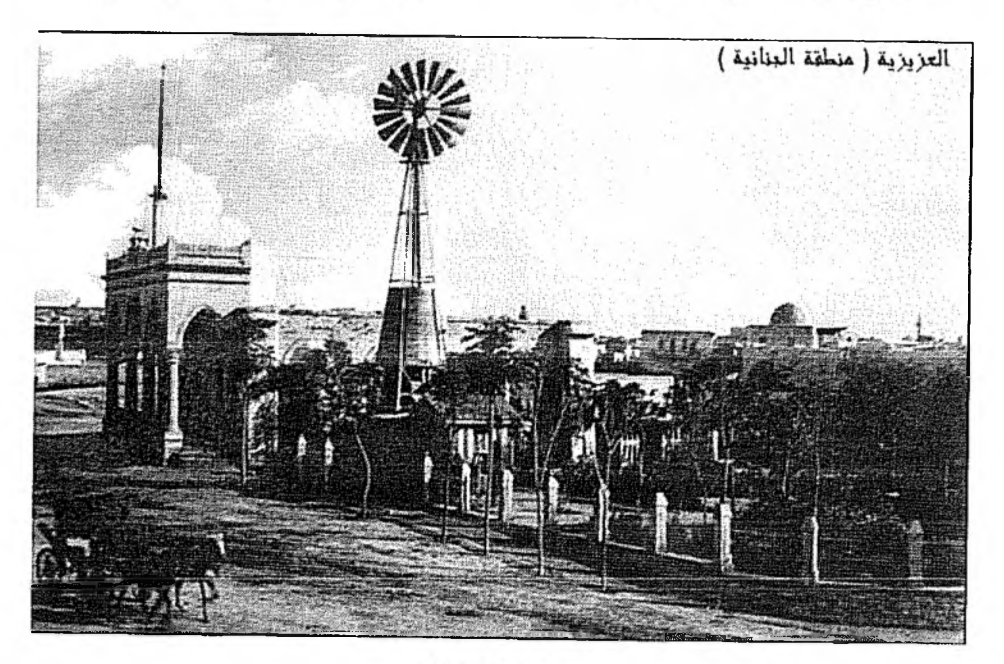


حديقة المنشية

عام ١٨٧٦ ، ثم نقلت رفاته إلى جبل السيدة (الشيخ مقصود) عام ١٩٣٨ بعد أن أُبطل الدفن في هذه المقابر. وبالفعل تم تنظيم مقبرة العبّارة عام ١٩٢٤ وتحويلها إلى حديقة عامة كان منها حديقة المنشية أيام مرعي باشا الملاح وأطلق عليها اسمه، وكانت بأبعاد ١٠٠ ×١٠٠ ذراع، كما يذكر الغزي بإيجاز والسيد عامر مبيض، ص٧٥٩-٧٦١ من كتاب "مئة أوائل من حلب". لكن منشية العبّارة عام ١٩٢٤ هي نفسها منشية العزيزية عام ١٨٩٩ التي كان وراء إنشائها جرجي خياط والواقعة جنوب مخفر العزيزية الذي لا زال قائماً حتى الآن، وإلى الغرب منه حديقة صغيرة كانت تدعى جنينة **البطريرك**، نسبة إلى البطريرك جرجس شلحت (المتوفى عام ١٨٩١) الذي اقتنى العديد من الأوقاف لطائفة السريان الكاثوليك، عندما كان مطراناً بحلب ثم بطريركاً لأنطاكيا. ومن أوقاف الطائفة العقاران إلى الغرب من حديقة "ألف وردة ووردة" المجاورة إلى مخفر العزيزية من الطرف الآخر من الشارع المؤدي إلى المنشية، وأحدها مؤرخ من عام ١٨٧٣ كان يسكن فيه المرحوم الأستاذ جبرائيل غزال عميد جمعية العاديات لفترة طويلة. ويبدو أنه بزوال عهد السلطان عبد الحميد تم مع بداية الانتداب الفرنسي إحياء المنشية التي

رُدمت سابقاً وعادت إليها حيويتها وازدهارها. وكان إلى الجنوب من المنشية مخفر لشرطة البلدية مع باحة تمّ هدمه عند افتتاح الساحة للباصات (أمام موقف الباص المؤدي إلى الجامعة). ويقال أن المناضل إبراهيم هنانو وأركان الكتلة الوطنية والسياسيين القدامى في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي كانوا من روّادها.

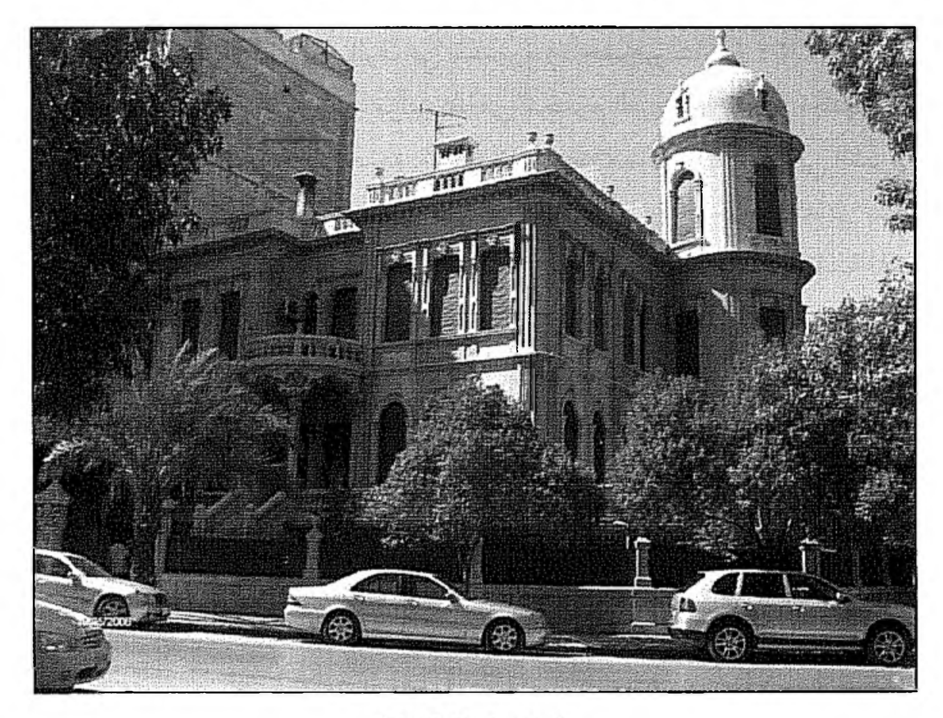
كنت اتمنى أن استعين بمخطط حلب الذي نظمه المهندس الألماني يونغ عام ١٨٩٩، والذي يبيّن ما كان مبنياً في محلة العزيزية والجميلية بعد إنشاء بلدية حلب عام ١٨٦٨، والتي كان مهندسها الفرنسي شارل شارتييه (وكانت زوجته من عائلة جدّ الحلبية العريقة) أيام الوالي رائف باشا وابنه راغب بك المهندس المعمار الذي تخرج من كلية الفنون الجميلة في باريس، وتمّ في أيامه تدشين مخفر العزيزية وبرج الساعة عام ١٩٠٠ بمناسبة الاحتفال بجلوس السلطان عبد الحميد في سدة السلطنة. لكن المخطط المطلوب غير متوفر حالياً في مجلس المدينة، وقد وعد سعادة قنصل تركيا[1] بحلب مشكوراً بتأمين نسخة منه، من أرشيف مدينة حلب في استنبول.



مخفر العزيزية

[1] وقد وفى سعادة القنصل بوعده وأمّن نسخة من المخطط المطلوب عام ٢٠١٠ وله الشكر.

كما حبذا لو يقوم محبو تراث حلب بالاتصال بعائلة المرحوم علي سماقية، وهو باحث كان يعمل قبل تقاعده فترة طويلة في مديرية الآثار بحلب، لحثهم، ومساعدتهم إذا لزم الأمر، على إصدار الكتاب عن حلب القديمة الذي كان يعدّه ويذكر فيه، فيما يذكر، **أسماء جميع بساتين حلب** على مسار نهر قويق وسواها مع بيان مواقعها على المخطط، لتعم الفائدة ويعرف سكان حلب اليوم مواقع بستان القبار والريحاوي وكور مصري والعويجة وإبراهيم آغا وسواها من البساتين التي كان المعلم نعوم بخاش[1] (المتوفى عام ١٨٧٥) يذهب مع الخلان لصيد السمك فيها كما يذكر في مذكراته "يوميات الجمعية" التي خلفها.



العزيزية، بناية كبابة

---

[1] المعلم نعوم بخاش (المتوفى عام ١٨٧٥) كان صاحب كتّاب لتعليم الناشئة القراءة والكتابة في محلة "الجديدة" عند مدخل ساحة فرحات، وقد خلّف لنا مذكراته على شكل يوميات الجمعية، عرّفنا بها بشكل موجز الأب فردنان توتل اليسوعي الحلبي ابن حارة الشرعسوس وصديق وجار الشيخ كامل الغزي رحمهما الله. وهو صاحب مجموعة "وثائق تاريخية من حلب" وناشر أرجوزة أبي الوفا. وقد نشر مذكرات بخاش بالكامل في أربعة أجزاء الأب المرحوم يوسف قوشاقجي المهتم بالأدب الشعبي الحلبي، وقد صدر الجزء الرابع والأخير من المذكرات بعد وفاته، ويمكن الحصول عليه من مطبعة الإحسان في ساحة فرحات بحلب.

نحن بدون شك نضم صوتنا للمطالبين بإبقاء منشية العزيزية على حالها. لقد هُدم العديد من مباني العزيزية ذات الطراز المعماري المتميز والممثل لمرحلة من تاريخ المدينة، وإن كانت في فترة الانتداب، كان يجب الحفاظ عليها. إلاّ أن جشع رأس المال لا يرحم ومن ورائه مصلحة المالكين الخاصة. أما الآن فالمسألة بيد مجلس المدينة ويحث الموضوع من عدة جوانب، وفي مقدمتها الناحية الاقتصادية بدون شك، ويدرس مدى الفائدة أو الريعية التي تقدمها الحديقة (المنشية) حالياً، وهل هناك إمكانية لتطويرها وظيفياً في وضعها الحالي، فتصبح ذات مردود على الأقل ثقافي أو بيئي أو جمالي؟ لذلك فكّر بإزالتها واستبدالها بمشروع مجدٍ. دعوا المنشية وحاولوا إيجاد مكان آخر مناسب لعمل موقف السيارات المقترح فيه. وأثنّي على مقالة الزميل المهندس خير الدين الرفاعي المنشورة في الجماهير بتاريخ ٢٠ /١٢/ ٢٠٠٤، وأقترح، في حال الإصرار على تنفيذ مرآب طابقي لتخديم العزيزية - المركز الجديد للمدينة الحديثة - ونحن بحاجة ماسة إلى العديد من المرائب، استعمال الجزء الجنوبي الشرقي من الحديقة العامة شمال تمثال الحرية في ساحة سعد الله الجابري أو الجزء الجنوبي الغربي منها لبناء المرآب الطابقي المقترح حيث الضرر أقل لإطلالته على مؤسسات حكومية تابعة للكهرباء والنقل. مع إمكانية عمل تيراس (سطيحة) مع كفتيريا يطل منها المرء كبرج على الحديقة الجميلة بكاملها وعلى ما حولها، وبذلك نبعد الاختناقات عن محلة العزيزية إلى حدودها الغربية، ويكون الضرر في حده الأدنى. وأدعو الله كي يلهمكم الخير وصواب الرأي، يا أبناء حلب وممثليها في مجلس المدينة وأصحاب القرار.



أبنية حي العزيزية ومجرى نهر قويق

١٢) دير مار ماروثا ذو البيعتين بحلب[١]

تمهيد:

جاءتنا أخبار هذا الدير الواقع إلى الغرب من حلب عن طريق ياقوت الحموي (١١٧٠ - ١١٢٣ م) في كتابه "معجم البلدان" حيث يذكر: " هذا دير كان في سفح جبل جوشن، مطل على المدينة وعلى العوجان. كما قال "الخالدان"، وهما أخوان أديبان شاعران في بلاط سيف الدولة أبو بكر محمد وأبو سمعان سعيد، وكانا خازني دار كتب سيف الدولة بحلب، لهما كتاب "الديارات" لم يعثر عليه حتى الان وذكره أكثر من مؤرّخ مثل ابن خلّكان وياقوت الحموي.

وفي الدير يقول الحسين بن علي التميمي أحد شعراء سيف الدولة:

يا دير مار ماروثا ... سُقيت غيثاً مغيثا

فأنت جنّة حُسنٍ ... قد حُزتَ روضاً حثيثا

وفيه يقول بعض الشاميين:

بدير مار ماروثا ... الشريف ذي البيعتين

والراهب المتحلّي ... والقسّ ذي الطمرتين

ألا رثيتَ لصبٍّ ... مشارفٍ للحسين

قد شفّه منك هجرٌ ... من بعد لوعة بين

ويبدو أن الدير كان مكان مشهد الحسين الحالي، وكان يطلّ على نهر "العوجان" وهو نهر قويق نفسه الذي يجري في لحف جبل الجوشن، وقد دعي "بالعوجان" لالتفافه واعوجاجه، وقد قال فيه الصنوبري، وهو شاعر رائع في عهد سيف الدولة، إلاّ انه لم يكن

---

[١] نشرت في أعمال المؤتمر السادس للتراث السرياني عام ١٩٩٨ المنعقد في أنطلياس- لبنان، تحت عنوان "أديار سورية الشمالية بعد القرن السابع للميلاد" ص ١٢٩- ١٤٩.

ليتمتّع بسمعة وشهرة المتنبّي الذي خلّد حملات سيف الدولة على الروم بأشعاره البطولية ؛ قال فيه الشاعر الصنوبري :

والعوجـــان الـــذي تخالـــه لواحـــظٌ كلّهـــن مخلـــوسُ

كـأن أمواجـــه إذا ارتكضـــت في حافتيـــه خليـــلُ كراديـــس

لـــو ان بلقيـــس عاينتـــه إذن لشبّهتـــه بالصـــرح بلقيـــسُ

هنـــاك ثـــوب الممـــات مطّـــرح عنـــك وثـــوب الحيـــاة ملبـــوسُ

ويذكر ياقوت الحموي أن والدة سيف الدولة كانت ترسل التقادم والهدايا إلى دير مار ماروثا وتوصي به خيراً ، وكان قصر سيف الدولة قريباً منه. وقلّ ما مرّ به سيف الدولة إلاّ ونزل فيه ، وكان يقول : "كانت والدتي محسنة إلى أهله وكانت توصيني به". ونعلم أن والدة سيف الدولة كانت تقيم في ميافارقين بالقرب من ديار بكر وفيها توفيت ودفنت ، وقد رثاها المتنبي في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

نعـــدُّ المشـــرفيّة والعـــوالي وتقتلنـــا المنـــون بـــدون قتـــالِ

كما أوصى سيف الدولة بأن تنقل رفاته إلى ميافارقين وقد تمّ ذلك بالفعل عند وفاته التي كانت يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧ م. وقد أخذ غلامه تقي الدين جثمانه إلى ميافارقين حيث كانت حرمه وولده ودفن فيها.

وما مار ماروثا شفيع دير جوشن بحلب إلاّ أسقف ميافارقين وشفيعها ، وكان بارعاً في الطب والعلوم في عهد الفرس ، فسمح له بتحرير الكنيسة ونقل رفات الشهداء إلى مدينة ميافارقين التي يقال انه أسّسها بنفسه ، وقد توفّي وهو أسقفها بين ٤١٨ و٤٢٠ م. وقد أقيمت على اسمه كنائس وأديرة عديدة منها دير مار ماروثا بحلب.

ويذكر الشاعر الصنوبري - المتوفى بحلب عام ٩٤٥ م - الدير في سياق قصيدته الرائعة في وصف حلب :

حلـــب بـــدرُ دجـــى أنجمهـــا الزهـــر قراهـــا

حيث يحطّ القادم إليها من الجنوب الرحال على سفح جوشن بالقرب من دير مار ماروثا، فيقول:

ربَّ ملقي الرحلَ فيها حيث تُلفى بيعتاها
طيّرت منه الكرى طائرةٌ طار كراها
ودّ إذ فاهت بشجوٍ أنه قبل فاها

ويقول في موضع آخر:

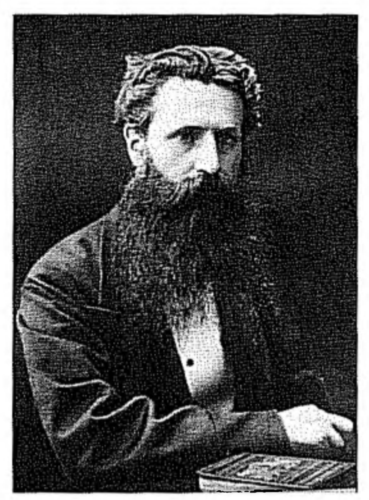
فللظهر من حلب منزلٌ تُثاب العيون على حجّه
أعد نحو جوشنه نظرة الى بيعتيه إلى برجه
الى بانقوساه تلك التي حلت راكباً لاح من فجّه
لترتاض نفسك في روضه ويمرح طرفُك في مزجه

ويُذكر دير مار ماروثا آخر مرّة في سيرة البطريرك الأنطاكي السرياني مار إبراهيم الذي انتخب بطريركاً عام ٩٦٢ م، واختار أحد رهبان دير مار ماروثا المدعو قرياقوس وجعله مفرياناً على تكريت في العراق. ويبدو أن الدير قد اندثر مع عهد سيف الدولة، إذ أنه عندما زار ياقوت الحموي مكان الدير حوالي العام ١٢٢٠ م. كتب: "ذهب ذلك الدير ولا أثر، الآن وقد استجدّ في موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا الحسين بن علي، رضي الله عنهما، يصلّي فيه. فجمع له المتشيّعون بينهم مالاً وعمّروه أحسن عمارة وأحكمها".

والواقع أن عمارة مشهد الحسين تمّت أيام الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٩ م، ثم نهبه المغول بقيادة هولاكو عام ١٢٦٠ م، ولم يبقَ الكثير من آثار دير مار ماروثا، وهناك بعض أحجار بازلتية وتيجان أعمدة متناثرة في باحة المشهد. والمعروف أن المشهد قد دمّر بالكامل عام ١٩٢٠ إثر انفجار قنبلة، حيث استُعمل مستودعاً للبارود والذخيرة. ويهمس الشيخ إبراهيم الحاج حسين رحمه الله أن أصل المشهد هو دير مار ماروثا ذي البيعتين. وقد تمكّنت مديرية الآثار بحلب من ترميمه استناداً للمخططات التي رسمها إرنست هرتسفيلد في كتابه "مدوّنات الكتابات العربية بحلب" المطبوع عام ١٩٠٨.

ولا بأس من أن نذكر ما كتبه مؤرخ حلب ابن شداد عن وجود سبعين بيعة ونيف في حلب في أيامه، ولا شكّ أن بعض هذه الكنائس الرعائية كان ملحقاً بأديرة. كما نذكر أن أكبر أربع كنائس حُوّلت إلى مساجد إثر حصار الفرنجة حلب عام ١١٢٤م. وذكر ابن العبري (١٢٢٦ – ١٢٨٦ م) أسقف حلب أن جوسلان الثاني أحد الأمراء الصليبيين، والذي كان حبيس قلعة حلب مدة طويلة، عندما أحسّ بدنو أجله عام ١١٥٧ م استأذن الحاكم في الذهاب إلى كنيسة السريان، وهناك قام بفروضه الدينية لدى أغناطيوس مطرانها وتناول الأسرار من يده وعاد بعد ذلك إلى السجن وتوفي فيه. وأقيم له مأتم حافل شارك فيه المسيحيون والمسلمون وشيّعوه إلى تلك الكنيسة ودُفن فيها. كما ذكر ابن العبري أنه ذهب إلى هولاكو في قلعة نجم يرجوه عدم الإضرار بحلب، فسجنه هولاكو في قلعة نجم ودخل حلب من جهة باب قنسرين ودمّرها عام ١٢٦٠ م.

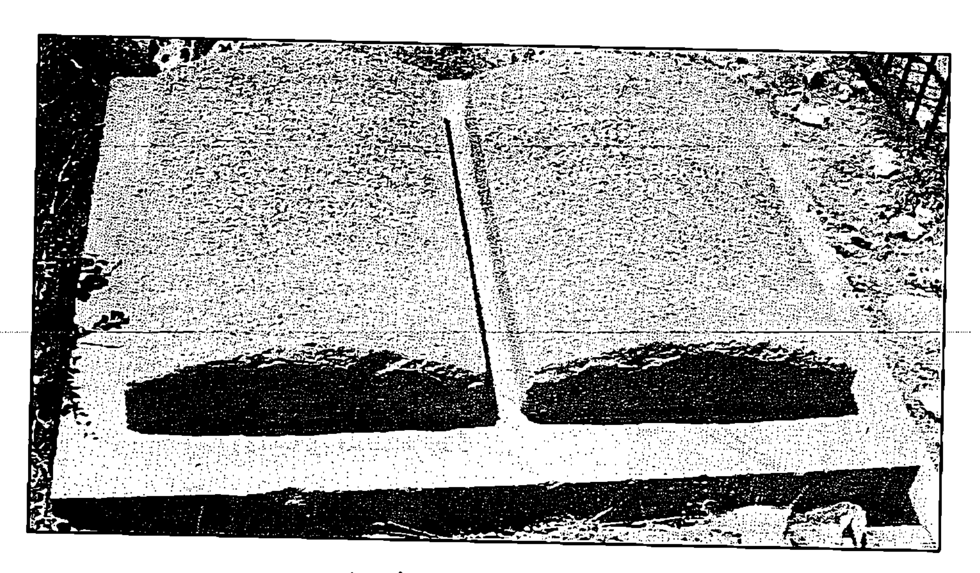
١٣) رفات العالم جورج سميث بحلب وقصّة الطوفان



جورج سميث (١٨٤٠– ١٨٧٦)

قلة من الناس تعرف أن حلب تضم رفات عالم كبير، كان أول من قرأ قصة الطوفان بتفصيل أدق مما هو مذكور في التوراة كما وردت في ملحمة جلكامش، وهو العالم جورج سميث (١٨٤٠-١٨٧٦) الذي ترتاح رفاته بسلام في مقبرة الطائفة الإنجيلية في جبل السيدة (الشيخ مقصود) شمالي حلب.

كان شاباً يتردد على المتحف البريطاني باستمرار وهو يعمل في حفر قوالب العملة الورقية، فطلب منه أن يعمل موظفاً في المتحف فقبل العرض، ودرس اللغة المسمارية التي تم فك رموزها حوالي منتصف القرن التاسع عشر على يد العالم السير رولنسون وزملائه. وبينما كان سميث يرمّم بعض الرقم المسمارية المرسلة من نينوى قرب الموصل إذ تقع في يده كسيرة فخارية مرسلة من مكتبة الملك آشور بانيبال تصف سفينة نوح وقصة الطوفان بتفصيل أكثر دقة مما هو مذكور في العهد القديم. تحدث جورج سميث عن الكشف العظيم عام ١٨٧٣، وأُرسل في مهمة إلى نينوى حيث وجد تتمة الكسيرة الفخارية والتي كانت أحد ألواح ملحمة جلكامش التي تعود بأصولها القديمة إلى الفترة السومرية والألف الثالث قبل الميلاد، وقد تناقلها فيما بعد الأكاديون والآشوريون والبابليون وسواهم من شعوب بلاد الرافدين. وجاء جورج سميث عام ١٨٧٦ ليعمل في حفريات نينوى وعارضه واليها العثماني. وإلى أن جاءت الموافقة من استنبول كان الصيف قد حلّ ورفض العمال العمل في الطقس الحار، فجاء يزور مدن المنطقة ومرض قرب بيراجيك شمال حلب في تركيا وحُمل إلى حلب ليتوفى فيها، ودفن عام ١٨٧٦ في المقبرة الإنكليزية قرب مستشفى ألطونيان الذي هدم بعدئذ، وحيث كانت مقابر المسيحيين



حجر ضريح جورج سميث بحلب

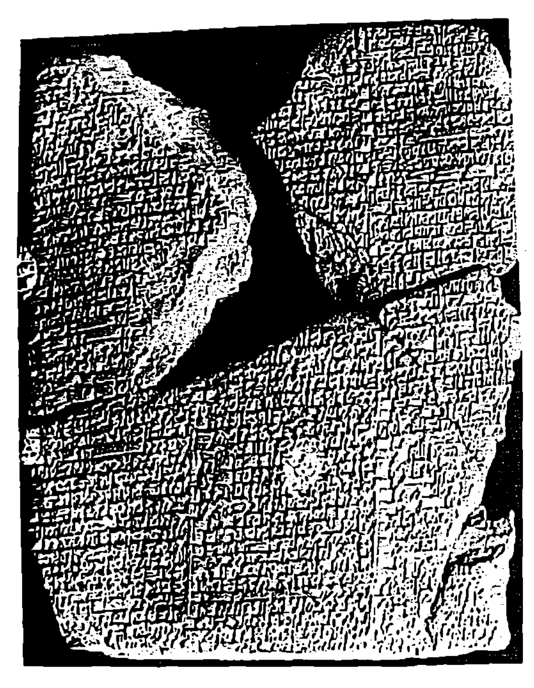
في العزيزية. وعندما أوقف الدفن في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن العشرين في المدافن القديمة، نقلت المقابر إلى الشيخ مقصود (جبل السيدة). وتمّ نقل رفات وقبور ٤٧ شخصية هامة من قناصل ورحالة وتجار دفنوا بحلب من المقبرة الإنكليزية في العزيزية إلى المقبرة الإنجيلية الأرمنية في الشيخ مقصود شغلت مساحة ١٢,٥ × ٨، ٥ م من الزاوية الجنوبية الشرقية من المقبرة الجديدة وكان من بينها رفات جورج سميث، وكان ذلك عام ١٩٣٨. وقد حضر مراسم إعادة الدفن ماكس ملوان عالم الآثار المعروف وزوج الروائية البوليسية أجاثا كريستي، الذي كان ينقب آنئذٍ في تلال الجزيرة (شاغر بازار وتل براك) ويحضر من وقت إلى آخر ليقيم في فندق بارون بحلب. وأقام المتحف البريطاني نصباً تذكارياً على شكل كتاب مفتوح من المرمر الأحمر على قبر جورج سميث نُقل مع رفاته إلى المقبرة الجديدة وقد ذكر فيه كلمة عن هذا العالم الكبير الذي كان يبشر بعطاء عظيم لو أن الله مد بحياته، اذ توفي وله من العمر ستة وثلاثون عاماً.

وأقدم فيما يلي لمحة عن ملحمة جلكامش التي تعتبر أمّ الملاحم في العالم وقد سبقت ملحمة الإلياذة اليونانية بعشرين قرناً، مأخوذة بإيجاز من الموسوعة البريطانية:

ملحمة جلكامش:

إنّها من أهم كتابات اللغة الأكادية وتتعلق بقصة جلكامش الأكثر شهرة بين أبطال بلاد الرافدين. رويت عنه عدة روايات مثل الأوديسة كملك لم يرد أن يموت. ووجد أكمل نص على اثني عشر لوحاً مسمارياً غير كامل باللغة الأكادية في نينوى وفي مكتبة آشوربانيبال (حكم ٦٦٨ – ٦٢٧ ق.م). وربما حكم جلكامش في أوروك (الوركاء) جنوب بلاد الرافدين في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت الملحمة تروى قبل اختراع الكتابة ثم دونها السومريون وتبناها الأكاديون وسواهم من شعوب المنطقة بما في ذلك الآشوريون الجدد في نينوى.

تبدأ ألواح الملحمة في نينوى بمقدمة مديح لجلكامش، الذي جزء من جسمه إنسان وجزء إله، باعتباره الباني العظيم والمحارب والعارف بكل شيء على الأرض وفي البحر. ومن أجل كبح جماح عنفوانه كحاكم قاس جبار كما يبدو، خلق الإله آنو إنكيدو وهو إنسان بدائي عاش بين الحيوانات، ثمّ تعرّف على طرق الحياة المدينية (الحضرية) وغادر إلى أوروك للقاء جلكامش الذي كان بانتظاره. ويصف اللوح الثاني صراعاً بين جلكامش وإنكيدو انتصر فيه جلكامش وأصبح إنكيدو صديقه ورفيقه (وفي النصوص السومرية خادمه).



لوحة قصة الطوفان في ملحمة جلكامش

وخرج البطلان في الألواح الثالث والرابع والخامس لمقابلة خمبابا حارس غابة الأرز.. وباقي النص غير كامل. ويرفض جلكامش في اللوح السادس عرض الزواج من عشتار إلهة الحب، ويقوم بمساعدة إنكيدو بقتل الثور السماوي الذي أرسلته لهزيمته.

ويبدأ مع اللوح السابع ذكر حلم إنكيدو الذي رأى فيه ان الآلهة آنو وإيا وشمش قد قرّروا وجوب موت إنكيدو لقتله الثور المقدّس. ثمّ يمرض إنكيدو ويحلم ب "بيت الرماد" الذي كان ينتظره. ويندب جلكامش صديقه ويروي اللوح الثامن موت إنكيدو.

ويقوم جلكامش برحلة خطرة مع اللوح التاسع والعاشر بحثاً عن أوتنابشتيم الذي بقي حياً من الطوفان البابلي، كي يعرف منه كيف نجا من الموت. ووصل أخيراً إلى أوتنابشتيم الذي روى له قصّة الطوفان، ودلّه على مكان وجود نبتة تعيد إليه الشباب (اللوح الحادي عشر) إذا أكل من وريقاتها. وبعد حصول جلكامش على النبتة تقوم حيّة بسرقتها منه، ويعود جلكامش إلى بلده أوروك حزيناً.

وكان اللوح الثاني عشر كملحق للملحمة ويتعلّق بفقدان ما يسمّى بوكو وميكو Pukku & Mikku (ربما الطبل والعصا) أعطتهما عشتار لجلكامش. وتنتهي الملحمة بعودة روح إنكيدو الذي وعد بإعادة الطبل والعصا وقدّم تقريراً مثيراً للاشمئزاز عن حالة العالم السفلي وضرورة دفن جثمانه الميت تحت التراب وزيارة الموتى والدعاء والصلاة لهم، وهذا تقليد لا زال مستمراً حتى الآن لدى جميع الشعوب.

ويُفهم من الملحمة، وبطلها جلكامش مثال لكل زمان، أن الأعمال الصالحة والجيدة هي التي تخلّد الإنسان.

١٤) خمسون عاماً على وفاة الباحث جان سوفاجيه



جان سوفاجيه

في الخامس من آذار ١٩٥٠ توفي الباحث الفرنسي الكبير جان سوفاجيه ولم يتجاوز من العمر الخمسين عاماً. وكلمة وفاء لا بدّ منها لهذا الإنسان الذي كرّس حياته كمستشرق أقام في بلادنا واجتذبته مدينة حلب وهو المقيم في دمشق يبحث في رحاب المعهد الفرنسي للدراسات العربية الذي كان مقرّه في قصر العظم (متحف التقاليد الشعبية حالياً).

ولد جان سوفاجيه في مدينة نيور في أواسط فرنسا. درس الاستشراق في مدرسة اللغات والسوربون حيث أجيز في الأدب العربي، وعمل في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق منذ عام ١٩٢٤ وبقي فيه ١٣ عاماً وشغل منصب الأمين العام للمعهد عام ١٩٢٩، ولم يترك سورية إلاّ عام ١٩٣٧ عندما انتخب مديراً لدروس الشرق الإسلامي، وهو منصب أحدث خصيصاً من أجله في مدرسة الدراسات العليا في باريس.

قام سوفاجيه عام ١٩٣١، وبتكليف من بلدية حلب، ومصلحة الآثار فيها بإحصاء المباني التاريخية الإسلامية في مدينة حلب، وأصدر كتيّباً رائعاً بعنوان "إحصاء المباني الإسلامية بحلب" Inventaire des monuments islamiques d'Alep عن هذه المباني مع أرقام العقارات والمسطّحات وبعض الصور. وقد وضع هذه المباني ضمن قائمتين:

القائمة الأولى تتضمّن المباني الأساسية وعددها ٧٧ مبنى يجب ترميمها وحفظها مهما كلّف ذلك لأهميتها الأساسية في فن العمارة الإسلامية في سورية، وهي بالإضافة إلى قيمتها التاريخية، مبانٍ كاملة تقريباً أو محفوظة بحالة جيّدة وذات قيمة جمالية وفنية رفيعة. وقد ذكر كل مبنى مع رقم محضره العقاري وشكل مسطحه التقريبي وطبيعة وتاريخ بنائه واسم بانيه ونوع الأعمال الواجب القيام بها إلى أن تُتّخذ إجراءات صيانة أو ترميم أكثر فعالية.

أمّا القائمة الثانية فتضمّ ٤٤ مبنى من المنشآت الأقل أهمّية، لكن من الواجب عدم هدمها لطبيعتها التاريخية كوثائق أو لوجودها في موقع إطلالة جميلة كمئذنة أو واجهة بناء يعطي شكلها، في حال ترميمها، بعداً جمالياً وانطباعاً جيّداً للمدينة. ويجب أن لا يجري على الأبنية المذكورة أيّ تعديل قبل أن يؤخذ رأي مديرية الآثار.

أمّا الأبنية الأخرى غير المذكورة في القائمتين السابقتين، والتي تحتوي على نصوص كتابية أو نقوش زخرفية، فيجب في حال هدمها نقل الزخرفة أو النقوش إلى متحف حلب لتكون وثائق هامة لتاريخ المدينة وفن العمارة الإسلامية فيها.

بعد هذه الدراسة الأولية والاطلاع الميداني على المباني والعقارات، شدّت حلب الباحث سوفاجيه بمبانيها وأسواقها ونسيجها العمراني المتكامل، فاختارها موضوعاً لأطروحة الدكتوراه التي نالها عام ١٩٤١ وكانت بعنوان" حلب؛ دراسة عن تطوّر مدينة سورية منذ نشأتها وحتى منتصف القرن التاسع عشر". ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب العلمية التي تحدّثت عن حلب وبخاصة العدد الكبير من أسماء المراجع التي استند اليها في بحثه من كتب المؤرّخين القدامى مثل ابن العديم وابن شدّاد وابن العجمي وابن الشحنة والمؤرخين المحدثين كالشيخين كامل الغزّي وراغب الطبّاخ وسواهم.

نشر سوفاجيه العديد من الأبحاث الهامة عن فن العمارة الإسلامية من أمثال مشهدي الحسين والدكّة وسور مدينة حلب البدائي والقصور الأموية في البادية والعديد من المقالات التاريخية عن دمشق وحلب. وقد اختير عام ١٩٤٦ لتدريس تاريخ العالم العربي في "الكوليج دو فرانس" وتوفي عام ١٩٥١ رحمه الله. وكان من الباحثين الرواد الذين أعجبوا بحلب وكتبوا عنها، منبّهين إلى أهمية التراث الذي تحويه وضرورة حمايته.

جاء الدكتور أسعد طلس بكتابه "الآثار الإسلامية التاريخية في حلب" الذي طبعته المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق عام ١٩٥٦، وذكر فيه المباني التاريخية الإسلامية التي سبق أن ذكرها سوفاجيه وأضاف إليها حوالي ١٢٠ مبنى تاريخياً مما ذكره المؤرخان الشيخان كامل الغزي في كتابه "نهر الذهب في تاريخ حلب" وراغب الطباخ في كتابه "أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء". وقد توسّع الدكتور طلس في الوصف التاريخي والأبعاد وسواها مما ذكره

الشيخان المؤرخان في كتابيهما، فجاء كتابه وقد أغناه بالمسطحات والصور ليغطي أهم المعالم التاريخية المذكورة.

والآن بعد مرور خمسين عاماً على رحيل الباحث الكبير سوفاجيه، وبعد الإهمال الطويل الذي عانته معالمنا وتراثنا والمعركة المستمرّة بين محبي جمع المال ومحبّي التراث وحماية الآثار، لا شك أن روح الباحث الكبير ستسرّ بالخطوات التي تمنّى أن يرى بدايتها، وخاصة أن مباني حلب التاريخية لم تُحفظ لوحدها كمبان معزولة وإنما ضمن النسيج العمراني للحي والمدينة ضمن الأسوار وخارجها. وها هي قوانين وقرارات الحماية منذ الندوة الدولية لحماية حلب القديمة عام ١٩٨٣ تتتالى، ويتشكل مكتب خاص للمدينة القديمة، ويهتم رئيس الوزراء بتشكيل لجنة حماية حلب القديمة، وتسجل مدينة حلب القديمة من قبل منظمة اليونيسكو عام ١٩٨٦ ضمن التراث العالمي واجب الحماية. وتقدّم الأموال والخبرات من الحكومة الألمانية وبنك الإنماء الكويتي لمشروع "إحياء مدينة حلب القديمة بدءاً من عام ١٩٩٣. وتوثّق المدينة وتدرس مبانيها وأحياؤها وسكانها وبنيتها التحتية، ويُبدأ بترميمها بشكل نموذجي وبتخطيط مبرمج باختيار "حي باب قنّسرين" مشروعاً رائداً تطبّق فيه أعمال الإحياء والترميم النموذجي، لتنسحب لاحقاً على باقي أحياء المدينة ومبانيها عند تأمين التمويل اللازم لها. خطوات قويمة وصحيحة تبيّن أننا نسير على الطريق الصحيحة.

تحية للباحث جان سوفاجيه في ذكرى وفاته الخمسين، وشكراً للجهود المبذولة في سبيل حماية تراثنا الحضاري العظيم.

حلب ٢١ /٣/ ٢٠٠٠

١٥) مخطط يونغ[١] (١ تشرين الأول ١٨٩٩)
أول مخطط تنظيمي لمدينة حلب

تمهيد تاريخي ومعماري:

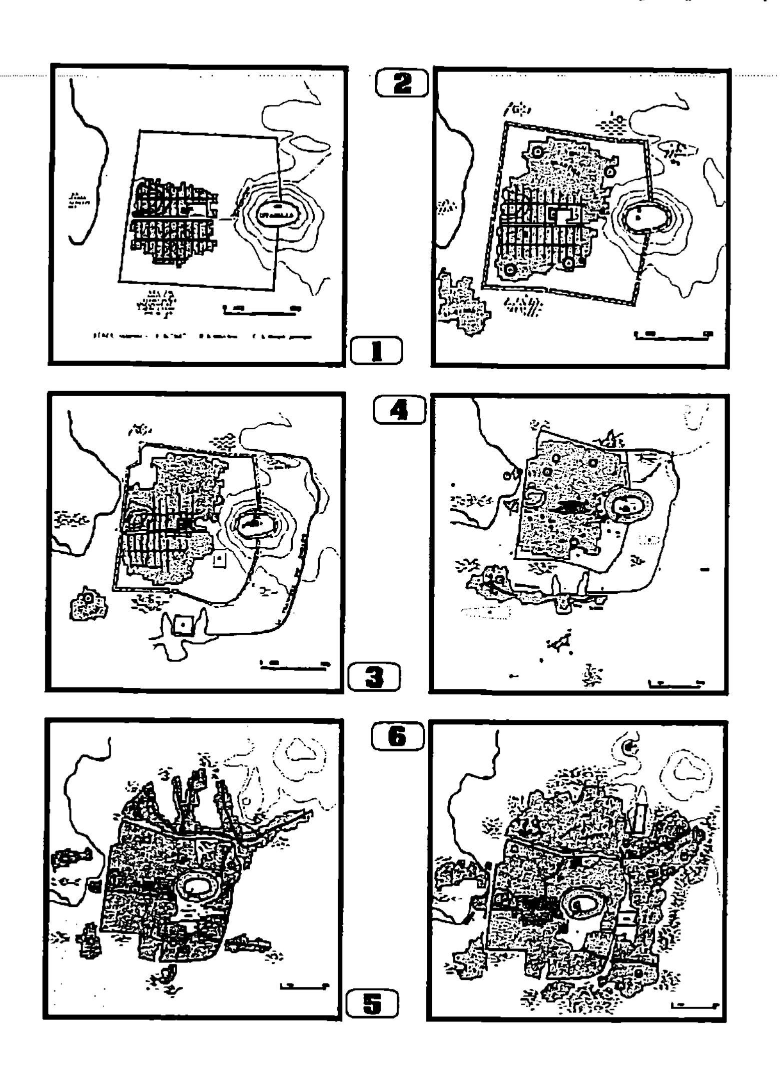
تطورت مدينة حلب بموقعها الاستراتيجي على طريق الحرير وطرق التجارة، ليس فقط بين الفرات والبحر المتوسط وإنما كصلة وصل بين الشرق والغرب وانتقال البضائع بين الجزيرة العربية ومناطق الأناضول والشمال. وكانت مركزاً دينياً متميزاً ليذكر معبد إلهها أدد في رُقُم محفوظات إبلا التي تعود إلى عام ٢٢٥٠ قبل الميلاد. وقد ظهرت في تنقيبات البعثة الألمانية السورية المشتركة في قلعة حلب (١٩٩٥-٢٠٠٦) أحجار تأسيس معبد إله الطقس وتعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد و٤٨ لوحة بازلتية أحاطت بالمعبد نفسه لكن من الفترة الحثية والألف الأول قبل الميلاد، وفيها روائع الرسوم لإله الطقس بأوضاع مختلفة مع العديد من رسوم الحيوانات وسواها. كما نذكر الحجرة ذات الكتابة الهيروغليفية الحثية، المعاد استعمالها في جامع القيقان في حي العقبة حيث مرتفع المدينة والاستيطان الأقرب من نهر قويق، والتي تذكر كذلك الإهداء إلى الإلهة هبات شاروما من قبل الملك تلمي شاروما بن تلبينو الكاهن الأكبر. وهذه الأسماء معروفة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهذه دلالة أثرية واضحة على قِدم مدينة حلب التي ذكرت تاريخياً كذلك في رُقُم ماري وإيمار وكانت عاصمة مملكة يمحاض كما ذكرت لدى الحثيين والأشوريين الجدد... وبعد احتلال الفرس سورية في القرن السادس ق.م، ومع مجيء الاسكندر المكدوني إلى الشرق عام ٣٣٣ ق.م، تتخذ حلب اسم "بيرويه" خلال الفترات الكلاسيكية وهي الفترة السلوقية والرومانية والبيزنطية التي انتهت بالفتح العربي الإسلامي للبلاد عام ٦٣٦ م.

غلب على حلب مع بداية الدولة السلوقية التخطيط الشطرنجي (تخطيط هيبوداموس) حيث كان السكن يتوضع حول مرتفعي القلعة والعقبة ضمن أسوار الشكل المربع الذي حصر السكن بداخله، وقد امتد الشارع المستقيم via recta بين باب أنطاكية في السور الغربي

---

[١] نشرت المقالة في مجلة "المهندس العربي" العدد ١٦٤ عام ٢٠١٠ صفحة ٣٢ - ٣٥

وغرب القلعة التي كانت تهيمن على السور الشرقي لتدافع بحصنها القوي عن المدينة. وقريباً من الشارع المستقيم كان يقوم المعبد والأغورا (السوق العامة) وتتوزع بلوكات السكن بشكل شطرنجي بين الشوارع الموازية للشارع المستقيم من جانبيه وبين الشوارع المتعامدة معه وعلى مسافات متباعدة فيما بينها.



The Development of Aleppo according to Sauvaget

1. Greek period	*2. Byzantine period*	*3. 11th century*
4. 13th century	*5. 16th century*	*6. 19th century*

تطور حلب العمراني (مخططات سوفاجيه)

وهكذا يبيّن لنا الباحث سوفاجيه تطور المدينة وتوسعها في الفترات الكلاسيكية أولاً ثم في الفترات العربية الإسلامية التي تلت، والتعديل الذي جرى على السور البدائي للمدينة الذي رُمِّم أول مرة من قبل جوستنيان بعد دمار حلب من قبل كسرى أنو شروان عام ٥٤٠ م ثم في المراحل التاريخية اللاحقة. وتهمنا الآثار العمرانية التي خلفتها كل مرحلة مثل الجامع الأموي وفترة الحمدانيين وبني مرداس والفترة الزنكية مع المدرسة الحلوية والبيمارستان النوري وجامع الشعيبية وتحويل الشارع المستقيم وما حوله إلى أسواق المدينة ومركزها التجاري والصناعي وإقامة فصيل نور الدين حول جزء من سور المدينة، ثم الفترة الأيوبية والازدهار الذي عرفته حلب عمرانياً داخل الأسوار وخارجها من بناء جوامع ومدارس وخانقاهات، بالإضافة إلى تقوية السور وتحصين القلعة وتوسيع المدينة باعتبار خندق الروم الشرقي الذي كان الروم ونقفور فوقاس يحاصرون منه المدينة واعتباره السور الشرقي للمدينة التي توسعت وامتدت كثيراً شرقي القلعة كي يتم في الفترة المملوكية المبكرة بناء جامع الطنبغا (جامع ساحة الملح) عام٧١٨ هـ/ ١٣١٨م لخدمة المنطقة التي اكتظّت بالسكان آنئذٍ.

هذا وقد نتج عن توسّع المدينة في الفترتين الأيوبية والمملوكية تغيير في توجيه الشوارع التي انحرفت عن التوجيه الشطرنجي المتعامد مع عقارب الساعة بزاوية ٢٣ ثم ٣٢ درجة مئوية، وكان من نتائجها مدخل قلعة حلب المائل. كما يبيّن ذلك الباحثان غاوبه وفيرت في كتابهما عن حلب "الذي صدر العام ١٩٨٤" وكذلك الباحثة الإيطالية يوليا أناليندا التي كانت أطروحتها للدكتوراه العام ٢٠٠٣ عن الموضوع نفسه مفصّلاً.

ومع دخول العثمانيين سورية والبلاد العربية عام ١٥١٦ توسعت المدينة وازدهرت تجارتها بامتداد رقعة الإمبراطورية العثمانية الواسعة الأطراف، وبإقامة الأوقاف العديدة من مدارس وجوامع ساعدت كثيراً على تنشيط حركة العمران في الأسواق وسواها من بناء خانات وقيسريات وتخصيص طواحين وحوانيت وقرى تساهم في دعم تلك الأوقاف والعاملين فيها، بالإضافة إلى تشجيع إقامة الأجانب في حلب لتنشيط التجارة باتفاقية الامتيازات بين سليمان القانوني والملك فرنسوا الأول عام ١٥٣٥. وهكذا امتلأ القسم الجنوبي من الشارع المستقيم، والذي كان في معظمه شاغراً، بجوامع الخسروفية والعادلية

والأحمدية والبهرمية وما تبعها من أوقاف الخانات والحمامات والأسواق وسواها. وأقام قناصل الدول الأجنبية ومعظم رعاياها في الخانات (قنصل فرنسا عام ١٥٦٢ ، قنصل إنكلترا ١٥٨٣ وقنصل الأراضي المنخفضة هولندا عام ١٦٠٧). كما امتدت الأحياء السكنية في الضاحية الشرقية للمدينة وكذلك في ضاحيتها الشمالية المسماة "الجديدة" التي بدأت تُسكن بدءاً من تدمير حلب من قبل تيمورلنك عام ١٤٠٠ ، وقد ازدهرت كذلك بإقامة وقف إبشير باشا فيها عام ١٦٥٣ ، وسكنها غالباً النصارى وكانت فيها كنائسهم ودورهم التقليدية الهامة ذات الباحة الداخلية وبركة الماء والإيوان وقاعة الاستقبال حتى منتصف القرن التاسع عشر. كما امتد العمران إلى الضاحيتين الغربية والجنوبية إثر زلزال عام ١٨٢٢ الذي دمّر ثلثي دور حلب وحصد ٢٠٠٠٠ نسمة من سكانها. كما بدئ عام ١٨٦٠م بسكن حي العزيزية (جبل النهر) الذي انتقلت إليه بعض العائلات من منطقة "الجديدة". وقد قامت السلطة العثمانية ببناء مخفر العزيزية عام ١٨٩٩ لحماية السكان إثر سرقة تمت في دار غزالة آنئذ، وكانت تلك أول مرة بدأت فيها الشوارع تأخذ الشكل المستقيم والمنتظم.

وفي عام ١٨٨٢ بدأ حي "الجميلية"، وكان يسمى "السليمية"، بالظهور غربي المدينة يفصله عن المدينة بساتين وحدائق نهر قويق، وسكنه متوسطو الدخل من الأهالي. وساعد على التوسع المديني في المنطقة إنشاء محطة الشام للقطار عام ١٩٠٥ ومحطة بغداد عام ١٩١٢.

ونشأت عام ١٨٧٨ محلة جديدة شمال المدينة هي "محلة النيال"، ونشأت عام ١٨٨٧ "الحميدية" وخطط قربها "الجابرية". وفي عام ١٨٩٥ تأسست "السليمانية". وبدئ عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م بتنفيذ "جادة الخندق"[1] وذلك بستر مجرى المياه القذرة خارج سور المدينة الشمالي من باب الحديد إلى مزار السهروردي (شرطة النجدة حالياً) بعرض ١٤ م أقيمت على طرفيه الفنادق والمساكن والمستودعات والمخازن التجارية.

كما أنشئ متنزّه السبيل عام ١٨٩٥ وبرج ساعة باب الفرج عام ١٨٩٩. وظهرت معالم مركز مدينة حديث غربي باب الفرج في بستان "كل آب" وحتى شارع بارون، وقامت الدور الجميلة في شارع الخندق وأحياء العزيزية والجميلية وسواها بواجهاتها المزخرفة في فترة

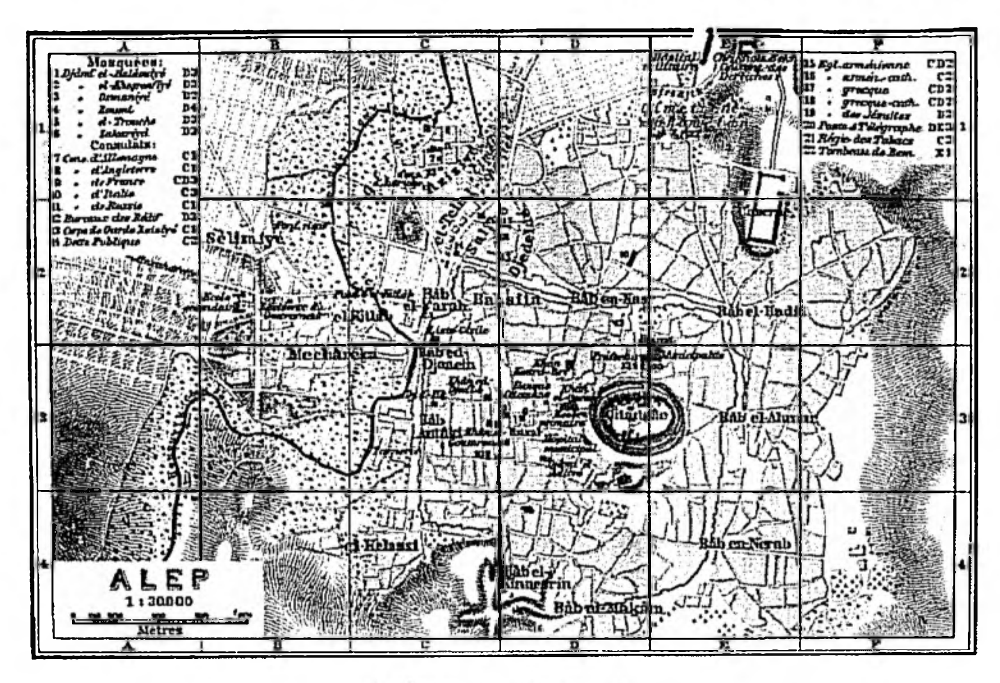
---

[1] ومن الطريف ما روي عن الشيخ كامل الغزي وكان يضع نظارات أنه اعترض على إنشاء جادة الخندق بعرض ١٤م لأن الذي يسير على أحد الرصيفين لا يستطيع مشاهدة صديقه على الرصيف الآخر ليسلّم عليه.

الانتداب الفرنسي، وهي تمثل تلك المرحلة وتكمل الاستمرارية في فن العمارة في أبنية حلب منذ القرن الثاني عشر وحتى الآن، لذلك يجب المحافظة على نماذج منها.

بلدية حلب وأول مخطط تنظيمي لها:

أنشئت أول بلدية لمدينة حلب على الطراز الأوروبي عام ١٨٦٨. وبدأت تظهر الأبنية المتأثرة بالطراز الأوروبي من حيث اختفاء صحن الدار والبناء على شكل طبقتين والانفتاح على الشارع الخارجي بدل الانفتاح على صحن الدار (الباسيو).



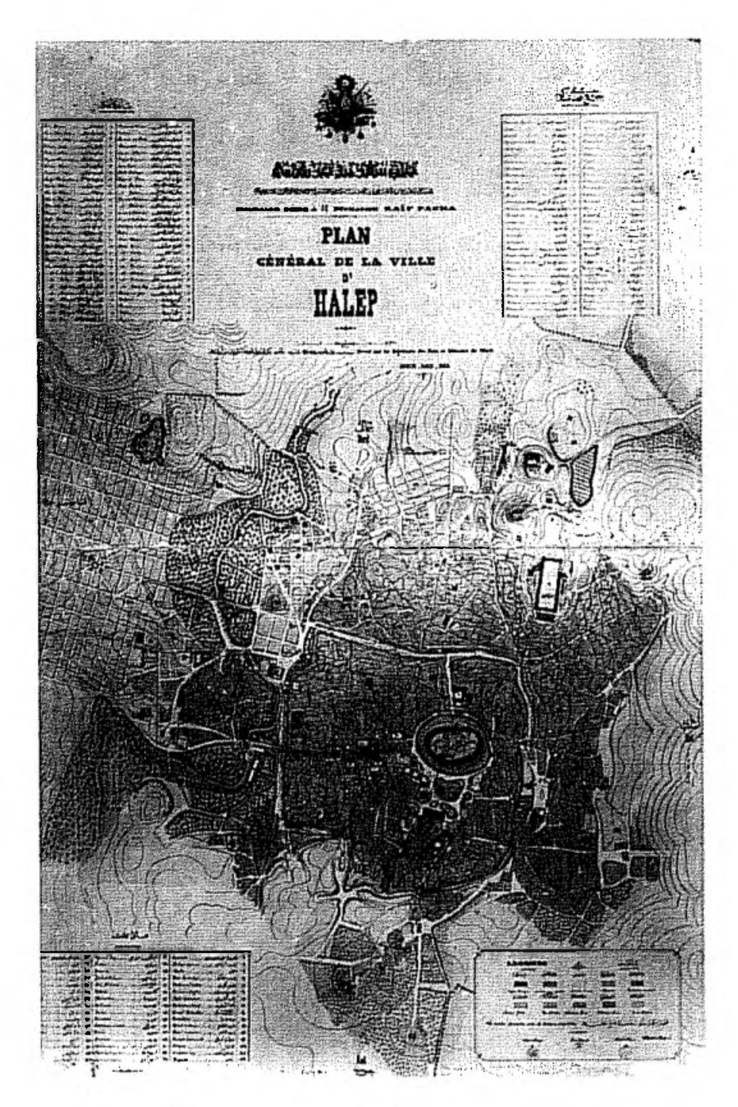
مخطط يونغ (دليل بيدكيه)

ولم يكن هناك مخطط بمعنى الكلمة لمدينة حلب بل كان هناك خريطة (كروكي) تقريبية رسمها نيبور مذكورة في كتاب "تاريخ حلب الطبيعي" للأخوين راسل يبين وضع الأحياء والأبنية الرئيسية داخل وخارج أسوار المدينة. كما كان هناك مخطط تقريبي نفذه عام ١٨١٨ قنصل فرنسا روسو بدون مقياس يبين المناطق والأحياء والمباني القائمة آنئذٍ. لذلك كانت

الخطوة الطبيعية الأولى بعد إنشاء البلدية العمل على إعداد مخطط لتنظيم العمران بموجبه يرافقه بالطبع النظام العمراني الواجب اتباعه.

١) بناء على تكليف من الحكومة العثمانية عام ١٨٨٢ قام المهندس الألماني يونغ Yung بعمل أول مخطط تنظيمي لمدينة حلب لتطوير أحياء المدينة الجديدة جهة الغرب ، وكان ذلك بتاريخ ١ تشرين الأول ١٣١٥ / ١٨٩٩ أيام الوالي رائف باشا ، وكان ابنه راغب باشا مهندساً تخرج من كلية الفنون الجميلة في باريس ويعمل مع المهندس الفرنسي شارل شارتييه مهندس البلدية. وقد اعتمدت دائرة الشؤون الفنية بحلب المخطط بتاريخ ٢٩ /١ /١٩١٥. وقد اعتمد في المخطط التخطيط الشطرنجي على الطريقة الأوروبية للشوارع المتوازية والمتعامدة وانفتاح الواجهات عليها وإقامة الطبقات المتعددة بعد وصول الجيزان المعدنية على شكل حرف I المصنعة في أوروبا عن طريق الخط الحديدي. وأصبحت منطقة باب الفرج هي صلة الوصل بين القسم التجاري لأسواق المدينة والقسم السكني الجديد في الشمال والغرب. كما أصبحت منطقة بستان كل آب مركز فنادق ومكاتب الاستيراد والتصدير والمصارف. وبني برج الساعة في باب الفرج عام ١٨٩٩ نقطة وصل بين المدينة القديمة والحي الجديد. وأنشيء فندق بارون عام ١٩١١ لتنزل فيه الشخصيات البارزة القادمة من أوروبا مع قطار الشرق السريع ، وبنيت محطة الشام عام ١٩٠٦ ومحطة بغداد عام ١٩١٢ ، وعن طريقهما بدأت تصل الجيزان الحديدية لإنشاء مبان بعدة طبقات ذات أكشاك وشرفات (بلكونات) مطلّة على الشوارع العريضة.

رُسم المخطط على لوحة بأبعاد ١٠٠ ×٦٥ سم وبمقياس ١/٥٠٠٠. وذكر في الزاوية الشمالية الشرقية منه ٦٠ اسماً لجوامع ومباني مباركة ، وفي الزاوية الشمالية الغربية حوالي ٦٠ اسماً لمباني عالية (حكومية وفنادق وخانات وقناصل كان من بينها قنصلية ألمانيا (رقم ١١٧) في العقبة جنوب شرقي جامع القيقان) ومكتب إعدادي ملكي (السلطانية أو المأمون) (رقم ٧١) وجامع حميدية (زكي باشا المدرس) (رقم٣١) ومخفر السبيل (رقم ٧٤) ومخفر العزيزية (رقم ٧٥) وقنصلية إيطاليا (رقم ١١٤) وقنصلية إنكلترا (رقم ١١٥) وقنصلية روسيا (رقم ١١٨). وذُكر في الزاوية الجنوبية الغربية من المخطط أسماء ٤٨ محلّة. ولم تذكر أسماء البساتين على المخطط الذي كان يظهر الجميلية والعزيزية والشمال بتخطيط شطرنجي وشوارع متعامدة. وقد كُتب في القسم الجنوبي الشرقي من اللوحة :



مخطط يونغ ١٨٩٩

اعتمدت الخريطة دائرة الشؤون الفنية بحلب بتاريخ ٢٩ /١ /١٩١٥

جابري نافع أفندي   زادة كمال الدين فتحي

٢) وبعد فترة من بدء الانتداب الفرنسي على سورية، وبعد قيام الباحث جان سوفاجيه عام ١٩٣١ وبتكليف من بلدية حلب بوضع إحصاء للمعالم الاسلامية الهامة في مدينة حلب، والذي قام الدكتور أسعد طلس بترجمته وإضافة ما كتبه عن تاريخ مباني حلب

تفصيلاً كل من الشيخين الغزي والطباخ، وأصدر كتابه عام ١٩٥٦ بعنوان "الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب"، كُلِّف المهندسان إيكوشار ودانجيه في الثلاثينيات من القرن العشرين بوضع مخطط تنظيم وتجميل وتوسيع ومشروع عمراني لمدينة حلب، حدد فيه مناطق التوسع الجديدة بشوارع جديدة امتدت داخل المدينة القديمة لتفرض عليها قوانين الأحياء الحديثة المستمدة من التخطيط الأوربي. لكن ذلك لم يتحقق لمعارضة سكان المدينة القديمة وضعف حركة المرور وعدد الآليات آنئذ.

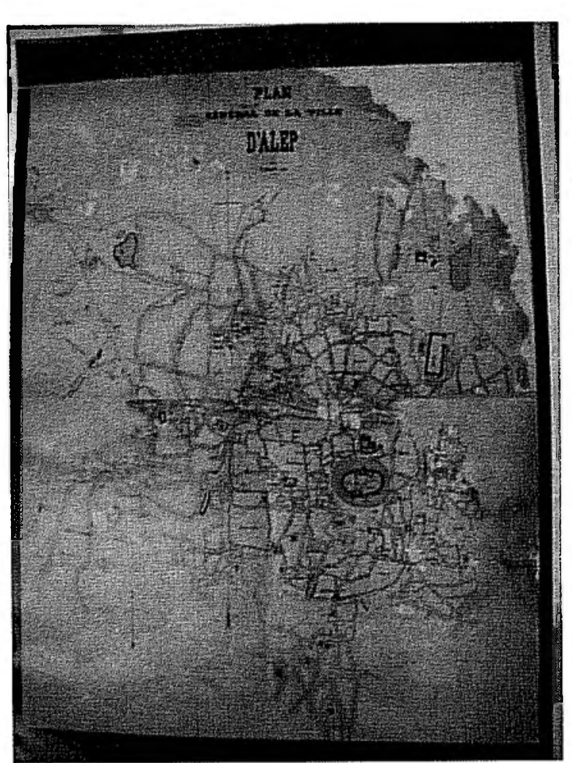
٣) وباقي القصة معروفة حول المخططات التنظيمية اللاحقة التي اعتمدت من إعداد أندره غوتون عام ١٩٥٤ وبنشويا عام ١٩٧٤ وتشكيل لجنة حماية حلب القديمة عام ١٩٧٨ ومشروع باب الفرج وشوارع الاختراق وتقريري منظمة اليونيسكو والندوة الدولية لحماية حلب القديمة عام ١٩٨٣ ومخطط التوسع الأخير من إعداد الشركة العامة للدراسات والاستشارات الفنية.

وصدر أخيراً النظام العمراني الدائم للمدينة القديمة عن وزير الإدارة المحلية والبيئة بالقرار رقم ١٣١٤/ق تاريخ ٢٠٠٧/٧/٩ وفقا للنسخة المحفوظة لدى الوزارة ومجلس مدينة حلب، وكلنا أمل أن تكون أفكار التراث والمعاصرة والإبداع قد تبلورت لتؤدي إلى نظام عمراني ومخطط صحي تُحترم فيه البيئة والإنسان وتكثر الحدائق والمتنزهات لحلب المستقبل التي تضجّ بسكانها، بعد مرور حوالي القرن على وضع مخطط يونغ موضع التطبيق.

أشكر الزميل مصطفى صادقلي الذي يحتفظ في مكتبه بنسخة من مخطط يونغ جلبها معه من استنبول حين تخرّجه، وقد قمت بوصفه رغم تغيّر لونه مع مرور الزمن.

كما أشكر الزميل تميم قاسمو الذي أمدني بصورة للمخطط، حصل عليها من الإنترنيت، يبدو انها مأخوذة من الدليل السياحي الألماني بيديكيه. كما نشكر سعادة قنصل تركيا بحلب الأستاذ عدنان كجاجي الذي وافانا بنسخة من مخطط يونغ الأصلي من مكتبة جامع السليمانية في استنبول، حيث توجد محفوظات (أرشيف) كنوز المعلومات الخاصة بمدينة حلب من الفترة العثمانية من مخططات وسالنامة ومخطوطات وسواها.

ملاحظة : ان الأرقام المذكورة بجانب القنصليات والمباني الأخرى مأخوذة من مخطط يونغ الأصلي وليس من المخطط السياحي المأخوذ من دليل بيديكيه عام ١٩١٢.



مخطط يونغ الأصلي

١٦) مدينة حلب القديمة

تطور المدينة:

غلب على حلب في أول مظهرها العمراني التخطيط الشبكي المعروف منذ الفترة الهلنستية ، حيث امتد الشارع المستقيم بين باب أنطاكية حيث تل العقبة القريب من نهر قويق وحتى تل القلعة الذي كان يمر منه السور الشرقي للمدينة ، وفي منتصف هذا الشارع قامت الأغورا (السوق العامة) والمعبد حيث المدرسة الحلوية والجامع الأموي حاليا ، وكانت الأحياء السكنية على طرفي هذا الشارع وضمن السور الشمالي (شارع الخندق) والسور الجنوبي الذي كان فيه باب قنسرين وباب المقام.



وتتطور المدينة وتتسع مع الفتح العربي ويدخل العرب المدينة سلماً من باب أنطاكية عام ١٧ هـ/٦٣٦ م وينشأ مسجد التروس (عند باب انطاكية) ويبنى في بداية القرن الثامن الميلادي الجامع الأموي الكبير (جامع زكريا) في حديقة ومقبرة الكاتدرائية العظمى ويتوسع الحاضر خارج سور المدينة في حي الكلاسة ، كما أن خندق الروم الواقع في الجهة الشرقية من

المدينة والذي كان منه يتم حصار المدينة أيام نقفور فوقاس في القرن العاشر يتم تعميقه أيام الظاهر غازي ليصبح هو نفسه سور المدينة الشرقي وفيه باب الحديد وباب الأحمر وباب النيرب، ويخرب هولاكو المدينة عام ١٢٦٠ م ويعيد الكرة ثانية تيمور لنك عام ١٤٠٠م، ويسكن حي الجديدة مع بداية القرن الخامس عشر بشكل واسع من قبل النصارى ويتم كذلك سكن الضاحية الشرقية للمدينة خارج السور الشرقي منذ أيام المماليك وما قبل ودليلنا على ذلك جامع الطونبغا في ساحة الملح القائم عند السور الشرقي وجامع الدرج وجامع بنقوسا وسواها. وتزداد المدينة اتساعاً بدخول العثمانيين حلب بعد معركة مرج دابق عام ١٥١٦ م حيث يزداد الازدهار الاقتصادي والعمراني من خلال فترة السلم الطويلة والأوقاف العديدة التي بنيت مع الجوامع العظيمة كالخسروفية والعادلية والبهرامية والأحمدية والجامع الأميري ووقف إبشير باشا في الجديدة وسواها. وينتشر البناء في كل مكان خارج أسوار المدينة حيث لم يكن هناك سوى بعض المدارس والجوامع المستعملة كأربطة وزوايا منذ أيام الأيوبيين مثل مدرسة الفردوس والمدرسة السلطانية البرانية والكاملية ومدرسة ابن العديم وضريح الشيخ فارس ومشهد الحسين ودكة الشيخ محسن ومشهد الانصاري ... ومقام الصالحين ومدرسة الهروي... صروح عديدة تحيط بالمدينة من خارجها وكأني بها سور معنوي لحمايتها وقد أخذت الآن تضج بالحياة والسكان والمباني المقامة بترخيص نظامي أو بدون ترخيص.

تخطيط حلب وتعريف المدينة القديمة:

أنشئت أول بلدية حديثة بحلب عام ١٨٦٧، ووضع مخطط تنظيمي للمدينة مع توسّعها في الأحياء الجديدة: العزيزية والجميلية عام ١٨٩٩ (يونغ Yung)، وقد اعتمد الشوارع العريضة والتخطيط الشطرنجي. ثمّ تتالت المخططات التنظيمية لإيكوشار ودانجه (١٩٣٦) وغوتون (١٩٥٤) وبنشويا (١٩٧٤)، وكان يواكبهم في الدراسة مهندسون سوريون ربما لم يكن الحسّ الهندسي لديهم على المستوى المطلوب. إذ أن مخطط بنشويا للمدينة القديمة ضمن الأسوار لوّن بالأحمر المباني التراثية التاريخية والمتميّزة بزخارفها الجميلة، وهي التي تضمّ إيواناً وبركة ماء وقاعة استقبال وخشبيات مزخرفة ونقوشاً حجرية في واجهات الغرف المطلّة على الباحة، ولوّن باللون الأصفر المباني العادية التي لا صفات تراثية فيها. إلاّ ان المخطّط

لحظ شوارع اختراق، منها ما هو مكمّل لما سبقه، كما في البياضة، ومنها ما هو جديد كما في حي الجديدة بدءاً من عوجة الكيالي. كما لحظ إقامة "**مشروع باب الفرج**" في الزاوية الشمالية الغربية ضمن الأسوار وبعامل استثمار كبير..أعدّت منظمة اليونيسكو والخبير ستيفانو بيانكا تقريرين عام ١٩٧٩ و١٩٨٠، أحدهما لحماية مدينة حلب القديمة، والثاني من أجل مشروع باب الفرج، وجعله بعامل استثمار مماثل لمباني المدينة القديمة.

بدأ الحوار بين أنصار الحداثة وأنصار التراث حوالي منتصف السبعينات من القرن العشرين وأثناء دراسة المخطط التنظيمي الجديد من قبل الخبير بنشويا. وصدرت قرارات وزارة الثقافة باعتبار أبنية المدينة القديمة ضمن الأسوار والضاحية الشمالية (الجديدة) ثمّ الضاحية الشرقية (بانقوسا) تتمتع بنظام عمراني خاص لا يُسمح فيه سوى ببناء طابقين وبارتفاع ٨ أمتار مع الستارة مع الحفاظ على المخطّط العقاري والباحة.

وينشط الحسّ التراثي لدى المهندسين عموماً والمواطنين بتحريض جمعية العاديات ومحبي التراث في حلب. وتشكل لجنة حماية حلب القديمة عام ١٩٧٨، من قبل وزارة الثقافة، وتقام الندوة الدولية لحماية حلب القديمة في أيلول ١٩٨٣، بهمة مجلس مدينة حلب وفرع نقابة المهندسين بحلب وتفعيل المهندس المعمار ابن البلد عدلي قدسي، شارك فيها مهندسون معماريون ومخطّطو مدن خبراء من الدول العربية والأجنبية، وكان من توصيات الندوة أن ألغيت شوارع الاختراق المخرّبة للنسيج العمراني، وأبدل مشروع باب الفرج المعتمَد بطبقات عالية وعامل استثمار كبير، بمشروع آخر ينسجم مع النسيج العمراني للمدينة القديمة، ولا يتجاوز ثلاث طبقات، وذلك بعد أن ظهر السور القديم وفصيل نور الدين في حفريات المشروع، بين باب الفرج وشارع الخندق، وهكذا انتصر أنصار التراث وتحققت بشكل مبدئي حماية المدينة.

كلمة حق تقال: إنّ مهندسنا اليوم بحسّه التراثي الناضج أفضل من مهندس الخمسينيات، وليس لنا أن نلوم المخطّطين العمرانيين على شوارع الاختراق التي مزّقت النسيج العمراني وكانت سبباً في إلغاء الخصوصيّة للسكن، وهجرة السكان لتلك الدور وتحويلها إلى مستودعات وورشات عمل صناعية صغيرة بدل السكن. إن حجّة المشرّع بفتح شارع الاختراق هي الوصول بالسيارة والمواطن إلى مراكز الإدارة الكثيفة المتمركزة حول قلعة حلب، من سرايا الحكومة وقصر العدل والخدمات الفنية وإدارة الهجرة والجوازات

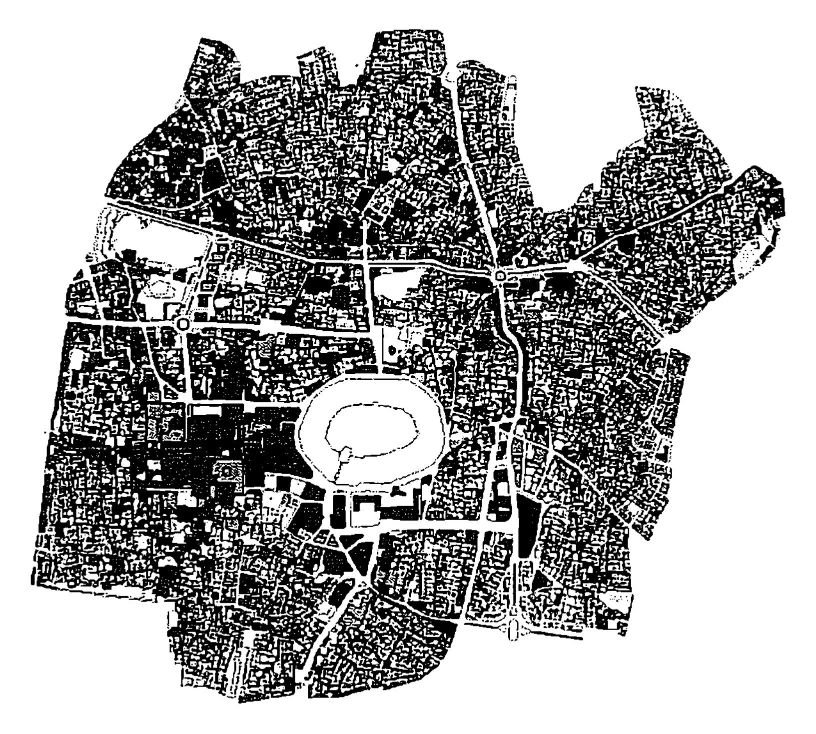
والمستشفى الوطني.. إلاّ أن واضع النظام العمراني، لو كان ناضج التفكير آنئذٍ، لكان وضع في شارع الاختراق المفتوح لإيصال السيارة إلى المركز الإداري وإن كان عريضاً، نظاما عمرانيا يسمح ببناء مساكن من طبقتين فقط مماثلة للأبنية القديمة، وبذلك تبقى الخصوصية مؤمّنة في الأبنية المجاورة ويظلّ أهلها ساكنين فيها، ولا يهجرونها بسبب الأبنية الطابقية (٦ طوابق) المجاورة، كما في بناء البلدية ودار المعلّمين وسواهما. إذاً الخطأ كان من النظام العمراني المتبنّى، وكان بإمكان مهندسينا فرض رأيهم على الخبير الأجنبي غوتون أو بنشويا، لكنهم لم يفعلوا.

وبعد جهود كبيرة سجّلت حلب القديمة لدى اليونيسكو في نهاية عام ١٩٨٦ تراثاً عالمياً مهدّدا بالخطر، واتخذت الخطوات المتسارعة لحماية التراث بإنشاء لجنة حماية حلب القديمة وإنشاء مكتب المدينة القديمة.

مدينة حلب القديمة:

تحدد المدينة القديمة في المخطط التنظيمي المنظم من قبل بنشويا والمعتمد اعتباراً من عام ١٩٧٤ بالمدينة القديمة ضمن الأسوار ومساحتها ١٨٥ هكتاراً، ويضاف إليها الضاحية الشمالية (الجديدة) والضاحية الشرقية بنقوسا وحارة الباشا بمساحة حوالي ١٧٠ هكتاراً وبذلك تبلغ مساحة المدينة القديمة بكاملها حوالي /٣٥٥/ هكتاراً. وتضم المدينة القديمة ١٠٠٠٠ عقار سَكَنَ ٦٠ ٪ فقط مواطنون بلغ عددهم حوالي ١٠٠٠٠٠ ساكن وحوّلت باقي العقارات إلى مستودعات وورشات عمل صناعية صغيرة وغالباً ضارة.

وحُدد نظام عمراني مؤقت خاص لهذه المدينة القديمة يُعمل به بعد تصديقه من وزارة الإسكان والمرافق عام ١٩٩٢، ومن خلال هذا النظام المؤقت يسمح فقط بالترميم، وبحدود ضيقة جداً بالهدم وإعادة البناء ضمن ارتفاع /٨/ م وطبقتين فقط مع المحافظة على الفسحة السماوية للعقار بعد أخذ الموافقة مسبقاً من لجنة حماية حلب القديمة، التي تشكل عادة من قبل رئاسة مجلس الوزراء وهي برئاسة المحافظ. وهذه اللجنة تستعين بلجنة فنية منبثقة عنها يشكلها السيد المحافظ من الفنيين المهتمين بالمدينة القديمة تقترح الحل لكل مشكلة عقار تعرض لتستأنس به لجنة حلب القديمة فتقبله أو ترفضه.



مخطط مدينة حلب القديمة ضمن وخارج الأسوار (من GTZ)

دراسة المخطط التنظيمي الموسع ومشروع الإحياء:

وقامت الشركة العامة للدراسات والاستشارات الفنية بدراسة المخطط التنظيمي الجديد لمدينة حلب الكبرى وتوسعها المستقبلي حتى عام ٢٠١٥ مع تحديد مواقع المناطق الصناعية والتوسع السكني. كما يجري في الوقت نفسه ومنذ عام ١٩٩٣ تنفيذ مشروع "إعادة إحياء حلب القديمة " الممول من قبل وكالة المعونة الألمانية وبنك التنمية والإنماء الاجتماعي الكويتي حيث تمت الدراسات التوثيقية والمساحية والاجتماعية للأبنية والسكان بما في ذلك البنية التحتية والمرور واستعمال الأراضي في جميع مناطق المدينة القديمة ضمن الأسوار والضاحيتين الشمالية والشرقية ، وبدئ بتنفيذ الأعمال النموذجية بدءاً بالبنية التحتية في المشروع الرائد الذي اختير في" حي باب قنسرين" لتعمم أعمال التنفيذ على مناطق المدينة القديمة الأخرى كالجديدة والقصيلة وقلعة الشريف وسواها ومناطق المدينة القديمة بكاملها حال توفر الأموال اللازمة لذلك. وجرى ترميم جناح كامل من بناء مدرسة الشيباني وتم تدشينه مؤخراً ليكون

معرضاً دائماً لمدينة حلب القديمة. وسوف تتابع أعمال الترميم في البناء المذكور وضمن أعمال مشروع إعادة الإحياء ليتم توظيفه بالكامل في مجال الفعاليات الثقافية والاجتماعية والسياحية التي تحتاجها المدينة.

النظام العمراني الدائم للمدينة القديمة:

لقد آن الأوان بعد أن تمت دراسة شاملة من قبل مشروع الإحياء لجميع مناطق المدينة القديمة وضاحيتها وعُرفت حاجة كل منطقة إلى الخدمات العامة من روضات ومدارس وحدائق ومستوصفات ومراكز ثقافية وساحات وأماكن وقوف عامة وسواها، على ضوء خطة المرور الشاملة المدروسة للمدينة القديمة مع واقعها وما يحيط بها من المدينة الحديثة ككل، وعُرف بوضوح استعمال الأراضي لكل منطقة لذلك لم يعد هناك من موجب والدراسات جاهزة ومتكاملة، للاستمرار في تطبيق النظام العمراني المؤقت للمدينة القديمة لعام ١٩٩٢.

والمطلوب الآن تشكيل لجنة من المختصين، تضمّ حقوقيين قانونيين واقتصاديين إلى جانب المعماريين ومنظّمي المدن، تقوم بوضع النظام العمراني الدائم للمدينة القديمة ينبع من روح الحفاظ على النسيج العمراني التراثي بأبعاده الإنسانية من حيث الفراغ والارتفاع /٨/م قطعاً، والمنبثق من خصائص مدينة حلب بالذات أصالة وتراثاً، لا أن يكون صورة طبق الأصل لنظام مدينة دمشق القديمة، ويؤمن بناء معاصراً حديثاً اقتصادياً ومريحاً وجميلاً ضمن إبداعات القرن الحادي والعشرين والتقدم التكنولوجي فيه. وأرجو أن نكثر من الحدائق وملاعب الأطفال المحمية وساحات وقوف السيارات الصغيرة ونوافير المياه... واضعين نصب أعيننا الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث وفي ذلك حماية للإنسان. ويُعرَض هذا النظام على مجلس المدينة ونقابة المهندسين والمواطنين لمناقشته وإغنائه ثم يُسعى لتصديقه من قبل وزارة الإسكان والمرافق تمهيداً لاعتماده والعمل به.

كما أنه لا بدّ من القيام بدراسة متكاملة لربط المرور في المدينة القديمة ومنافذها مع أجزاء المدينة الحديثة وأقلمتها لتنسجم هذه الأجزاء المجاورة فتكون مرحلة انتقال تدريجية بين المدينة القديمة والحديثة مع استعمال بعض مساحاتها بشكل مساعد على الحركة في المدينة

القديمة مثل أماكن وساحات وقوف وحدائق وسواها، وتُستبعد الأبنية متعددة الطبقات مثل بناء فندق الأمير (ميراج) من مناطق الانتقال المجاورة مباشرة للمدينة القديمة.

وأخيراً أملنا كبير أن يتمّ فعلاً، وليس على الورق، تنفيذ أعمال المنطقة الصناعية الجديدة في المخطط التنظيمي، فيتم نقل المعامل والورشات الصناعية الصغيرة الضارة إليها ليجري إعادة توظيف المباني التي كانت تشغلها بما هو مفيد أو إعادة السكن فيها.

مشروع إحياء مدينة حلب القديمة

قامت الوكالة الألمانية للتعاون التقني GTZ حال تكليفها بمشروع إحياء مدينة حلب القديمة بتشكيل الكادر الفني للعاملين في المشروع من خبراء أجانب ومحليين تمهيداً لجمع المعلومات المطلوبة لعمل تقرير فني وآخر اجتماعي لمباني وسكان المدينة القديمة المحددة بالمناطق المسكونة داخل الأسوار وفي الضاحيتين الشمالية (الجديدة) والشرقية (بنقوسا). وقامت بإعداد جميع المعلومات المطلوبة بشكل علمي ومدروس وبمشاركة جميع الأطراف المعنية، وذلك عن طريق "ورشات العمل" التي أقيمت وتقام خلال وبعد كل مرحلة من مراحل تقدم المشروع. حيث يتم، باستعمال طريقة " التخطيط الموجّه بالأهداف" تحليل عناصر المشاكل القائمة ومن قبل جميع الأطراف المعنية من أصحاب العلاقة، ومن ثمّ يتمّ تركيبها مع الحلول المقترحة والمناسبة لكل مشكلة ووضع آلية العمل للنهوض بالوضع القائم وتطويره بموجب العناصر المتوفرة والتدخل الواجب إضافته لاستكمال الهدف المطلوب بشكل صحيح. وهكذا تم نتيجة التقرير الفني والاجتماعي للمشروع ككل اختيار "حي باب قنّسرين" كمشروع رائد pilot project لبدء عمليات الإحياء فيه ومن ثمّ تعميمها على المناطق الأخرى من المدينة القديمة ضمن الأسوار وخارجها.

والآن وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على بدء مشروع إحياء حلب القديمة، فقد لمس المواطن الحلبي، الذي يعيش في المدينة القديمة والذي يزورها بين حين وآخر، التطور النوعي الذي تم في مناطق الأحياء التي تمّت معالجتها في باب قنسرين والجديدة والقصيلة وسواها. وكلنا اعتزاز اليوم بأنه أصبح لدينا كوادر مؤهّلة وزملاء قياديون في عمليات التخطيط والبرمجة والتحليل والتركيب بالإضافة إلى " بنك معلومات" جاهز بطريقة "نظم المعلومات الجغرافية" GIS

لتزويدنا بما نريد عن مناطق المدينة القديمة المدروسة بالتفصيل، خرائط ومسطّحات ومقاطع وواجهات ومميّزات معمارية بالنسبة لكل عقار، من بنية تحتية واجتماعية وفيزيائية وأفضليات تأهيل وإحياء بحسب العناصر المختلفة الفاعلة من حجر وبشر. بالإضافة إلى مخططات المرور ومياه الشرب والصرف الصحّي والمخططات الاقتصادية والبيئيّة...

لقد كنا نشكو دائماً، في ندواتنا المختلفة التي تُعقد لدراسة مشاكلنا التنموية المختلفة وما أكثرها، من أننا في نهاية الندوة نضع "توصيات" غالباً لا تكون هناك لجنة متابعة أو من يهتم بوضع تلك التوصيات، وبشكل مبرمج، موضع التنفيذ. من هنا نجد أهمية الاستفادة من طريقة "التخطيط الموجّه بالأهداف" ZOPP التي طبقت بشكل رائع على مجلس مدينة حلب المنتخب حديثاً ونصف أعضائه من الزملاء المهندسين، وحددت الهموم بشكل موضوعي وكذلك الحلول التي نأمل أن تأخذ طريقها إلى التنفيذ. وحبذا لو تطبّق الطريقة نفسها على الأمور الحيوية الأخرى في مجال الزراعة والصناعة والتجارة وفي مجال السياحة كذلك.

ونأمل أن توضع برامج العمل المدعمة بالتمويل اللازم بعد **دراسة صحيحة** لأضابير الأعمال المطلوبة **وتدقيق الدراسة** من قبل ذوي الخبرة في تلك الأعمال، **وتلزّم أعمال التنفيذ إلى المقاولين أصحاب الاختصاص والخبرة،** لا أن تعطى لمن يقدّم أقل سعر من المقاولين ممن لم يعمل مسبقاً في تنفيذ أعمال مماثلة. وتحدّد مسؤولية المتابعة من قبل **مشرفين على التنفيذ ذوي خبرة عالية** يساعدون في حل المشاكل التي قد تظهر، وسوف تظهر بلا شك، أثناء التنفيذ. وهكذا تجري الأمور بشكل صحيح وتنفذ الأعمال ضمن المدة المحددة في العقد وتصرف الأموال المخصّصة لها. **إن الأعمال في المدينة القديمة هي فنية بالدرجة الأولى وتراث يجب التعامل معه بشفافية وحذر،** لذلك يتطلب توفر الخبرة الفنية في جميع الأطراف من دارس ومنفّذ ومشرف يتعاونون بروح واحدة لتأمين التنفيذ الأمثل وضمن المدة المحدّدة.

فهل نأمل مزيداً من الاهتمام كي لا تتكرّر مأساة ترميم مدرسة الشيباني التي راح ضحيّتها عمّال كادحون، وأمامنا الكثير الكثير من المشاريع في مختلف مناطق المدينة القديمة التي لا زالت تنتظر اليد الحانية ودورها لتدخل ضمن برنامج الحفاظ الذي سيحتاج إلى الكثير من التمويل والعديد من السنين، وقد بدأنا بشكل صحيح خطوات الرحلة الطويلة التي

ستأخذ عقوداً من الزمن، ومن سار على الدرب وصل. مدينتنا تستحق كل خير فلننهض بها كما يجب، ونباهي بها بين مدن العالم، وليكن حاضرها اليوم كماضيها الغابر المجيد.

عشرون عاماً على الندوة العالمية لحماية حلب القديمة[(١)]





الندوة الدولية لحماية حلب القديمة أيلول ١٩٨٣

كانت الندوة العالمية لحماية حلب القديمة التي دعت اليها نقابة المهندسين بالتعاون مع مجلس مدينة حلب والتي عُقدت في أيلول من عام ١٩٨٣ منعطفاً تاريخياً هاماً في طريق الحفاظ على النسيج العمراني لمدينة حلب القديمة ضمن الأسوار وفي ضاحيتيها الشمالية والشرقية. وقد أدت التوصيات التي شارك في إعدادها خبراء محليون وأجانب عالميون معروفون من أمثال شربان كونتاكوزينو وستيفانو بيانكا وجون وارن والدكتور عبد الباقي إبراهيم وأندريه ريمون ودومينيك شوفالييه وجان كلود دافيد وسواهم إلى تحديد الخطوات الواجب تنفيذها لحماية النسيج العمراني وبالتالي التراث من التخريب. وكان من نتائج هذه التوصيات إيقاف شوارع الاختراق في أحياء المدينة القديمة (في البيّاضة وباب قنسرين - ساحة بزة وفي الجديدة) وإيقاف تنفيذ مشروع باب الفرج ذي عامل الاستثمار الكبير والطبقات العالية والذي تم بموجبه تنفيذ

---

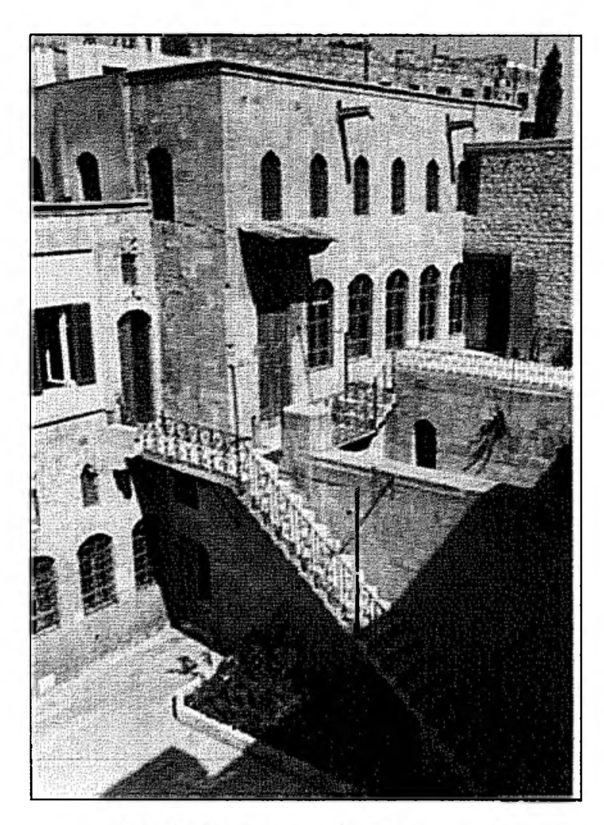
(١) لمعرفة المزيد عن محاضرات المشاركين وتوصيات الندوة الدولية لحماية حلب القديمة يرجى العودة للتقرير الذي نشره المؤلف في مجلة المهندس العربي العدد ٧٤ عام ١٩٨٣ ص ٦-١٦.

مباني شارع عبد المنعم رياض بطبقاتها السبع والتسع، واستبداله بمشروع ينسجم مع النسيج العضوي للمدينة القديمة أي بمباني ذات طبقتين أو ثلاث طبقات على الأكثر.

كما تم إنشاء مكتب المدينة القديمة للاهتمام الجدي بمبانيها وصيانتها التي تحتاج إلى خصوصية ودقة تميّزها عن المدينة الحديثة بشكل عام. وجهّز قطّاع خاص بين قطاعات صيانة مجلس مدينة حلب الحديثة لتأمين الخدمات في المدينة القديمة مع ما يستلزم ذلك من آليات صغيرة الحجم للدخول إلى الشوارع الضيقة.

كما تمّ بنهاية عام ١٩٨٦ تسجيل مدينة حلب القديمة لدى منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمي World Heritage المهدد بالخطر وواجب الحماية. ووجّه السيد رئيس مجلس الوزراء محافظ حلب إلى ضرورة الاهتمام بحلب القديمة بعد تسجيلها كتراث عالمي. وقد قامت "لجنة حماية حلب القديمة" التي يُعيَّن أعضاؤها من قبل رئاسة الوزراء وهي برئاسة محافظ حلب وبالتعاون مع "اللجنة الفنية" المنبثقة عنها والتي ترفدها بالمشورة الفنّية، بدراسة مواضيع التراخيص في عقارات المدينة القديمة ودراسة كل حالة على حدة ضمن الأنظمة العمرانية المعمول بها، وفي مقدمتها "النظام العمراني المؤقت" الذي صدّقته وزارة الإسكان عام ١٩٩٢ والمشابه تماماً للنظام العمراني لمدينة دمشق القديمة، والذي يسمح بأعمال الترميم فقط والحد الأدنى من التدخلات وأعمال التعديل ضمن حدود ضيقة جداً، وذلك بالطبع بعد تصديق لجنة حماية حلب القديمة.

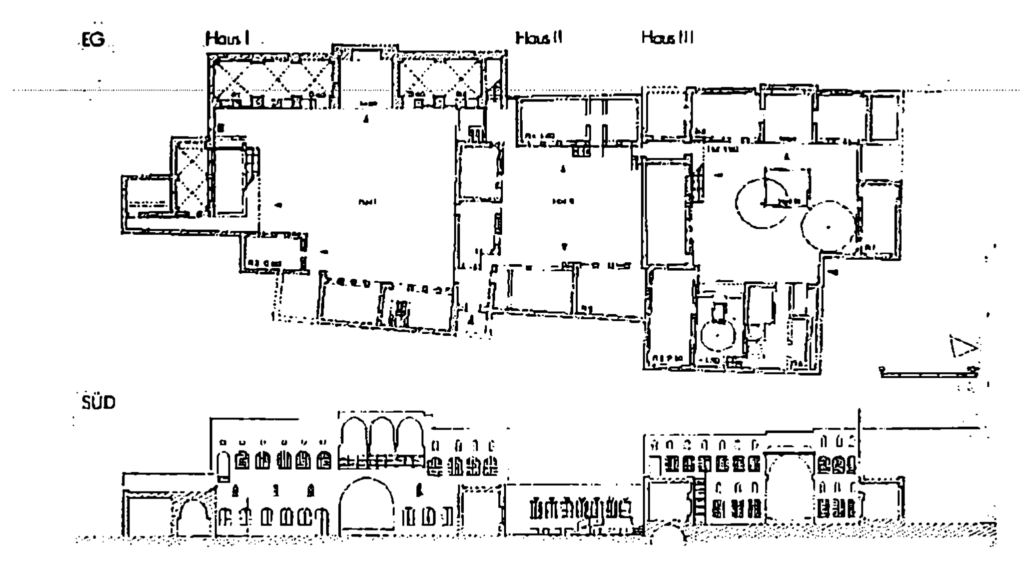
وكانت نقطة التحول الهامة في التعاقد عام ١٩٩٢ بين هيئة تخطيط الدولة ومجلس مدينة حلب وبين الوكالة الألمانية للتعاون التقني GTZ ثم مع البنك الكويتي للتنمية الاجتماعية لإنشاء "مشروع إعادة إحياء حلب القديمة" بغية الحفاظ على المدينة القديمة والارتقاء بها عمرانياً واجتماعياً أي الاهتمام بالبشر والحجر.



قاعة الاستقبال في مدرسة سيف الدولة

وهكذا تم ترميم مدرسة سيف الدولة في حي الفرافرة لتصبح مقراً لمشروع الإحياء الذي شارك فيه الخبراء الأجانب والمحليون في أعمال التوثيق ووضع التقرير الفني والاجتماعي وتم انتخاب حي باب قنسرين ليكون المشروع الرائد تطبق فيه أعمال الإحياء ثم تعمّم على مناطق المدينة القديمة الأخرى داخل الأسوار وخارجها... وليس المجال هنا لذكر الأعمال الكبيرة التي قام بها مشروع الإحياء. وما أودّ أن أذكره، بعد أن توضّحت الرؤية بدراسة حالات جميع مناطق المدينة القديمة وحاجتها للحدائق ودور الحضانة والمدارس والخدمات الصحية وسواها مع الواقع الفيزيائي والاجتماعي، وبعد أن صدر مخطط استعمال الأراضي بعد تصديقه من الجهات المعنية. وبعد مرور أكثر من عشرين عاماً على ندوة حماية حلب القديمة و ١٢ عاماً على العمل بالنظام العمراني المؤقت الذي قيّد المدينة القديمة وجمّدها، أعتقد أنه آن الأوان لإصدار نظام عمراني جديد ودائم للمدينة القديمة يناقَش من قبل المهتمين بالتراث ويعتمد

الضوابط الصحيحة لتحقيق التراث والمعاصرة في الوقت نفسه، ويفسح المجال أمام إبداع عمارة عربية تراثية أصيلة تنسجم مع النسيج العمراني وتتفاعل معه اجتماعياً بشكل مقبول وجميل.



مسطح مدرسة سيف الدولة (مركز حماية مدينة حلب القديمة)

إن ما تحقق من أعمال الإحياء في المدينة القديمة خلال العشرين عاماً الماضية كان جيّداً، ونأمل أن تتوفر الإمكانيات المالية لتأمين السرعة في إنجاز برامج الأعمال المطلوبة في الأسواق والخانات والمباني وما أكثرها والتي يستغرق إنجازها عدة عقود، ونحن في صراع مع الزمن من أجل تطوير مدينتنا التي نحبّ والمحافظة على تألّقها الدائم.

حلب ١٠/٣/٢٠٠٤

ورشة عمل لمناقشة النظام العمراني الدائم لمدينة حلب القديمة

دعا مجلس مدينة حلب وفرع نقابة المهندسين ومشروع إحياء حلب القديمة يوم الثلاثاء الواقع في ١ /٢ /٢٠٠٥ إلى ورشة عمل عقدت في قاعة محاضرات فرع نقابة المهندسين بحلب، شارك فيها عدد كبير من الزملاء المهندسين المهتمين بالمدينة القديمة ومعظمهم من مديريتي الآثار والسياحة ومن مجلس المدينة والعاملين في المدينة القديمة ومديرية الأوقاف، والزملاء أصحاب المكاتب ذوو الخبرة في العمل ومعالجة أمور المدينة القديمة، والزملاء الأعضاء في مجلس المدينة المنتخب وفي لجنة التراث وقسم هندسة العمارة والندوات والنشر والإعلام وكذلك عميد وبعض أساتذة كلية الهندسة المعمارية في جامعة حلب.

كان هدف ورشة العمل مناقشة وإغناء مشروع النظام العمراني لمدينة حلب القديمة الذي أعدّته اللجنة الفنية المنبثقة عن لجنة حماية حلب القديمة، استناداً إلى مخطط استعمال الأراضي الذي تم إعداده بعد دراسات عميقة لوضع واحتياجات جميع مناطق المدينة القديمة (المحددة بالمدينة ضمن الأسوار وفي ضاحيتيها الشمالية والشرقية) وذلك للوصول إلى نظام عمراني دائم بدل النظام العمراني المؤقت الذي يُعمل به منذ عام ١٩٩٢.

استهل ورشة العمل الدكتور المهندس معن شبلي رئيس مجلس المدينة بكلمة توجيهية، ثم المهندس عمار غزال مدير المدينة القديمة الذي رحب بآراء الزملاء لإغناء النظام المقترح، ثم عرض المهندس مازن السمان مواد أبواب النظام العمراني الذي وُزعت نسخ منه على المشاركين.

امتدت جلسة العمل من التاسعة والنصف صباحاً وحتى الثالثة بعد الظهر، تمّ فيها عرض أبواب النظام العمراني بنداً بنداً. وقد قام الزملاء المهندسون مارلين أسعد وخير الدين الرفاعي وعمار غزال ومازن السمان، ممثلو اللجنة الفنية واضعة النظام والآثار ونقابة المهندسين ومجلس المدينة ومشروع الإحياء، بالإجابة على استفسارات الزملاء حول مواد وبنود النظام. ثم بدأت مشاركة الحضور عن طريق "تخطيط المشاريع وفقاً للأهداف" ZOPP التي تنتهجها بشكل ناجح وكالة التعاون التقني الألمانية GTZ في مشروع الإحياء. وقد كان منسّق ومحرّك (ديناميك) ورشة العمل الدكتور المهندس محمود فيصل الرفاعي الخبير في مشروع الإحياء والذي شارك ويشارك في معظم فعاليات أعمال الارتقاء بالمدينة القديمة من بنيات تحتية إلى مواضيع المرور والتخطيط وسواها.

تتميز حلب القديمة عن بقية المدن العربية التراثية بكونها مدينة حيّة تسكن وتضجّ بالحياة والحركة، وليست متحفاً أو سوقاً يقصده السياح فقط. وهي مدينة متكاملة ضمن نسيجها العمراني يسكنها حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة يجب أن تؤمَّن لهم الخدمات والمرافق، كما تؤمَّن الحماية للعشرة آلاف عقار. منها حوالي ألف عقار تضم مباني تاريخية وأخرى متميزة من سكن ومساجد وجوامع ومدارس وخانات وحمامات.. وفعاليات أخرى، يربطها فيما بينها هذا النسيج العمراني الأصيل وواجب الحماية.

إن الإدارات التي تهيمن بأحكامها وقوانينها على المدينة القديمة وقوانينها هي بالدرجة الأولى مديرية الآثار ومديرية السياحة ومجلس المدينة (المدينة القديمة) وكذلك مديرية الأوقاف، مالكة أهم العقارات التاريخية. وقد أبدى الأستاذ نديم فقش مدير الآثار، ومدير السياحة لفترة طويلة سابقاً، دور كل من المديريتين في حماية تراث حلب وتطويره، حيث أننا جميعاً فريق عمل واحد، مع ضرورة إزالة المعيقات الوصائية المركزية للنهوض بالمدينة القديمة. كما قدم الزميل جمال دركزنلي مداخلات هامة واعية حول إخضاع نصوص ومواد النظام بشكل عام لأحكام القانون والنص التشريعي، دون الدخول بالأمور التفصيلية التي تدرس محلياً وتعدّل في المستقبل على ضوء الحاجة والأمور المستجدّة، بقرارات محلية تصدر عن مجلس المدينة بحلب.

كما قام بعض الزملاء المهتمين وذوي الخبرة من خلال عملهم في المدينة القديمة من أمثال الزملاء المهندسين نبيل قصبجي وخلدون فنصة وبطرس مرجانة وسواهم بإغناء بعض الفقرات إضافةً وتعديلاً، مع طلب إضافة مزيد من التعاريف الأساسية في مقدمة النظام وتحديدها بوضوح. كذلك طلب الزملاء المشاركون الإسراع بإنجاز المخططات التفصيلية لاستعمال الأراضي لكل منطقة من المدينة القديمة.

كما كان بين المداخلات طلب دراسة منطقة الحماية (أي منطقة الانتقال بين المدينة القديمة والجديدة) وضرورة دراسة وضع نظام عمراني لها يكون مرناً ومتكاملاً مع نظام المدينة القديمة، من مواقف وحدائق وساحات وخدمات ضرورية عجزت المدينة القديمة عن استيعابها، لتكون مجالاً حيوياً لتوسعها فيها.

كانت ورشة العمل غنية بيّنت الوعي العميق للعاملين في المدينة القديمة على اختلاف إداراتهم، والكفاءة والخبرة التي تكوّنت لدى كوادرنا المحلية ومهندسينا، وبشكل خاص الحس التراثي الذي كان يفتقده معظم مهندسينا في بداية الخمسينات من القرن الماضي وما قبلها، مما أدّى إلى تخريب النسيج العمراني بفتح شوارع الاختراق العريضة ووضع نظام سمح بالأبنية العالية التي قتلت خصوصية السكن المجاور وهجّرت السكان وأحالت العديد من العقارات إلى ورشات صناعية صغيرة ومستودعات.

لقد جُمّدت المدينة القديمة بغية حمايتها منذ صدور قرار وزارة الثقافة بإنشاء لجنة حماية حلب القديمة عام ١٩٧٨ وقرارات منع الهدم والبناء ضمن الأسوار وفي الضاحيتين الشمالية والشرقية. وعُقدت الندوة العالمية بحلب عام ١٩٨٣ وكان من نتائجها توصيات هامة بإيقاف شوارع الاختراق ومشروع باب الفرج ذي الطبقات العالية. وسُجلت حلب من قبل منظمة اليونيسكو بنهاية عام ١٩٨٦ ضمن التراث العالمي المهدد بالخطر. وصدر النظام العمراني المؤقت عام ١٩٩٢. وأَنجز مشروع الإحياء منذ إنشائه عام ١٩٩٢ وحتى الآن الكثير وفي مقدمة ذلك، وبالإضافة إلى التخطيط والبرمجة والتنظيم والدراسات المختلفة، تدريب كوادر العاملين وإكسابهم الخبرة الكافية وتنمية قدراتهم على تطوير الدراسات عن طريق ورشات العمل وتخطيط المشاريع وفقاً للأهداف والتي تشارك فيها جميع الجهات المعنية.

وها هو مشروع النظام العمراني لحلب القديمة، نتيجة الخبرة والممارسة في التعامل مع المدينة القديمة، خطوة صحيحة رائدة للنهوض بالمدينة بشكل واع وحذر بعد الجمود الطويل. ونأمل أن ينال، بعد أخذ ملاحظات ورشة العمل بعين الاعتبار، التصديق من قبل وزارة الإسكان والإدارة المحلية ليجري العمل به أصولاً. مع وجوب ترك المجال للمهندسين المعماريين ضمن حرية كافية *لإبداع عمارة تراثية ومعاصرة* في الوقت نفسه، على الأقل ضمن منطقة الحماية (الانتقال) وفي الأقسام المهترئة والمتهدمة من المدينة القديمة التي يُسمح فيها بإعادة البناء.

أجل إن المدينة القديمة اليوم بأيدٍ أمينة ترعاها وتسعى لتطويرها. ونتمنى أن يُرصد المزيد من التمويل (داخلي أو خارجي عن طريق الهيئات الدولية المهتمة مثل الكويت والمجموعة الأوروبية ومؤسسة الآغا خان للثقافة واليابان وسواها) لتوسيع عمليات الإحياء لتشمل

جميع مناطق المدينة القديمة وضمن خطط زمنية مبرمجة، أسوة بما تم في تجربة المشروع الرائد في حي باب قنسرين، لأن الزمن عامل هام جداً. وأرجو أن تكون روح المرحوم الدكتور إحسان شيط، ابن حلب البار ونصيرها والركن الكبير والقطب الديناميكي في جمعية العاديات ترمقنا ببسمة رضى لما تم عمله في حماية محبوبته ومحبوبة الجميع حلب.

حلب ٢٠٠٥/٢/١

ملاحظة:

وأخيراً صدر نظام ضابطة البناء في المدينة القديمة **بالقرار رقم ١٣١٤/ق تاريخ ٢٠٠٧/٧/٩ عن وزير الإدارة المحلية والبيئة** وفقاً للنسخة المحفوظة لدى كل من وزارة الإدارة المحلية والبيئة ومجلس مدينة حلب. أي صدر النظام العمراني الدائم بعد ١٥ عاماً من صدور النظام المؤقت الذي عُمل به منذ عام ١٩٩٢، كانت الأمور خلالها تصرّف ويُبَتّ فيها من قبل لجنة حماية حلب القديمة مع اللجنة الفنّية المنبثقة عنها حسب القرارات النافذة، والتي جمدت نسبياً الحركة العمرانية في المدينة القديمة حماية لها من أيدي تجّار البناء الجشعين اللاواعين قيمة التراث الحضاري الذي تضمّه المدينة بنسيجها الحيّ والمتجانس.

١٧) حلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

تم اختيار مدينة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م لأهميتها من حيث المكان والزمان والحضور التاريخي المستمر منذ آلاف السنين، والمحطات التاريخية الإسلامية المتميّزة فكرياً وعمرانياً منذ أيام سيف الدولة الحمداني رمز البطولة الحقة والزود عن الوطن وبلاطه الشهير بما ضمّه من علماء وأدباء وشعراء، وكذلك أيام نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي التي تمّت فيها استعادة القدس من الفرنجة عام ١١٨٧ م، والنشاط الاقتصادي المتميّز منذ أيام الأيوبيين ثم المماليك والعثمانيين، والمساهمة في النهضة الفكرية الحديثة برجاله المفكرين من أمثال الدلال والمراش والكواكبي وحسون ومطبعتها العربية الأولى (١٧٠٢ م) في الوطن العربي، والكثافة الغزيرة للمعالم والمباني التاريخية المدنية والدينية من الفترات العربية الإسلامية بدءاً بالأمويين وانتهاءً بالعثمانيين من مدارس ومساجد وحمامات وبيمارستانات وأسواق وخانات وقيساريات...(نعدد منها على سبيل الدلالة لا الحصر قلعة حلب، سور المدينة وأبوابها، الجامع الأموي، جامع الفردوس، البيمارستان النوري، المدرسة السلطانية، جامع الطونبغا والأطروش والطواشي وحمام يلبغا الناصري وجامع الخسروفية والعادلية والبهرمية والعثمانية وخان الصابون وخاير بك وقورت بيك وخان الحبال والبنادقة والنحاسين والعلبية والوزير والشونة ومصبنة الزنابيلي وفنصة والجبيلي وأسواق "المدينة"وسوق النحاسين وكنائس حي "الجديدة" ودورها التقليدية...)

كما تميّزت حلب بكونها مركزاً دينياً لإله العاصفة أدد منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، كما بيّنت رقم مملكة إبلا، وأكّد ذلك اكتشاف المعبد حديثاً في قلعة حلب بألواحه النافرة من القرن العاشر ق.م وما قبل، والذي قدّم له الإمبراطور جوليان أضحية عند مروره بحلب عام ٣٦٣ م. كما حوت حلب التراث الروحي غير المادي لمتصوّفة ومفكرين أفذاذ ضمّت تربتها رفاتهم كالهروي والسهروردي والنسيمي، وقد عاش فيها فترة كل من الإمام محي الدين ابن عربي ومولانا جلال الدين الرومي. ولا زالت بعض الطرق الصوفية قائمة فيها كالزاوية المولوية والهلالية وسواهما.. إن أجواء حلب معطرة بأريج الروح الدينية الزكيّة منذ

الألف الثالث ق.م ولا زالت تفوح منها حتى الآن مع حلقات الذكر والإنشاد الديني والموشحات والقدود الحلبية.

تعتبر حلب من أقدم مدن العالم التي لا زالت مأهولة، جاء ذكرها في محفوظات وثائق مملكة إبلا (٢٢٥٠ ق.م) ومملكة ماري (١٨٠٠ ق.م) وذكرها شكسبير ولامارتين. وتكمن أهميتها الاستراتيجية بوقوعها على طرق الحرير والتجارة. ورغم تعرّضها للدمار والخراب مرات عديدة من أيام نرام سن الأكادي والحثيين والفرس (كسرى ٥٤٠ م) والبيزنطيين (نقفور فوقاس ٩٦٢ م) والمغول (هولاكو ١٢٦٠ م) والتتر (تيمورلنك ١٤٠٠) إلاّ انها كانت تنهض دوماً وتنفض الركام وتحيا من جديد بهمّة أبنائها الصامدين. إن مدناً هامة مثل إبلا وماري وأوغاريت وقطنا قد دُفنت مع تاريخها في الرمال، بينما نجد حلب لا زالت مدينة حيّة ومزدهرة تضجّ بسكانها المليوني نسمة وبتاريخها العريق خلال خمسة آلاف عام. ويعيش سكانها على اختلاف مشاربهم بمحبة وتفاهم وتسامح وإخاء ساعين جميعاً في سبيل تقدّم الوطن الحبيب وازدهاره.

ومن أجل إبراز الدور الكبير الذي قامت به حلب على مدى العصور والذي تثابر على القيام به، فقد تمّ إعداد مجموعة ندوات فكرية وعلمية مختارة تقدّم خلال أشهر عام ٢٠٠٦ بدءاً من حفل الافتتاح الرائع في آذار ٢٠٠٦، وكانت عناوين هذه الندوات:

١) الإسلام وحقوق الإنسان: حلب نموذجاً

٢) حلب وحوار الحضارات

٣) الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة

٤) النتاج العلمي والفكري في حلب عبر العصور

٥) الحياة الاقتصادية في حلب عبر التاريخ

٦) التراث الثقافي غير المادي لمدينة حلب في العصور الإسلامية

٧) دور حلب في حركة النهضة في القرنين التاسع عشر والعشرين

٨) فلسفة العمارة الإسلامية؛ حلب نموذجاً

ويشارك في إغناء هذه الندوات باحثون سوريون وعرب وأجانب، وتتم من على منابر موزّعة بين مديرية الثقافة والأوقاف وكليات جامعة حلب وغرفة الصناعة والتجارة والسكك الحديدية ومديرية الخدمات الفنية.

ويرافق هذه التظاهرة الثقافية الفكرية للاحتفالية العديد من النشاطات الفنية من عروض مسرحية ومعارض وموسيقى وطرب تراثي أصيل، مع اكتساء المدينة وشوارعها وواجهات أبنيتها الهامة وساحاتها بحلّة زاهية من الإعلان والإعلام عن هذا الحدث الكبير. وقد ساهم العديد من أهالي حلب وشركات القطاع الخاص بتزيين ساحات الشوارع، وعلى نفقتهم الخاصة، بالنصب التذكارية الجميلة. كما قام بعضهم بالتبرع بنفقات ترميم بعض المباني التاريخية الهامة وبإشراف مديرية الآثار، مساهمة منهم في إحياء تراث مدينتهم العريقة وإبرازه بالشكل اللائق، مثل ترميم بناء ثانوية المأمون العريقة وكشف السور الغربي للمدينة حول باب أنطاكية ونفض الركام عن البيمارستان النوري وترميم مسجد الشعيبية قرب باب أنطاكية وإزالة الغرف الطفيلية عن مدرسة الفردوس الأيوبية وسواها.

كما تمّ إعادة طباعة العديد من الكتب التراثية الهامة والمفقودة عن مدينة حلب وهي من تأليف مؤرخين قدماء ومحدثين.

لقد عادت حلب مع الاحتفالية، باختيارها عاصمة الثقافة الإسلامية عن العالم العربي مع مدينة أصفهان عن العالم الإسلامي لعام ٢٠٠٦، لتكون، كما هي دائماً، منارة متألقة تضج بالحياة وتتلاقى فيها قوافل الأفكار والشعوب التي تنشد السلام في بيئة إنسانية نقيّة، ولتكون نموذجاً يقتدى في العيش بمحبة وتسامح وتطلّع إلى الوسيلة المثلى للتقدّم والإزدهار وتأمين الحياة الكريمة.

حلب ٦ /٥/ ٢٠٠٦

ومن ضمن فعاليات اختيار حلب عاصمة للثقافة الاسلامية العام ٢٠٠٦ كان المؤتمر السرياني الحادي عشر والأسبوع الثقافي الفرنسي الذي افتُتح بالرحالة والموسيقي بيترو ديلا فاله وحلب وتأسيس "ذاكرة حلب" في دار غزالة :

١. حصاد المؤتمر السرياني الحادي عشر (حاب ١١ - ١٤ أيار ٢٠٠٦)

كان المؤتمر الذي انعقد بحلب بمناسبة مرور ١٧٠٠ عام على ولادة مار أفرام (٣٠٦ - ٢٠٠٦) تحت عنوان "مار أفرام السرياني شاعر لأيامنا" وذلك ضمن فعاليات الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ تظاهرة رائعة أضيفت للحلّة الزاهية التي ارتدتها حلب بلد العيش المشترك والتسامح. وقد ألقى الباحثون والعلماء المختصون بأمور اللغة السريانية وأعلامها وتاريخها، والذين قدموا من عدّة مدن في العالم مع الأشقاء اللبنانيين والسوريين المزيد من الضوء على جوانب حياة مار أفرام (٣٠٦ -٣٧٣ م) متعدّد المواهب والإبداعات، ابن نصيبين والرُها ومعلّم الكنيسة جمعاء وشاعر السريان الأكبر وملهم العديد من التراتيل في الطقوس الدينية الكنسية. إنه بحق أمل الوحدة اليوم والقدوة في التواضع والابتعاد عن المناصب واتباع حياة الزهد التي عاشها والقيام بالعمل المنتج في الوقت نفسه. وبذلك استحقّ لقب الناسك الزاهد والمعلم الأكبر بإنتاجه الغزير الذي تأثر بالعهدين القديم والجديد وتقاليد بلاد الرافدين وعلوم اليونان، معبّراً عن كل ذلك بلغته السريانية وبروح شعرية محلّقة.



ولعلّ قامته الشامخة وصفاء روحه نسبا إليه أكثر مما قد كتب بالفعل من أناشيد وميامر وعظات وحكم (٣ ملايين بيت شعر) مما هو جيّد ومستطاب كما هو الحال مع جميع المبدعين العظام. وهذا ما يحفّز إلى المزيد من البحث العميق والتدقيق من قِبَل المختصين لفصل المنحول عن المؤلف الحقيقي الذي فيه روح ونفَس مار أفرام على ضوء ما يستجدّ ويظهر من مخطوطات غير معروفة عن حياة قديسنا وشاعرنا العظيم.

لقد اختتمت جلسات الأيام الثلاثة العلمية وصدرت توصيات المؤتمر وفي مقدّمتها بذل المزيد من أجل تعليم اللغة السريانية والأبحاث. وقد خلّفت الجولة الأثرية آخر أيام المؤتمر، والتي كانت في جبل سمعان وقورش إلى الشمال والغرب من حلب حيث انتشرت الحياة النسكية الفردية والجماعية من أبراج وأعمدة نساك وأديرة بالإضافة إلى الكنائس والمباني المدنية، حيث عاش مار مارون ودُفن وحيث عاش مار سمعان وبنيت كنيسته العظمى حول العمود عام ٤٩١ م وحيث عاش تيودوريطس أسقف قورش الذي وصف حياة هؤلاء النساك وفي مقدّمتهم مار مارون ومار سمعان. خلّفت هذه الجولة السريعة في المشاركين فيها وعددهم ١٧٥ مشتركاً أطيب الذكرى ووعدوا بالعودة لمشاهدتها بإمعان وتمثّل. فهنا بحق كان مهد المسيحية حيث بُنيت بين حلب وقورش وأنطاكية وأفاميا أكثر من ألفي كنيسة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. وهذا ما يحفّزنا لزيادة الاهتمام بمراكز جذب السياحة الثقافية الدينية في جبل سمعان (من حيث ترميم وإصلاح الطرق وتأمين دورات مياه ومراكز استراحة) وهي قورش (النبي هوري) وكيمار وبراد وكالوتا وقلعة وكنيسة مار سمعان.

من خلال تشكل بحيرة سد تشرين التي امتدت من قشلة يوسف باشا وحتى جرابلس وعلى ضفتي الفرات، كشفت المياه التي يرتفع وينخفض منسوبها عدداً من الكهوف والمغائر على أطراف البحيرة. حبذا لو يتم تكليف فريق عمل مختص بإجراء مسح طبوغرافي أثري نموذجي يشمل حوض الفرات والبليخ والساجور لتوثيق هذه الكهوف المكتشفة من حيث المساحات والرسوم والتماثيل والكتابات، لعلّ ما فيها يلقي مزيداً من الضوء على الحضارة الإنسانية عموماً والثقافة السريانية بشكل خاص، ومن بينها بعض الكنائس الصخرية rupestres التي كانت تُحفر في الصخر أيام النساك الأوائل. ولا ننسى أن برج صرين الشمالية الذي يبعد حوالي ٥ كم إلى الشرق من جسر قره قوزاق على نهر الفرات يحوي إحدى أقدم الكتابات الآرامية تذكر" معن بن معنو" وتعود إلى القرن الأول للميلاد (٧٤ م).

ومن الأخبار السارة ما تمّ اكتشافه مؤخراً ويُعتقد أنه ربما كان دير مار توما في قنسرين "قنشره" في موقع "الناقوطة" على الضفة الشرقية للفرات جنوب بلدة جرابلس. وقد كُشف النقاب عن مساحات من الفسيفساء ربما تعود إلى القرن السادس الميلادي في كنيسة الدير وأرضية غرفه، بالإضافة إلى كتابة ولقى من الفترة البيزنطية والعربية الإسلامية. ونرجو أن تتابع أعمال التنقيب، وبزخم مادي ومعنوي، لإبراز الدور الكبير لهذا الدير العظيم في تاريخ السريان والعرب والذي كان يضم ٣٧٠ راهباً وظل قائماً حتى القرن الثالث عشر، وقد رفد الكنيسة السريانية بالعديد من عظمائها من بطاركة وأساقفة وسواهم ممن ساهموا في نقل العلوم اليونانية إلى السريانية فالعربية، وكان لهم الدور الكبير في رفد الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها لترفد بدورها لاحقاً الحضارة الإنسانية بما أضافته وأبدعته من علوم.

كما لا ننسى دور "دير تلعدة" الكبير في السفح الجنوبي من جبل الشيخ بركات والذي ظلّ قائماً حتى القرن الحادي عشر، كما تبين الكتابات على أحجار جدرانه. ويضم الدير فيما يضم رفات مار يعقوب الرهاوي الذي دفن فيه عام ٧٠٨ م. وأرى أن عام ٢٠٠٨ مناسبة يجب انتهازها للاحتفال بمرور ١٣٠٠ عام على وفاة هذا القديس العظيم.

لقد تركت الرعاية الكريمة للمؤتمر ومساهمة وزارة الثقافة السورية وإدارتها بحلب أكبر الأثر لدى منظّمي المؤتمر مما أدّى إلى إزالة جميع العقبات أمام إقامته ومن ثمّ نجاحه الكبير، وبخاصة إقامته ضمن فعاليات الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ في رحاب مديرية الثقافة بحلب والمشاركة في رئاسة وإدارة الجلسات العلمية وكلمات الترحيب الطيبة من قبل السيد وزير الثقافة، وبخاصة الكلمة الصادرة من القلب في ختام المؤتمر لسماحة مفتي الجمهورية الدكتور أحمد بدر الدين حسون. تلك الكلمة المفعمة بروح المحبة والتسامح، والتي خلّفت أطيب وأعمق الانطباع ليس لدى الإخوة القادمين من لبنان فقط بل بالنسبة للمؤتمرين القادمين من الهند وإنكلترا وإيطاليا وفرنسا الذين عرفوا الجو العام الحميم والمحبة المتبادلة التي يعيش المواطنون مسلمين ومسيحيين في أجوائها.

حلب ١٥ /٥ /٢٠٠٦

لمحة عن حياة مار أفرام السرياني : (حوالي٣٠٦ - ٣٧٣ م)

ولد مار أفرام السرياني في بلدة نصيبين حوالي العام ٣٠٦ م أيام الملك قسطنطين وتوفي بالطاعون في الرُها في ٩ حزيران ٣٧٣ م وقبره في دير مار سركيس غربي الرُها. ويعتقد أنه كان ابن كاهن وثني هداه إلى الإيمان مار يعقوب النصيبيني الذي كان أسقف نصيبين منذ عام ٣٠٨ م، وقد عمَّده وهو في الثامنة عشرة من العمر، وربما حضر مجمع نيقية عام ٣٢٥ م وقد جعل مار أفرام شماساً لديه. وقد عمل مار أفرام على نشر الإنجيل في مدينته نصيبين وأصبح أستاذ اللاهوت في مدرستها. وعندما سلّمت المدينة إلى الفرس أيام الإمبراطور جوليان الجاحد عام ٣٦٣ م ترك أفرام مدينته وذهب إلى الرُها (إديسا) يدرّس اللاهوت في معهدها الذي أسّسه فيها. وقد سجّل أحداث الانتقال من نصيبين إلى الرُها شعراً باسم "أغاني نصيبين" التي تعتبر بحد ذاتها مصدراً تاريخياً هاماً.

كان مار أفرام شاعراً ولاهوتياً كبيراً؛ كتب بالسريانية العديد من الأناشيد والميامر وساعد في إدخال التراتيل في الطقس الديني، وكان في الأناشيد الغنائية "المدراش" التي ألّفها غنى في الصور المستمدة من مصادر الكتاب المقدس وتقاليد الشعوب وفلسفة الديانات الأخرى. وكتب تعليقاته على الأناجيل وأعمال الرسل وسفر التكوين والخروج. كما دافع عن الكنيسة ضد الأفكار الهرطقية لبرديصان وماني وهاجم الأريوسية. وله أناشيد تمجد الكنيسة باعتبارها استمراراً للمسيح على الأرض ولاهوت الإيمان وتذكر السمو الأخلاقي للبتولية ومراحل رسالة المسيح في آلام الصلب والقيامة. وقد كتب أكثر من ٤٠٠ نشيد. وينسب إليه سوزومين Sozomen ، وهو مؤرخ بيزنطي من القرن الخامس، كتابة أكثر من ألف قصيدة تضم حوالي ٣ ملايين بيت من الشعر، وقد جمع في تآليفه نماذج وطرق الآباء الأوائل مع فلسفة اليونان وتقاليد بلاد الرافدين.

وقد أخذ الباحثون المحدثون يعيدون تقييم نصوص كتابات مار أفرام الأصلية التي سبق أن طُبعت وذلك لمتابعة الآراء الشخصية لمختلف المترجمين على ضوء المستجدات وقد وُجد العديد من الأخطاء في الترجمة، وتصحيح ما ذكر عن محبته للسفر والترحال وزياراته كبادوكيا والنطرون في مصر. ومما يجدر ذكره أن وصف مار أفرام التخيّلي للسماء والجحيم قد أسهم في الإيحاء إلى الشاعر الإيطالي الكبير دانتي بكتابه "الكوميديا الإلهية".

ويذكر مؤرخون من القرن الخامس اهتمام المسيحيين الحماسي بأناشيد مار أفرام في مجالسهم الكنسية، وقد أكّد تكريس العبادة للعذراء مريم وبخاصة الحبل بها بلا دنس وأمانتها المثالية. كما تضمّنت أشعاره تعاليم الثالوث الأقدس وخلود الآب والابن والروح القدس والوحدة الإلهية والإنسانية في المسيح، والعمل الفعّال للروح القدس في الصلاة، وفي حضور المسيح الفعلي في سر الأوخارستية وفي قيامة جميع البشر، وأن كل إنسان يجب أن ينتظر نهاية العالم (الدينونة الأخيرة) ليربح السماء.

كان مار أفرام راهباً متواضعاً ظل طيلة حياته شماسا رغم تآليفه وتدريسه اللاهوت، وقد رفض أن يصبح أسقفاً، وكان يميل إلى الحياة النسكية وكان له التأثير الكبير على الكنائس اليونانية واللاتينية ويعتبر ممثلاً للكنيسة السريانية في القرن الرابع للميلاد. وقد أنصفته الكنيسة الكاثوليكية حيث سماه البابا بندكتس الخامس عشر في ٥ تشرين الأول عام ١٩٢٠ "معلم الكنيسة". ومن ألقاب مار أفرام الأخرى قيثارة الروح القدس وشماس الرُها وشمس السريان وقديس البيئة وبطل المرأة في الكنيسة.

ومن صلوات مار أفرام التي تدل على التواضع وسمو النفس:

أيها الرب سيد حياتي، لا تبلِني بروح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطّال. بل أنعم علي أنا عبدك بروح العفّة والاتضاع والصبر والمحبّة.

نعم أيّها الرب هب لي أن أرى زلاّتي، ولا أدين أخي فإنك مبارك إلى دهر الداهرين، آمين.

جولة في ربوع حلب وجبل سمعان وقورش

وفي سبيل تعريف المشاركين في مؤتمر "مار افرام السرياني شاعر لأيامنا" والقادمين من الهند وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا والعراق ولبنان وسواها على آثارنا والبيئة التي تأثرت بتعاليم مار أفرام الناسك القديس الذي عاش في القرن الرابع للميلاد، فقد تمت، وعلى هامش جلسات المؤتمر ومحاضراته الرائعة، زيارة بعض المعالم الأثرية بحلب، مثل حي

الجديدة بكنائسه ودوره العربية التقليدية وكذلك الجامع الأموي والمدرسة الحلوية والأسواق والخانات في المدينة القديمة وكذلك قلعة حلب الشماء. كما عرض المهندس عبد الله حجار، مستشار جمعية العاديات، إثر آخر جلسات المؤتمر مجموعتين من الشرائح المصوّرة لأهم معالم مدينة حلب وكذلك للقرى الأثرية الريفية المجاورة لمدينة حلب والممتدّة في جبل سمعان وحتى بلدة قورش في الشمال بما حوته من أنواع الحياة النسكية من أديرة وأعمدة وأبراج للنساك بما في ذلك أهم الكنائس وفي مقدمتها كنيسة القديس سمعان العمودي وحيث عاش مار مارون وحيث دفن، وحيث عاش تيودوريطس أسقف قورش الذي كتب عن حياة هؤلاء النساك.

وقد شارك في الجولة السياحية ضمن النشاط الثقافي الديني للمؤتمر صباح الأحد ١٤ أيار ٢٠٠٦ أربع حافلات ضمت ١٧٥ مشتركاً قَدِم أكثر من نصفهم من لبنان. وقد تمّ في هذه الجولة التي امتدت من السابعة صباحا إلى ما بعد السابعة مساء الاطلاع على المعالم الأثرية المنتشرة في الشمال الغربي من حلب ابتداءً من كنيسة خراب شمس، وهي كنيسة من القرن الخامس لا زالت قائمة بأعمدتها وجدرانها تسبح الخالق، ثم تمّ التوجّه إلى قلعة كالوته حيث عاش مار مارون وحُوّل المعبد الذي كان قائماً فيها إلى كنيسة مع أوائل القرن الخامس .ثم تمّ التوجه عن طريق بلدة نبّل إلى بلدة "براد" التي تحوي العديد من الآثار الرومانية والبيزنطية المسيحية ومن بينها كنيسة جوليانوس التي كانت معبدا حُوّل إلى كنيسة عام ٤٠٢ م وأضيف إليها جناح في شمالها الشرقي حوالي عام ٤١٠ م ليضم رفات أبي الموارنة مار مارون. كما شوهدت في "براد" الكنيسة الشمالية المؤرخة من عام ٥٦١ والتي تفصل بين أبهائها الركائز بدل الأعمدة. ثم تمّ التوجه وبطريق مختصرة إلى مشعلة للاستراحة وتناول طعام الغداء، وقد تم المرور بقرية كيمار التي تضم ثلاث كنائس والقطع الكاملة لعمود ناسك عمودي مجهول. وبعد الغداء تمت المتابعة في أجواء الريف الجميل وأشجار الزيتون الممتدة على أطراف وادي عفرين وسد نيسان على النهر لنصل إلى مدينة قورش التي سمّيت مدينة القديسين" آيا بوليس"، حيث دفن فيها القديسان الطبيبان الشهيدان قزما ودميان كما يعتقد أنه دفن فيها الرسول سمعان الغيور والقديس ديونيسيوس.



المشاركون في زيارة كنيسة سمعان العمودي

ومن آثار قورش مدفن روماني سداسي الشكل من القرن الثالث خارج أسوار المدينة. وهناك جسران رومانيان إلى الشرق منها على نهري الصابون وعفرين. وداخل أسوار المدينة هناك كنيسة ومجمع كنسي، وقد تمت مشاهدة المدرج الروماني بأحجاره وكراسيه المبعثرة هنا وهناك وقد حوت بعض المقاعد أسماء من كانوا يجلسون فيها في كل مناسبة. وتمّ التوجّه حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وعن طريق عفرين إلى قلعة سمعان لمشاهدة المكان الذي أمضى فيه القديس سمعان (٣٩٠ - ٤٥٩ م) رائد الحياة النسكية حياته على عمود مدة ٣٧ عاماً يعظ ويرشد ويتنسك ويجترح بإرادة الله العجائب، وحيث بنيت عام ٤٩١ الكنيسة الأعظم على شكل صليب حول العمود، وكانت درة كنائس القرى الريفية التي تجاوز عددها الألفي كنيسة تم بناؤها في منطقة مساحتها ٥٥٠٠ كم٢ امتدت بين قورش وأفاميا وحلب وحوض العاصي وضمت ٨٠٠ قرية وموقع أثري يعود تاريخ بنائها إلى الفترة الممتدة بين القرن الأول والسابع للميلاد. وقد ذكر الباحثان دي فوغويه وبتلر أن أصول الفن الروماني

الـذي سـبق الفـن الغـوطي في أوروبـا القـرون الوسـطى أُخـذت أصـوله مـن الواجهـة الجنوبيـة ومقدمة (نارتكس) كنيسة القديس سمعان العمودي المبنية في القرن الخامس الميلادي.

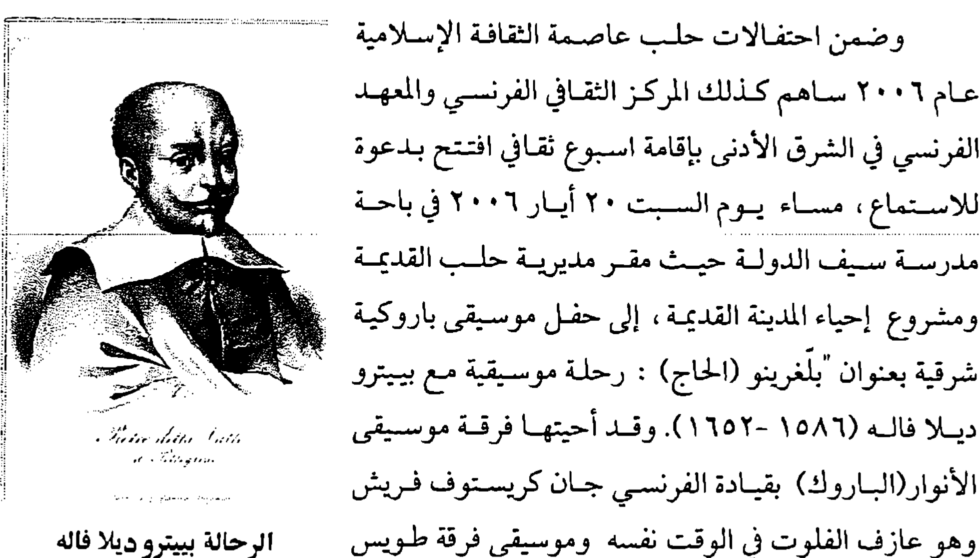
لقد قام المهندس عبد الله حجار بتقـديم الشـرح للمعـالم المزارة وبيّن وفنّـد الأسـباب، وقد ذكرها نيافة المطران أنيس أبي عـاد في كتابه عـن مـار مـارون، الـتي تؤكـد أن مـار مـارون عـاش في قلعـة كالوتـا ولـيس في كفـر نـابو كمـا يعتقـد البعض. وأسـهب في الشـرح في كنيسـة القديس سمعان العمودي وبخاصة عن الفن المعماري للكنيسة الرائعة بمثمّنهـا الأوسـط وسـقفه الهرمـي وأجنحتهـا ودراسـتها الإنشـائية لمقاومـة الـزلازل، وعـن المنشـأة الصـحية الـتي كانـت متوفرة للناسك العمودي ونسـاك الأبراج وسواهم، وعن تحويل الموقع إلى حصن دفاعي وعن نقـل جثمـان القـديس إلى أنطاكيـة ثـم إلى القسـطنطينية. هـذا وقـد أخـذت صـور تذكاريـة لـدى عمود القديس سمعان الذي لم يبقَ منه الكثير مع مرور الأجيـال، حيـث أكلـه المؤمنون طلبـا للشفاء وتبركاً، كما يعلمنا ذلك مؤرخان رصينان هما ياقوت الحموي وعلي أبو بكـر الـهروي المتوفيان في حلب في القرن الثالث عشر.

وكـان الـوداع.. حيـث انطلـق باصـان مـع الأحبـة إلى لبنـان علـى أمـل عـودة قريبـة لمشاهدة المزيد من تراثنا واستيعابه، وتَمثّل تلك الحياة النسكية التي عاش فيهـا أسـلافنا في أجواء لا زالـت تعبق بالقداسـة. وعاد الباصان الآخران من دارة عزة إلى حلـب ولم تتجاوز الجولة طيلة اليوم مسافة ١٧٥ كم، لكنها كانت عظيمة بمضمونها عظمة روح المؤتمر الذي كرّس للتعريف بمعلّم الكنيسة الناسك الشماس مار أفرام فخـر السـريان والعـالم، والـذي كان منارة شامخة وذلك ضمن الاحتفالية الرائعة اختيار حلـب عاصـمة الثقافة الإسـلامية عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م.

حلب ١٥ /٥/ ٢٠٠٦

---

٢. الرحالة والموسيقي بييترو ديلا فاله وحلب



الرحالة بييترو ديلا فاله

وضمن احتفالات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ ساهم كذلك المركز الثقافي الفرنسي والمعهد الفرنسي في الشرق الأدنى بإقامة اسبوع ثقافي افتتح بدعوة للاستماع، مساء يوم السبت ٢٠ أيار ٢٠٠٦ في باحة مدرسة سيف الدولة حيث مقر مديرية حلب القديمة ومشروع إحياء المدينة القديمة، إلى حفل موسيقى باروكية شرقية بعنوان "بلّغرينو (الحاج) : رحلة موسيقية مع بييترو ديلا فاله (١٥٨٦ -١٦٥٢). وقد أحيتها فرقة موسيقى الأنوار(الباروك) بقيادة الفرنسي جان كريستوف فريش وهو عازف الفلوت في الوقت نفسه وموسيقى فرقة طويس (تخت شرقي) بإشراف السوري عصام رافع.

استمتع الحضور خلال ساعة ونصف بما قدمته الفرقتان من عمل منفرد أو مشترك انسجم فيه اللحن الغربي مع الشرقي الذي فيه نكهة متميزة من تركيا وسورية وإيران والهند مما استمع إلى ما يماثله الرحالة بييترو ديلا فاله في رحلته الطويلة إلى الشرق الساحر والتي استغرقت ١٢ عاماً. وكذلك إلى مقطوعتين من تأليفه بالإيطالية بعنوان "الإخلاص في الحب" و"التطهير" وكانت الترجمة للكلمات الشعرية الرائعة تتمّ إلى الفرنسية والعربية بواسطة جهاز إسقاط جعل الحضور يواكبون فهم كلمات المغنين مع الأداء واللحن الشفاف. وقد استمتع الحضور بالفعل بما قُدّم والذي بيّن إمكانية تقديم عمل مشترك بين الغرب والشرق تألفه الأذن وتستطيبه.

وأسمح لنفسي أن أقدم لمحة إضافية عن هذا الموسيقي بييترو ديلا فاله الذي لم أكن أعرف، وأقولها بتواضع، أنه موسيقي قبل هذه الحفلة، وقد عرفته رحالة مرّ بحلب عام ١٦٢٥ ووصف كنائس "حيّ الجديدة" وأنه كان وفياً لزوجته، وله دور في التعريف بآثار بابل ..وإليكم بعض سيرة حياته لما فيها من طرافة :

ولد بييترو ديلا فاله في ١١ نيسان ١٥٨٦ في روما لعائلة غنية ونبيلة وتوفي في روما في ٢١ نيسان عام ١٦٥٢. وبغية القيام بحج إلى الأرض المقدسة في فلسطين أبحر في ٨ حزيران ١٦١٤ من البندقية إلى استنبول وبقي فيها مدة عام لتعلم اللغتين التركية والعربية. ثم غادرها في ٢٥ أيلول ١٦١٥الى القدس عن طريق الإسكندرية والقاهرة وسيناء. وبعد زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين تابع إلى دمشق وبغداد حيث تزوج عام ١٦١٦ فتاة مسيحية أصلها من ماردين أحبها بشغف اسمها "معاني" وتابع معها رحلته إلى همدان ثم أصفهان في إيران وبلغها في بداية عام ١٦١٧ ، وحضر هناك بلاط الشاه عباس الأول الذي كان مشغولاً بحربه مع الأتراك. ويزور رحالتنا مدينة برسيبوليس ومنطقتها التي كانت الملاريا متفشية فيها وتصاب بها زوجته عام ١٦٢١ وتلفظ أنفاسها بين ذراعيه وهي تبلغه رغبتها بأن تدفن في روما. يسهر بييترو ديلا فاله سبع ليال بقرب جثمان زوجته ثم يعمل على تحنيط جثمانها، ويتابع رحلته مع الجثمان ويصل سُرات Surat شمال غربي الهند عام ١٦٢٣ ويتابع تجواله خلال حوالي سنة جنوباً بمحاذاة الساحل إلى كاليكوت Calicut. ثم يتوجّه إلى البصرة في العراق ومنها يأخذ الطريق الصحراوية إلى حلب. وفي حلب يترك لنا وصفاً لحي الجديدة عام ١٦٢٥ حيث يذكر وجود كنيسة منفردة للسريان وفيها بطريرك يعقوبي وعلى مقربة منها أربع كنائس ذات مدخل واحد وحول باحة واحدة إحداها للروم على اسم القديس نيقولاوس والأخرى للموارنة على اسم مار الياس والثالثة للأرمن على اسم العذراء مريم والرابعة على اسم الأربعين شهيداً وهي للأرمن كذلك...ويتابع رحالتنا سفره حوالي ست سنوات مع جثمان زوجته المحبوبة ليصل روما في ٢٨ آذار١٦٢٦ ويدفنها هناك محقّقاً رغبتها. ويقوم بييترو ديلا فاله قبل وفاته بتأليف أعمال موسيقية تمزج بين روح الموسيقى الشرقية التي غبّ منها خلال ١٢ سنة من الترحال مع الموسيقى الأوروبية.

أعطاه البابا أوربان الثامن منصباً هاماً وقام بتسجيل رحلاته في مجموعة رسائل طبعت في ثلاثة مجلدات بعنوان: تركيا (١٦٥٠) وفارس (١٦٥٨) والهند (١٦٦٣). وقد طبع المجلد الأول ديلا فاله بنفسه أما المجلدان الآخران فقد طُبعا بعد وفاته. وهناك تسجيل لحياته في كتاب ويلفريد بلونت بعنوان"حجّ بييترو" عام ١٩٥٣.

ويُنسب إلى بيترو ديلا فاله اكتشاف آثار بابل التي حدّد موقعها بدقة شمال "الحلّة" الحديثة على مسافة ٦٠ ميلا جنوب بغداد. ووجد فيها البرج الكبير المستطيل وهو الزقّورة القديمة، بينما اعتقد آخرون أن برج بابل هو في نمرود حيث كتلة زقورة بورسيبا Borsipa القديمة قرب الحلّة. ولعل بيترو ديلا فاله كان أول من جلب معه عينات ونماذج من الكتابة المسمارية وقطع القرميد المختومة من بلاد الرافدين إلى أوروبا. وبعده زار كثير من الأوروبيين بلاد الرافدين مثل الرحالة الألماني كارستن نيبور في القرن الثامن عشر والمستشرق كلاوديوس جيمس ريش والرحالة كير بورتر في القرن التاسع عشر.

بعد هذه الرحلة الغريبة والصحبة الشيقة التي أمضى فيها مع زوجته المحبوبة ست سنوات من الرحلة وتابع بعد وفاتها ست سنوات أخرى برفقة جثمانها المحنط يرافقه في رحلته الصعبة، قام الموسيقي الشاعر بكل شفافية الحب الصادق والمخلص لزوجته التي عاش معها ومع ذكراها رحلة الوفاء بتأليف أجمل الأشعار والألحان الأوروبية المطعّمة بما بقي في روحه المرهفة من أنين وحنان وشفافية الشرق.

ومن الطريف أن ديلا فاله تزوّج ثانية "ماريوسيا" وهي يتيمة من عائلة نبيلة جيورجية كانت قد تبنّتها زوجته الأولى معاني وهي طفلة، وقد رافقته في جميع مراحل رحلته الطويلة، وقد ولدت له ١٤ ولداً. وكان ديلا فاله يتكلم بطلاقة التركية والفارسية والعربية ويمكنه الكتابة بالفارسية كذلك، مما ساعده على فهم ثقافات البلاد التي زارها بشكل أفضل من الرحالة الغربيين الآخرين.

ملاحظة:

إن معظم المعلومات أعلاه مستمدة من الموسوعة البريطانية .E.B، ولست أدري إذا كانت مؤلفات الرحالة بيترو ديلا فاله قد تُرجمت إلى العربية في أحد الأقطار الشقيقة. وأتمنى أن أحصل على نسخة من المجلد الخاص برحلة تركيا، والذي يتضمن بدون شك إقامة الرحّالة في مدينة حلب وما ذكره عنها وعن حي" الجديدة" وكنائسه فيها، مما يلقي مزيداً من الضوء على تاريخ حلب التي تتمنى من خلال إعلانها عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ أن نجمع أكثر ما يمكن مما كتب عنها، ليس فقط من مؤرخيها العرب بل من الرحالة العديدين وفي

مختلف الفترات، لأنها بموقعها التجاري والإستراتيجي كانت مقصد الجميع وليس فقط مقصد الشاعر المتنبي الذي قال : " ..حلب قصدنا وانت السبيل".

وها نحن نسعى عن طريق فرع نقابة المهندسين بحلب وبالاتصال مع الجهات والمكتبات المختصة في تركيا (مكتبة بايزيد والسليمانية..) للحصول على مطبوعات "السالنامة" عن حلب وهي الجريدة الرسمية التي تحتوي الكثير من الأخبار عن ولاية حلب. كما نأمل أن نوفق في الحصول على "ملف حلب" وما كتبه القناصل عنها والمحفوظ في وزارة الخارجية البريطانية. كذلك على مراسلات غرفة تجارة مرسيليا ووثائق الخارجية الفرنسية. بالإضافة إلى الدراسة التي ننتظر صدورها بفارغ صبر للمحفوظات الخاصة بعائلتي مركوبولي وبوخه التي أنجزت مجموعة عمل من جامعة توبنغن دراستها.

هذا وقد تمّ وضع قائمة بأسماء الكتب الأجنبية الهامة وبلغات مختلفة والمتعلقة بحلب والتي تحتاج إلى ترجمة، قُدمت عن طريق لجنة التوثيق إلى الأمانة العامة للاحتفالية لتُضم إلى وثائق حلب ليضمها يوما ما، عساه يكون قريباً، متحف خاص بتاريخ وذاكرة حلب.

حلب ٢٠ /٥/ ٢٠٠٦

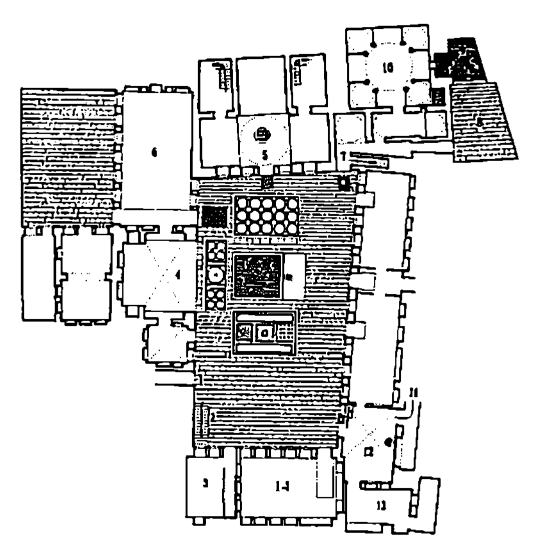
استدراك:

وقد صدر بالفعل المرسوم الجمهوري رقم ١٦٦ تاريخ ١٦ / ٤ /٢٠٠٧ بإنشاء متحف ذاكرة حلب في دار غزالة في حي "الجديدة" ورصد التمويل اللازم في مديرية الآثار بحلب لترميمه وإعادة الرونق إلى زخارف "العجمي" في أسقف غرفه وجدرانها واستكمال إعداده ليقوم بالمهمة المنوطة به وهي حفظ كل ما له علاقة بتاريخ حلب وذاكرتها وتراثها من مركز بحوث وأرشيف ووثائق تراث مادي ولا مادي. وأقدم في ما يلي لمحة عن "دار غزالة" المتميزة التي تم اختيارها لتضم متحف ذاكرة المدينة :

٣. دار غزالة:

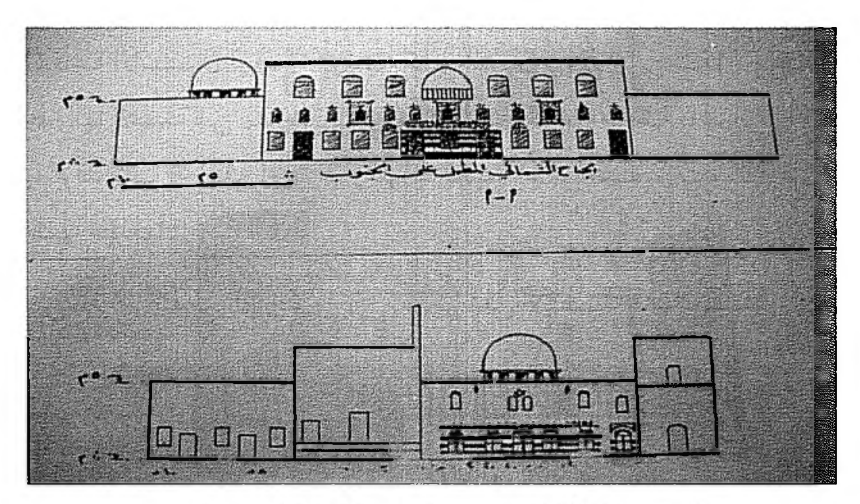
تعتبر دار غزالة من أهم وأكبر الدور التقليدية في حي "الجديدة" بحلب وتعود في بنائها إلى القرن السابع عشر، حيث تذكر كتابة في الغرفة رقم ١٤ المطلة على غرب الباحة الرئيسة اسم خجادور بن مراد بالي والتاريخ ١٦٩١ م، كما تذكر كتابة أخرى في الغرفة نفسها اسم رزق الله غزالة والتاريخ ١٨٣٤.

استُعملت الدار مدرسة إعدادية منذ بداية القرن العشرين وكانت فيها مدرسة "الأمجاد" قبل استملاكها من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف تمهيداً لاستعمالها بعد ترميمها وتوظيفها في المجال الثقافي.(صورة المسطح وتحته المقطعان آ- آ و ب- ب)



مسطح دار غزالة

المساحة الإجمالية التي تضمها الدار هي ١٠٠٠ م^{2} وتتألف من ثلاث باحات (أحواش) سماوية مساحة الباحة الرئيسة (رقم I) ٢٦٠ م^{2} تطل عليها غرف المعيشة والإيوان وقاعة الاستقبال الرئيسة. أما الباحة الثانية (رقم II) ومساحتها ٨٠ م^{2} فهي داخلية يوصَل إليها من الباحة الرئيسة عن طريق ممر وتطلّ عليها غرفتان من جهتها الشرقية، ولها باب يصلها بحارة "اشتمَا " المجاورة لتأمين الخدمات والمواد الأولية اللازمة لسكان الدار. أمّا الباحة الثالثة (رقم III) ومساحتها ٢٥ م^{2} فهي لخدمة الحمّام والقمّيم. وبذلك يبلغ مجموع مساحة الباحات أي الأقسام المكشوفة من البناء ٣٦٥ م^{2}، أي بنسبة ٣٦.٥٪ من مساحة العقار وهي النسبة الطبيعية للدور السكنية بحلب.



الجناح الغربي المطلّ على الباحة مع قاعة الاستقبال (المقطع ب – ب)

أهم أقسام الدار الرئيسية هي :

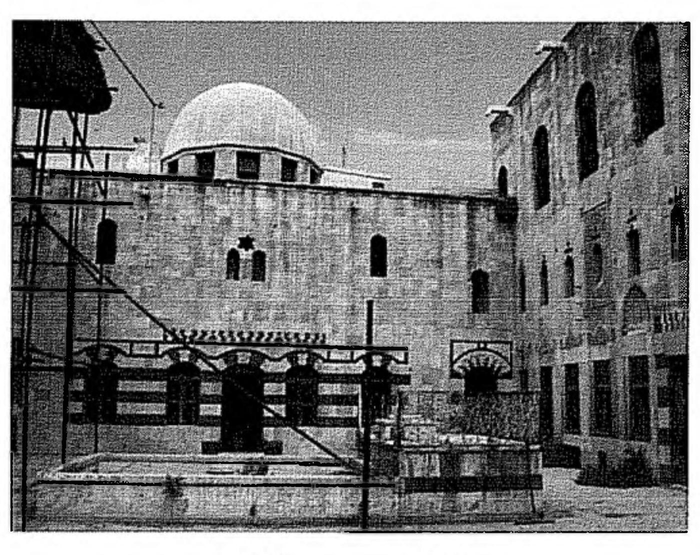
١) الجناح الشمالي المؤلف من طبقتين والمطل على الجنوب في الباحة الرئيسة. وقد حوت طبقته العلوية إيواناً يطل منه على الباحة لمشاهدة حفلاتها، وقد علا الإيوان كتابة تعيد تاريخ البناء للطبقة العلوية إلى العام ١٨٨١. وتمتاز واجهة الطبقة الأرضية بتكوين زخرفي بديع في إطارات نوافذها العلوية الصغيرة وكأنها الدنتيل، مما يدل على مهارة وإبداع المعمار العربي التراثي.



الجناح الشمالي

٢) قاعة الاستقبال (رقم ٥) وتطل على الشرق وهي على شكل حرف T مقلوب كُسيت جدرانها التسعة من الداخل بالكسوة الخشبية الملونة الجميلة ذات الرسوم النباتية[١] والهندسية. وقد كُتب في أعلى الجدران والنوافذ قصيدة ضمن مستطيلات مؤلفة من ١٤ بيتاً لا يُعرف ناظمها مطلعها:

تحلى بأفراح التهاني الواردة ... بكرٌ على الأقـــداح سائـــــدة



قاعة الاستقبال والفسقية

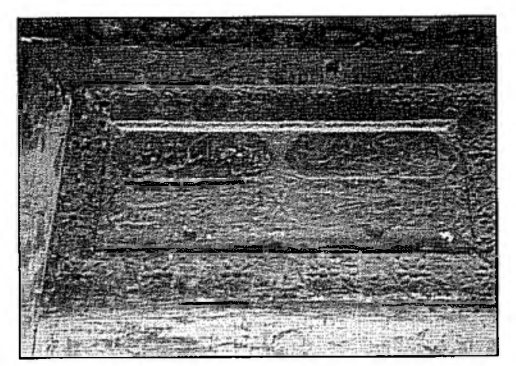
وذكر اسم صاحب الدار والتاريخ في مستطيل ضمّ البيتين الأخيرين:

وقد علا من ساكنيه بغيمةٍ ... فأوسع جوداً منك بأشرف فائدة

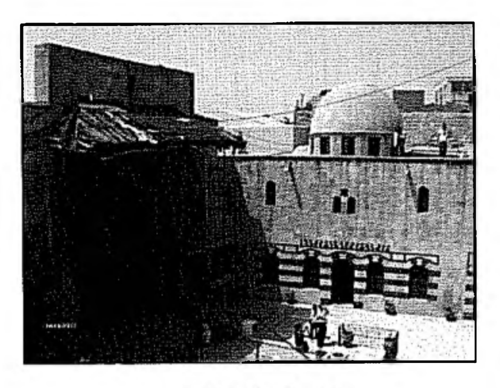
(١) في زيارة جمعية العاديات بحلب لقصر فرعون في بيروت (لبنان) ٢-٦ /١ /١٩٧٤ قبل الأحداث، أرانا المرحوم هنري فرعون لوحة خشبية تمثل طبيعة وفواكه اشتراها من دار غزالة، وذكر أنه على استعداد لإعادتها إلى مكانها من قاعة الاستقبال في حال القيام بترميم القاعة في المستقبل. وكان معنا في تلك الرحلة الأستاذ سعد زغلول كواكبي أمد الله في عمره وزملاء آخرون سبقونا إلى دار البقاء من أمثال الاخوة والاخوات باسيل يوسف وليلى إبراهمشاه وهند اخلاصي وجبرائيل شرقي وسواهم. ترى أين أصبحت تلك اللوحة الآن بعد وفاة صاحب الدار وتبعثر محتوياتها؟

وأطلق لسان السعدِ في تاريخ   يّهْ فرحةً صارت بجرجس عائدة   (١٧٣٧)

قامت فسقية ونافورة ماء وسط أرضية القاعة يقابلها في الأعلى قبة عالية ذات نوافذ متعددة لتأمين الإنارة وملقف يمتد من أعلى السقف لتأمين التهوية.

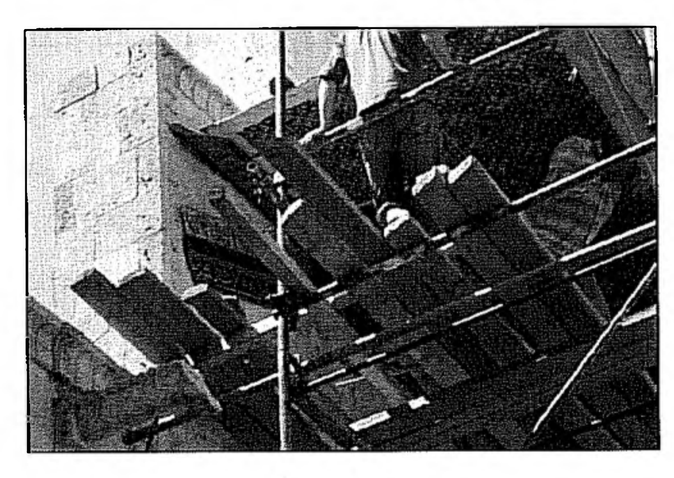


جرجس عائدة (١٧٣٧)



الإيوان قيد الترميم

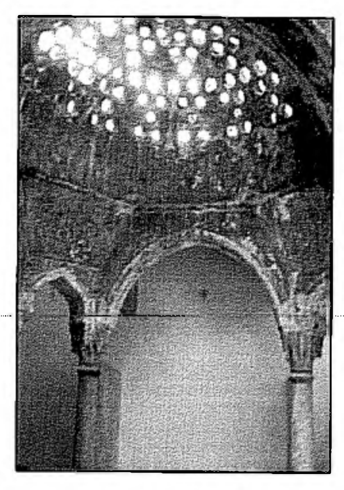
٣) الإيوان (رقم ٤) ويطل على الشمال في الباحة الرئيسة وسقفه أعلى من أسقف الغرف المجاورة له ويقابله في الباحة بركة الماء الكبيرة وخلفها كشك الموسيقيين (الشكل رقم ٢). ويتقدم الإيوان في أعلاه مردّ المطر ضمّ كتابة جميلة مؤرخة من العام ١٨٤٩ كتبت بيد المعلم نعوم بخاش كما يذكر في يومياته.



خط نعوم بخاش ١٨٤٩



مدخل الحمام والقاعة



قبة الحمام

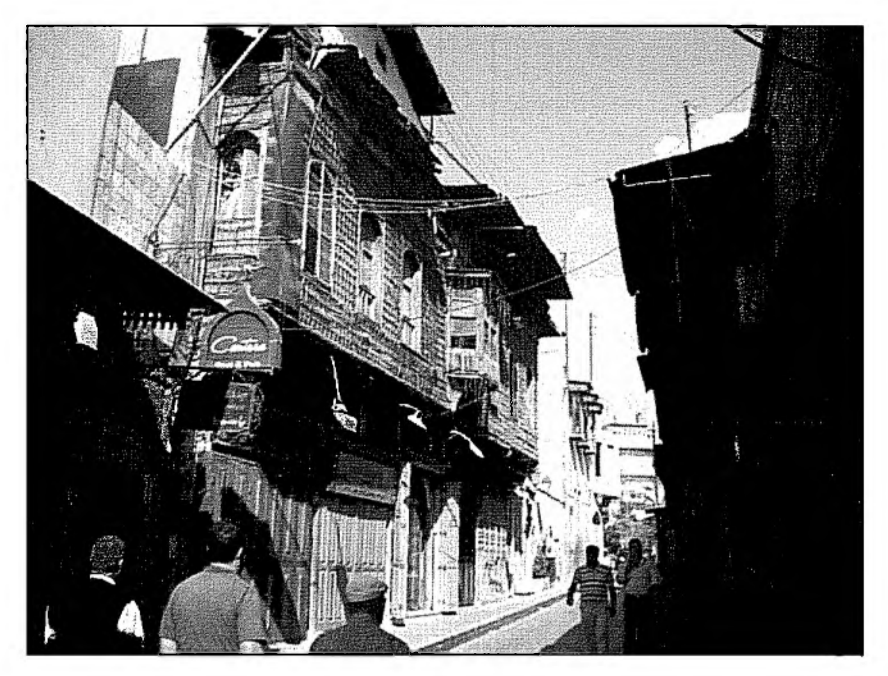
٤) غرفة المعيشة الشتوية (رقم ٦) وتمتاز باتساعها ووجود مدفأة في الجدار صنع جداراها الداخليان من حجر العنبر الأصفر الذي يعطي رائحة عطرة عندما يسخّن بحرارة حطب المدفأة.

٥) الحمّام (رقم ١٠) ويمتاز على صغر حجمه بقببه وقمرياته وزخارف الأقواس التي تعلو أعمدته ومقرنصات تيجانها الجميلة وبخلوات الاستحمام المتعددة بداخله. كما يتميّز المدخل المؤدي إلى الحمام من الباحة الرئيسة بنجفة قوسية جميلة تداخلت أحجارها المرمرية السود والبيض والصفر بتشكيل ناعم على شكل سيوف.

٦) أما الغرفة المطلّة على الغرب من الجناح الشرقي (رقم ١٤) والتي تضم اسمي صاحبي الدار فيبدو من كتابات جدرانها الرائعة بحكمها وخطها النسخي الجميل والمتقن أنها ربما تعود إلى بداية القرن السابع عشر وليس إلى العام ١٦٩١ المسجل عليها. ومن بين الحكم التي زينت جدران الغرفة نجد أشعاراً للمتنبي كما نجد الجملة اللطيفة التالية، وهي من أقوال الإمام علي: "إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر".

٧) الأكشاك الخشبية: وتضم الدار في طبقتها العلوية المطلة على الشارع الرئيس أجمل الأكشاك الخشبية في الجديدة وفي حلب، ولها مدخل خاص بها وفيها ركن بارز مربع

تجلس فيه الجدّة تراقب المارة في الشارع. نأمل أن تُشمل الأكشاك الفريدة من نوعها بأعمال الترميم كذلك.

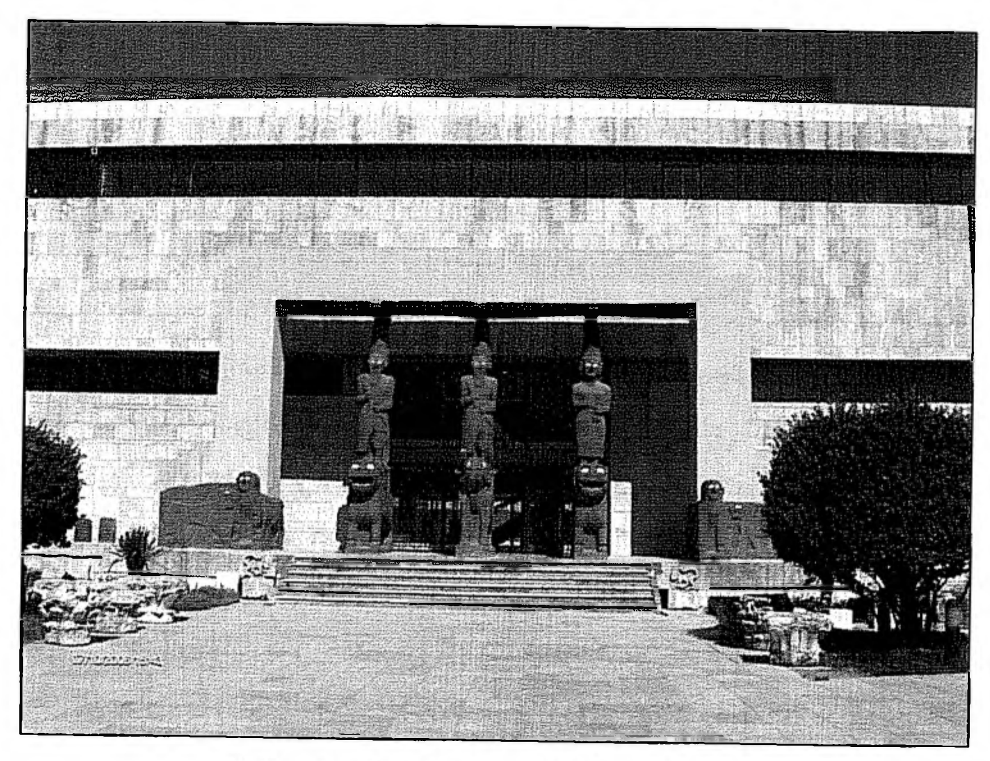


كشك دار غزالة

أجل بعد الاستملاك والقيام بأعمال ترميم جزئية وإهمال لفترة، صدر مرسوم من الرئيس بشار الأسد راعي التراث برقم ١٦٦ تاريخ ١٦/٤/ ٢٠٠٧ بجعل دار غزالة مقراً **لذاكرة حلب** (توثيق ومتحف ومركز بحوث) ورُصدت الأموال اللازمة وعُهدت إلى اختصاصيين بالترميم وبخاصة لأعمال "العجمي" والخشبيات في الجدران والأسقف التي يقوم بها الفنان عبد الرؤوف بيضون بكل دقة، وقاربت أعمال الترميم على الانتهاء. ونرجو أن يتصدى أحد الباحثين لدراسة وإكمال الكتابات في معظم الغرف، والتي سبق أن دُرست من قبل السيدة عليا فركوح زوجة الباحث ومحب حلب جان كلود دافيد. وأن توضع خطة عمل لتجهيز المركز بالوثائق الخاصة بحلب، وتتم الاتصالات مع أنحاء العالم لجلب كل ما يتعلق بحلب وتاريخها وتراثها ليكون تحت تصرف الباحثين، فتغدو بذلك "ذاكرة حلب" منارة ثقافية تنبض بإشعاع عراقة المدينة وتراثها.

١٨) متحف حلب وآثار تل حلف

أنشئ المتحف الوطني القديم بحلب حوالي عام ١٩٢٩ ليضم اللقى التي تم اكتشافها في تل حلف، لذلك اختارت المديرية العامة للآثار والمتاحف عند بناء المتحف الجديد وضع واجهة القصر- المعبد المكتشفة في تل حلف عند مدخله لتصبح رمزاً للمتحف، الذي اشتُهر بكنوز آثاره القديمة من فترات ما قبل الميلاد وما قبل التاريخ كذلك.



واجهة المتحف الوطني (مأخوذة من قصر تل حلف)

يقع تل حلف على بعد عدّة كيلومترات إلى الجنوب من بلدة رأس العين، التي تبعد بدورها ٨٠ كم إلى الشمال من مدينة الحسكة عند منابع الخابور قرب الحدود التركية. شكل التل مستطيل أبعاده ١٠٠٠×٦٠٠ م. ترتفع هضبة قمته عما حولها حوالي ٢٦ م وهي بأبعاد ٣٣٠×٢٠٠م.



ماكس فرايهر فون أوبنهايم

تعرّف على التل الألماني ماكس فرايهر فون أوبنهايم عندما زار منطقة الجزيرة بكاملها تمهيداً لاختيار مسار مناسب للخط الحديدي الذي سيصل بين برلين وبغداد. وقد سرّ فون أوبنهايم عندما قبل اقتراحه بمرور مسار الخط الحديدي بين جرابلس ورأس العين بحيث يبعد ١٠٠ م إلى الجنوب من الطريق التي تستعملها القوافل المارة بين بيراجيك وأورفا وماردين.

بدأ التنقيب في تل حلف رسمياً في الخامس من آب ١٩١١ ، وهو أول تنقيب أثري نموذجي نظامي يجري في سورية وتقوم به بعثة متكاملة من حيث وجود المنقب والمساح وقارئ اللغات...، وأوقفت أعمال التنقيب بنهاية عام ١٩١٣ ، وذلك بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، ولم تُستأنف الأعمال إلاّ بعد قبول ألمانيا في عصبة الأمم. بقيت رأس العين وتل حلف جزءاً من سورية بموجب معاهدة الصداقة وحسن الجوار التي عُقدت في أنقرة عام ١٩٢٥ والتي ثبّتت فيها الحدود بين تركيا وسلطات الانتداب الفرنسي، وجعل الخط الحديدي بين ميدان أكبس والقامشلي هو خط الحدود الفاصل بين الدولتين. وتابع فون أوبنهايم تنقيباته في تل حلف بين عامي ١٩٢٧ و١٩٢٩ ، وتم نقل التماثيل الضخمة واللقى من رأس العين إلى حلب بعد وصلها بالخط الحديدي. وكان أوبنهايم ينقل حصّته من اللقى بالشاحنات من حلب إلى الإسكندرونة ثم في السفن إلى برلين. وقد قام النحّات إيغور فون جاكيموف بصنع نماذج جصّية لجميع اللقى وبخاصة التماثيل الضخمة، تمّ تقاسمها مناصفة بين برلين وحلب. وتم، فيما بعد، نصب واجهة المعبد- القصر الأصلية في متحف تل حلف في شارع فرانكلين رقم ٦ في برلين، وتُركت الواجهة النسخة طبق الأصل بحلب. وقد دمّرت الواجهة الأصلية في برلين عام ١٩٤٤ لتبقى واجهة متحف حلب كالأصل، وهي تمثل ثلاثة تماثيل ضخمة للإلهة عشتار والإله حدد وحيواناتهم من واجهة قصر كبارا بن خديانو وتعود إلى الفترة الآرامية والقرن التاسع قبل الميلاد. ويُعتقد وجود مدينة غوزانا الآرامية مدفونة في تل حلف.

إن أهم لقى تل حلف في متحف حلب هي واجهة القصر- المعبد وتمثال السيدة الجميلة ذات الضفائر الطويلة والإلهة المنتصبة وتمثال الإله العقرب ولوحة جلكامش وتمثال ربما أمير وأميرة أمام جرن تقدمة، بالإضافة إلى ألواح تدعيم أسفل الجدران الطينية (أورتوستات) في قصر كبارا بن خديانو والتي تضم أشكالاً نافرة لأناس وحيوانات. كما نذكر تمثال النسر الضخم المتميز بمنقاره والأسود البازلتية الموجودة في برلين. لا تكمن أهمّية تل حلف بالتماثيل الضخمة التي وُجدت في القصر المعبد مع لوحات أسفل الجدران من الفترة الآرامية فقط والألف الأول قبل الميلاد، إذ وُجد في موسم عام ١٩٢٩ كمية من الكسيرات والآنية الفخارية تضم خطوطاً هندسية وملونة تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد. وقد أطلق على هذا النوع من الفخار الرقيق بخطوطه الهندسية اسم "فخار حضارة تل حلف"، وعُمِّمت التسمية على كل فخار مماثل يوجد في أي تل من تلال الرافدين والمنطقة.

خلّف فون أوبنهايم مؤسّسة تهتم بالأبحاث الشرقية تتابع أعمال التنقيب في تلال الآثار العديدة بعد وفاته. وقد قامت المؤسسة منذ الخمسينات من القرن الماضي بالتنقيب وبإدارة المرحوم البروفسور أنطون مورتغات شيخ الأثريين في تل الخويرة الذي يبعد ٥٠ كم إلى الغرب من رأس العين، وقد وجد معابد حجرية وتماثيل صغيرة متميزة تعود إلى الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، ولا زالت المؤسسة العلمية تقوم بأعمال التنقيب الأثري في التل المذكور وفي تلال أخرى من سورية وبلاد الرافدين.

حلب ٢٠٠٣/٥/٦

الثقافة والمتاحف وحلب

إنّها لفتة كريمة وواعية من وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف حين أصدرت تعميمها رقم ٨ تاريخ ٢٠٠٣/١/٢٠ بالسماح خلال العطلة الانتصافية فقط (١٨-٢٠٠٣/١/٣٠)، حيث لا سياح ولا من يحزنون، بدخول الأطفال وتلاميذ المدارس الذين برفقة أحد والديهم مجاناً إلى المتاحف، ويعبّر ذلك عن البعد الإنساني الحريص على تثقيف أبناء الشعب. والثقافة، كما ذكر الرئيس حافظ الأسد الخالد الذكر، هي الحاجة العليا للإنسان.

بينما كنت أقوم بزيارة أحد الزملاء في متحف حلب الوطني قبل أيام، شاهدت عائلة مؤلّفة من الوالدين وعدة أولاد من مختلف الأعمار بين سن الخامسة والرابعة عشر يدخلون المتحف مستفيدين من مبادرة وزارة الثقافة، ومضوا يتأملون المعروضات فيه دون شرح، تمنّيت لو وُجد متطوّع أو متبرّع من مديرية الآثار أو جمعية العاديات أو مديرية التربية يقوم بالتجوال مع هذه العائلة في أجنحة المتحف يشرح لها مسيرة الحضارة في بلادنا، علماً أن من بين الأولاد من هو في الصف السادس والثامن، فيكلّمهم عن دروس التاريخ والجغرافيا وشرح ذلك على الخريطة الطبيعية لبلاد الشام أو سورية، وعلى الجداول الزمنية المطلوب توفّرها في جناح الآثار الإسلامية والمبينة للسلالات التي تعاقبت من أموية وعباسية وأيوبيين ومماليك وعثمانيين، ومواقع القلاع وآثار الجزيرة وماري وأوغاريت وإبلا وتل حلف وتل برسيب...

وتتداعى الأفكار لتنقلني إلى طريقة التوعية والتوجيه في متاحف برلين وبشكل خاص متحف الآثار الإسلامية وجناح ما يسمى " بالغرفة الحلبية" والشرح الذي يتم فيها للتلاميذ عن قصص ألف ليلة وليلة، حيث يرتدي أحد الأساتذة ثياب سندباد ويجلس في وسط قاعة الغرفة الحلبية المأخوذة من بيت وكيل في حلب، ويبدأ برواية قصص الشرق في أجواء شرقية. بينما تقوم عالمة كبيرة مثل إيفا شترومنغر في متحف شارلوتنبرغ في برلين بتجسيم كيفية صنع النار والعيش في الخيمة ومشاهدة استيطان حضاري قديم في آثار مدينة " حبوبة " على الفرات مع سورها العظيم والتي سكنت في الألف الرابع قبل الميلاد.

ويحزّ في النفس مشهد آخر نصادفه غالباً أثناء زيارة المتحف، وهو قيام أحد صفوف المدارس وربما أكثر من شعبة مع معلميهم أو معلماتهم بزيارة المتحف، وينصبّ همّ الأساتذة إلى حفظ النظام والسير برتابة أمام التماثيل المعروضة دون أي شرح بحيث تنتهي كامل الزيارة للأجنحة بأقلّ من نصف ساعة دون أن يفقه التلاميذ شيئاً، إذ ليس هناك من يقول كلمة من المتحف أو من الأساتذة. كيف نعدّ التلاميذ للزيارة ؟ حبذا لو كان هناك قاعة، وهي موجودة بحلب منذ إنشاء المتحف قبل أكثر من ٤٠ عاماً لم تُستعمل لغرق وغمر أرضيتها بالمياه الجوفية المتسربة عبر الأساسات، يتم فيها عرض شرائح مصوّرة مع لوائح جدارية وجداول ومخططات وخرائط للمراحل التاريخية ومراحل ما قبل التاريخ، ويتم شرحها ثمّ تبدأ الجولة في

قاعات المتحف المختلفة، وبذلك ترسخ المعلومات في ذهن الطالب وتثبت بعد الإجابة على تساؤلاته في حال وجودها.

مع حركة التحديث والتطوير التي تنتهجها بلادنا بقيادة الرئيس المحبوب بشار الأسد، ومع الوعي الكامل لدور الثقافة في حياة الأمة وإنشاء كليات الآثار الناشئة والضرورية مع وجود هذا الزخم الهائل من التلال والمعالم الأثرية المنتشرة في كل شبر من بلادنا الحبيبة، وضرورة الكشف عن هذا التراث الحضاري الضخم ودراسته، ليس فقط من قبل علماء الآثار الأجانب بل من قبل أبنائه لبيان مساهمته في مسيرة الحضارة الإنسانية، بات من الضروري جداً إعادة النظر في هيكلية المتاحف و طريقة العرض فيها وتوسيعها بإضافة قاعات لوسائل الإيضاح أو للمحاضرات أو للعرض أو لعمل النماذج (الماكيت) مع وضع النشرات التوضيحية في كل قاعة وقرب كل تمثال هام، وتأمين كوادر مدرّبة من خريجي كلية الآثار للقيام بالتجوال على الأجنحة وشرح اللقى والتماثيل المعروضة بشكل صحيح لتلاميذ المدارس والزائرين.

إذا تمّت أرشفة جميع القطع الأثرية الموجودة في كل متحف والتي يتعدى عددها مئات الألوف وقد تتجاوز المليون ووضعت في ملفات الحاسوب وصنِّفت بشكل علمي صحيح، فإننا نتبين عندها ضرورة عرض المزيد من هذه القطع الهامة المحفوظة في المستودعات والتي لا مكان لها في خزانات العرض الحالية لتشاهد من قبل المهتمين. لذلك أرى أن نلجأ إلى توسيع مجال الاختصاص فنقوم، بالنسبة إلى المتحف الوطني بحلب على سبيل المثال، بإيجاد مكان آخر شبيه بصالة تشرين ننقل إليه جناح الفن الحديث، ونستعمل قاعته لعرض خزانات منطقة الجزيرة ولقى تنقيبات سد الفرات وكذلك سد تشرين مع وضع الخرائط والمجسّمات المبيّنة لمواقع هذه التلال مع نشرات تبيّن اسم المنقب وتاريخ التل وأهميته، وبذلك تتمّ بالفعل الفائدة المرجوّة، بينما لا يسعى أحد غالباً لمشاهدة الخزانات المعروضة حالياً في الممر الواصل بين جناح الفن الحديث والجناح الكلاسيكي من الطبقة الثانية من بناء المتحف.

وإذا تمّ تنظيم العرض والعمل في متاحفنا بالشكل المأمول مع وجود قاعات العرض المقترحة، يمكن عندها تنظيم محاضرات وجولات على أجنحة المتحف وقاعاته تقدّم ضمن برنامج معلن مرة كل ثلاثة أشهر يبيِّن فيه اسم المحاضر، من أساتذة الجامعة أو الباحثين في

جمعية العاديات أو العاملين في الآثار والمتاحف أو أحد علماء الآثار الزائرين.. وعنوان المحاضرة أو اسم الجناح الذي ستتمّ فيه الجولة من المتحف خلال ساعة من الزمن، يجيب المحاضر في نهايتها على أسئلة الحضور. هذا ما كان يتمّ في السبعينات من القرن الماضي في متحف برغامون في برلين، حيث تقوم أستاذة مثل الدكتورة إفلين كلنجل، زوجة العالم هورست كلنجل الذي كتب أروع الكتب في التعريف بحضارة بلاد الرافدين وبلاد الشام وبخاصة سورية من الألف الثالث وحتى نهاية العصور الكلاسيكية، بإلقاء محاضرة خلال ساعة عن الحضارة البابلية في قاعة بابل حيث تنتصب بوابة عشتار والتماثيل الرائعة المجلوبة من بابل، مع عرض كتب الباحثين وما ذكروه عن هذه الحضارة العريقة. وفي كل أسبوع وفي يوم محدد كان هناك أستاذ ومحاضرة في أحد الأجنحة.

كما هناك آلات تسجيل صغيرة محمولة، يمكن استعارتها من مكتب الدخول لقاء مبلغ معيّن، تشرح وبمختلف اللغات المعروفة (الفرنسية، الألمانية، الإنكليزية، الإسبانية، الإيطالية واليابانية...) اللقى والتماثيل المشاهدة في الأجنحة باتباع الأسهم المبينة خط السيرعلى الجدران. وبذلك يمكن لزائر المتحف عند وضع السماعة في أذنه أن يستمع إلى الشرح المطلوب بلغته الأصلية وبدون إزعاج الآخرين.

ولا ننسى دور المعلوماتية والإنترنيت في تقديم المعلومات عن محتويات المتاحف بأحدث الأساليب، مرفقة بالصور الرائعة عن متاحف مثل اللوفر والبريطاني والمتروبوليتان والفاتيكان والإيرميتاج وسواها.. مما يتطلب تأمين أقراص .C.D عن محتويات متاحفنا تعرض في الإنترنيت بشكل جذّاب ضمن التسويق السياحي لبلادنا. ولا شكّ أن لوزارة السياحة، ممثّلة بالسيد الوزير الضليع في مجال المعلوماتية، باعاً ودوراً كبيراً يمكن أن تقدّمه في هذا المجال.

وهكذا نرى أنّ هناك عملاً ضخماً ينتظرنا للنهوض ومواكبة متاحف العالم الحديثة مما يحتاج إلى كوادر علمية عالية المستوى نأمل أن تؤمنها كلية الآثار وكلية الآداب والعلوم الإنسانية (اللغات الحيّة)، ناهيك عن اللغات الشرقية القديمة التي يجب أن نتقنها إذا أردنا أن نقرأ تاريخنا ونكتبه بأنفسنا لا أن يكتبه علماء اللغات الأجانب لنا، ونحمد الله أنه أصبح لدينا في القطر من يستطيع قراءة اللغات المسمارية الشرقية وإن كان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

لقد تبنّت وزارة الثقافة (المديرية العامة للآثار والمتاحف) منذ حوالي عشرين عاماً طريقة " المتحف الجوال" حيث يتم اختيار تماثيل ولقى متميّزة من متاحف دمشق وحلب وتدمر وسواها تقوم بجولة، قد تستغرق عدة أعوام أو بعض العام، تتنقّل فيها بين عواصم ومدن عدة دول أو في دولة واحدة فقط، تعرض في متاحفها بشكل رائع ولائق، مشجعة بذلك مشاهديها على المجيء إلى سورية لمشاهدة المواقع الأثرية التي أخذت منها على الطبيعة، وفي هذا عمل كبير في دعم التسويق السياحي وتنشيطه. وكي لا يصدم السائح عند قدومه لزيارة القطر بمشاهدة الحالة الراهنة للمتاحف، أصبح النهوض بالمتاحف وتحديثها وتوسيعها (صالات وكوادر وطريقة عرض..) ضرورة ملحة جداً إلى جانب الاهتمام بالمواقع الأثرية التي سنتحدّث عنها في مناسبة أخرى.

كما لا زال الحلبيون يحلمون بأن يخصَّص أحد المباني التاريخية الهامة المناسبة من أمثال مدرسة الشيباني أو دار غزالة لتاريخ حلب بجميع مراحله منذ الألف الثالث قبل الميلاد وما قبل وحتى الآن، ويجمع في مكتبة خاصة كل ما كتب عن حلب وبمختلف اللغات مع المخططات والمسطحات ولوحات الخطوط وصور المباني الهامة، لتكون تحت تصرّف كل باحث ومهتمّ.

كما أرى تخصيص مبنى مناسب ليضم قطع وألواح الفسيفساء المكتشفة في أنحاء المحافظة وما أكثرها للقيام بعرضها بعد ترميمها ودراستها مع المصدر الذي جلبت منه. وحبذا لو يؤمن مكان واسع بقاعاته مماثل لخان أفاميا أو خان معرّة النعمان يحوّل إلى متحف لعرض فسيفساء أرضيات الكنائس والفيلات فيه، المكتشفة والمصادرة من مختلف أنحاء المحافظة وبخاصة من منطقة القرى الأثرية في شمال غربي المحافظة. أما إذا تعذّر تأمين المكان فأرى أن يتمّ تخصيص أكثر من جناح في خان أسعد باشا العظم في معرة النعمان، والذي يجري إعداده لِيُضم إلى متحف المعرة الحالي، توضع فيه لوحات الفسيفساء الخاصة بمحافظة حلب بعد ترميمها ليطلع عليها الجمهور والسياح بدل أن تهمل وتهترئ في زوايا النسيان. أو أن يُدَرس موضوع إنشاء متحف جديد خاص بالفسيفساء في مدينة حلب أو في منطقة قلعة سمعان التي تحرّكت الهيئات والمؤسسات العربية والدولية مؤخرا للاهتمام بها والعمل على حمايتها وترميمها وإعدادها للتعريف بالتراث والجذب الثقافي والسياحي.

وأخيراً هل يُسمح لنا بأن نذكّر بصالة المسرح في الطبقة الأرضية تحت مبنى الإدارة في مديرية آثار حلب، والتي لم تُستعمل منذ إنشاء المتحف قبل أربعين عاماً بسبب وجود المياه في أرضيتها؟ ألا يمكن تكليف إحدى الجهات الأجنبية الخبيرة، بعد أن عجزت الخبرة المحلّية لدينا، بإيجاد الحل المناسب لتصريف المياه، واستخدام القاعة للغرض الذي أنشئت من أجله؟ وما أشدّ حاجتنا إلى أمثالها وبخاصة في مجال العمل الثقافي والمتحفي بشكل خاص.

حلب ٢٠٠٤/١/٢

١٩) أهمية المواقع الأثرية السورية كتراث عالمي وأنساني

يأتي السياح والباحثون من جميع أنحاء العالم للاطلاع على التراث الحضاري الإنساني الذي كان لبلادنا مساهمتها الكبيرة فيه منذ ما قبل العصور التاريخية وحتى بدايات تشكل القرى والمدن الأولى: (وجود أقدم هيكل عظمي لطفل إنسان نياندرتال يعود إلى ٧٠٠٠٠ عام ق.م في مغارة الدوديرية في جبل سمعان، وجود أقدم بيت سكنه الإنسان المتحضّر بعد الكهوف مع الثورة الزراعية في مريبط على الفرات عام ٨٥٠٠ ق.م، ووجود أقدم تخطيط مدن في بقرص ٦٥٠٠ ق.م، ووجود أقدم تصريف للمياه الوسخة في حبوبة ٤٠٠٠ ق.م) ومع بداية التاريخ باختراع الكتابة (حيث وُجدت أقدم وظيفة كتبها تلميذ ووقعها مع توقيع المدرّس ومدير المدرسة في إبلا عام ٢٢٥٠ ق.م، ووجود أقدم لوحات جدارية في قصر مدينة ماري التي دمّرها حمورابي في القرن الثامن عشر ق.م وأعطتنا بمكتشفاتها ومحفوظاتها فكرة عن حضارة بابل أيام حمورابي، ووجود أقدم أبجدية في العالم عبّر فيها الإنسان من خلال ثلاثين حرفاً أبجدياً مسمارياً عن كل ما يشاء، بعد أن كان بحاجة إلى ٢٥٠ مقطعاً ليتمكن من قراءة شريعة حمورابي، وكان ذلك في أوغاريت منذُ القرن الرابع عشر ق.م).

وتستمر سلسلة حلقات الحضارة بعد الأكاديين والعموريين والكنعانيين والآشوريين مع الآراميين والآشوريين الجدد وتحتل فارس سورية، ويغزو الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو الشرق مع فكرة الدمج الحضاري بين الشرق والغرب، ويؤسّس قائده سلوقس نيكاتور الدولة السلوقية (٣١٢-٦٤ ق.م) والمدن الهامة أنطاكية واللاذقية وأفاميا ودورا أوروبوس وقورش وسواها. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية تبني الأيدي السورية العديد من المسارح والمعابد والطرق والأقنية والحمامات في بصرى وشهبا وأفاميا وقورش، وتتألق تدمر حيث تتحدى لأول مرة سيدة من الشرق هي زنوبيا جيوش روما الجرّارة. وفي الفترة البيزنطيّة تزدهر القرى الريفية وتبنى الكنائس ودور السكن والمعاصر والأسواق والفنادق بزخم لم يُعرف في أية منطقة أخرى من العالم، حيث يوجد في جبال الكتلة الكلسية شمال غربي

سورية وبين قورش وأفاميا وحلب والعاصي ٨٠٠ قرية وموقعاً أثرياً يعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثاني والسابع للميلاد، شُيّد فيها أكثر من ٢٠٠٠ كنيسة نصفها مؤرّخ خلال فترة ازدهار المسيحية بين القرنين الرابع والسادس للميلاد، وكانت درّة هذه الكنائس كنيسة القديس سمعان العمودي.

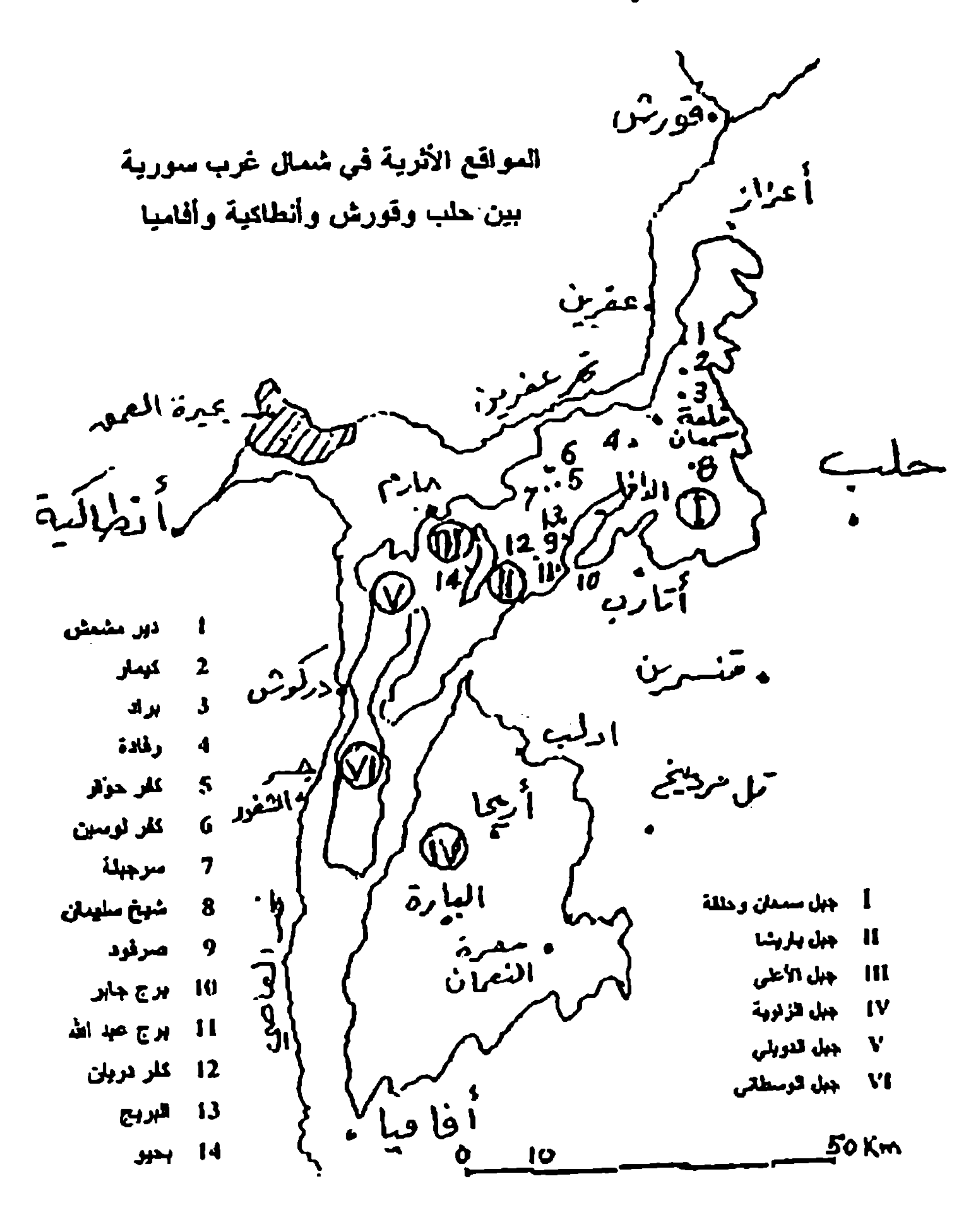
ومع الفتح العربي الاسلامي تزدهر المدن وتنشأ المدارس والجوامع والحمامات والأسواق والخانات وتنشط التجارة خلال الفترات العربية الإسلامية المختلفة بدءاً ببني أميّة وبني العبّاس الذين خلال ضعفهم سيطر السلاجقة والزنكيون والأيوبيون الذين تصدّوا لغزو الفرنجة (الصليبيين). وينهي المماليك وجود الفرنجة ببلادنا ويحتل العثمانيون البلاد العربية عام ١٥١٦، وتعود بلادنا للازدهار رغم الاحتلال العثماني الذي يستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث تهبّ رياح الحداثة والتنوير مع منتصف القرن التاسع عشر.

أجل كانت بلادنا مصدر إشعاع وبوتقة تفاعل حضاري جعلت أندره بارو، مكتشف مدينة ماري يقول: "إن كل من يعتزّ بالتراث الحضاري الإنساني، مهما كان جنسه أو وطنه، عليه أن يعتبر سورية وطناً ثانياً له."

هذه الاستمرارية طيلة عشرة آلاف عام من الحضارة تشكّل إرثاً ثقافياً يجذب الدارسين، وهناك أكثر من مئة بعثة أثرية تنقب في أنحاء القطر سنوياً مما جعل أحدهم يسمّي بلادنا "فردوس علماء الآثار" (لدينا ٣٠٠٠ تل أثري نقّب في مئة منها فقط). إن هذا الارث الثقافي يجذب السياح كذلك، وقد توفّر لدينا هذا التنوّع الجغرافي بين الساحل والجبال والأنهار والبادية، واعتدال المناخ في الخريف والربيع بشكل خاص مع الاستقرار والأمان المتوفّرين في كل مكان.

والآن، وبعد أن عرفت مدننا وبخاصة مدينة حلب القديمة، الطريق الصحيحة لسير أعمال الإحياء والترميم والحفاظ على النسيج العمراني وذلك من خلال المخاض الطويل الذي بدأ بتشكيل لجنة حماية حلب القديمة واللجنة الفنية المنبثقة عنها عام ١٩٧٨ والندوة العالمية لحماية حلب القديمة في أيلول عام ١٩٨٣ وتسجيل حلب كتراث عالمي من قبل اليونسكو عام ١٩٨٦ وبدء مشروع الإحياء والارتقاء بالمدينة القديمة عام ١٩٩٣ بتمويل حكومي ودولي، وتعميم الخطوات المتخذة في تنفيذ المشروع الرائد في حي باب قنسرين على

منطقة الجديدة والقصيلة وباب أنطاكية، ومنها إلى باقي مناطق المدينة القديمة الأخرى داخل وخارج الأسوار...أصبحت الصورة واضحة لحماية المدينة مع توفير التمويل اللازم لإحياء كامل المدينة القديمة بمساحة حوالي ٣٦٠ هكتاراً.



خريطة القرى الأثرية شمال غربي سورية

إننا اليوم بصدد إغناء موضوع القرى الأثرية في الريف وبيان أهميتها التي لا تقل عن أهمية المباني التاريخية في المدينة، والتي تسعى منظمة اليونسكو لتسجيل بعضها ضمن التراث العالمي، وبيان كيفية حمايتها ضمن خطة متكاملة تعتمد التخطيط الشامل والتخطيط الإقليمي ومشاركة المؤسسات المعنية من مديريات الآثار والخدمات الفنية والسياحة والبيئة والزراعة والإصلاح الزراعي(للتشجير والمحميات) والمساحة (للمسح ووضع المخطط التنظيمي للتوسع السكني) وكذلك مشاركة المنظمات الشعبية والمواطنين في القرى الأثرية المسكونة، حيث تتمّ توعيتهم إلى أهميّة هذه الآثار التي يعيشون بين جدرانها، وتدريبهم على استقبال وفود السياح والمهتمين وعدم تخريب المباني التاريخية وبناء منازلهم الجديدة بعيداً عن الآثار في المنطقة التي يجري تحديدها من المخطط التنظيمي المقترح.

ويبقى اهتمامنا موزّعاً بين البشر والحجر لأن الخدمات التي تقدّم إلى المواقع الأثرية تؤدّي حتماً إلى رفع المستوى الاجتماعي للبشر الساكنين فيها وحولها، وتؤدّي إلى إزالة الفوارق الاجتماعية المتراكمة عبر الزمن بين سكان الأرياف والمدن فتحقّق المساواة بين أبناء الوطن الواحد.

لقد ذكرت سابقاً أن عدد القرى والمواقع الأثرية المنتشرة في جبال الكتلة الكلسية فقط وضمن مساحة ٥٥٠٠ كم٢ يبلغ ٨٠٠ قرية يعود معظمها إلى القرنين الرابع والسادس ولها جذور وبقايا تمتد إلى الفترة الرومانية. إن أهم هذه المباني كنيسة القديس سمعان العمودي التي تمّ بناؤها عام ٤٩١ م وكانت أعظم كنيسة في زمانها سبقت كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية. وقد ذكر أكثر من باحث أننا نجد في مقدّمة واجهتها الجنوبية أصول فن الرومانسك الذي بدأ في أوروبا في القرن الحادي عشر، ولم تُبنَ كنيسة أكبر منها في أوروبا سوى مع الفن الغوطي في القرن الثاني عشر للميلاد.

إن هذه القرى الأثرية التي أُطلق عليها عام ١٨٦١ تسمية "المدن الميتة" لأنها كانت خالية من السكان، بدأت تُسكن في الخمسين سنة الأخيرة مع امتداد الطرق المعبدة إليها والتفجر السكاني، المماثل في الريف لما هو في المدينة إن لم يفُقْه، مما أخذ يهدد مبانيها الأثرية بالخراب والزوال عن طريق استعمال الأحجار القديمة ببناء الدور الحديثة. لذلك يجب أن تبدأ خطوات الحماية لمنع التخريب، إذ أن درهم وقاية خير من قنطار علاج، وفي مرحلة لاحقة

تُدرس أعمال الترميم التي تحتاج إلى تمويل كبير قد تساهم في تأمينه المنظمات الدولية المهتمّة بالتراث الانساني.

حلب ٢٠٠٢/٥/٢٥

استدراك (٢٠٠٨):

مع نضوج فكرة التنمية المستدامة في الريف السوري وبذل المزيد من الاهتمام بالقرى الأثرية فيه، فقد تمّ، وبدراسة معمّقة، ترشيح ثماني مناطق قرى أثرية دعيت متنزّهات National Parks في مقدمتها موقع كنيسة القديس سمعان العمودي، تنطبق عليها المواصفات التي تؤهلها للتسجيل لدى منظمة اليونيسكو ضمن قائمة التراث العالمي World Heritage List(WHL). ثلاثة من هذه المتنزهات في جبل سمعان في محافظة حلب وخمسة في محافظة إدلب؛ متنزهان في جبل الزاوية وواحد في جبل الأعلى وواحد في جبل باريشا وواحد في جبل الوسطاني، وهي موزّعة كما يلي:

المتنزه رقم ١: ويضم قلعة سمعان، دير سمعان (تلانيسوس)، قاطورة، ست الروم، رفادة وشيخ بركات.

المتنزه رقم ٢: ويضم براد، كفر نبو، برج حيدر، كالوتا وخراب شمس.

المتنزه رقم ٣: ويضم سنخار، بابوطة وشيخ سليمان. (المتنزهات ١، ٢، ٣ في جبل سمعان)

المتنزه رقم ٤: ويضم البارة، بير مرطحون، مجليا، بترسا، سرجيلا، بشلا، شنشراح (خربة الحاس)، ربيعة، بعودة ودللوزة.

المتنزه رقم ٥: ويضم جرادة ورويحة. (المتنزهان ٤ و ٥ في جبل الزاوية)

المتنزه رقم ٦: ويضم قلب لوزة، كرك بيزة والكفير (جبل الأعلى).

المتنزه رقم ٧: ويضم دار قيتا، الديروني، باقرحا وبرج باقرحا وخربة الخطيب. (جبل باريشا)

المتنزه رقم ٨: ويضم بنصرة والفاسوق وكفر تعقاب (تياكابا) (جبل الوسطاني)

وأملنا أن يتم تسجيلها كاملة أو بعضها خلال عام أو عامين. ويكون ذلك التسجيل محرّضاً لحصولها على مزيد من الاهتمام والتمويل من الهيئات المحليّة والدولية، باعتبارها تراثاً إنسانياً فريداً واجب الحماية يقصده رواد السياحة الثقافية الدينية من كل أنحاء العالم.

٢٠) جمعية العاديات والشاعر عنترة العبسي (٥٢٥ - ٦١٥ م) والذكريات

قال الشاعرعنترة يذكر إبنة عمّه عبلة (من البحر الكامل):

قـف بالـديار وصـح إلى بيـداها ... فعسـى الـديار تجيـب مـن ناداهـا

دار لعبلـة شـطّ عنـك مزارهـا ... ونـأت لعمـري مـا أراك تراهـا

مـا بـال عينـك لا تمـلّ مـن البكـا ... رمـدٌ بعينـك أم جفـاك كراهـا

يـا صـاحبي قـف بالمطايـا سـاعة ... في دار عبلـة سـائلاً مضـناها

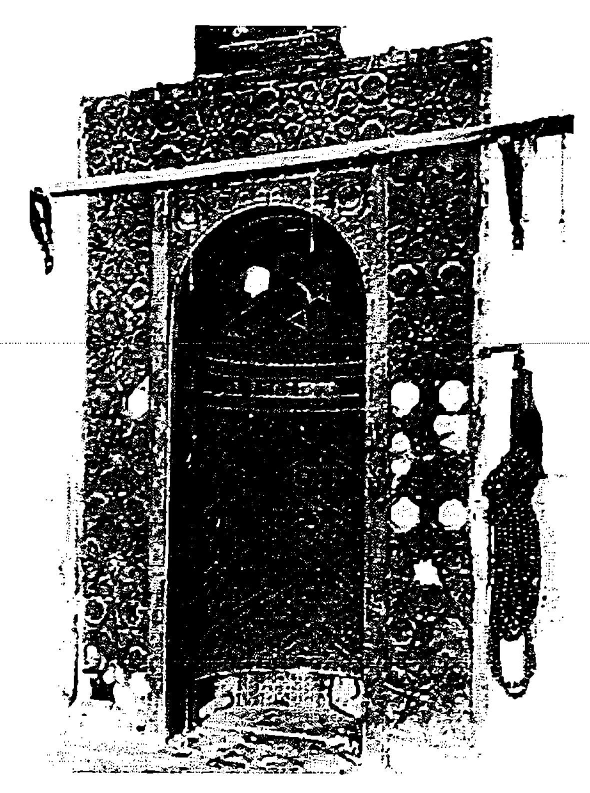
أم كيـف تسـأل دمنـة عاديـة ... سـفت الجنـوب دماهـا وثراهـا

يـا عبـلُ قـد هـام الفـؤاد بـذكركم ... وأرى ديـوني مـا يحـلّ قضـاها

يـا عبـلُ إن تبكـي علـيّ بحرقـةٍ ... فلطالمـا بكـت الرجـالُ نسـاها

وكلمة "عادية" تعني عدا عليها الزمن أي قدمَ فلم يبق من آثارها الاّ القليل. ومن هذه الكلمة اشتقّ المتأخرون اسم "العاديات" لما يوجد في باطن الأرض من آثار المتقدّمين، وهو ما يسمّى بالعامية "الأنتيكا" (Antique) ولا علاقة للكلمة مع "ثمود وعاد" المغرقتين بالقدم.

وكانت الكلمة مألوفة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد استعملها الأب لويس شيخو مرّات عديدة في مجلة "المشرق" التي أسّسها في نهاية القرن التاسع عشر عام ١٨٩٧، حيث كان يذكر: الأستاذ (فلان) أستاذ العاديات في جامعة (كذا).. كما إن المؤرخ الشيخ كامل الغزّي في كتابه " نهر الذهب في تاريخ حلب" المطبوع عام ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ استخدم كلمة العاديات المألوفة بمعنى "الأنتيكا" في الصفحة ٦٠٤ من الجزء الثالث. لذلك لا نستغرب استخدامه الكلمة ليطلقها على "جمعية العاديات" عام ١٩٣١ بدل جمعية "أصدقاء القلعة والمتحف" لأنها كانت كثيرة الاستعمال في أيامه.



محراب مسجد نور الدين في القلعة تصوير هرتزفلد عام ١٩٠٨

ومن المعروف أنه حصلت عام ١٩٢٢ سرقة محراب المسجد الصغير في قلعة حلب والذي يُنسب إلى نور الدين زنكي، وهو محراب رائع من خشب التوت يشبه بشكل كبير المحراب الأيوبي الموجود حالياً في بناء المدرسة الحلوية والمؤرخ من عام ١٢٤٥م، لكنه أقدم منه بحوالي مئة عام. ولدينا صورة له وبجانبه مسبحة كبيرة في كتاب إرنست هرتسفلد "مدوّنات حلب العربية" المطبوع عام ١٩٠٨. وربما يُعرض المحراب المذكور حالياً في مجموعة خاصة، ولا يجسر مقتنيه على عرضه في مكان عام، لأن مصدره معروف: سرقة من قلعة حلب.

على أثر ذلك تنادى مثقفو حلب وخيرة رجالها وشكلوا "**جمعية أصدقاء القلعة والمتحف**" عام ١٩٢٤ وذلك بهدف التعريف بقيمة الآثار والمباني التاريخية الهامة والعمل على حمايتها من السرقة والتشويه والخراب. وكان ذلك أيام مدير مصلحة الآثار بحلب آنئذ السيد بلوا دوروترو، وكان غليوم بوخه عم الدكتور أدولف بوخه والشيخ كامل الغزي والأب

جبرائيل رباط والأب جرجس منش من المؤسّسين. ومن المعروف أن بلوا دوروترو قام فيما بعد بحفريات أثرية جزئية في قلعة حلب كشفت عام ١٩٢٩ اللوح البازلتي النافر الشهير لرجلين مجنحين في حالة حركة أمام رمزي القمر والشمس (معروض حالياً في الحديقة الخارجية في المتحف الوطني بحلب). وكان ذلك الحجر جزءاً من معبد إله الطقس الذي يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد وما قبل، والذي تمّ كشفه حديثاً مع أكثر من ٣٠ لوحاً بازلتياً رائعاً بالرسوم التي حوتها لآلهة وحيوانات وبشر ضمن الحفريات الأثرية السورية- الألمانية المشتركة التي تجري في القلعة منذ عام ١٩٩٦ وحتى الآن بإدارة الباحث كاي كوملاير.

وبهذه المناسبة نذكر أن "جمعية العاديات" قد احتفلت في ٢٢ أيلول ٢٠٠٤ بمرور ثمانين عاماً على تأسيسها وذلك في قاعة العرش من قلعة حلب، وهو المكان نفسه الذي احتفلت فيه بمرور ٥٠ عاماً على إنشائها عام ١٩٧٤ إثر إنجاز الكسوة الخشبية لسقف قاعة العرش وترميمها من قبل عائلة "الخياط" الدمشقية الشهيرة. وكم فقدنا من أحبة وأصدقاء تفانوا في خدمة الآثار والتاريخ والتراث بين الاحتفالين ولا زالت ذكراهم عطرة بيننا ونرجو لأرواحهم الزكية كل الرحمة.

أجل، مسيرة طويلة لحماية حلب يزداد فيها وعي المواطن واهتمامه لرعاية التاريخ والتراث تحمله الأيدي الأمينة من الخلف إلى السلف.. نصمت مع التاريخ، ونذكر الزملاء الذين غادرونا ونترحم على الرواد الأسلاف الذين رحلوا، وأخص بالذكر المستشار الأول المرحوم صبحي الصواف والخبير والفنان والباحث المستشار المرحوم محمد كامل فارس. وكشريط ذكريات سريع يمر في الخاطر، ممن واكبتهم خلال العقود الأربعة من مسيرة جمعية العاديات، أذكر المرحومين الدكتور عبد الرحمن الكيالي الذي كان وجوده متميزاً في الصف الأول من كل محاضرة ثقافية، والأستاذ جبرائيل غزال عماد الجمعية والذي كان مكتبه وقلبه مقراً لمكتبة الجمعية واجتماعاتها وأعضائها لفترة طويلة، والدكتور أدولف بوخه الذي كانت داره قبلة جميع زوار حلب من علماء وباحثين أثريين وعظماء، والدكتور أنور الدويدري والدكتور طه إسحق الكيالي والدكتور مصطفى العطار والأستاذ الباحث فؤاد عنتابي وأخاه الأستاذ سامي أسعد عنتابي والأستاذ الناسك العلامة خير الدين الأسدي والأستاذ جلال الملاّح والأستاذ الباحث قيصر صادر والأستاذ المهندس صالح بساطة والمهندس حكمت

اليازجي والصيدلي مصطفى المنصوري وأديب حلب الأستاذ عبد الله يوركي حلاق والأستاذ القاضي نبيه جبل والدكتور روبير جبه جيان وخبير المسكوكات جورج فارس صباغ والمهندس جورج قلمكاريان الذي ساهم في ترميم كنيسة القديس سمعان العمودي والقاضي الإنساني المحبوب محمد سيرجية والأستاذ نافع اليان والأستاذ أحمد أشرفي والمهندس نشأت شحادة والدكتور عبد الكريم شحادة والأستاذ معروف النحاس والأستاذ راؤول قوشاقجي وسيادة المطران العلامة المتواضع نيوفيطوس إدلبي والدكتورالنشيط الباحث إحسان شيط والأخت نفيسة الغزي ابنة مؤرخنا الكبير الشيخ كامل الغزي والأستاذ جبرائيل سعادة من أعلام اللاذقية...والصديقين جورج كوستانيان وجبرائيل شرقي من الناشطين في لجنة الرحلات مع عميدها الأستاذ صلاح الخطيب أدامه الله بصحة جيدة والأستاذ عبد الله قباني، وسواهم ممن لم تسعفني الذاكرة بتذكر أسمائهم ولهم بصماتهم الفاعلة في مسيرة العاديات ونشاطاتها في نصف القرن الماضي. ولا أنسى الدور الكبير في نشر الوعي وتغطية رحلات العاديات الداخلية والخارجية عن طريق التعريف بالأماكن المزارة والعمل على حمايتها وذلك عن طريق المقالات التي كان يكتبها يراع الأستاذ الكبير عبد الجليل سلاح متّعه لله بالصحة والعافية، في صفحات جريدة الجماهير بروح أكثر صفاء وشفافية من جداول الينابيع العذبة.

نتمنى كل التوفيق وسداد الخطى لحاملي مشعل الجمعية بأيد أمينة في مسيرتها الواعدة دائماً إلى الأمام. وكل عام والرئيس ومجلس الإدارة وجميع أعضاء الجمعية بخير.

حلب ٢٤ /٩/ ٢٠٠٤

٢١) هزة أرضية في حلب عاصمة سورية[1]
تقرير في ٢٣ آب ١٨٢٢

تعريب وتعليق المهندس عبد الله حجار

تقع حلب عاصمة سورية والمدينة الثالثة في الإمبراطورية العثمانية في سهل واسع يمتد بين العاصي والفرات، وهي مبنية على ثمانية تلال أعلاها متوّج بقلعة. ومحيط المدينة لوحدها من ٣٠٠٠-٤٠٠٠ قامة toises (القامة تساوي ٦ أقدام) وضعف ذلك إذا ضمّت إليها الضواحي. وتضم المدينة ٢٠٠٠٠٠ نسمة من السكان.

في ليلة ١٣ آب ١٨٢٢ زار هذه المدينة قضاء من الله هائل الوقع سيذكر في التاريخ؛ يظهر إلى جميع الأمم بأي غضب شديد يمكن أن تنتزع منهم الأملاك والأرواح. وأيّ درس قاس في رؤية هذه المدينة الجميلة ورائعة البناء تتحوّل في ثوان إلى أكوام خراب. من لن يحرّكه خوف خلاصي وهو يرى ألوف المخلوقات البشرية وقد فاجأها الموت وسط ملذات الرفاهية ورخاء العيش، ولم يكن لديهم لحظة واحدة للابتهال وطلب رحمة الله.

لقد شُعر بالهزة في دمشق وأضنة وجزيرة قبرص وشوهدت مرّات متكرّرة نيران بركانية أثناء الليل، ولم يكن هناك ما يلاحظ في حالة الجو. في خلال عشر ثواني أو اثنتي عشرة ثانية أصبحت حلب وأنطاكية ومدن أخرى أكواماً من الخراب. وبحسب الإحصاء الأكثر تواضعاً فإن ٢٠٠٠٠ إنسان لقوا حتفهم... (سطر غير واضح للقراءة).

وسننقل كلمات شاهد عيان أنقذ بأعجوبة كتبها في بستان إبراهيم آغا قرب خرائب حلب بتاريخ ٢٣ آب ١٨٢٢:

"آخذ الريشة وبضعف كبير لأكتب عن الحدث الرهيب وأنا أذكر عويل الآباء على أبنائهم والأبناء على آبائهم والرجال على نسائهم والنساء على رجالهن. ويبدو لي وكأنني أراهم شبه عراة يركضون من جهة إلى أخرى يتوسلون حماية القادر على كل شيء، ويحاولون بأيديهم الضعيفة رفع الركام الذي تكوّم فوقهم.

---

[1] نشرت في "مجلة العاديات" العدد ٢-٣ عام ٢٠٠٤ ص ١٠٥-١١٠

في ليلة ١٣ آب نحو الساعة التاسعة والنصف قُلبت حلب رأساً على عقب خلال ثواني. كنت نائماً على سطح بيت صديقي السيد م. الذي كان له حظ النجاة بنفسه مع عائلته.

قبل نصف ساعة من حدوث الهزّة الكبيرة شعرت بهزّة خفيفة، فأبعدت سريري احتياطاً عن جدار عال كان موضوعا بقربه. ثمّ استيقظت على إثر سقوط هذا الجدار على المكان نفسه الذي كان سريري فيه، فبادرت وبثياب النوم إلى الهرب داخل المنزل الذي انهار من جميع جوانبه.

البقاء في البيت أو السير في الشوارع بين الجدران التي تتهاوى كانا يبدوان خطرين على حد سواء. فأسلمت أمري لله وعزمت على نزول الدرج لأنسلّ من دار السيد م. وكان ذلك إلهاماً من السماء لأن الدرج الكبير سقط في تلك اللحظة نفسها.

إن ظلام الليل وأمواج الغبار الذي ملأ الجو منعاني من مشاهدة الأحجار والركام الذي غطّى الدرج فتعثرت في الباحة بجسم ميت. كيف أستطيع أن أصف الشعور الذي انتابني عندئذ؟ كنت نصف ميت من الخوف والهلع. ثمّ علمت أن هذا الجسد هو لخادم أمين كان قد هبط الدرج قبل عدّة ثواني، وقد سحقته أحجار متساقطة من منزل مجاور.

تركت هذا المكان الحزين وركضت وسط الجدران التي كانت تتداعى متجهاً نحو أبواب المدينة. وفي وسط الشوارع الضيقة قدّر لي أن أكون شاهداً على المناظر الأكثر رهبة. لقد جعلتني الجدران المنهارة أرى، على ضوء المصابيح المنارة داخل الدور، رجالاً ونساءً حاولوا التعلّق بالجدران المهتزّة وهم يحملون أولادهم بين أذرعهم. ورأيت أجسادا مشوّهة وممزّقة ممدّدة عند قدميّ، وسمعت الصراخ الحاد للذين كانوا نصف مدفونين تحت الركام. وكان مسيحيون ويهود وأتراك (مسلمون) كل على طريقته يبتهلون إلى الله طلباً للرحمة، بينما فكرة الصلاة ربما كانت بعيدة عن قلوبهم قبل عدّة دقائق.

وبعد جهد كبير وصلت منهكاً إلى باب المدينة المسمّى "باب الفرج"، ولا زالت الهزّة الأرضيّة مستمرّة. وركعت وسط الناس، وجسمي بارد ومغلف بالرضوض والجروح، لأشكر العلي القدير على نجاتي من الأخطار. لكن باب المدينة كان مغلقاً ولا أحد يجرؤ على

تعريض حياته للخطر بالوقوف تحت قوس قبته لفتحه. وبعد ما أسلمت روحي لخالقي رميت بنفسي على الباب وتحسّسته في الظلام فتبيّن أنه لم يكن مغلقاً وإنما القضبان الحديدية التي كانت تغلقه قد اعوجّت (انحنت) من الهزة الأرضية، ولم تكن لديّ القوة الكافية لتقويم اعوجاجها، فذهبت أبحث عن الحرّاس ولكنهم لم يكونوا هناك.

ركعت ثانية أمام العلي القدير الوحيد الذي يمكنه أن يحفظني في مثل هذا الخطر، وما نسيت في صلواتي البائسين المحيطين بي. اقترب مني أربعة أو خمسة مسلمين واتخذوا وضعية الصلاة على عادتهم وهم يصرخون: الله، الله، وكلهم رغبة في ضمان سلامتهم وسلامة آلاف الناس الذين وصلوا حشوداً لإنقاذ أنفسهم من باب المدينة، فرجوتهم مساعدتي في فتح الباب، وقد ألهمهم الله الشجاعة. وبحسب مشورتي أخذوا أحجاراً كبيرة وبعد قليل قوّموا القضبان وفُتح الباب. وما إن مررت من الباب حتى حدثت هزّة عنيفة جعلت الباب ركاماً وقتل عدّة أشخاص أثناء سقوطه.

رأيت عندئذ مشهداً جديداً مؤثراً، سارع أناس عديدون وكأنهم على اتفاق وركعوا يشكرون الله القدير على سلامتهم. لكن عندما مرّ شعور الفرح الأولي افتكروا أنهم تركوا أهاليهم وأصدقاءهم مسحوقين، أو على وشك ذلك، تحت الأنقاض. عندها راحوا يطلقون التنهدات... (سطر مشوّه غير مقروء). وتدرّبت على السير حوالي عشرين خطوة نحو مكان رأيت فيه مجموعة أشخاص هربوا من الضواحي، وهناك سقطت نصف ميت من البرد والألم.

عندما استعدت وعيي بعد فترة بدأت أحسّ بضيق يستحيل وصفه، وهو فكرة ما يمكن أن يحصل لأخي وهو في ذلك الحين في أنطاكية، والخروج القاسي لأصدقائي من المدينة والمشاهد الحزينة التي تحيط بي؛ بعض الناس جرحى والبعض الآخر يبكي أهله، وآخرون رأوا أمام أعينهم أولادهم يموتون وقد سحبوهم من تحت الأنقاض. إن أشجع ريشة لا يمكنها أن تعبّر عمّا شعرت به، وقد أمضيت الليل بكامله بالقلق والصلاة.

وفي الصباح حُملت على حمار إلى البستان القريب ووُضعت في ظلّ الأشجار. ووجدني السيد درشي M.Derchi الترجمان الفرنسي وأبلغني النبأ السار: إن جميع

الأوروبيين المسيحيين، فيما عدا صبي صغير، تمّ إنقاذهم، لكن العديد منهم أصيبوا بجروح شديدة مثلي.

ومن بين اليهود الأوروبيين الذين قتلوا كان السيد عزرا بيجيوتوEsdra de Picciateo قنصل النمسا وآخرون سقطوا تحت الركام وعدة ألوف من المواطنين السوريين مسلمين ومسيحيين ويهود.

بقيت أربعة أيام دون أن أتمكن من الحركة بسبب جراحي ورضوضي، ولم يكن لديّ سوى غطاء (شرشف) اتمكن به من حماية نفسي من أشعّة الشمس المحرقة. وعندما انضممت إلى الأوروبيين الآخرين في بستان إبراهيم آغا استقبلني بحرارة قنصل فرنسا السيد دولسّبس. لا يمكنني أن أطري جيداً سلوك هذا الإنسان الممتاز. ولا يمكن لوالد أن يعامل أولاده بعطف مثل العطف الذي قدّمه السيد دولسّبس لمواطنيه وكذلك لجميع الذين كانوا بحاجة إلى نصائح أو مساعدات.

أية مجموعة من الأفكار الخلاصية لا تثيرها هذه القصّة؟ نحن على استعداد لإبعاد كل فكرة هلاك غير متوقع وكل الأفكار الجادة، وأن نقول مثل الساخرين والدنيويين الذين تكلّم عنهم القديس بطرس في رسالته الثانية (فصل ٣ فقرة ٤): "ولا زال كل شيء منذ بدء الخليقة على حاله". لكن إذا تعرّضت مدن بكاملها لتدمير قاسٍ أو رهيب جداً، أيّة أخطار لا تهدّد وجودنا في كل لحظة؟ وإذا كانت هزّة محلّية في زاوية من الكرة الأرضية ملأتنا لوحدها هلعاً، فبأيّ خوف يتقبّل الخطأة الذين لم يتوبوا مشهد الدمار الذي سيسجّله يوم الرب بحسب الرسالة الثانية للقديس بطرس (فصل ٣ فقرة ١٠ و١١): "سيأتي يوم الرب كما يأتي السارق، فتزول السماوات في ذلك اليوم بدويّ قاصف، وتنحلّ العناصر مضطرمة وتحاكم الأرض وما فيها من الأعمال. فإذا كانت جميع هذه الأشياء ستحل على ذلك الوجه فكيف يجب عليكم أن تكونوا في قداسة السيرة والتقوى؟"

ما دمنا محاطين بالأخطار ومهدّدين بأن نواجه مصائب غير متوقعة أمام محكمة الديّان الإلهي، أفليس علينا أن نبادر إلى تطبيق ما قاله القديس بولس: "هذا الكلام أكيد، وجدير بأن يسمع بكامله، وهو أن يسوع المسيح جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة". (انتهى التقرير).

التعليق:

أشكر الصديق الدكتور المهندس حكمت زيرية خبير حسابات الزلازل في جامعة حلب ونقابة المهندسين السوريين الذي وافاني، وهو يعرف مدى اهتمامي بكل ما له علاقة بحلب، بالتقرير التاريخي الذي حصل عليه عن طريق الإنترنيت. فقمت بنقله إلى العربية في ترجمة شبه حرفية كي أحافظ على أسلوب الكاتب المتأثر الذي وصف به الزلزال الرهيب.

يتألف التقرير من مقدّمة عن حلب ونبأ الزلزال الكبير الذي حصل فيها في ١٣ آب ١٨٢٢ ثم وصف شاهد عيان عاش أحداث الزلزال وكتب عنه بعد عشرة أيام فقط من حدوثه. ثم ختم بتوجيه ديني نبيل هو الدعوة إلى توبة الخطأة. وقد زيّنت أعلى التقرير صورة حفر أو رسم تخيّلي، قبل وجود آلة التصوير التي بدأ استعمالها في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، تمثل أبنية تتداعى وأناساً يهربون وأحجار الجدران تتساقط فوق بعضهم.

ويبدو أن التقرير قد طُبع في إحدى مطابع فرنسا وربما في باريس. كما أن خاتم المكتبة الملكية مع الزنابق الثلاث ربما يرمز إلى المكتبة التابعة إلى المعهد الفرنسي (كوليج دو فرانس) Collège de France الذي أنشأه الملك فرانسوا الأول عام ١٥٢٩ وكان اسمه "المعهد الملكي".

لقد ذُكر في مقدّمة التقرير وقبل كلام شاهد العيان، وكأنه من وضع إدارة التحرير التي نشرت التقرير، انه " شُعر بالهزة في دمشق وأضنة وجزيرة قبرص، وشوهدت مرّات متكررة نيران بركانية أثناء الليل". أي كان هناك شيء مشترك في دمشق وأضنة وقبرص وهو تكرار وجود نيران بركانية أثناء الليل، مما جعل البعض، ومن بينهم الدكتور المهندس جلال الدين خانجي عضو الجمعية الكونية السورية، يعتقد، كما بيّن في محاضرة ممتعة قدّمها بتاريخ ٧ /٦ /٢٠٠٠ في جمعية العاديات، أن من أسباب الزلزال ربما نزول نيزك أو ارتطام جسم سماوي غريب ملتهب بسطح الأرض مما سبّب النيران البركانية. إلاّ ان شاهد العيان في وصفه لما رأى حوله منذ لحظة هربه من البيت الذي كان فيه وحتى وصوله إلى برّ السلامة في أحد البساتين خارج الأسوار، لم يذكر انه رأى شيئاً من ذلك.

من وصف مجرى الأحداث يتبيّن أن الكاتب مجهول الاسم كان ينام على السطح، وهذا شيء طبيعي بحلب في شهر آب اللهاب، عند أحد أصدقائه في دار، داخل سور المدينة،

قريبة من موقع مشروع باب الفرج اليوم. لذلك هرول هرباً من الزلزال للخروج من أقرب باب وهو باب الفرج الذي هُدم في الزلزال. وكان نهر قويق ببساتينه غير بعيد عن باب الفرج، وشارع وجسر الناعورة معروفان، وقد خلّد ألبير بوخه والد الدكتور أدولف بوخه تلك الناعورة في لوحة زيتية رائعة تحتفظ بها السيدة جيني مرّاش. وكانت منطقة البساتين ممتدة خارج الزاوية الشمالية الغربية لسور المدينة نحو الغرب والنهر فيما يسمى اليوم بستان كل آب (بستان الزهور). ولعلّ بستان إبراهيم آغا الذي لجأ اليه الكاتب والأوروبيون الآخرون هو أحد هذه البساتين أو يقع في منطقة الكتّاب التي بنى فيها بعض الأوروبيين المقيمين استراحات لهم، أو أنه مع البساتين الأخرى شمال المدينة مثل بستان الجالق والجانكية والباشا... علماً ان المعلم نعوم بخاش في يومياته "دفاتر الجمعية" عن حلب يذكر ذهابه مرات عديدة إلى بستان إبراهيم آغا لصيد السمك مما يدل على أنه قريب من المدينة، وربما كان صاحبه إبراهيم آغا الجلبي. ومن المعروف أن سوق الهال الحالي بحلب بُني فوق جزء من أراضي "الجلبي" التي ربما كان فيها البستان المذكور. ولدى سؤال المناضل جورجي جبرا خوام (قطوش) أطال الله بعمره ومتعه بصحة جيدة، أجاب أن البستان، على ما يذكر، هو قرب المسلمية. وإذا لم تخنه الذاكرة فهذا يعني ربما بستان إبراهيم آغا السياف الذي تذكر وقفيته العديد من القرى والدكاكين والبساتين وربما كان بستان المسلمية أحدها. كما كان هناك إبراهيم آغا الحربلي من كبار تجار وأغنياء الانكشارية والذي قتله والي حلب ابن جبان عند الشيخ أبي بكر عام ١٨١٣ كما يذكر الشيخ راغب الطباخ. لذلك كان هناك أكثر من شخصية هامة باسم إبراهيم آغا. ولا زلنا ننتظر **الدراسة الهامة عن حلب، التي كان بصدد إصدارها المرحوم علي سماقية** الباحث والموظف السابق في مديرية الآثار بحلب، ومن بينها بساتين حلب ومواقعها على نهر قويق مما هو قبل المسلمية وحتى جسر الحج ومستنقع المطخ. نأمل أن تهتم عائلة المرحوم سماقية بطباعة الدراسة الهامة لتعم الفائدة. ونتساءل، ترى هل يمكن أن يكون اسم الترجمان الفرنسي السيد درشي أو دركي Derchi محرفاً عن اسم أحد أفراد "عائلة دراكي" المعروفة؟ كما نعلم أن أحد أفراد عائلة بيجوتو، وهي عائلة قناصل يهودية بحلب، قد قتل أثناء الزلزال. وكان معظم القناصل الأجانب من اليهود فيما عدا عائلتي بوخه وماركوبولي.

ويسمّي الكاتب أهالي حلب المسلمين "أتراك" على عادة الأجانب آنئذ في تسمية جميع مسلمي الإمبراطورية العثمانية. كما كان أهالي أمريكا الجنوبية يطلقون كلمة "توركو" (أتراك) على جميع المهاجرين السوريين واللبنانيين الذين قدموا إلى بلادهم من الشرق العثماني بدءاً من عام ١٨٦٠.

أمّا عن دور قنصل فرنسا آنئذ السيد دولسّبس، وهو عم فردينان دولسّبس الذي نفّذ فتح قناة السويس عام ١٨٦٩، فقد أشادت بجهوده وعمله الإنساني أكثر من جهة وكاتب، حيث اهتمّ بمساعدة الأجانب والمواطنين على حد سواء للتخفيف من آثار الزلزال العنيف. ويتفق واصف الزلزال مع عبد الله مراش في "تاريخ مختصر حلب" وكذلك مع جون باركر قنصل إنكلترا بحلب اللذين يذكران أن عدد القتلى بلغ نحو ٢٠٠٠٠ نسمة، بينما يذكر آخرون ١٠٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ نسمة.

وربما كان الكاتب فرنسي الجنسية أحد التجار أو أخا تاجر كان مع عائلته في أنطاكية أثناء الزلزال. ولا شك أنه كان مؤمناً تقياً أو جعلته مواجهة الموت في حميمية الحدث الزلزال كذلك. فمضى، وهو يتمتع بخلفية دينية جيّدة تعتمد كلمات الكتاب المقدّس، يعظ القراء في آخر تقريره بضرورة توبة الخطأة حيث لا أحد يعرف متى يحين أَجل الإنسان، ولنكن مستعدين.

وهكذا نجد في هذا التقرير وثيقة قيّمة تضاف إلى معلوماتنا عن زلزال حلب المدمّر في ١٣ آب ١٨٢٢. حمانا الله ومدينتنا المحروسة من الزلازل ونتائجها.

وصف جون باركر للزلزال:

وصف القنصل جون باركر الزلزال في رسالة وجهها إلى أخته بتاريخ ٢ آذار ١٨٢٣ قال:

في الساعة التاسعة والنصف من مساء الثالث عشر من آب عام ١٨٢٢ دمّر زلزال استغرق ١٠-١٢ ثانية، وبالكامل، كلاً من حلب وأنطاكية وإدلب وأريحا ودركوش وأرمناز وكل قرية وكوخ في الباشليك وبعض مدن وباشليك دمشق والرافدين حتى بغداد أصبحت

أكواماً من الأحجار والركام، فقد فيها حياته على أقل تقدير عشرون ألف إنسان (ما يعادل عشر السكان) وجرح عدد مماثل.

وشُعر بالصدمة في البحر بشدّة ولمسافة فرسخين من قبرص، حيث اعتُقد أن السفينة قد ارتطمت بالأرض، وشوهدت ومضات نارية بركانية مختلفة عدّة مرات أثناء الليل، تشبه ضوء القمر وهو بدر. ولم يحصل بحسب علمي أي صدع أو تشقّق ولأي امتداد بالرغم من مشاهدة شقوق صغيرة في كل مكان من الأراضي المنخفضة خرج الماء من العديد منها. ولم يُلحظ شيء غير عادي في الطقس أو حالة الجو. ولم تكن المباني في قمم أعلى الجبال أكثر أماناً من المباني على ضفاف الأنهار أو على شاطئ البحر.

ومن ١٣ آب إلى ٩ تشرين الأول كانت فترة كئيبة طيلة ٥٦ يوماً وليلة ظلّ التهديد بالخطر قائماً والقلق مسيطراً، وفي كل مرّة تهتزّ الأرض كانوا يخافون أن تكون آخر ليلة لهم بالحياة. وكان العديدون قد أصيبوا بجروح أو يعانون سكرات الموت بعظام مُكسّرة".

ويبيّن باركر (ولن ندخل في تفصيل ذلك) كيف نجا وزوجته مريانا، وكانا ينامان في بيتهما في أنطاكية ليلة الزلزال، من وقوع السقف والجدران الخشبية فوقهما. وقد اعتبر هربه من فكي الموت حدثاً عجائبياً.

من وصف زلزال حلب المدمر من جهتين مختلفتين نجد التشابه في وصف ومضات النيران البركانية، فهل كان هناك احتمال كون مصدر الزلزال من السماء وليس من باطن الأرض وحركات طبقاتها التكتونية ؟ الله أعلم.

حلب ٦ /٨ /٢٠٠٤

٢٢) يوميات المعلّم نعوم بخاش والأدب الشعبي بحلب

نعوم بخاش:

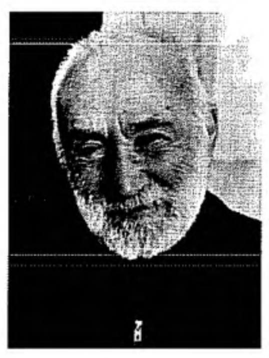
هو نعمة الله بخاش بن الياس، ولد بحلب من أسرة مسيحية عربية جاءت من الهند وكانت مشهورة ببخش اللؤلؤ، توزّعت في حلب ومرعش ودمشق وزحلة ومصر، حسب رأي المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف. لم يُعرف تاريخ ولادة نعوم ولكننا نعرف تاريخ وفاته عام ١٨٧٥ حيث تتوقّف الكتابة في دفاتر الجمعية، وربما كانت وفاته في أواخر شهر شباط ١٨٧٥، وكان من طائفة السريان الكاثوليك ولم يكن متزوّجاً وليس له إخوة ذكور بل خمس أخوات بأسماء تراثية: مدّول (مدلين) غرّة (مرغريت) كتر (كاترين) وكرزة ومريم. وقد تعلّم القراءة والكتابة عن الشمّاس الياس هزاز، وكان يقرأ العربية والتركية والسريانية وكذلك اليونانية. ولم يكن يلمّ جيداً بالفرنسية رغم معاشرته كثيراً من الأجانب المقيمين بحلب. وكان يتمتّع بخط جميل، وطالما كان يُدعى من قبل رؤساء الطوائف وأصحاب السلطة لتخطيط نقش أولوحة أو أبيات شعر في دورهم. كما كتب رسائل تجارية، وكتب "الفاتحة" على حبّة من الأرز كان أهالي حلب وقاصدوها يأتونه ليروها، كما نسخ "مقامات الحريري" عام ١٨٣٧.

إن أهمّ ما قام به المعلّم نعوم هو إنشاؤه مكتباً لتعليم القراءة والكتابة وكان ذلك في ٩ تشرين الأول عام ١٨٢٧. ولا نعرف ماذا كان عمله قبل ذلك، وقد ذكر في دفاتره انه عمل في التجارة بالإضافة إلى التدريس، وكان يقرض المال ويجني من ذلك الربح الوفير. وكان مكتبه في إحدى الدور المحيطة بساحة المطران فرحات في حي الجديدة حالياً. أمّا داره فكانت مجاورة لكنيسة الأرمن الكاثوليك جهة الجنوب.

خلف المعلّم نعوم بخاش خمسة دفاتر اطلع على أمرها المرحوم الأب فرديناند توتل وكان صبياً عام ١٨٩٦، أي بعد وفاة بخاش بـ ١٩ عاماً، وأخذ يبحث عنها ويجمعها، وبلغ عددها خمسة دفاتر محفوظة اليوم في المكتبة الشرقية لجامعة القديس يوسف في بيروت. وحجم كل دفتر ٢١ × ٩، ٥ سم. وقد سمّى دفاتره "دفاتر الجمعية" لأنه كان يكتب مذكّراته كل جمعة (أسبوعياً)، بينما سماها الأب توتل "يومية نعوم بخاش". وكان يكتب في الدفتر مساء كل سبت، وكان الهدف في الأصل مادياً، حيث يسجّل مدفوعات تلاميذه كل جمعة رني أسفل

الصفحة يذيّل بما تبقّى من الصفحة أخباراً عن تلامذته أو عن أخبار المجتمع حوله من حارة وكنيسة وسكان. وتنوعت الأخبار المكتوبة عن بيئة ذلك المجتمع وأحداثه من زواجات وخطبات وأفراح وأعياد وولادات ووفيات وصيد سمك وطيور في بساتين حلب على نهر قويق، إلى غير ذلك من أحداث دينية واجتماعية وثقافية ووقوع آفات وأمراض تضرّ بالصحة.

وكان المعلم نعوم يكتب باللغة العاميّة الدارجة وخطه جميل وواضح وناعم. ويبدو من يومياته أنه كان ذا خصال حميدة، باراً بوالديه محباً لأقاربه، صادقاً ومتديّناً وتقياً يواظب على أداء واجباته الدينية رغم نزواته وهواياته في الشرب والتدخين والصيد. وكان يحرص على صحة معلوماته ودقّتها ويذكر كل شاردة وواردة مهما صغرت، وكان من خجله، وهذا دليل تقواه، أنه كان يكتب بالمقلوب كلمات: اعتراف ومناولة وعرق وخروج. وكأني به يطبق مبدأ "وإذا ابتليتم بالمعصية فاستتروا". وكان يهتمّ بصحّته ويلبّي الدعوة إلى الولائم والحفلات والأعراس والسيران إلى البساتين، وكان يحب المأكولات الطيبة (يحب بطنه ويأكل كثيراً ويذكر أكثر من مرة أنه "متخوم تخمة عظيمة"). وكان يحب الذهاب إلى الصيد بشكل جنوني صباحاً وبعد الظهر إثر انتهاء التدريس في المكتب. وكان على علاقات طيبة مع رؤساء الكنيسة والعائلات الكريمة في المدينة. وكان يسجل التاريخ في أول كل أسبوع بالميلادي حسب التقويم الغربي والشرقي والهجري ويذكر الأعياد لمختلف المذاهب. وكان معظم تلاميذه ذكوراً ومسيحيين، لكن كان هناك بعض الإناث والمسلمين واليهود. وظلّ يعلّم القراءة والكتابة في مكتبه طيلة ٤٨ عاماً حتى وفاته عام ١٨٧٥.



امّا **الأب فردينان توتل**[1] (١٨٨٧ - ١٩٧٧) الذي عرّفنا بنعوم بخاش فقد ولد بحلب ودرس فيها، وهو من الطائفة المارونية، ثم تابع دراسته في فرنسا وانتسب إلى الرهبنة اليسوعية عام ١٩٠٦ وسيم كاهناً عام ١٩١٨ وتنقّل بين لبنان ومصر وسورية يعمل في مجال التربية والتعليم والإدارة ورعاية المؤمنين. وقد بقي بحلب بين عامي ١٩٣٧-١٩٤٧ وكان من جيران المؤرخ

---

[1] بعض المعلومات عن الأب توتل من كتاب "يسوعيو الشرق الأوسط" للأب هنري جالابير ص ٣٢٩- ٣٣٠ بيروت ١٩٨٧.

الشيخ كامل الغزّي في حارة الشرعسوس منذ الصغر وتربطه مع العائلة صداقة حميمة. وقد قام الأب توتل بإصدار وثائق تاريخية هامة عن الأحداث التي تمت لدى الطوائف المسيحية بشكل خاص وأحوال المجتمع الحلبي بشكل عام. كما قام بنشر أرجوزة الشيخ أبو الوفا عام ١٩٤١.

وكان له الفضل كذلك في تعريفنا بالمعلم نعوم بخاش إذ نشر بإيجاز أحد دفاتر الجمعية للبخاش مع الوثائق التاريخية عن أخبار السريان بحلب التي نشرها عام ١٩٦٢. وكان ذلك الدفتر (وهو الدفتر الثاني ليوميات بخاش) قد اشتراه من السيد باسيل خوام[١] عام ١٩٥٧. وهذه اليوميات بعينها أعاد نشرها بالكامل والتعليق عليها الأب يوسف قوشاقجي فيما بعد.

عندما تعرضت بعض أبنية الجامعة اليسوعية في بيروت للدمار عام ١٩٧٤ انتقل الأب توتل إلى "مشفى الجمهور" بعيداً عن أصدقائه وأهله حيث أصبح التواصل صعباً. وكان يتألم بجسده ويقول: "يا قلب يسوع الأقدس أضع ثقتي بك"، وقد قال مرة: "ربما ارتكبت حماقات في حياتي، ولكنني لم أقترف حماقة ضعف ثقتي بالله أبداً". توفي بسلام وانتقل إلى رحمته تعالى في ٢٢ أيار ١٩٧٧.



أمّا **الأب يوسف قوشاقجي** فهو كذلك من مواليد حلب عام ١٩١٤ ومن طائفة الأرمن الكاثوليك، تخرج من جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت وأتقن اللغات العربية والفرنسية واللاتينية. سيم كاهناً عام ١٩٣٨ وعلّم في عدة مدارس ثم أصبح عام ١٩٤٣ مدير مدرسة القديس غريغوريوس التي درّس فيها واهتمّ بتربية تلامذتها من أبناء الطبقة العاملة. ألّف وترجم أكثر من ٣٥ كتاباً؛ منها دراسات في اللاهوت والكتاب المقدّس وسِيَر القديسين، ومنها ما اختصّ

---

[١] كان المرحوم باسيل خوام، ولقبه باسيل حاحا، صاحب دكان وقبو في ساحة فرحات والى الغرب من التمثال لبيع وشراء الكتب القديمة وقطع الأثاث وسواها. وكان رياضياً يقود دراجة عادية بشكل بهلواني، وعلى عجلة واحدة وهو يرفع الأمامية في الهواء، يسير بها أمام حافلة الترام بحركات تثير إعجاب الكبار والصغار من أمثالنا ونحن في طريقنا إلى المدرسة في أوائل الخمسينات من القرن الماضي. وكانت لديه أفكاره الخاصة به. وأذكر أني قرأتُ مرة على باب دكانه الخشبي الكتابة التالية بالطباشير: "أنت الآن هنا وبعد دقيقة لا تعلم أين تكون".

بالتراث الشعبي مثل "الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردين" في مجلدين حويا ٥١٢٤ مثلاً شعبياً من حلب و٨٥٥ مثلاً من ماردين. كما له كتاب" الأدب الشعبي" جمع فيه الأغاني الشعبية الحلبية. كرّمته مدينة حلب عام ١٩٨٧ باعتباره أحد المبدعين في مجال الفكر والثقافة والمجتمع. وكان من أهم أعماله تحقيقه كتاب "يوميات المعلم نعوم بخاش" بالكامل، كما كتبها في دفاتر الجمعية، وهو بأربعة أجزاء صدر الجزء الرابع والأخير بعد وفاة المرحوم الأب قوشاقجي عام ١٩٩٥.

ويقول القوشاقجي في بيان أسلوبه: ان الأب توتل "اعتبر ثرثرات الرجل المولع بالصيد على نهر قويق وتكرارها ممل، اكتفينا بروايتها من حين إلى حين". أما نحن فقد نشرنا جميع ما كتب بخاش من غير أن نحذف شيئاً، للفائدة التاريخية كمعرفة البساتين وأحوال نهر قويق. وقد صوّبنا الخطأ دون التلميح له." كم كان الأب توتل كبيراً في خجله وكم كان الأب القوشاقجي عظيماً في تواضعه، وذكر كل شيء كما كتب بالضبط (على حبّته). كان رحمه الله زينة المجالس بحديثه السلس وروحه المرحة التي تشد مستمعيه وتسحرهم.

يوميات نعوم بخاش:

ترك لنا المعلم نعوم بخاش خمسة دفاتر صدرت في أربعة أجزاء غطّى الجزء الأول منها دفترين؛ الأول يختص بالفترة بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٤٠ والثاني ويختص بالفترة بين ١٨٤٠ و١٨٤٦، وهو الدفتر الذي اقتناه الأب توتل من المرحوم باسيل خوام ونشره بإيجاز مع وثائقه التاريخية عن حلب. ونعلم منه أن عدد التلاميذ كان يتراوح بين ٥٠ و٧٠ تلميذاً. وأنهم كانوا يبتدئون بالمزامير وعند إنجازها بالرسائل وبعدها بديوان ابن الفارض وفي الختام مقامات الحريري، أي كتابان دينيان وآخران من الأدب العربي القديم. ولم يذكر بخاش شيئاً عن تعليم القواعد والصرف والنحو، فكان برنامجه يقتصر على تعلّم القراءة والكتابة. كما أنه لم يذكر أنه علّم الحساب أو على الأقل جدول الضرب. وكان أحياناً يأخذ تلاميذه في فسحة إلى أحد البساتين القريبة فيذكر: "خميس السكارى فتحت وأخذت الأولاد بعد الظهر إلى جبل النهر، ويوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة طلعنا مع الأولاد إلى لمّ البابونج". وعندما كان أحد التلاميذ ينهي كتاباً أو الدرس كلّه ويترك المكتب كانت هناك "خلعة" تقدم من أهله هديّة للمعلم.

أمّا الجزء الثاني ويضم الدفتر الثالث فيتعلق بالفترة بين ١٨٤٦ و١٨٥٥ ويتعرّض فيها كالعادة لأمور المكتب وتلاميذه والأخبار العامة وأخبار حلب وفي مقدّمتها **فتنة خريف ١٨٥٠** والخوف المريع الذي أصابه حيث يقول (٣/ ٧٢): " راحت مصاريني من قلبي وبديت أرجف من الرعب، وبديت أقول "فعل الندامة" تطلع "أبانا الذي والسلام لكِ". كما تكلم على المدارس المعروفة في أيامه وعن الحياة الدينية. وذكر اهتمام الأغنياء بالفقراء في المناسبات السعيدة: "الخميس فرّق حنا خوري للفقراء قبل عرسه باذنجان وكرابيج ولحم بعجين (ص٤٧) ويوم الخميس ذاته كان عندنا عشاء للفقراء (ص ٦٨)، والجمعة فرّقوا بيت كويا سنبوسك (ص ٩٨).

ويتكلم الجزء الثالث ويضم الدفتر الرابع من يوميات بخاش، والذي اشتراه المرحوم الأب توتل من بائع العاديات الشيخ الترمذي بالمدينة، عن الفترة الواقعة بين أيلول ١٨٥٥ و ١٨٦٦ مع وجود بعض الفراغات فيه وقد نشره الأب توتل موجزاً. ونعلم منه أن بخاش يحب الشرب ومغرم بالتدخين ويسهب في وصف الصيد. ويذكر أنه عندما منع الصيد كي لا يهرب السمرمر الذي يأكل الجراد عند مجيئه إلى حلب عام ١٨٦٣، ذهب للصيد خفية وأخفى التفنكة بكوخ البستاني (٢٢ آب ١٨٦٣) وكان أقصى مكان ذهب فيه للصيد في الجنوب هو الوضيحي وفي الشمال المسلمية. ويذكر كارثة قطع أشجار العويجي من طرف النهر الدردار لأنه " مطلوب ٦٠٠٠ سرج لدواب الإنكليز". كما يذكر غلاء أسعار المعيشة والحنطة والفحم والحطب. ويذكر: "ليلة الجمعة (٨ شباط ١٨٦١) صار عند خوري جرجس شلحت بالقلاّية **كوميديا (تمثيلية) يوسف الحسن وفرعون ويعقوب وأولاده**، وحضرها ١٠٠ شخص مع المطران التوتونجي والقس يوسف حاتم". ولعلّها كانت من أوائل التمثيليات التي أقيمت في حلب. كما يذكر بدء استعمال التلغراف بحلب والحفلات الراقصة (البالو) التي كانت تقيمها القناصل والسلطة العثمانية. كما يذكر من الأخبار الدينية انتخاب المطران جرجس شلحت على حلب في ٧ /١١ /١٨٦١، وكان قد تعلّم عنده القراءة والكتابة، وكان يزوره كثيراً ويلعب معه الطاولة والدومينو والضامة. وكان يسهب في ذكر المرض والمعالجة، ومن طريف ذلك: "الأحد (١٨٦١/٦/١٤) كنا معزومين بيت البطق ورحنا، والظهر تغيّر كيفي وبردت وسخنت ورجعت للبيت من غير غدا، وأرسلت خلف جد الصغير وقال: تهوّا واشلح الشروال، والحمد لله فكّ الدور".

وضمّ الجزء الرابع الدفتر الخامس والأخير ويذكر معلومات عن الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٥ تاريخ وفاة مؤلفه. ولم يرَ هذا الجزء النور في حياة محققه المرحوم الأب قوشاقجي، حيث تُرك في المطبعة بانتظار الفهارس في نهاية الكتاب. وقد سعينا مع همة الشاب جورج زيربة لعمل فهرس شبيه بالأجزاء الثلاثة السابقة دفعناه إلى مطبعة الإحسان، وكان صدوره فرحة كبرى لمتابعي الأدب الشعبي وأخباره في حلب ممن اقتنوا الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب. وفي الواقع لقد استقيتُ من هذا الجزء الكثير من المعلومات عن الأعمال التكميلية لإنجاز ترميم كنيسة السريان الكاثوليك في الصليبة.

ويبدو الجهد الكبير الذي بذله المرحوم الأب قوشاقجي ابن البيئة الحلبية ذاتها في تحقيقه كتاب بخاش واضحاً في تلك الملاحظات والتعليقات أسفل كل صفحة، وهي تشرح معاني ما يستعصي توضيحه على أي محقّق غير حلبي أو من بيئة أخرى غير ابن صايح "الجديدة".

لقد قام المرحوم القوشاقجي في الجزء الأول من الكتاب بدراسة تحليلية لأهم مواضيعه وأحداثه. كما رتّب لكل جزء فهارس نسبياً جيدة ومقبولة بحسب المواضيع من أسماء السلاطين والباشاوات والحكام والقناصل إلى رجال الدين لدى المسيحيين مع مختلف طوائفهم ولدى المسلمين، وكذلك عن شؤون عائلته وحياته الخاصة وأعماله وشؤون "المكتب" وأتعاب التلاميذ وعقوباتهم وهداياهم بالإضافة إلى فهرس الأعلام وأسماء أولاد المكتب والحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية مع ذكر أنواع الثياب والأقمشة وألوان الطعام، ولا ينسى ذكر الأمراض أو العوارض الصحية التي تلمّ به أو بأهله أو معارفه من لفحة برد إلى ألم معدة وسواها. وإذا تتبعت كل ما ذكره من ناحية الصحة والمرض (السعر، السهال، التصنيج والتخمة العظيمة، وفي آخر أيامه بصق دم..) لعرفت أنواع المعالجة المتّبعة في الطب الشعبي من التداوي بالأعشاب أو الكي أو الصفد أو العلَق.. إلى غير ذلك من الوسائل المتبعة والتي كان فيها غالباً الحلاّق هو الطبيب المجلّي وبخاصة عند قلع الأسنان والأضراس، مع وجود عدد قليل من الأطباء المجازين في زمانه.

كما ذكر الشيء الكثير عن الصيد البري والنهري مع أنواع الطيور والأسماك، مع جدول خاص بالأحياء وحاراتها والبساتين. ويذكر أسماء أكثر من ٣٠ بستاناً كان يتردد عليها

باستمرار من أجل الصيد بنوعيه بالتفنكه والبالوع. وكم كنا نتمنى الحصول على خريطة تبين مواقع هذه البساتين المذكورة من ضفاف نهر قويق.

ويمكن للباحث أن يستشف العديد من المعلومات غير المعروفة بالتغلغل في تواريخ اليوميات، وأذكر على سبيل المثال:

- الخميس (١١ تموز ١٨٥٧، ص ٨٦ /٣) كتبت اسمي على صك لأجل تعمير حوش بجبل النهر عند ابن عبدو الدقّاق.
- سمعت ان ابن قنصل إلياهو (كان إلياهو بيجوتو قنصل النمسا والدانمرك) أخذ زقاق الطويل وزقاق البراني لأجل يعمّر حواش الخربانة في حصار خورشيد باشا، ومن الجملة حوشنا.

(وتؤكد هاتان المعلومتان أن جبل النهر بدأ يُسكن بالفعل اعتباراً من خمسينات القرن التاسع عشر، وأقدم بيت لا زال قائماً فيه هو بيت الخوري (مدرسة الزنابق حالياً) في شارع جبرائيل دلاّل ومؤرخ من عام ١٨٦٩). كما نفهم أن بيت بخاش كان في الزقاق الطويل أو زقاق البراني وقد انتقل إلى ساحة فرحات، ويدفع آجار (كرا) عن بيته إلى رزق الله أرسان وكيل وقف الموارنة، لأن حوشه تهدّمت. والسؤال هل الهدم كان بسبب ثورة خورشيد باشا عام ١٨١٩ التي دامت ١٠٠ يوم وكانت أحداثها غالباً في الزقاق الطويل، أم من تأثير زلزال عام ١٨٢٢ الذي دمّر ثلثي دور حلب وقتل ٢٠٠٠٠ نسمة من سكانها؟ ترى كم كان عمر بخاش عند حدوث الزلزال أو الثورة على خورشيد باشا؟ إذا افترضنا أن عمر بخاش كان ٢٠- ٢٥ سنة عندما افتتح مكتبه عام ١٨٢٨ يكون من مواليد حوالي عام ١٨١٠، أي كان عمره حوالي عشر سنوات ويصعب في هذا السن تحديد سبب الهدم). وربما كان مكتبه مستأجراً من بيت كوبا ويذكر أنه كان يدفع له الإيجار عنه.

- حيّ الكتّاب سمّي كذلك نسبة إلى كتّاب باشا (ويذكر الأسدي في موسوعته أنه سمّي كذلك لأنه كان في الحي شيخ مقرئ وكتّاب في الوقت نفسه، بينما في الأحياء الأخرى يوجد شيخ مقرئ فقط. وقد بدئ ببناء الحي عام ١٨٤٠ وسكنه القناصل الأوروبيون، وقد وصف الشاعر لامارتين سيدة تدخّن النارجيلة فيه)، ولا ندري إذا كان "الكتّاب" لقب أحد ولاة حلب آنئذٍ.

- قول مألوف لدى الحلبية المسيحيين" عَنصِر واطلاع، صلّب وانزل" ويُقصد من البساتين. وقد ذكر في الصفحة ٩٢ / ٢ " بيت الجنبرت تأخّروا بالنزول من البستان". ففي عيد العنصرة ويقع بعد ٥٠ يوماً من عيد الفصح الذي يقع غالباً في نيسان يخرج الناس وينامون خارج المنزل أو على السطح، وفي عيد الصليب وهو في ١٤ أيلول يعودون للنوم داخل الغرف حيث يصبح الطقس بارداً.

- جوزات قراألي: شجر الجوز كان يكسو الأرض من عين التل إلى المسلمية. وربما هناك مكان محدّد بملكية قراألي.

- الأحد ١٨ أيار ١٨٤٥ (ص ٨٥ / ٣) كان موسى غيز قنصل الفرنساوي ناظم عزيمة تحت جوزات قراألي.

- جسر بعيران هو جسر المعزة (قرب كنيسة الكلدان حالياً أمام جامع التوحيد) وكان معروفاً بالقبضايات، وكان يقال للشخص المتباهي بقوته: "محسّب حالك جاي من جسر بعيران!"

- وأذكر بعض **أسماء البساتين** التي ذهب بخاش ليصطاد فيها من أحد دفاتره فقط: بستان بيازيد، إبراهيم الآغا، النصيبي، كوجوك حسين، العبّارة، الريحاوي، الشابندر، القرّي، رجب باشا، الجالق، عين التل، القوّاس (القواص)، جنينة الحصرم، بستان القطّانة، الشقيّف، الزيت، بستان قيصر، الناعورة، الكبير، النابي، الكشافي، الدباغة، بستان العميان، الجبلات، الورّاقة، حجازي، الدغيل، القناية... (ويمكن بالعودة إلى الأجزاء الأربعة لليوميات إحصاء جميع البساتين المذكورة فيها، والمهم أن نحصل على مخطط يبيّن موقعها من ضفاف نهر قويق. ولم نجد أي بستان مذكوراً في مخطط حلب للمهندس يونغ المنظم عام ١٨٩٩. ويمكن معرفة مواقع البساتين بالرجوع إلى وقفيات الدور وسجلات المحاكم الشرعية التي قد تذكر حدود العقارات وما جاورها من هذه البساتين.

- عوّة مار جرجس (أول العواء في ٢٢ نيسان وآخرها ٥ أيار)

- عرّفنا التاريخ الدقيق لرحيل ومجيء بعض ولاة حلب: في ١٥ كانون الأول ١٨٤٢ سافر علي باشا وجاء وجيهي باشا حلب.

- الأحد ١٢ أيلول ١٨٧٠ راحوا كل المشايخ والدراويش ملاقية لماء الساجور إلى حيلان والباشا، وراح اناس كتير وتمّوا للمسا وما أجا الساجور

- كنيسة الأرمن الكاثوليك خلف دهليز بيت العقدة بلزق الدار التي استأجرها المعلم نعوم بخاش، دشّنت الكنيسة عام ١٨٤٠ كما يبيّن حجر منقوش فوق باب الكنيسة من الداخل (١/١٠٦)

- روى كيف عرض عليه كاهن رعيّته أن يخطب فتاة (ص٤٦/٣) فلم يتم المشروع، بل ذهب هو بنفسه بعد حين إلى عقد خطبة تلك الفتاة إلى رجل غيره (ص ٨٥ /٣)

- (الثلاثاء ٢٠ آب ١٨٦١) صار شوب وصل إلى درجة ٣٣ وغيم وتوهّموا الناس من زلزلة، وفتحوا بوابة ورا العمارة وراحوا بستان القبّار كثيرين، وصار مطر وافر بخان طومان والحمد لله ما صار شي ي.م.(يكون معلوم)

- الإثنين ٢٥ نيسان ١٨٦٤ رحت الصيد، وأرسلت مدام سكين قنصل الإنكليز لنا قهوة وسكر. (دليل علاقته الطيبة مع القناصل وعائلاتهم).

- كان يُقصد لكتابة لوحات وأشعار:

  - كتابة أشعار على الجدران الخشبية في بيت باسيل في تموز عام ١٨٤٢
  - كتابة على رفراف بيت كوبا في ١٣ أيلول ١٨٤٤
  - كتابة على صمدية وقصيدة قبل عرس ابن نعمة الله حمصي في ٢٧ تموز ١٨٤٢
  - كتابة لثابت جرجي "ماشا الله" بالعزيزية، الاثنين ١٠ تشرين الأول ١٨٧٠
  - ويخبرنا عن حرب عام ١٨٧٠ وكيف كانت الأخبار تصل مشوّشة:
  - السبت ٣٠ تموز ١٨٧٠ ذكروا عن حرب عمومي وللآن ما تأكّد، والناس مرعوبين
  - الأربعاء ١٦ آب ١٨٧٠ بالليل دقوا تلغراف من باريس إن الفرنساوي انتصر
  - الأحد ٢٠ آب ١٨٧٠ سمعنا انكسرت بروسيا من فرنسا
  - السبت ٢٧ أب ١٨٧٠ وسمعنا انكسر الفرنساوي من بروسيا

أما عن **الطرائف** المذكورة في الكتاب فحدّث ولا حرج، وفيما يلي بعضها:

- والسبت عيد مار أفرام السرياني (١٣ شباط ١٨٦٩، ١ شباط شرقي، ٢ ذي القعدة ١٢٨٥) رحت س ٣ مع جرجس شماع إلى حيلان ويومها فلت الجحش وراح الخرج كبّوا العرق وأخذوا الزوّادة وعلبة السيكارات عدد٤٠.
- اليوم ضيّعت شرّابة طربوشي
- الخميس ٩ نيسان ١٨٧٤ راح مع رفاقه إلى نهر العويجي وضاهر ضيّع طربوشه الحجازي
- الاثنين ١٨ أيار ١٨٧٤ كتّبت وصبحية تفنكه أبداً وقلّبنا جحش مع بليط (شريك بخاش) وأنطانيوس ومات تاجر.
- اليوم باع الجحش جبرا بليط.
- اليوم عزموني بيت فلان وكان الأكل صيامي
- اليوم أكلت كذا ومشيت معدتي
- وقع دشكي في القناية وطالعته، ووقع موسي بين القصب وحوّشته.
- كرزه كسرت قطرميز الزيت الحلو
- وكان سبب نزول بيضتي الشمال شرب العرق والنبيذ، وبعد ١٥ يوم صح كيفي نشكر الله (ص ١٢١ /١)
- الجمعة بالليل ٥ تشرين الأول توفي يوسف خاطي وكان سببه فلت فتاقه وما قدروا رجّعوه مات الله يرحمه.
- الثلاثاء ٥ أيار ١٨٧٤ عند الغدا فلت قوس التركيبة بالأكل.
- الجمعة ٢٨ أيلول ١٨٧٣ مريم زعلانه وزايرة وعلقت ٦ علق ٦ غ على باب الخاتم
- الأربعاء ١٥ تشرين الأول ١٨٧٣ ركبت ومعي أولاد عازار الاثنان ركبوا بغلة وراحوا عالصيد.. وقع من على البغلة سليم.

- الثلاثاء ٢٣ نيسان ١٨٦٦ وعلّقوا أوراق: الذي يبول بالزقاق، نصراني ٢٥ غرش، والمسلم ٥٥ غرش بالتجمير، والذي مشمّر إيديه وأذياله وإيديه ورا ضهره يحطّ جزا نقدي. وداير البوليس بالأزقة من طرف الحكم.

- "تغدّيت بيت سالم عزيمة حالي" لم يدعُه أحد، عزم حالو (الأحد ١٧ /٩ /١٨٥٧).

- تغدّيت بيت البطق عزيمة مقادم.

- الجمعة ٨ أيار ١٨٧٤ وألفية قرع (عرق) من عند أنطانيوس (ابن اخته)

- الخميس وجعني درسي شي فوق العقل (٩ تموز ١٨٥٧)، السبت وقلعت درسي بيد الحلاّق لأنه مَخَلْوَع (١١ تموز ١٨٥٧)

- الثلاثاء تغيّر كيفي وورم حنكي وسكّرت.

- ومساء (٩ أيار ١٨٤٢) أختي ركبت مهرها ووقع فوقها وعفسها، والحمد لله ما أذاها بل رضّها رضّة وفصّدناها ووضعنا طنافس غنم وتمّت جمعة بالفرشة، يكون معلوماً.

- وأنا على الله الوفا أي "إلـي أللّه" (ص ٣٥ م٢) تقال عندما لا يحصل المرء على ما يستحقّه.

- الخميس ٩ أيلول١٨٧٠ العويجي عت ٣ ومساء عت ١ والنسوان معلومة روح (لم تدعه النسوان إلى دخول البستان، قلن له روح، صرفوه)

إلى غير ذلك من المعلومات والطرف التي تعطينا فكرة عن العبارات التي كانت مستعملة وعن بساطة المجتمع بهمومه وأفراحه ومأكولاته والأدب الشعبي في كلماته المحكية، ولجوء المواطن العادي إلى الطب الشعبي وإيمانه به والحصول على الوصفات من العطارين والتنفيذ من قِبَل الحلاقين... مع ندرة الأطباء الرسميين آنئذٍ.

وفي الختام، إن القراءة المتأنية والدقيقة والمركّزة ليوميات المعلّم نعوم بخاش يمكن أن تستخلص الكثير من الأخبار والحياة الإقتصادية والإجتماعية وخصوصيتها في حيّ "الجديدة" وما حولها بين عامي ١٨٣٥ و١٨٧٥. وهي بحق من عيون تراثنا الشعبي الحلبي الأصيل. وهي بحاجة إلى مزيد من الدراسات التي يمكن استنباطها بالغوص بين السطور واكتشاف مكنوناتها.

٢٣) ذكريات مع خير الدين الأسدي[1] (١٩٠٠ - ١٩٧١)

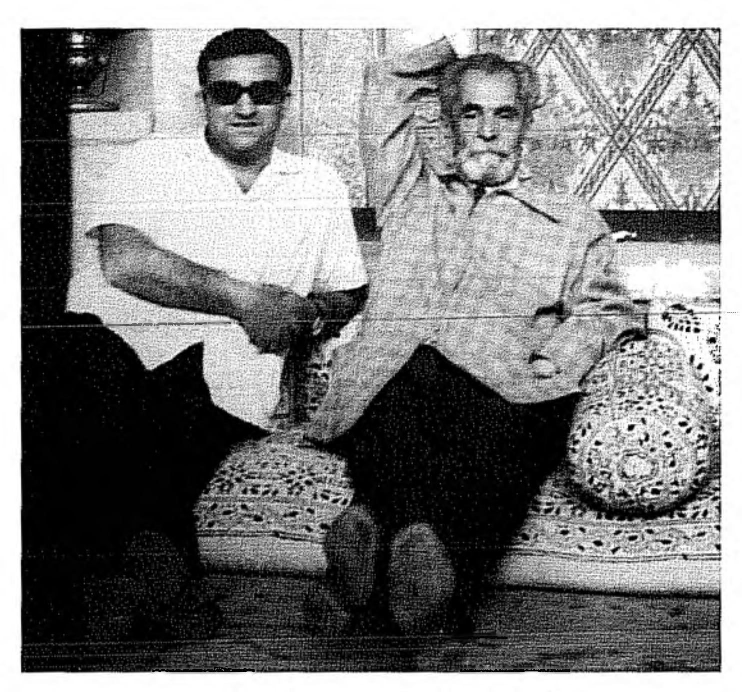
اعداد المهندس عبد الله حجار

تعود معرفتي بالعلاّمة خير الدين الأسدي إلى بداية اتصالي بجمعية العاديات في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته (١٩٦٩ - ١٩٧١) عندما كنت أشارك في رحلات الجمعية داخل القطر تمهيدا لانتسابي إلى عضوية الجمعية الذي تم العام ١٩٧٠.

ولا زلت أذكر مشاركة الأسدي - وقد قارب السبعين من العمر- في رحلات الجمعية القريبة داخل القطر مثل زيارة قلعة سمعان وقلب لوزة والتي كانت تتم بالباص (الهوب هوب آنئذ). وكنا نضطر إلى إيقاف الباص وقفات فنّية (أسميناها وقفات الأسدي)، كل نصف ساعة تقريباً أو أكثر قليلاً، لتمكين الأسدي الذي كان يشكو من داء السكّري من النزول "لمحاسبة السوّاس" في إحدى الزوايا المهجورة أو بين أشجار الزيتون في أحد الحقول. وأذكر أنه كان يفضّل الجلوس في المقاعد الخلفية من الباص يدردش مع المقرّبين والأحبة، وما أكثرهم. وأذكر قوله، دلالة الاعتداد بالنفس، الموجّه إلى مستشار الجمعية آنئذ المرحوم صبحي الصواف: "أنت إذا متّ ستحزن عليك زوجتك أم سليم، أما أنا إذا متُّ فستحزن عليّ مدينة حلب بأكملها". ولا زلت أحتفظ بصورة تذكارية أُخذت لنا معاً بتاريخ الجمعة ١٧/٤/١٩٧٠ في إيوان قصر العظم، الذي حُوّل إلى متحف التقاليد الشعبية في حماة. وأذكر أنه كان يتحدّث بهدوء وبجمل بسيطة، وكان في ذلك الحين يدرّس في مدرسة الحكمة (مستشفى ألطونيان سابقاً، وقد هُدم البناء). وكم كان يتبادل التعليقات "المدهنة" والمزاح مع عضو الجمعية المرحوم المهندس نشأت شحادة. وعندما مرض الأسدي آخر مرّة وأدخل مستشفى "الكلمة" كان الأستاذ جبرائيل غزال يزوره غالباً ويصطحب معه بعض الموز الذي كان الأسدي يستسيغ أكله بمتعة.

---

[1] نشرت في جريدة الجماهير بتاريخ ١٣/٦/٢٠١١.



صورة مع الأسدي في قصر العظم بحماة تاريخها ١٩٧٠/٤/١٧

ويحضرني هنا، ما كان قد ذكره لي يوماً الأستاذ جبرائيل غزال عن رحلة إلى أوروبا شارك فيها والأسدي مع أساتذة وطلاّب السنة الرابعة لكلية الهندسة بحلب في أواخر الخمسينات من القرن الماضي[1]. وفي طريق العودة من استنبول إلى أزمير أو اسكندرون على متن باخرة تركية كانت تحمل بين ركابها أحد الدراويش الأتراك من المتصوّفة، وكان "على البَرَكة"، كما يبدو من ثيابه المهملة، وقد عقد معه الأسدي صحبة قوية المعظم، ومضى يحدّثه طيلة الطريق بالتركية التي يتقنها، وقد انزوى به واعظاً ومرشداً لساعات عديدة. وفي صباح اليوم التالي يفاجأ ركاب الباخرة بالدرويش المتصوّف وقد شنق نفسه وفارق الحياة. ولم يحاول أحد أن يفاتح الأسدي بالأمر. ماذا أسرّ له في عظته أو شاركه بتأملاته في هذه الحياة وفي الآخرة، ما جعل الدرويش المسكين يقتنع بالرحيل إلى الآخرة بأسرع سبيل. أنا أعلم أن هناك قولاً: "فلان بحديثه يلهي الحمار عن عليقه". ترى ما الحديث الذي أوصل الدرويش إلى آخرته؟

---

[1] يذكر الأستاذ عبد الفتاح قلعجي الحادثة في عام ١٩٥٦ في كتابه عن الأسدي الذي صدر العام ١٩٨٠

كان المرحوم الأسدي ذا ماض مجيد في التدريس والتأليف وقد شغل منصب نائب رئيس مجلس الإدارة في جمعية العاديات. وكان يحتفظ بمجموعة هائلة، يعتزّ بها، من الصور (أسود وأبيض) لرحلاته العديدة داخل القطر وخارجه في البلاد العربية والأوروبية والآسيوية. وكان من أصدقائه المقرّبين الأستاذ عبد الفتاح قلعجي والدكتور إحسان شيط والأديب وليد إخلاصي. وكم كانت جملته الساخرة رائعة وهو يكافح المرض: " لن أمكّن عزرائيل مني، فكلّما فرغتُ من عمل أدبي بدأتُ عملاً أدبياً آخر، وهكذا يجدني منشغلاً فينصرف عنّي". وكم كانت جملته الأخرى تحزّ في النفس، وكان يردّدها غالباً: "اكسبوني قبل أن أموت". وعندما أحسّ بدبيب الموت أوصى أن يقام له ضريح يكتب عليه فقط عبارة "خير الدين الأسدي". وكانت وفاته المأساة المفاجأة في ١٩٧١/١٢/٢٩ التي لم يشعر بها أحد. ويحضرني هنا القول الساخر المؤلم: "المتزوج يعيش عيشة الكلاب والأعزب يموت ميتة الكلاب". أجل الأعزب الذي يعيش وحيداً، عند اقتراب وفاته لا يكون هناك من يعتني به و"يدير باله عليه". وهذا ما حصل مع علّامتنا الأسدي، توفي دون أن يحسّ به أحد.

مأساة وفاة الأسدي:

وأذكر هنا من باب المشاركة بالألم ما كتبه الأستاذ عبد الفتاح قلعجي عن مأساة وفاة الأسدي (كما يفعل المسيحي للمشاركة في استعادة مراحل العذاب في درب الصليب قبل عيد الفصح وكما يفعل أصحاب مذهب الشيعة يوم عاشوراء):

في صباح التاسع والعشرين من كانون الأول عام ١٩٧١ جاء الدكتور إحسان شيط ليزور صديقه في "المبرّة" (دار المبرّة الإسلامية)، سأل الممرضة كيف حال الأستاذ اليوم، قالت هو في خير، أسرع إلى غرفته فوجده قد أسلم الروح منذ مدّة، عاد إليها ليقول أنه ميت.

اتّصلت المبرّة بالبلدية، واتصلت البلدية بدائرة الدفن، وتهاونت المبرّة بالاتصال بذويه وأصدقائه من الأدباء. وحضرت سيارة بيك آب وُضعت فيها الجثّة بلا تابوت، وأخذ السائق ينهب الأرض إلى مقبرة الصالحين حيث استلمه التُرَبي (حفّارالقبور) وحمله تحت إبطه قائلا: "ميّتكم خفيف مثل الريشة".. وعادت السيّارة ولم تنتظر أن يُدفَن. وقف التربي متحيّراً .. أين يدفنه؟ وربما قال في نفسه: إنه غريب لا أهل له ولا أصدقاء.. ولا قبر. وضعه على الأرض في

زاوية المقبرة وأخذ يحفر في ممرّ بين قبرين، حتى إذا وجد أن العمق قد أصبح كافياً مدّد الجثّة في الحفرة وراح يهيل عليها التراب.

هكذا حُمل الأسدي إلى مثواه الأخير وحيداً غريباً.. بلا جنازة ولا مشيّعين. وفي تربة المدينة التي عشقها وخلّدها لم يجد مساحة مترين تكون له قبراً تهدأ فيه عظامه.

بعد أيام ذهب القاضي نبيه الجبل والأستاذ وليد إخلاصي إلى المقبرة يسألان التُرَبي عن مكان دفنه.. وبعد جهد تذكّر التربي أو كاد.. ذلك الميت الخفيف الوزن الذي قال عنه سائق سيارة الدفن أنه أديب وعالم. واليوم ..لا يزار.. ولا يعلم أحد أين دُفن غير تلميذه القاضي نبيه الجبل الذي سجّل في كرّاس صغير اسم القبرين اللذين دفن بينهما الأسدي كما ادّعى التربي.. ولربما ضاع ذلك الكرّاس الآن وضاع معه مدفن الأسدي إلى الأبد". (إلى هنا انتهى نص الأستاذ قلعجي)

واليوم:

والسؤال الآن، بعد أربعين عاماً على وفاة الأسدي، هل صحيح أن رفاته لم تزل في ممر بين قبرين بلا ضريح في مقبرة الصالحين؟

لقد كُتب على قبر أحد الجنود في معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية: "لم تنقصني الشجاعة ولكن نقصني الحظ". وهكذا كان حال الأسدي العالم الزاهد في هذه الحياة مع أهل بلده.

بعد وفاته، استيقظ المسؤولون بناء على لفتة كريمة من المرحوم الرئيس حافظ الأسد وألّف محافظ حلب الأستاذ أحمد إسماعيل بتاريخ ١٩٧٢/١/١٢ (أي بعد أسبوعين من وفاته) لجنة لدراسة الوثائق والآثار التي تركها الأسدي وتقديم الاقتراحات لإحياء ذكراه ونشر آثاره. وقرّرت اللجنة إقامة حفل لإحياء ذكراه وطبع كتاب "موسوعة حلب" وتخصيص قاعة على اسمه في كلية الآداب تعرض فيها آثاره، وإقامة ضريح له وكذلك نصب له في الحديقة العامة وتسمية شارع باسمه. ويذكر الأستاذ قلعجي في كتابه عن الأسدي المطبوع عام ١٩٨٠ أنه لم ينفّذ من هذه القرارات سوى إقامة حفل تأبين في دار الكتب الوطنية بحلب في

١٩٧٢/٤/٢٨ ولم تزل مخطوطاته عن موسوعة حلب لم تطبع ولم يزل جثمانه في ممر بين قبرين بدون ضريح[١].

رحمك الله يا أسدي، أمضيتَ عمرك تبحث في ما يُسرّ وما يُترح الناس، وأنت تجمع مواد موسوعتك العزيزة. ولم تعرف أو تجد رفيق أو رفيقة درب تواسيك وتؤنسك في خريف العمر وأسابيع حياتك الأخيرة، فكنت وحيداً في حياتك ووحيداً في مغادرة وادي الدموع هذا للقاء ربّك. لقد ذكرّتني بالسائح الهروي علي بن أبي بكر الذي كان مثواه في "المعادي" جنوب حلب، قضى وحيدا تؤنسه الطيور، وقد أحاطت بجدران ضريحه كلماته التي كان يسطّرها في كل مكان زاره ومن بينها هذه الحكمة: "يا أشعب لَمن تتعب!". والروعة في حالة الهروي قيام السلطة آنذاك ممثلة بالملك الظاهر غازي بإنشاء مدرسة باسمه كانت له فيها "استراحة المحارب" بعد طول تجوال، أعدّ فيها قبره ليضمّ رفاته بعد وفاته العام ١٢٠٧م. أمّا الأسدي، ابن حلب البار ومتيّمها ومخلّد ذكراها على مدى الأجيال، فلم يعلم أحد برحيله عن هذه الدنيا، سوى أن ذرات "تربة الصالحين" تحتضن عظامه بينما روحه تحلّق فوق أعلى مئذنة مسجد إبراهيم الأعلى من القلعة الشمّاء وتترنح سكرى بحب حلب والوفاء لها مع كل أذان.

لقد كنتُ أستمع إلى صوت الأسدي مسجّلاً لدى الدكتور إحسان شيط في عيادته، وكان الأستاذ غزال يقلّد لهجة الأسدي في طريقة حديثه عندما تأتي سيرته في إحدى الجلسات الحميمة في مكتبه للمحاماة في زقاق الصفية. ولا أنسى الجهد الكبير الذي بذلته جمعية العاديات وعضو مجلس الادارة الأستاذ القاضي المرحوم نبيه جبل للحفاظ على الموسوعة ومن ثمّ العمل على إصدارها وطبعها بعد تحقيقها في معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب، وقد شارك في التحقيق عضو الجمعية المرحوم الخالد الذكر المطران نيوفيطس إدلبي بالإضافة إلى الأستاذ محمد كمال بجهده الكبير. إن عمل الأسدي في موسوعته تعجز عن القيام به مؤسسة كاملة، وقد أعاد كتابتها، وعدد صفحاتها تسعة آلاف صفحة، بخط يده أربع مرات

---

[١] لدى الاتصال بالأستاذ عبد الفتاح قلعجي حديثاً (٢٠١١/٦/١) للاستفسار عن ضريح الأسدي أعلمني أن ابن أخت الأسدي اهتم بعمل ضريح بسيط بعد الاستعلام عن موقع دفنه والذي كان بين قبر رجل من آل الجابري وقبر زوجته اختفى القبر بالإهمال ثانية. وكان المرحوم المهندس عدنان إخلاصي قد أعدّ تصميم ضريح فخم للأسدي كي تقوم البلدية بتنفيذه لكن ذلك لم يتمّ. وهناك تمثال نصفي صغير للأسدي لعله محفوظ في معهد التراث.

دون استعمال الآلة الكاتبة أو الحاسوب الذي لم يكن معروفاً زمن الأسدي. لذلك كان فيها تكرار يَختصر، في حال حذفه، ثلث حجم الموسوعة، كما ذكر مبرمجها على الحاسوب الصديق الدكتور أحمد أديب الشعار.

وما كان يجعلني أنظر إلى الأسدي بإكبار سعيه الحثيث وراء المعرفة، ويشكل خاص اتصاله بشيخ اللغويين في اللغات الشرقية وهو العلاّمة الألماني إنّو لتمان Enno Littmann الذي رافق البعثات الأمريكية الأثرية لجامعة برينستون إلى سورية في الأعوام ١٨٩٩ و١٩٠٤ و١٩٠٩ وكانت بقيادة هوارد كروسبي بطلر، وأعدّ دراسة جميع نصوص الكتابات الشرقية المكتشفة من آرامية وسريانية وعربية وعبرية وتدمرية ونبطية وصفائية.. لقد قام الأسدي بمراسلته العام ١٩٣٨ مستفسراً حول أصول بعض الكلمات التي تهمّه معرفتها في موسوعته الغالية عن حلب.

رحمك الله يا أسدي، وكم كنت تُسعَد بسماع مَثَل لم يبلغ مسامعك من قبل كي تسجّله في موسوعتك الشعبية الرائعة. وها أنا، في ذكرى السنة الأربعين لرحيلك عن محبّيك، أهديك هذين المثلين اللذين روتهما لي الوالدة، وكانت، رحمها الله، تذكرك مع كل مثل يخطر في بالها وتذكره في موقعه من الحديث:

بوابة الياسمين والوالدة والأسدي:

من بين الأمثال التي سمعتها عن الوالدة، رحمها الله، مثلان أضعهما تحت تصرّف لجنة تسجيل التراث الثقافي اللامادي، يرتبط أحدهما بالبيئة الحلبية و"حي الجديدة" اذ كانت الوالدة من سكان حارة "المبلّط" في الجديدة، ولم يذكر في موسوعة "حلب" لخير الدين الأسدي أو في مجموعة الأمثال الشعبية لدى الأب يوسف قوشاقجي، وهو:

- **اللي بيسحب عشرة ويصرف عشرين آخرته عاطلة ببوابة الياسمين.**

(أي سيصبح شحّاذاً يستعطي من القادمين للصلاة في كنائس الصليبة في حي الجديدة والتي مدخلها من بوابة الياسمين)

ويعلمنا الرحالة بييترو دي لا فاله الذي زار "حي الجديدة" في حلب العام ١٦٢٥م وجود كنيسة للسريان منعزلة وأربع كنائس ذات مدخل واحد تجمعها باحة واحدة، كنيستان

منها للأرمن وواحدة للروم وأخرى للموارنة. وسكان الحي النصارى كانوا يأتون للصلاة يوم الأحد في هذه الكنائس عن طريق بوابة الياسمين (حيث متحف التقاليد الشعبية وسوق الصوف حاليا)، وعند البوابة كان يصطف الشحاذون للاستعطاء لذلك قيل المثل المذكور ابن البيئة والمكان، ولا زال الشارع والكنائس قائمة فيه حتى الآن.

- أما المثل الثاني فهو **"فِلِتْ مثل عُدْل الجوز"** وقصته واقعية:

قالت والدتي، رحمها الله: "إن طفلك هادىء ببكائه، بينما طفل ابن اختك عندما يبكي يفلت مثل عدل الجوز". ولما رأت الوالدة في نظراتي تساؤلاً حول معنى المثل، استرسلت تشرحه لي قائلة: " عندما يُدلق خرْج البائع الجوّال المليء بالجوز اليابس تُسمع جلبة كبيرة وعالية من ارتطام الجوزات ببعضها البعض وبالأرض ما جعل الأقدمين يشبّهون ضجيج الجوز المزعج عند انفلاته من العُدل بصراخ الطفل الذي يفلَت[1] في البكاء دفعة واحدة ودون توقّف، فيقولون: " فِلِتْ مثل عدل الجوز".

وأضافت الوالدة، رحمها الله، أنظر في كتاب صاحبك الأسدي، وتقصد موسوعة حلب المقارنة، كعادتك مع كل مثل يمرّ بنا، لترى ماذا كتب عن هذا المثل.

ولجأتُ إلى حرف العين وكلمة "عدل" فرأيت التالي: العدل: نصف الحِمل يكون على جنب البعير. وفي المنجد، العِدْل: الفرارة أي الجوالق. وهم جمعوه على العدول والعدولة. يقولون: إن كنت أنت العُدل أنا رباطو. من كناياتهم: استعنتُ عليك باللي نقبوا العدل(أي الفأر). من أمثالهم: لا تقول سُمسم حتى يصير بالعدل، الرمح ما بيتخبّا بعدل. (انتهى كلام الأسدي رحمه الله).

فقالت الوالدة بسرور: أرأيت، إنه لم يذكر المثل: فلِتْ مثل عدْل الجوز. فقلت للوالدة: انتظري حتى أرى كلمة "الجوز" في حرف الجيم. وقرأت ما كتبه الأسدي عن الجوز، فكان من بين ما كتب: (من استعاراتهم): فلان جوزته زغيرة أي عقله صغير. وجوزتين في الخرج بقرقعوا.

---

[1] فَلَتَ: كلمة عربية فصحى تعني أطلق

فقلتُ لوالدتي: أرأيتِ كم اقترب الأسدي من المثل الذي ذكرته، فقالت: أجل، لكنه لم يذكره بالذات: "فِلِت مثل عدل الجوز".

رحمك الله يا أسدي! كم كان سرورك عظيماً باستماعك إلى مَثَل جديد تضيفه إلى موسوعتك.

أجل رحلتَ عنا قبل أربعين عاماً ولكنك باقٍ في ذاكرة حلب متجذّرًا بأصولها مثل قلعتها الشماء.

ندوة التراث اللامادي في الأدب الشعبي والأسدي:

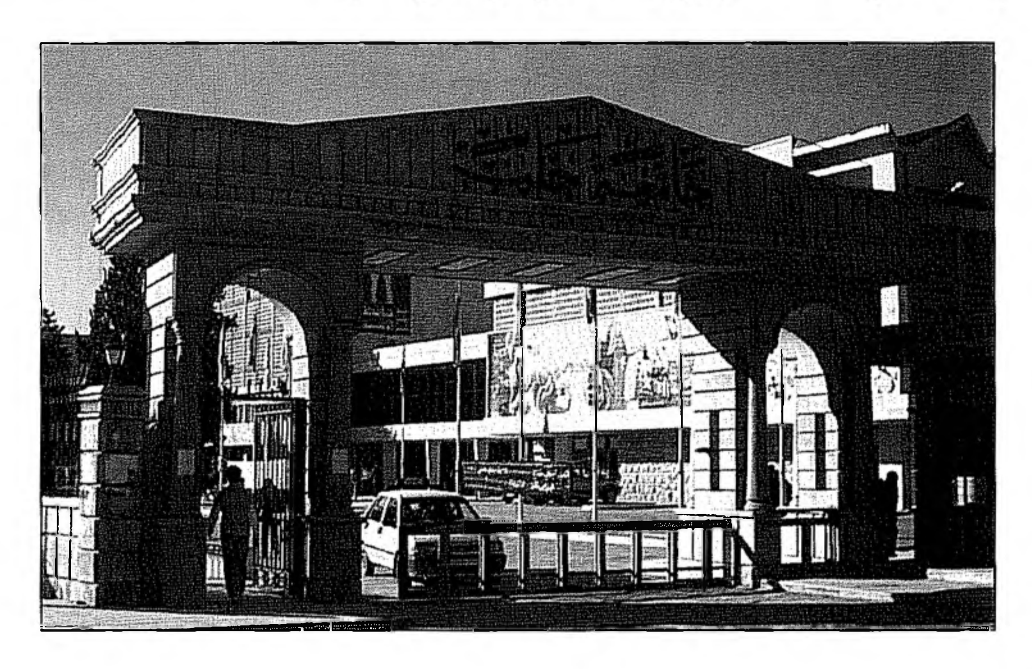
بعد أربعين عاماً على رحيل الأسدي دعت جمعية العاديات ومديرية الثقافة إلى ندوة التراث اللامادي في الأدب الشعبي التي عقدت يومي ٢٤ و٢٥ أيار ٢٠١١ حيث تكلم الأساتذة المتحدّثون عن أثر الأسدي العظيم في التراث اللامادي من خلال موسوعته عن حلب والمناحي المتعددة التي عالجتها من حكم وأمثال وهنهونات وألفاظ...وطُلب في الختام من المنتدين والحضور ذكر مقترحاتهم. وها إني **أقترح بدوري إنجاز ما لم ينجز من توصيات اللجنة التي تشكلت بعد وفاة الأسدي في ١٢ /١٩٧٢/٢** ؛ لقد تمّ إنجاز طبع موسوعة حلب ووضعت في قرص مدمج، وسمّي شارع وقاعة باسمه فهل تقوم جمعية العاديات بتقصي موضوع الضريح وإقامة حجر من المرمر يكتب عليه فقط اسم "**خير الدين الأسدي**" تنفيذاً لوصيته، مع إقامة نصب له في الحديقة العامة؟. وحبّذا لو يقام في بيت الأسدي متحف صغير يضم بعض آثاره وحوائجه وما كان يستعمله يومياً من أدوات.. كي يصبح مزاراً لقاصدي حلب والمهتمين بتراثها المادي واللامادي.

أجل! أربعون عاماً مضت على رحيلك عنّا، لكن روحك الصوفية الطيبة والحلوة والساخرة لا زالت ترفرف وتسكن بيننا، نحن الذين بعجنا "على حد تعبيرك" سقف القرن العشرين وتخطّينا العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، نذكرك مع كل نهفة وهنهونة ومثل وحكمة وكلمة معروفة أو محروفة.. وذكر الطيّبين يدوم ويدوم.

حلب ٢٠١١/٦/١   المهندس عبد الله حجار

٢٤) ذكريات جامعية[١]

تحتفل جامعة حلب هذا العام ٢٠٠٨ بمرور ٥٠ عاماً على تأسيسها عام ١٩٥٨ ، وكانت نواتها كلية الهندسة المدنية التي سبق أن تأسست بحلب، عام ١٩٤٦ وكانت تابعة إلى جامعة دمشق ، وكان أول رئيس لجامعة حلب هو الدكتور توفيق المنجد.



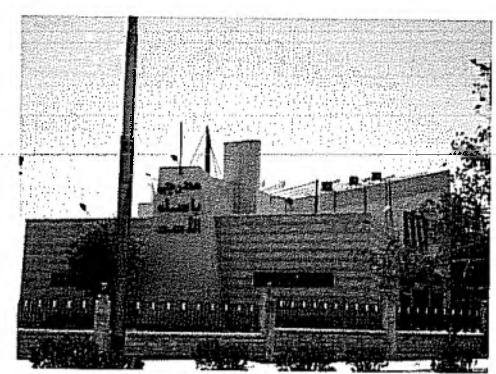
كان لي شرف الانتساب إلى كلية الهندسة المدنية عام ١٩٥٨ ، وتخرجت عام ١٩٦٣ لأعمل في مجال الطرق والمواصلات حوالي ٣٠ عاماً بدءاً من وزارة المواصلات بين مديريتي حلب والرقة فالشركة العامة للطرق ثم الشركة العامة للدراسات والاستشارات الهندسية، ثم تابعت بدءاً من عام ١٩٩٣ العمل مهندس رأي في مكتبي الخاص ولا أزال حتى تاريخه.

تراكمت ذكريات مسيرة الحياة مهنياً وثقافياً واجتماعياً مع مرور السنين والأيام ، إلاّ ان ذكريات أيام الدراسة في الجامعة مع الزملاء والزميلات ولفيف الأساتذة تظلّ أحلى الذكريات

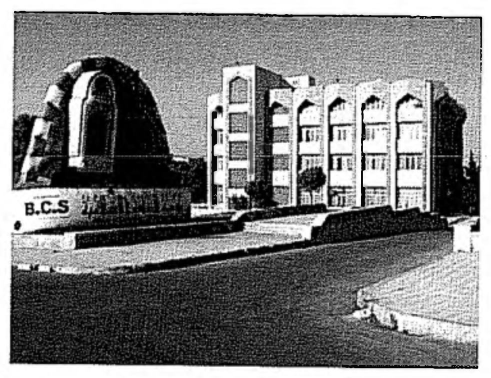
---

[١] نُشرت في مجلة "المهندس العربي" العدد ١٥٦ سنة ٢٠٠٨ بمناسبة العيد الذهبي لتأسيس جامعة حلب. (١٩٥٨-٢٠٠٨)

وأجملها، بما فيها من معاناة وصعوبات وخبرة حياة تكوّن شخصية المرء وتجعله إنساناً يتحمّل بوعي وجَلَد مسؤوليات المستقبل.



مدرج باسل الأسد




معهد التراث العلمي

أذكر أنّ عددنا في الصف الإعدادي كان ١٦٠ طالباً (بين مدني وعمارة) داومنا في مدرسة اللاييك سابقاً، حيث لم تكن كلية الهندسة آنئذ معدّة ومؤهلة لاستقبالنا. ولا أنسى شقاوة الطلاب بحمل سيارة الفولكسفاكن الصغيرة الخاصة بالدكتور محمود رستم مدرّس مادة الجيولوجيا والكيمياء ووضعها بين أربعة أعمدة بحيث لا يمكن إخراجها. كما أذكر رمي الأساتذة بكرات الثلج الذي تراكم في تلك السنة. وما لبثنا أن انتقلنا إلى مباني كلية الهندسة، وكانت دروس ورشات العملي تتم بقاعات الثكنة العسكرية القديمة. ولا زلت أذكر مجيء العميد روبير الياس في نهاية السنة الأولى كي يقنعنا بدراسة هندسة العمارة، وقد اختار معظم الطلاب القسم المدني، واختارت قلة من الطلاب لا تتجاوز ١٠٪ دراسة الهندسة المعمارية. وأذكر أن عدد الذين تخرجوا عام ١٩٦٣ من أصل ١٦٠ طالباً كان ٤٦ مهندساً مدنياً و١٦ مهندساً معمارياً.

لقد وُفّق طلاّب فرع العمارة، بالإضافة إلى عددهم القليل، بأستاذ رائع هو الدكتور زاريه كبلان خريج مدرسة الفنون الجميلة في باريس وقد درّس طلابه برنامج كلية الفنون الجميلة بالكامل. وأذكر أنه قدّم عام ١٩٥٨ محاضرة في أحد الأندية الثقافية بحلب مرفقة بالشرائح المصورة عن آثار مدينة الرصافة. وكان ذلك بالنسبة لي أول لقاء شغف مع الآثار

شحنه في ما بعد لقائي البروفسور أندره فينه عالم الآثار وأستاذ اللغات الأكادية في الرقة عام ١٩٦٤. ومن الأساتذة الآخرين الذين درّسوا قسم العمارة الجديد كان الدكتور عبد المنعم حربلي والأستاذ عدنان إخلاصي والدكتور جورج داغر والأستاذ توفيق كوزم.

ومن الأساتذة الذين تركوا بصمتهم على الجامعة كان الأستاذ نشأة شحادة الذي قام بتصميم ماكيت الجامعة المعروف حالياً بهذا الاتساع الكبير بالمساحة، وكان يدرّس قسم العمارة ويرافقنا مع زوجته الدنمركية في الرحلات الأثرية والعلمية ويسبغ على الرحلة من روحه المرحة الشيء الكثير. ولا زلت أذكر تلك الرحلة التي قام بها طلاب السنتين الثانية والرابعة معاً إلى لبنان الشقيق، بإدارته كمسؤول عن طلاب السنة الرابعة والأستاذ فارس عيسى عن طلاّب السنة الثانية وأنا منهم. وبعدما شرح لنا الأستاذ فارس برنامج الزيارات للمنشآت التي هي قيد التنفيذ وكان من بينها كازينو المعاملتين في جونية، قال الأستاذ شحادة: "أما برنامجنا، يا طلاب السنة الرابعة، فهو سهر في الليل ونوم في النهار". لقد كان الأستاذ نشأة من كبار المعماريين ومخططي المدن، وقد فكّر منذ البداية بمخطط لجامعة حلب يستوعب آفاق التوسع المرتقب، عرفنا أبعاده وأهميته الآن.

أجل انها ذكريات ممتعة تمرّ بالخاطر. وهل يمكن أن ننسى الأستاذ صالح بساطة مدرّس الهندسة الوصفية الذي كان يرسم بيده اليمنى الدائرة بدقة تجعلك تعتقد أنها رُسمت بالفرجار لو لم ترها تُرسم أمامك بالطبشورة. وكان في أول ساعتين من دروس المادة يغرق اللوح بطوله وعرضه بملخص كتاب "الهندسة الترسيمية" (الوصفية) الذي أعطي في دراسة الشهادة الثانوية. لم تكن الكتب متوفرة دائماً كما هي الآن، فكان عند إعطائه الدرس يتعاون كل طالبين معاً لتدوين ما يقول بسرعة، يكتب أحدهما ما يقوله ويرسم الآخر الرسوم المرافقة، ثم يجمع الاثنان لاحقاً ما كتباه للحصول على النوطة الكاملة. كان عبقرياً بامتياز ومدقق حسابات البيتون للعديد من المشاريع، وكان يمتاز بشخصية فذّة ذات مبادئ وأخلاق عالية. وقد رافقتُه أكثر من مرّة فيما بعد مع زوجته الفاضلة أم حسّان في رحلات نقابة المهندسين وجمعية العاديات إلى الأردن وتركيا وداخل القطر.

وهل يمكن أن ننسى الأستاذ خير الدين حقي عميد الكلية المدنية سنوات عديدة ومدرّس مادة الآلات المائية للسنة الرابعة مدني! كان الرجل ذا القبضة الفولاذية وكان

عقلانياً. أذكر أنه في السنة الرابعة قام بتحميل (ترسيب) مادة الآلات المائية إلى ٤٠ طالباً من أصل ٤٦ طالباً، ونجح ٦ طلاب فقط من الدورة الأولى، بحجة ان المادة لم يدرسها الطلاب بشكل كافٍ حسب رأيه، وكان يُرى غالباً في حرم الكلية مع عائلته وطفلتيه التوأم.

كما لا ننسى الأستاذ ألكسي أسود، وكان أصغر شاب تخرج من الكلية عام ١٩٥٦ وعمره عشرون عاماً، الذي درّسنا مادة البيتون المسلّح أثناء تأديته خدمة العلم، ودرّبنا على حسابات المشاريع على اختلاف أنواعها، وكان يرحّب بجميع أسئلتنا ومراجعاتنا حول المشاريع المدروسة. كما أذكر أستاذ مادة الري الدكتور نور الدين الرفاعي والذي كان مدرّب طلاب السنة الأولى في فريق كرة القدم في الوقت نفسه، وقد تركت الفريق كي لا يعيقني التدريب عن الاهتمام بالدروس.

ولن أنسى الأستاذ سامح جزماتي، ولم يكن قد أصبح دكتوراً بعد، وهو يدرّسنا مادة المساحة نظرياً وعملياً، وكيف كان يؤكد باستمرار في أعمال المساحة على ناحيتي: "الدقّة والأمانة". وكذلك أذكر أستاذ مادة المقاومة الإيطالي كورادينو كورّاو الذي تابع الاستاذ سمير جبارة إعطاءنا مادته بعد رحيله، كما أذكر الدكتور عبد الكريم الحلبي ومادة الطرق والأساتذة عبد الكريم الشامي وغالب الصباغ وفهمي كرزون والدكاترة مرسيل داغر وتاج الدين ضيا وبشير مكّي وبدر الدين قوجة، كما أذكر الأستاذ طه بالي الذي درّسنا مادة الاقتصاد بدل المادة التي تتعلّق بالأمور العقارية والتي كان يعطيها الأستاذ المحامي محمد كامل عويدان إلى طلاب كلية العمارة. كما أذكر مراقبي الدوام الشاب منهما إحسان أفندي ذا الوجه الضاحك وشعبان أفندي ذا الوجه العابس غالباً.

كان الزملاء والزميلات الطلاب قادمين من مدن شتى من أنحاء القطر من اللاذقية وطرطوس وصافيتا وحمص وحماة ودير الزور وحتى من دمشق، بالإضافة إلى أبناء حلب حيث لم يكن هناك سوى جامعة دمشق. وتميّزت دفعة خريجي عام ١٩٦٣ بالتفوّق سواء أكانوا معماريين، من أمثال مروان قطان خياطة ومروان حداد وعلاء الدين لولح وأنطوان حموي وميسون مسلاتي ومحي الدين سلقيني وأنطوان حايك وجورج عطية ورضوان لاذقاني وفيصل داخل وبطل النوطة علي عمران وغازي حنا وخالد طرابيشي وعادل صقال ...أم مدنيين من أمثال أحمد فيصل أصفري ومحمود فيصل رفاعي وغياث

صائم الدهر ومحمد نبيل سالم ونادر نبيل أنيس وسليمان تادفي وخيري زيتوني وعدنان دبا وعبد الرحمن سكر وعمر زبدية وناجي قشقش ومجاهد بصمجي وبولس جنبرت ووجدي بشور وعودة مقدسي ومنح بيطار وفاروق داية وظافر كرامة وفؤاد زيادة وجورج مهنا وأحمد اسرب ومحمد خليل فوزي ورفيق شيبوب وهاني عرنوق وأنطوان كرم وزهير كرزون وإيليا أنتيبا والياس معماري وثاقب ممو حسن ومحمد الصغير وعبد المسيح حليسو...ولا أنسى الزميلات وئام سلطان ونجاح أبودان وفدوى عرب وهيام حجار وعفاف شرقية وزميلتي الحارة تيريز شوا وأميرة كبّة..

قائمة طويلة من الزملاء كان لهم بصمة سواء من خلال التدريس في الجامعة أو في بناء سد الفرات والمشاريع الكبرى وإدارات الدولة أو في المكاتب الخاصة أو في التفوّق في المجال الهندسي والمهني في الخارج.

كنا طلاباً نعمل فريق عمل واحداً ؛ بعضنا يعدّ ويصلح نوطة اللغة الإنكليزية للأستاذ إسماعيل الشاهد ، وبعضنا يهتم بالنوطات الهندسية الأخرى التي لا كتب لها. ولا زلتُ أذكر عندما كان الأستاذ سعيد قباقبجي مدرّس مادة المقاومة والإنشاءات المعدنية يتأخر في المجيء لإعطاء محاضرته ، وكانت تُعطى بعد الظهر ، لانشغاله بمتابعة تنفيذ أعمال مباني الكلية والجامعة ، كنت أتسلّل لإحضاره من مكتبه ، وكان الزملاء يتضايقون مفضّلين أن أتركه ناسياً الدرس للهرب إلى منازلهم.

كانت الإلفة تجمع بين قلوب الطلاب ، وكان بينهم الموهوبون في مجال الشعر والموسيقى والتمثيل ، وكانوا يأخذون مجدهم وأبعادهم يوم الحفل السنوي الذي يعتلي فيه الطلاب المسرح وينتقدون الإدارة والأساتذة والسلبيات. ولا زلت في كل مرّة أستمع فيها إلى أغنية وديع الصافي "كل نزلة وإلّا طلعة" أو أغنية صباح" عالعصفورية" أترنم ببعض كلمات المونولوجات التي دبّجها الزملاء آنئذ. وأذكر منها :

- "بساطة" شايف لحالو مدري شو جاي عبالو

قام يغنّي موّالو سقّط لو ميّة وسبعة (هاهاها كل نزلة وإلا طلعة)

- شوفو "كوزم" وسط الصف والشعب من حوله ملتف

ما ناقص غير ناي ودف حتى يخلعلو خلعة (هاها..)

وكذلك أذكر لازمة أغنية صباح: عالعصفورية وصّلني بإيدو عميد الكليّة يا بيّي

ثم يُبدأ بوصف كل أستاذ وما يميّزه بالدرس، ما هو سلبي أم إيجابي مما لم أعد أذكر.

أما الطلاب الذين سبقونا في دخول الكلية فراحوا في معارضة لمعلقة عمرو بن كلثوم يشتكون للعميد أحد أساتذتهم الذي وضع لهم في مادته صفراً لسوء سلوكهم، وعن تساهل الأساتذة مع الزميلات:

أيا روبير نخبـــرك اليقينـــا عن الأصفار تسعاً ثابتينـــا

هنيئاً لك يا فتاة بيوم فحصٍ وإن لم تدرسي درساً متينا

إن رمتِ النجـاح فأنتِ أولى وإن لم تدرسي تنجحـينـا

ولا ننسى الزميل المخضرم بشير مهندس الذي بدأ الدراسة منذ سنوات قبلنا في مدرسة الفنون الجميلة في باريس وأنهاها في كلية العمارة بحلب، والذي كان له حضوره المرح والمميّز على المسرح. وهل ننسى الزميلات صونا نصري وتيريز شوا وأميرة كبة وسواهن وتمايلهن في اللباس الأندلسي الجميل في رقصة السماح تؤدّى مع فصل اسقِ العطاش في حفل الكلية السنوي، ولعب دقّ "طاولة الزهر" مع الزميلتين ميسون و حنيفة، وهل ننسى العودة أحياناً بعد منتصف الليالي من قاعات الرسم حيث كنا نمضي الساعات لإنجاز مشاريع التخرج مع جلب طعام الغداء أو العشاء أحياناً إلى المرسم.

كان عدد طلاب الصفوف الأربعة لكلية الهندسة عام ١٩٥٧ لا يزيد كثيراً على المئة طالب. وبقيام الوحدة المباركة قُبل ١٦٠ طالباً وأصبحت الدراسة خمس سنوات. ثم أضيفت كلية الزراعة والميكانيك الكهرباء وكلية الحقوق والكليات الأخرى لتصبح جامعة حلب عالماً بحد ذاته تجاوز اليوم عدد طلابها وأساتذتها وإدارييها ٧٥٠٠٠ نسمة.

كان عدد الطلاب قليلاً، وفي العطلة الصيفية من كل عام كان التدريب العملي في إدارات الدولة متوفراً، تعلّمنا خلاله ونحن طلاب تنظيم دفاتر التقابل للأعمال المنفّذة وإدارة

الورشة واستلام مختلف المواد المقدّمة من إحضارات وحديد البيتون المسلّح والقالب الخشبي من أجل السلامة العامة أثناء التنفيذ.. وكان يُدفع لنا أجر مراقب فني في البلدية والأشغال العامة والمواصلات وسواها. وعند التخرّج والتعيين في إحدى الإدارات لم نكن نحسّ بغربة وبخاصة إذا كان التعيين في الإدارة التي تدربنا فيها وأصبحنا على معرفة وتواصل مع مهندسيها وإدارييها.

أجل، خمسون عاماً مضت مع كل ما فيها من ذكريات. لكن عشرها الأول على مقاعد الدراسة يبقى الأحلى وذا النكهة المميّزة. تبع ذلك ذكريات العمل في المجال الوظيفي طوال ثلاثين عاماً بين الرقة وحلب، تخلّلتها إيفادات إلى فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية أمّنت قاعدة طرقية جيّدة وتمكّناً من اللغات الأجنبية، وتمرّست خلالها بتغذية هوايتي وشغفي للآثار ونيل دبلومها عام ١٩٨٨ من معهد التراث لتاريخ العلوم في الجامعة نفسها، هذا الصرح العظيم الذي كان وراء تأسيسه الدكتور أحمد يوسف الحسن. وكنت بصدد التسجيل من أجل الماجستير ثم الدكتوراه، عندما أنعم الله علينا بولدنا بعد ١٠ سنوات انتظار، فرضختُ لنصيحة زوجتي وتوقفت عن متابعة الدراسة. لكنني تابعت اهتمامي بالآثار وتعميق معرفتي بها بالاتصال بالبعثات الأثرية المنقبة في تلال حوض الفرات قبل إنشاء السد العظيم وعن طريق جمعية العاديات التي انتسبتُ اليها عام ١٩٧٠ وأصبحت مستشار الفترات الكلاسيكية منذ عام ١٩٧٧. وقد كرّمني مجلس مدينة حلب بمنحي جائزة الباسل للابداع الفكري عام ٢٠٠١.

لقد بقيت على صلة وثيقة مع جامعة حلب وشؤون العلاقات الخارجية فيها، حيث كنت ولا أزال أكلّف أحياناً بمرافقة الوفود الأجنبية وحلقات الدراسة الصيفية (من جامعات أمريكية أو فرنسية أو ألمانية) للقيام بزيارة معالم مدينة حلب والآثار في ضواحيها وأحياناً حتى الرصافة وقلعة الحصن وتدمر لبيان مساهمة بلادنا في مسيرة الحضارة الانسانية.

شريط ذكريات طويل فيه الكثير من عذوبة الذكرى تستعرض فيه المخيّلة الأساتذة والزملاء والرفاق. كم منهم غادر هذه الحياة الفانية وكم منهم لا زال على قيد الحياة. لقد أصبح عدد الأحياء الذين نعرفهم أقل من أولئك الذين فقدناهم وبخاصة بين أساتذتنا.

أطيب التحيّة للأساتذة والزميلات والزملاء الأحياء حيثما كانوا في أقطار المعمورة، والرحمة من الباري تعالى لمن سبقونا إلى دار البقاء، وهنيئا وألف مبروك لجامعتنا الحبيبة وهي بحق منارة حلب، رئاسة وأساتذة وطلاباً وإداريين، بعيدها الخمسين وهي تقدّم للوطن الحبيب أبناء مسلّحين بالمعرفة والطموح، يسعون لتقدم هذا الوطن وازدهاره في مرحلة يلعب فيها الزمن دوراً حاسماً في تسارعه. وتتابع الحياة مع الأمل والحب والسلام مسيرتها.

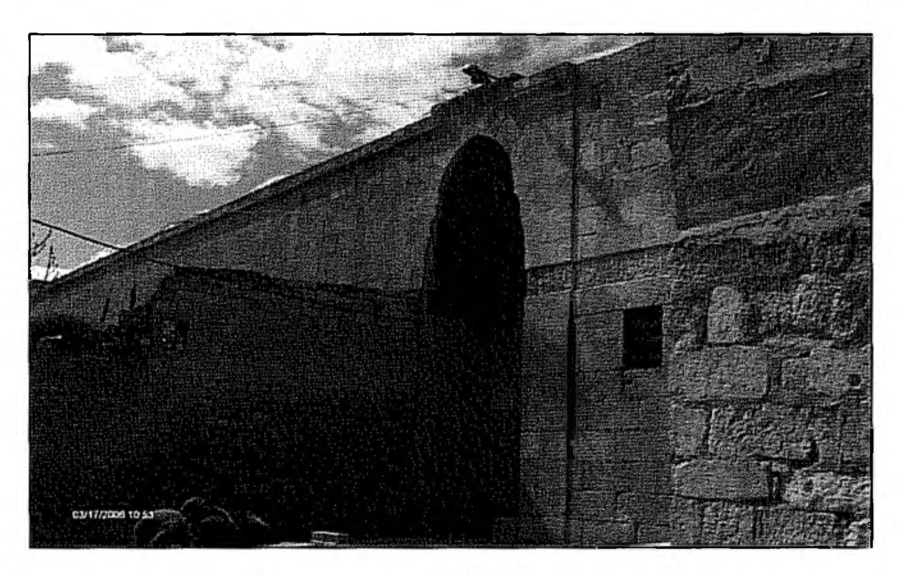
الأحد ٢٠٠٨/١/٢٠

تنويه: أرجو المعذرة إذا سهت الذاكرة عن ذكر بعض الأسماء من الأساتذة والزميلات والزملاء، فالعمر له حق كما يقول الحلبيون.

٢٥) خاتمة ونداء

إحياء باب أنطاكية ومسجد الشعيبية ومدرسة وجامع الفردوس:

بعد هذا الشريط المنوّع لتراث وتاريخ ومباني ومعالم حلب التاريخية والذكريات خلال الثلاثين سنة الماضية في مواكبة تطور مدينتنا التي نحب، أسمح لنفسي أن أذكر أنني كنت عضواً في مجلس المدينة خلال دورتين متتاليتين بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٥ ورئيساً للجنة الثقافة والسياحة والآثار فيه. ودّعتُ زملائي في نهاية الدورة الثانية العام ١٩٩٥، وأوصيتهم بمتابعة موضوعين فقط من المواضيع العديدة التي تحتاجها مدينتنا الحبيبة وهما: إزالة الغرف الطفيلية عن الجدار الشرقي لجامع الفردوس لتظهر الكتابة الرائعة أعلى وإلى جانبي المدخل الأيوبي الجميل بمقرنصاته، تلك المدرسة التي بنتها الملكة ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي، والتي يعتبر محرابها ثاني أجمل محراب إسلامي بعد محراب قرطبة. وتنظيم شبه حديقة حول المبنى ككل. وكذلك إزالة الشوائب وإبراز باب أنطاكية الذي دخل منه العرب المسلمون مدينة حلب سلماً عام ١٧ هـ/٦٣٦ م مع إظهار وترميم مسجد الشعيبية (التروس) خلفه، وهو أول مسجد إسلامي بني في حلب.



متى تزال الغرف الطفيلية عن جدران مدرسة الفردوس؟

بعد أن أنجز ترميم جامع بني أميّة الكبير (جامع زكريا) بحلته الرائعة ومئذنته الباسقة وهي تسبح الخالق، أرجو أن تتمكن اللجنة التنفيذية للاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ وخلال فترة قصيرة من القيام بإبراز وإظهار مباني الفردوس والشعيبة وباب أنطاكية، فتتألّق حلب وتباهي بوجهها الصبوح أمام زوارها من عرب وسيّاح أجانب.

مع أطيب تحيات عبد الله حجار



زخرفة من الغرفة الحلبية في برلين (بيت وكيل ١٦٠١ م)



التعريف بالمؤلف فيما يختص بحماية حلب القديمة

المهندس عبد الله حجار:

- مهندس مدني، تخرج من جامعة حلب عام ١٩٦٣ وعمل ٣٠ عاماً في مجال الطرق والجسور أوفد خلالها في منح دراسية اطلاعية إلى كل من فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.
- دبلوم آثار من معهد التراث في جامعة حلب عام ١٩٨٨.
- عضو في جمعية العاديات منذ عام ١٩٧٠ ومستشارها الفني للآثار الكلاسيكية منذ ١٩٧٧ وطالما قاد جولات الجمعية في زياراتها أحياء حلب القديمة ومبانيها التاريخية، بالإضافة إلى جولات الجمعية بين جميع المعالم الأثرية في القطر.
- عضو ممثل جمعية العاديات في لجنة حماية حلب القديمة منذ تأسيسها عام ١٩٧٨ ورئيس اللجنة الفنية المنبثقة عنها بين عامي ١٩٧٨ - ١٩٩٢.
- انتخب عضواً في مجلس مدينة حلب لدورتي (١٩٨٨ - ١٩٩١) و (١٩٩٢ - ١٩٩٥) وكان رئيساً للجنة الثقافة والسياحة والآثار فيه. كما عمل في موضوع تحديد المباني ذات الواجهات المتميزة في محلتي العزيزية والجميلية.
- ترجم تقريري خبراء اليونسكو عام ١٩٧٩ و١٩٨٠ الخاصين بحماية النسيج العمراني لحلب القديمة ومشروع باب الفرج.
- ساهم بدور فاعل من قبل نقابة المهندسين في الندوة الدولية لحماية حلب القديمة التي عقدت في أيلول ١٩٨٣ وكان من توصياتها إلغاء شوارع الاختراق وتعديل مشروع باب الفرج وإنشاء مكتب المدينة القديمة. كما كان من الذين عملوا لتسجيل حلب القديمة ضمن قائمة التراث العالمي World Heritage List من قبل اليونسكو والذي تم بنهاية عام ١٩٨٦.
- عرّف بكتاب "حلب" التوثيقي من تأليف الباحثين هاينس غاوبه وأوجين فيرت إلى قرّاء العربية (والذي قام بترجمته عن الألمانية مشكوراً الدكتور المهندس المعمار صخر علبي).

- أوفد مع اللجنة الفنية لحماية حلب القديمة ورئيس فرع نقابة المهندسين بحلب ورئيس مجلس المدينة عام ١٩٩٢ إلى ألمانيا مدة عشرة أيام للاطلاع على أعمال الإحياء والترميم التي تقوم بها وكالة التعاون التقني GTZ لصالح الحكومة الألمانية وإمكانية تطبيق أعمالها وأبحاثها لدينا. وبذلك بدأ مشروع الارتقاء بمدينة حلب القديمة عام ١٩٩٣ والذي بدأت تظهر نتائج أعماله بوضوح، من حيث التخطيط والتوثيق والتنفيذ وتكوين الخبرات المحلية حسب الخطط المبرمجة والتمويل المتوفر.

- ترجم "التقرير الاجتماعي" الهام الذي أعدته وكالة GTZ والذي تم بموجبه اختيار مشروع باب قنسرين كمشروع رائد pilot project للأعمال الواجب تنفيذها في مختلف أحياء المدينة القديمة للنهوض بها بناءً وبشراً. كما حضر وشارك في أكثر من ورشة عمل نفّذها مشروع الإحياء لأخذ آراء مختلف الجهات المشاركة في التوجّه إلى الأهداف المنشودة بشكل صحيح.

- شارك عام ١٩٩٤ في الندوة الدولية "حلب وطريق الحرير" التي عقدت بحلب وحضرها الباحث المرحوم ميخائيلماينكه، الذي ساهم بإرسال الفنيين لإعادة ترميم الجدران الخشبية المؤرخة من عام ١٨٠٠ لقاعة الاستقبال في دار آل إبراهيم باشا "قطار آغاسي" (مقر مشروع الإحياء والمدينة القديمة، مدرسة سيف الدولة سابقاً).

- كتب بحثاً تاريخياً عن مدرسة الشيباني حيث تأسست أول ثانوية بحلب عام ١٨٥٩ من قبل الآباء الفرنسيسيين دعيت "معهد الأرض المقدسة" College de Terre Sainte، وعن إمكانية استثماره كمنارة ثقافية ومركز توثيق وبحث في تاريخ حلب القديمة وتراثها. وقد بدأ بالفعل استثمار بعض أجنحته بعد ترميمها كمعرض دائم لمشروع إحياء حلب القديمة. وقد ضم المعرض نموذجاً (ماكيت) رائعاً لمدينة حلب ضمن الأسوار سبق أن عرض في معرض أقيم لمدينتي دمشق وحلب في مدينة أولدنبرغ في ألمانيا عام ٢٠٠٢ صدر عنه كتالوج ضخم كتب فيه مقالاً عن "كنيسة السريان الكاثوليك" في الجديدة.

- كتب العديد من المقالات والأبحاث المتعلقة في مجملها بتاريخ حلب ومعالمها: مدارسها وجوامعها وكنائسها وحاراتها وأسواقها وخاناتها وسكانها وقناصلها وأهميتها التجارية... ويدعو باستمرار إلى رعايتها وحمايتها. كما هو حريص على الاهتمام بالقرى الأثرية

الرائعة في الريف وضرورة تسجيلها ضمن التراث العالمي وحمايتها والارتقاء بها وترميمها وتحويلها إلى "محميات أثرية بيئية" وإعدادها للسياحة الثقافية والدينية لما تحويه من كنوز فريدة من نوعها في العالم.

- عضو في لجنة الإعلام والنشر ولجنة التراث في فرع نقابة المهندسين في حلب.
- له الكتب التالية :
  - معالم حلب الأثرية، طبعة ثالثة عام ٢٠١٠ وقد ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية.
  - كنيسة القديس سمعان العمودي وآثار جبلي سمعان وحلقة، طبعة ثانية عام ٢٠٠٩ وقد ترجم للإنكليزية والألمانية والفرنسية.
  - آثار مدينة قوروش والاحتفال بمرور ١٧٠٠ على استشهاد القديسين قزما ودميان (٣٠٥- ٢٠٠٥). حلب ٢٠٠٦.
  - إضاءات حلبية : تاريخ ومعالم وتراث (الطبعة الأولى/ ٢٠٠٧)
  - أرمينيا جذوري (ترجمة عن الفرنسية) ٢٠٠٨.
- منح عام ٢٠٠١ جائزة الباسل للإبداع الفكري التي يقدمها مجلس مدينة حلب.
- عبد الله حجار من مواليد حيّ "الجديدة" زقاق المبلط، وحالياً من سكان جبل النهر- العزيزية.
- **عنوانه :** العزيزية- شارع جبرائيل دلال رقم ١٣/٩٩

حلب / الجمهورية العربية السورية

هاتف : ٢١١٨٣٧٨ – ٢١ – ٩٦٣ +

هاتف محمول : ٠٩٣٣٤٤٩٦٦١

Email: abhadjar@scs-net.org

المحتويات



إضاءات حلبية

تاريخ ومعالم وتراث

مجموعة مقالات عن مدينة حلب: تاريخ ومعالم وتراث وشخصيات. بعضها جديد و بعضها نشر في مجلات أثرية وهندسية لم تكن في متناول القارئ الحلبي والعربي. تتضمّن تاريخ حلب مسهباً وتتحدّث عن مناطق من المدينة القديمة داخل الأسوار (خانات ومدرسة الشيباني) وخارجها (زقاق الأربعين ووثيقة الدلاّل ودار باسيل ودار غزالة ومنشية العزيزية ودير مار ماروتا). وفيها وصف لأحدث التنقيبات الأثرية في قلعة حلب حيث وجد معبد إله الطقس مع وصف المباني العثمانية حول القلعة. مع الحديث عن الأدب الشعبي والمعلم نعوم البخاش نموذجاً وعن الشاعر جبرائيل دلال باكورة شهداء الفكر والحرّية وعن خير الدين الأسدي وموسوعته "حلب" في ذكرى مرور أربعين عاماً على وفاته. بالإضافة إلى التطرّق إلى تنظيم وحماية حلب القديمة بدءاً من أول مخطط تنظيمي (يونغ 1899) مروراً بالندوة الدولية عام 1983 وصولاً إلى مشروع الارتقاء بالمدينة القديمة عام 1993، بالتعاون مع وكالة التعاون التقني الألمانية GTZ والبنك الكويتي للإعمار والتنمية. والذي وضع عمليات الإحياء في الطريق الصحيحة. وبيان بعض نشاطات رافقت الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية العام 1427هـ/2006م. وقد أغنيت مواضيع الكتاب بالعديد من المخططات والخرائط والصور التوضيحية.

70045 312

9 789933 131999

شعاع

RAY PUBLISHING & SCIENCES

http://www.raypub.com